الأوفى المختار في

تاريخ بني الأنصار

مع تأصيل وتمهيد في كتابة التاريخ والأنساب

تأليف

د. عبد الله بن محمد بن مهدي الأنصاري

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الكتاب والسنة للنشر الدولي

تعتز بخدمة الكتاب والسنة

ح دار الكتاب والسنة، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الأنصاري، عبدالله بن محمد المهدي

الأفى المختار في تاريخ بني إنفا الأنصار./ عبدالله بن محمد المهدي الأنصاري.- الرياض، ١٤٣١هـ

٤٤٨ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٣ - ٤٢٦٢ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- القبائل العربية - السعودية   ٢- بنو إنفا الأنصار - تاريخ   أ- العنوان

ديوي ٩٢٩,٢   ١٤٣١/٩٣٠

رقم الإيداع: ١٤٣١/٩٣٠

ردمك: ٣ - ٤٢٦٢ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى ١٤٣١هـ

1ST EDITION 2010

كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلِي   وَمَا صَحَّتْ بِهِ الآثَارُ دِيْنِي

فدَعْ مَا صَدَّ عن هذي وَخُذْهَا   تَكُنْ مِنهَا عَلَى عَيْنِ اليَقِينِ

دار الكتاب والسنة للنشر والدولي

DAR AL-KITAB WA AL-SUNNA

INTERNATIONAL PUBLISHING HOUSE

G.P.O. Box: 1452 Lahore: 54000 Tel.: +923335666966 Pakistan

P.O. Box No. 330110 Riyadh: 11373 Kingdom of Saudi Arabia

Tel. +966555281537 - +966561111277 Fax: +96614357322

www.darkitab.com E-mail: info@darkitab.com – sales@darkitab.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر

دار الكتاب والسنة للنشر الدولي

للتحقيق والتأليف والترجمة والنشر والطباعة

تعتز بخدمة الكتاب والسنة

لصاحبها أرشد بيك مغل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

الحمد لله وصلى الله وسلم على نبينا محمد رسولِ الله وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فإن تراثنا الإسلامي مليء بالكنوز الثمينة، والآثار النبيلة، ولن تزال أقلام الكتاب تُثري المكتبة الإسلامية بنفائس من تلك الكنوز، وتخرج لنا خبايا من تلك الآثار، مستمدة مادتها من معين الكتاب والسنة، ناهلة من أقوال علماء هذه الأمة المباركة، وآداب هذا الدين القيم، آخذة من كل جانب من جوانبه المتعددة، لتلبية القارئ الكريم، بما ينير فكره، ويزيد علمه، ويوسع أُفُقَه، ويشحذ همته، ويشبع نهمته، ويخدم به أمته.

وإن تاريخ هذه الأمة بحر ممدود بأنهار وجداول، ونور مشع من نجوم وكواكب، وضياء لكل جيل، وقد كتب فيه الأوائل حظاً وافراً، وتركوا منه بحرًا زاخراً، ومن يتتبع آثارهم يجد مقنعاً، ومن يتأمل تلك القرون يجد مرتعاً، ويُلْفِ لما يريد مَشرَعاً، فمن كُتُبٍ عامة أَرَّخَتْ لجميع القرون، و كُتُبٍ خاصة ببعضها، وكُتُبٍ في الرجال، و كُتُبٍ في القصص والأخبار، إلى كُتُبٍ في القبائل والجماعات، وكُتُبٍ في تواريخ الأديان والملل، و كُتُبٍ في تواريخ الحضارات والثقافات . . . وغير ذلك مما لا يكاد يحصى.

ولن يزال القارئ النهم، والمتطلع الفهِم، يسأل ويبحث، ويتمنى أن يجد ألوانًا وأصنافاً من الكتابات المؤرخة للنوادر والمغمورين، والشوارد المأثورة لغير المشهورين، لحاجته الملحة، لمعرفة ما قبله وما حوله، من أحياء وأموات، وأعلام وأشتات، وأُمَمٍ وثقافات، ودُوَلٍ وحضارات، فيستفيد ويفيد، ويسير على الطريق الرشيد، ويستنبط دروساً وعبَرًا، ويروي عمن قبله خبَرًا، ويكون له بمن حوله علم، عن طريق ربط الفرع بالأصل، والاستدلال على الغائب بالأثر.

غير أن كل ذلك بحاجة - ولا سيما في كتابة التاريخ - إلى الرواية الصحيحة، والعبارة الصريحة، والأمانة وإخلاص النصيحة، والنقل عن المأثور، والدقة في النقل، والدراية لما يقال، والتأدب بما أرشد إليه علماء الأمة من آداب، لأن العلم أمانة، وتاريخ الأمة من أعظم الأمانات شأنًا.

ومن هذا المنطلق، ولهذه الأسباب، واستشعارًا وإحساسًا بهذا الأمر، يسر **دار الكتاب والسنة للنشر الدولي**، أن تقدم لقرائها كتاب «**الأوفى المختار في تاريخ بني إنْفا الأنصار**»

من تأليف **الدكتور/ عبدالله بن محمد بن مهدي الأنصاري** حفظه الله، مشفوعاً بمقدمة جعلها المؤلف في الأصول المهمة لكتابة التاريخ والأنساب، لتكون تبصرة لمن أراد الخوض في هذا الغمار.

ومن يقرأ هذا الكتاب يجد جهدًا واضحاً، وإضافة جديدة، وإحياء لمنهج السلف الصالح في كتابة التاريخ وتتبُّعِ الأحداث، عن طريق الرواية والدراية، والبحث عن المعلومة في مظانها، وعدم الاكتفاء بالعقل في التحليل والتعليل، بل الرجوع إلى النقول والأصول.

وزاد في أهمية الكتاب أنه إضافة جديدة إلى ما كتِب عن سلالات الأنصار، وما كتب عنهم قليل، كما ذكر المؤلف في الباب الأول، ولا تخفى مكانة «الأنصار» في الإسلام، وقد أثنى الله عليهم في كتابه، وأثنى عليهم نبيه ﷺ فيما يروى عنه، كما أن الأسرة التي يتحدث عنها المؤلف في هذا الكتاب من الأسر المغمورة التي لا تكاد تُعرف فيما كُتب أو نُشر من التاريخ، وقد مرت بأحداث ومراحل منذ القرن الأول للهجرة النبوية إلى يومنا هذا تستدعي الكتابة والبحث، وقد عرَّفَنا المؤلف بأهم تلك الأحداث، سالكاً في كتابته ما أمكنه من وسائل التوثيق والتفسير، والتعريف والتحرير، ولا ريب، فالمؤلف من الأسرة نفسها ـ و«أهل مكة أدرى بشعابها» ـ كما أنه عاش كثيرًا من الأحداث التي يذكرها، وروى عن أصحابها مباشرة، وهذه منقبة أخرى تضاف إلى أهمية الكتاب، فإن المعلومة مهما كانت مهمة ومطلوبة فإن توثيقها والدقة في نقلها ومعرفة كاتبها لما يكتب غاية في الأهمية، بل إن هذا هو أساس قيمتها ومكانتها.

وإن **دار الكتاب والسنة للنشر الدولي** إذ تقدم لقرائها هذه النشرة لترجو أن تكون بذلك قد أسهمت في إثراء المكتبة الإسلامية، وفي إضافة جديد إلى هذا التراث، أملاً في إفادة القراء والباحثين، ونشر العلم والمعرفة.. سائلين الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب وأن يكتب له القبول، وأن يجزي المؤلف جزاء حسناً على ما أفاد به. وصلى الله وسلم على النبي محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

أبو سلطان أرشد بيك مغل

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

أما بعد:

فهذه رسالة موجزة في بعض أخبار بني (إنْفا)(١) من الأنصار، وتاريخ وجودهم في بلاد المغرب وإفريقية، قد كنت قدمتها بأوجز من هذا إجابة لمن سألني عن صحة انتساب هذه الأسرة إلى الأنصار، وهي جزء من كتابي

(١) «إنْفَا» بهمزة مكسورة فنون ساكنة بعدها فاء مفتوحة، بهذا اللقب اشتهر الشيخ محمد المختار بن محمد المصطفى بن محمد المزمل الأنصاري في بلاد المغرب والصحراء الكبرى (أزواد) وقد صارت سلالة هذا الشيخ في الأزمنة المتأخرة أكبر وأشهر قبيلة من الأنصار في تلك الناحية، عُرفوا بالأنصار وبني إنفا، وهذا اللقب أعجمي في أصله؛ لأن الشيخ له أخوال من الطوارق، وهم من القبائل العربية التي استعجمت. على ما يرجحه جمهور المؤرخين. وكان يسكن معهم منذ صغره فلقبوه (إنْفَا) ومعناه (نَفَعَ) فيجوز أن يكونوا أطلقوه عليه في صغره تفاؤلاً، والله أعلم. وليس معناه (نافع) كما زعمه بعض من كتب عنه وحاول ترجمته، وليس اسمًا له أيضا كما ظنه آخرون. فتأمل. وقيل إن أمه. وهي طارقية من قبيلة إيذْنانْ. كانت تلاعبه وتقول له (إنْفَهي، أو إنْفاهي) ومعناه: نفعني، أو: النافع لي، ثم كثر ذلك حتى اشتهر به الطفل، واختصر فيه على (إنفا) فصار شهرة له، لأن اسم (محمد المختار) كثير عندهم، وفيه ثقل لأنه مركب من اسمين، وطبائع الناس تميل إلى ما خفّ وسهُل على أعضاء النطق. وكان هذا من أسباب شيوع كثير من الألقاب في هذا المجتمع، كما سيردُ بعدُ. والله أعلم.

«**الأوفى المختار في تاريخ بني إنْفَا الأنصار**» وكنت شرعت في جمع شتاته وتأليف أجزائه منذ عام ١٤٠١هـ حين أرسلت رسالة إلى الشيخ العلامة محمد المختار بن حوّد الأنصاري رحمه الله أطلب إليه أن يمدني بما عنده في هذا الموضوع، ولكن وافته المنية رحمه الله في العام التالي لذاك ولم يصلني منه شيء، فطفقت أتتبع شيوخ الأنصار أروي عنهم شفاها، وأجمع ما أمكنني من المخطوطات والأخبار، ثم انقطعت عن ذلك بضع عشرة سنة، لكثرة توارد الشواغل، فلما ألح علي بعض أعيان شيوخ القبيلة في كتابة ما يثبت من تاريخ هذه الأسرة من الأنصار، أجبتهم بمقدمة موجزة، انتزعتها من السِّفر المذكور، فنشرتها بين القوم، وأطلعت عليها كبار النسابين عندنا فاستحسنوها، فأشار إلي بعضهم مستحسناً أن أفردها في كتاب، ليكون بمثابة الجزء الأول لكتاب (الأوفى) المذكور، مسابقة للمنية أن تخترمنا قبل إنهاء الكتاب بأكمله، فأجبتهم إلى ذلك بما سطرته هاهنا.

هذا وإني ذاكر في هذا الكتاب - إن شاء الله - تمهيدًا يتضمن فصولاً من الفوائد التي يُحتاج إليها في كتابة التاريخ والأنساب، وأطرافًا شتى تتعلق بذلك، ومذكراتٍ لا بد منها، مكتفيا بما تدعو إليه الحاجة مما يمس جوهر الموضوع، ويمهد للمراد من المشروع، محاولا رفع اللبس عن كثير مما شاع وانتشر، وذاع واشتهر، مما سيء فهمُه، أو رُوِي على غير حقيقة أمره.

وسأُثَنِّي إن شاء الله بالحديث عن الأنصار، الذين هم الأوس والخزرج، فهم أصل هذا الفرع، ورافد هذا النبْع، لاستكشاف جمع من الأمور التي كثر

استشكالها عنهم، وبيان ما تؤيده الحقائق التاريخية والمنطقية فيما يروى فيهم، وتحقيق مسألة الانتماء إليهم فيما تأخر من الأزمان، ومسألة وجودهم بين بني الإنسان، وما عُرِف مما لهم في الدنيا من الأوطان، في كل عصر بأكثر من مكان، مع الرد بإيجاز على بعض ما يذاع في الأرض عنهم من الأوهام.

ويلي ذلك البابُ الذي هو اللباب، وأصل موضوع الكتاب، وهو الحديث عن بني (إنفا) من الأنصار، وما ورد في شأنهم من أخبار، متناولا نسبهم، وما جرى فيه من تجاذب أطراف الأحاديث، بين المتيقنين المشرِّقين، والمرتابين المغرِّبين، مقتصِرًا على المهمّ بإيجاز، من غير إخلال ولا إلغاز، عامدًا إلى تأصيل هذا النسب، والتنبيه على ما له من حسب، مع إيراد سيرتهم في السلم والحرب، والفرح والكرب، وما صاحب وجودهم في منطقة (أزواد) في الشمال الإفريقي من شؤون سياسية وثقافية واجتماعية واقتصادية، وغيرها مما كان له الأثر الواضح في تكوين كيانهم، وتأسيس إمارتهم، وبناء قاعدتهم، وتكامل سيادتهم على تلك البقعة من البلاد، إلى أُفُول النجوم الأوائل، والرجال البواسل، من صدر هذا البيت من الأنصار، وذلك الجيل من الأخيار.

وعقدتُ مرادي في هذا الجزء من الكتاب على بناء قاعدة مؤسسة، ومقدمة مخصصة، للحديث عن تاريخ هذه الأسرة، وحالها في تلكم الفترة، وهو الأمر الذي لم أجد أحدًا أدلى فيه بدلو، لا من حضر ولا بدْو، ولم أُلْفِ منصفًا تناوله بِمُدْنٍ، أو تكلَّم فيه بمغْنٍ، ومن ثَمَّ عمدتُّ إلى التأسيس

والتأصيل، ورسم الطريق الطويل، لمن أراد سلوك هذا المنهج، أو نوى الولوج من هذا المولج، بعدما كثرت الأقاويل، ومُلِئَتْ الصحفُ والشاشاتُ بالأباطيل، وكَثُر عنهم القول بلا علم ولا رواية، ولا وَرعٍ ولا دراية.

فيممت ما كنت جمعته عنهم منذ قديم، وكنت أخذته ودونته عمن بهم عليم، فإذا كثير منه قد ضاع عني، واخترمته أيدي العابثين واختلسوه منّي، وتناوشته أيدي المخابيط، فذهب شماطيط، وربما حاول بعض من تَنَاهَبَه من المخاليط، إظهارَه في تجميع سقيم من الأغاليط، محاوَلَةً منه لِلَفْتَ الأنظار إلى شخصه، ليحوز قصب السبق دون فحصه، قاطعا الفرع عن فِصِّه، مورِدًا فهمه لما أخذه دون نصه، عامدًا إلى فصله عن صحبه وإلى قصِّه، فأسفر لنا الصبح عن آفة حرصه، وعرَّفنا لحنُ قوله عن لصِّه، فكانت مثل تلك المحاولات، والتخبطات العشوائية من الإحالات، جزءا مما ابتليت به هذه الأسرة من المعاناة، ولم يُجْدِ ما حاولَتْ له من الموارَاة.

ومن هنا أسرعت فطفقتُ أتداركُ ما بقي لي من مذكراتٍ ومدوَّنات، وأتتبع من بقي من مشايخ وَلِدات، لا ستدراك بعض ما فات، وإحياء جزءٍ من الْمَوات، لعلي أرقع شيئا من الْخَرْق، وإن تناهى إلى الغرب والشرق، فإنَّ قذْفَ الباطل بالحق، يُسرع إليه المحق والزهق، ويكون به علاج ما أمكن من تلك الآفات، للتقليل من الآهات، ولا سيما بعد أنْ توالت عليَّ الالتماسات، من ذوي الشأن من القرابات.

فلما صنفت ما استدركته وتلاحقته، ألفيته يستحق أن يقسم قسمين :

القسم الأول: يليق به أن يكون في التأسيس والتأصيل، وبيان كيفية التحليل، لمن أراد صريح السبيل، من غير تقصير ولا تطويل، فكان هذا القسمُ في هذا الجزء الأول، والسِّفْرُ السافر عن الدرب الأطول.

والقسم الثاني: سيكون ـ إن شاء الله ـ في القبائل وسلاسلها، والسلالات وتناسلها، وإحصاء فروعها في الحواضر والبوادي، وبيان من استقر ولم يتحول عن النوادي، مقارعا وصابرًا للحوادث والعوادي، ومَنْ طارت به رياح الشتات، ورمتْ به في أحضان أقاصي القارات، على ما أدركت عليه الحال، وكنت له أقرب مثال. أسأل اللهَ أن يعينني على ذلك، وأن يهديني فيه إلى الصواب كذلك، فمظنة التوفيق ذانك.

وأُنَبِّهُ إخواني الأنصار، من قبيلة بني (إنْفا) ومَن دخل فيهم بالحلف أو الولاء، أو بالقرابة والاستخوال، أو بالجوار والمخالطة، أو الصداقة والمناطقة، على أني مقرٌّ بالتقصير، وقِلَّة البضاعة والتشمير، غير مصرٍّ على شيء لا يصح بعد التذكير، ولست ممن يرفض التعديل والتغيير، بعد التنبيه والتبرير، وأبرأ إلى الله من تعمّد الخطإ، وقصد الإيهام والتزوير، أو التشتيت والتنفير، أو التعبير بالتشهير، أو إرادة التعيير، فإذا وجد امرؤ ما ينكره أو يكرهه، فلْيتحقق منه، ولْيرجع إلى العقل والنقل، ولا يركن إلى الهوى، ولا إلى ما يُتداوَل من القيل والقال، ولا إلى ما لا يقربه إلى الله بحال، ولْيعلَمْ أن المؤلف إنما كتب ذلك لأن الظن قد غلب على أنه الصواب، فإن وقف على خلاف ذلك من الحق اليقين فلْيُفِدْنا به، ليجري التعديل والتحديد، من غير

تحريف ولا تنديد، لأجل التعاون والتواصي على الحق، كما أمر الحق سبحانه وتعالى. أسأل الله أن يفتح على قلوبنا بالحق، وأن يعصمنا من الباطل، وأن يجنبنا آفات الهوى، والحمد لله وصلى الله وسلم على النبي محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

تنبيه

أُنَبِّه جميع إخواننا الأنصار، من قبيلة بني إِنْفَا وحلفائهم وأتباعهم وغيرهم من سائر قبائل الأنصار، على أني كنت قد زودتُ بعض إخواننا الذين حاولوا الكتابةَ عن هذه الأسرة خاصة، أو عن الأنصار عامة، بكثير من هذه المعلومات التي أوردتها في هذا الكتاب، وغيرها مما لم أذكره فيه، مما يخص تاريخ الأنصار وتراثهم الثقافي والتاريخي، فأخذوها مني ثم اجتهدوا فنشروها مخرومة ومحرَّفَة، ولم ينسبوا إليَّ شيئًا منها، ولم ينبهوا على مصادرها التي زودتهم بها، بل ذكروا ما يوهم أنها من جمعهم وبحوثهم الخاصة! واشتركت أيضا مع آخرين توسّمتُ فيهم إعانتي بغيةَ إصدار بعض النشرات الخاصة بالأنصار، من هذه الأسرة وسائر بني الأوس والخزرج، فلما تحقق لهم مرادهم من ذلك أخذوا مني البحوث بزعم نسخها وتنسيقها فنشروها بأسمائهم، من غير علمٍ مني ولا موافقة، ولم ينسبوا إليّ شيئًا منها، بل ادعوها لأنفسهم كاملة، وأنكروا علاقتي بها، وحرفوا ما اتفقت معهم عليه، ونشروا خلاف الصواب. ألا فلْيعلم مَنْ عَلِم بشيء من ذلك أو وقف عليه أن أولئك القوم هم في حِلٍّ مني، لا أُطالبهم بشيء، ولا أرى لأحد أن يتذرَّع بخطئهم ذلك إلى إثارة خلافٍ أو بناءِ فُرْقةٍ، أو إساءةٍ إلى أحد منهم، فما أراهم إلا مجتهدين قد أخطؤوا، ومحسنين قد أساؤوا، فجزاهم الله خيرًا على صالح نياتهم، وعفا عن سيِّئ نياتهم وأمنياتهم، وأسأله تعالى أن يُبَدِّل سيئاتهم حسناتٍ، وأن يهديهم إلى سواء الصراط.

فأقول: اللهم إني قد غفرتُ فاغفِرْ، وعفوتُ فاعْفُ، وحلمتُ فاحلم، فإنك أنت الغفور الرحيم الحليم، وإن فضلك يسعني وإياهم.

على أني أبرأ إلى الله ثم إلى جميع الأنصار مما ذكروه ونشروه من أخطاء، وما وقعوا فيه من أوهام، وما سلكوه من سلوك لا أراه إلا خِلسة اختلسها الشيطان منهم وهو عدوّ بني آدم. اللهم فاشملنا بعفوك وكرمك، وتجاوز عني وعنهم، فما أحوجنا إلى حلمك ومنّك.

عبد الله بن محمد بن المهدي الأنصاري

باب

يتضمن كتابة التاريخ والأنساب، والحديث عن الأنصار

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول

تبصرة في كتابة التاريخ والأنساب

ليعلم القارئ أن العلم أمانة، والأمانة أمرها عظيم، والإنسان مسؤول عما يكتبه، وقد قيل:

وما من كاتب إلى سيفنى ويبقي الدهر ما كتبت يداهُ
فلا تكتب بكفك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

وقال آخر:

ودعِ الغرائبَ والمناكيرَ التي في الحشْرِ إنْ نوقِشْتَ فيها تستحِ

وما نكتبه في هذا الكتاب إنما هو أخبار أناس قد مضَوْا، ودهور قد ولّتْ، فلا سبيل لنا بالحديث عنهم إلا بالرواية والنقل عمن شاهدهم، ومن نقل عنهم، أو من روى عنهم، وليس هذا بمجال التخمين والاستنباط العقلي، وإنما هو مجال الرواية والنقل، ثم القياس على ما هو مشاهد من الرسوم الباقية، وآثار الأمم الخالية، بعد تصفية النفس وتنزيهها عما يعمي عن الحق، خوفا من المقام بين يدي الله، حين يُسْأل الإنسان عما كتبه، والذي يُعمي عن الحق هو الهوى المتبع، وإعجاب ذي الرأي برأيه، وادعاء ما لا

سبيل إليه، قال أبو الريحان البيروني المتوفى ٤٤٠هـ «. . .**العوارض المردية لأكثر الخَلْق والأسباب الْمُعْمِية لصاحبها عن الحق، وهي كالعادة المألوفة، والتعصب، والتظافر، واتباع الهوى، والتغالب بالرئاسة، وأشباه ذلك**»[(١)].

صدق رحمه الله، والمراد بـ(العادة المألوفة) ما اعتاده الإنسان في حياته مما قد يخالف الحق، أو يعترض عليه ما يريده من الصدق، كاعتياده الكذب، أو التدليس، ونحو ذلك، وأما التعصب فهو الانحياز إلى جهة لمجرد الميل العاطفي، فيحول ذلك الميل بينه وبين قول الحق الذي قصده، وأما (التظافر) فهو حب الاستئثار بالمعلومة دون الآخرين، وتخصيص النفس بالظفر بها دون غيرها، لتكون لها مزية ترتفع بها فوق غيرها، وهذا يؤدي إلى الميل عن الحق، إذ يصبح انشغال الإنسان بهذا الظفر لا بالحق الذي انبرى لبيانه، وفي هذا إضاعة لشرف العلم، وحطٌّ لقدره، فالعلم ليس لطلب الجاه والشهرة والمال، ونحو ذلك من أغراض النفس والدنيا، بل الغرض من العلم معرفة الحقائق وتهذيب النفس، وصفاء العمل، ليؤدي ذلك إلى رضا الله تعالى، بالعمل الصالح الذي لا يستقيم إلا بهذه الأمور.

والكتابة في الأخبار والأنساب من أهم ما يُحتاج فيه إلى اجتماع أمهات الفضائل الأربع، وهي: **العلم، والشجاعة، والعفة، والعدل**، فهذه الأربع هي أمهات الفضائل البشرية، وما سواها راجع إليها[(٢)].

---

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني (ص٦).

(٢) انظر: إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد للشيخ محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري =

ومن ثَمَّ شرط بعضُ العلماء على من يكتب في التاريخ شروطا ينبغي أن يُتأدَّب بها ويُتقيد، وهي:

١. الصدق. لأنه يتحدث عن غيره ولا يجوز له أن يكذب عليه، والكذب من الكبائر.

٢. اعتماد اللفظ دون المعنى فيما ينقله. لأن النقل أمانة، ونقل المعنى دون اللفظ تصرف في الأمانة، وذلك لا يجوز إلا بإذن من صاحبها، وأما ما يرويه من غير نقلٍ فلا مانع من نقل معناه دون لفظه.

٣. ألا يكون ما ينقله مما استنبطه بفكره واستفاده في المذاكرة. لأن ذلك تدليس على القراء.

٤. أن يسمي المنقول عنه. لأجل أن يُعرف ويرجع إليه للتوثيق عند الحاجة.

٥. أن يكون عارفا بحال من يترجم له من الأعلام، من جهة علمه ودينه وأخلاقه وأوضاعه العامة والخاصة، ونحو ذلك من صفاته.

٦. أن يكون حسن العبارة، عارفا بمدلولات الألفاظ. لتكون ألفاظه مطابقة لمعانيه.

٧. أن يكون حسن التصور للأمور، لتصور أحوال من يترجم له وما يصفه تصورا دقيقا حسنا، ويعبر عنه بعبارة لا زيادة فيها ولا نقص.

٨. أن يتجرد من الهوى فلا يغلبه، لأنه إذا خضع لهواه خيل إليه الإطناب

= المعروف بابن الأكفاني وبالمتطبب المتوفى ٧٤٩هـ رحمه الله (ص٩٤).

في مدح من يحبه، والتقصير في غيره، فإن لم يستطع التجرد من الهوى فينبغي له أن يقهر هواه بما عنده من العدل والشجاعة، ويسلك طريق الإنصاف بما عنده من علم[١].

ولأجل عدم التقيد بهذه الشروط كثر عند المؤرخين عدم الدقة فيما يكتبونه ويرونه، وشاع عندهم التساهل في رواية الأخبار والأمور التي لا سند لها، **قال** السبكي رحمه الله:

«**قاعدة في المؤرخين نافعة جدًا: فإن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس، ورفعوا أناسا، إما لتعصب أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به، أو غير ذلك من الأسباب، والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل، وكذلك التعصب قلَّ أن رأيت تاريخا خاليا من ذلك**»[٢].

ولأجل مراعاة هذه الشروط، نبه **إمام المؤرخين والمفسرين محمد بن جرير الطبري** المتوفى سنة ٣١٠هـ رحمه الله على منهجه المتضمن التزامه بها في كتابه في التاريخ «تاريخ الأمم والملوك» الذي يعد قدوة في هذا المجال، **فقال**: «ولْيعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه، مما شرطت أني راسمه فيه، إنما هو على ما رويتُ من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها فيه، دون ما أُدرِك بحجج العقول، واستنبط بفكر النفوس، إلا اليسير القليل منه، إذكان العلم بما كان من أخبار

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٢/ ٢٣).

(٢) طبقات الشافعية (٢/ ٢٢).

الماضين، وما هو كائن من أنباء الحادثين، غيرَ واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرِك زمانهم، إلا بإخبار المخبِرين، ونقل الناقلين، دون الاستخراج بالعقول، والاستنباط بفكَر النفوس. . .»[١]

ومن أهم ما يجب على من يكتب في هذا الفن أن لا ينقل كلما يقف عليه من الأخبار، دون فحصها وعرضها على صحيح المنقول وحكيم المعقول، فليس كل مكتوب في كتاب، أو متداوَل بين الناس، يصح إثباته والاحتجاج به، قبل أنْ تُعلم حاله وحال من قاله، لأن التساهل عند المؤرخين كثير، وقد تقدم ما ذكره السبكي عنهم في هذا، وذكره غير واحد من العلماء، وهو واضح في كثير من كتبهم لمن اطلع فيها، وأنعم النظر، ولذلك وقع لبعض معاصرينا أخطاء فادحة فيما كتبوه من الأخبار التي ينقلونها عمن لا يصح الاحتجاج به، ممن يكتب ما لا علم له به، وما لم يروه عن أحد سوى خاصة فكره واستنباطه، وإنما أداهم إلى ذلك الذي نقلوه واحتجوا به الميلُ العاطفيُّ، ومراعاة أهواء آخرين ممن يرون رأيهم، ولا يرغبون في مخالفتهم، فهدموا كل الشروط والقيود المتقدمة عن علماء الأمة.

ونبه **ابن خلدون** رحمه الله على مثل هذا الصنف من كُتّاب التاريخ، في معرِض حديثه عن فضل علم التاريخ، وضرب لهم أمثلة ممن كان في زمنه وقبله، **فمما قاله**:

«**اعلم أن فنَّ التاريخ فَنٌّ عزيز المذهَب**، جمُّ الفوائد، شريف الغاية، إذ

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ١٣).

هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، **فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر، وتثبُّتٍ يفضيان بصاحبهما إلى الحق**، ويُنَكِّبان به عن المزَلّات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتُمِد فيها على مجرّد النقْل، ولم تُحَكَّم أصولُ العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قِيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يُؤْمَن فيها من العثور، ومَزَلَّة القَدَمِ، والْحَيْدِ عن جادة الصدق، وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًّا أو سمينا، لم يَعْرِضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيمِ النظر والبصيرةِ في الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلَط . . .ثم ضرب أمثلة لذلك»[١].

وربما تجرأ بعض من يكتب على مثل هذا النقل غير الحكيم، وأُغرِم بالجمع السقيم، واسترسل في الحكايات والقصص التي لا سند لها، ولا اعتداد بها لأجل إعجاب العوام بما يكتبه ويسطره، وهم لا يميزون بين الحق والباطل، ويختلط عليهم الحابل بالنابل، ولا يفرقون بين الناصح والفاضح، ولا بين النافع النافح، والخادع الكاشح !!

---

(١) مقدمة ابن خلدون (١٦).

التساهل في إسناد ما ليس من العقائد:

وقد يعتمد مَنْ تلك حاله على بعض ما يروى عن بعض أئمة المسلمين من التساهل في إسناد ما ليس من العقائد، ولا ينبني عليه تحليل ولا تحريم، من القصص والأخبار والمغازي، والرقائق، والفضائل، ونحو ذلك مما يُقبل فيه ما لا يقبل في الحرام والحلال، والعقائد، فيرويه ويجعله بين يدَيْ كلامه مستندًا إليه، محتجا به على جمعه.

وأشهر ما يروى من ذلك، ما روي عن جماعة من السلف **كعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد بن حنبل، وعبد الله بن المبارك**، وغيرهم رحمهم الله، أنهم **قالوا**: «إذا روينا عن رسول الله ﷺ في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد، وانتقدنا الرجال، وإذا روينا عنه في فضائل الأعمال والثواب والعقاب والمباحات والدعوات تساهلنا في الأسانيد»(١).

فلْيعلم طالب العلم أن هذه المسألة مقيدة بما قيدها به أهل العلم منذ قديم، وذلك أمور:

١. منها أن المراد التدقيق في صحة الإسناد، فإن الخبر إذا لم يكن مما يدخل في الحلال والحرام، والعقيدة، ولا يتعلق به حكم شرعي؛ فلا ضير أن يُروى للفائدة المتعلقة به، وإن لم يكن إسناده مستوفيا لشروط الصحة، وليس المراد تعمد رواية الكذب.

---

(١) انظر: المستدرك للحاكم (١/ ٦٦٦)، كتاب الدعاء والتكبير، وتدريب الراوي للسيوطي (١/ ٣٥٠-٣٥١).

٢. ومنها أنه لا يجوز لراوي هذا النوع من الأخبار أن يجزم بصحته، ومن باب الأولى ألّا يجوز أن يَبني عليه حكما يتبناه ويدافع عنه ويعتقد ثبوته، وهذا هو الذي حصل لبعض معاصرينا ممن احتج بمثل هذه الأخبار الضعيفة، معتمداً على ما سبق ذكره عن السلف، ولم يلتفت إلى مرادهم، وشروطهم، فوقع في الزلل والزيغ، لأنه لم يسلك سبيل الاحتياط، ولا رام بهم الارتباط، وكان الواجب عليه أن ينبه على أنه يروي ما سمعه أو ينقله ولا يجزم بصحته، ويكل أمره إلى المروي عنه، وهذا هو المعروف من سلوك أهل العلم، كما سبق عن الطبري وغيره.

قال النووي رحمه الله في التقريب: «**وإذا أردت روايةَ الضعيف بغير إسنادٍ فلا تقل: قال رسول الله ﷺ كذا، وما أشبه من صيغ الجزم، بل قل: رُوِي كذا أو بَلَغَنا كذا أو ورد أو جاء أو نُقِل، وما أشبهه، وكذا ما تشك في صحته**»[١].

وهذا الأدب ليس خاصا برواية الحديث النبوي، بل هو عام في كل ما يرويه الإنسان مما يشك فيه، لأن الكذب كله حرام، والجزم بما تُعلَم حاله من ضمن الكذب، وإنما يحتاط العلماء أكثر في رواية الحديث النبوي خاصة لأن الكذب عنه ﷺ ليس كالكذب على غيره، كما جاء في الحديث المشهور «**من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**».

---

(١) تدريب الراوي (١/ ٣٥٠).

٣. ومنها أن يكون الخبر الْمَحْكِيُّ مندرجا تحت قاعدة عامة، وأصل صحيح في الشرع معمول به.

٤. أن تكون حاله مترددة بين الصحة وعدمها، أو غير مشهورة، فلا يكون مرويا عن الكذابين، أو ممن عرف عنه اعتماد الكذب، ولا يكون مما نُقل عمن ينقل ما لا يعرفه، أو من المجهول الذي لا يعرفه أحد.

٥. ألّا يعارِض ما هو صحيح معروف، من جهة النقل والعقل.

٦. ألّا يكون مصادماً للحكمة والمعقول، أو مما يستحيل وقوعه، كما وقع لليهود والنصارى في ادعائهم كون إبراهيم عليه السلام يهودياً - كما تقول اليهود - أو نصرانيا، كما تقول النصارى، مع أن إبراهيم عليه السلام عاش قبل اليهودية والنصرانية بدهر طويل!! فرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [سورة آل عمران (٦٥-٦٧)].

فأكذبهم الله وردهم إلى العقل، وأخبرهم أن مثل هذا يقع ممن لا عقل له، كيف يكون السابق تابعاً للمسبوق، وقد كانت التوراة بعد إبراهيم بزمن طويل - قيل ألف سنة - وأُنزل الإنجيل الذي هو كتاب النصارى بعد ذلك بزمن طويل - قيل ألف سنة أيضا - فكيف يُزعم أن إبراهيم عليه السلام منسوب إلى إحدى هاتين الملتين؟ هذا لا يقبله عقل، ومن ثم قال الله لهم «**أفلا تعقلون**».

ثم بَيَّنَ الله لهم أن الإنسان لا يجوز له أن يحاجج في مثل هذه الأمور التي لا علم له بها، ولا أن يدافع عنها معتقدا صحتها، فقال «**ها أنتم هؤُلاءِ حاجَجْتُمْ فيما لكمْ به عِلْمٌ فَلِمَ تُحاجُّونَ فيما ليسَ لكُمْ به عِلْمٌ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون**» وهذا أيضا رد إلى العقل، فإنما يُعقل أن يجادل الإنسان فيما له به علم، أو مستند يعتمد عليه، أما مجرد الادعاء فليس علما، وهذا ما سبق أن ذكرناه.

٧. أن يعلم المستدل بهذه الأقوال أن علماء السلف الذي رويت عنهم لهم أقوال أخرى يجب عليه ألا يتركها، بل يجب عليه أن يعتبرها فيما يرويه وينقله من الأخبار، فلْتكن معه بجانب تلك ليكون حذرا محتاطاً، وذلك من مثل ما روي عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: «**شرُّ العلم الغريب، وخير العلم الظاهر الذي قد رواه الناس**»[١].

وروي عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: «**لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب فإنها مناكير، وعامتها عن الضعفاء**»[٢] وكذا روي عن شعبة رحمه الله أنه قال: «**اكتبوا المشهور عن المشهور**»[٣]. وأقوال السلف كثيرة في التحذير من التساهل في رواية الضعيف من الأخبار، والحض على الاحتياط في النقل والرواية والتحديث والكتابة، وإنما ذكرت منها أمثلة للاستدلال بها على

(١) أخرجه عنه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١/ ٣٠٥).
(٢) أخرجه عنه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١/ ٣٠٦).
(٣) أخرجه عنه السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (١/ ٣٠٤).

أن منهجهم الأصلي هو هذا، وليس ما روي عن بعضهم مما يخالفه بمنهج مطلق لهم.

ومما لا بد من التنبيه عليه في الاستدلال بالأقوال المروية عن أهل العلم: أنه ينبغي ألا تُجعل أقوالُهم وآراؤهم بمنزلة الأدلة الشرعية، فيعتقدَ الإنسان أنها كافية له في الاحتجاج وإثبات ما يريده، ثم يتمسك بها ويجعلها حجة على مخالفيه، فإن هذا مسلك غير دقيق في إثبات الحق، ولا في بيان الحجة للخلق، **قال** العلامة ناصر الدين الألباني رحمه الله: «**التقليد ليس علما باتفاق العلماء، فلا يصلح إذن اتخاذه حجة للرد على المخالفين**»[(١)].

وقد ظن بعض من يكتب الأخبار والقصص أن إيراد العلماء لها حجة له، فقلدهم في ذلك من غير أن يبين ما بينوه من كونها مما لا يجزم بصحته، بل ربما طار بعض من رأيناهم في عصرنا هذا بكلمة أو مقولة مروية عن أحد أئمة الإسلام فيجعلها بمقام النص الشرعي فيبني عليها آراءه، صارفا نظره عن التحقق في مطابقة ما يقوله للحق، وقد روي عن الإمام مالك رحمه الله أنه قال: «**ليس كل ما قال الرجل الصالح وإن كان فاضلا يُتَّبَعُ ويُجعَلُ سُنَّةً يُذْهَب به إلى الأمصار، قال الله تعالى**: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ »[(٢)].

يريد أن الواجب عليك أن تنظر في صحة ما قيل، فلا تتخذه حجة وتحتجَّ به وتروهِ وتتبعْه إلا إذا كان مطابقا للحق، عملا بالآية التي تلاها، وقد

(١) مقالات الألباني (ص١٣٩).

(٢) الموافقات للشاطبي (٥/ ٣٣١)، والاعتصام (٢/ ٣٣٢).

أثنى الله فيها على المؤمنين الذين إذا استمعوا القول اتبعوا أحسنه، ومفهومه أنهم يتركون ما ليس منه بحسن.

ولكن ينبغي لطالب الحق أن يورد كلام العلماء وآراءهم ويحتج بها في تفسير النصوص وإيضاحها، والتعليل والتحليل، وما لهم من أقوال استنبطوها من عمومات هدي الكتاب والسنة، ويستعين بهم في تحقيق مسائل الخلاف، لأنهم أبصر بالحق، وأعلم بما ورد فيه، وأعلم بخطاب الشارع ومراده، ولأنهم في مثل هذا قدوة، قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت]. والرجوع إليهم حينئذ هو المأمور به في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء].

وقد تقدم ما أكده العلماء من أن الكاتب في التاريخ ينبغي أن يتأدب بالصدق والأمانة والإنصاف وحسن التعبير والتصوير للأمور، وأن يكون ورعا مجردا من النزعة العاطفية، وغلبة الهوى، والغرض الدنيوي الحقير، ومن أهم ما يعين على ذلك أن تكون له دراية كافية في الفن وما كُتب فيه، وأن يكون على دراية كافية بفقه الكتاب والسنة، لئلا يقع في المحظورات الشرعية، وأن يلتمس في ذلك القدوة الحسنة التي تقربه للحق، وتعينه على تعيينه وتمحيصه وتخليصه، فتكون له أقوال العلماء عواضد تشد أزره فيما يقول، ولا يجعلها بمنزلة الدليل الشرعي الذي عليه العول، وإليه الورود عند القول، ومنه الصدور عند القوم.

الفصل الثاني

كتابة الأنساب وحفظها ومعرفتها

وأحوج ما يكون الإنسان إلى هذه الأوصاف والضوابط عندما يكتب ويروي في الأنساب، فإن الكلام في النسب تحوطه محاذير عدة:

منها: تعلقه بالْعِرْض، والعرض مما جاءت الشريعة بوجوب حفظه، وتحريم التعرض له بسوء.

وهو أحد الضرورات الخمس التي أوجب الشارع حفظها والدفاع عنها بكل شيء، وهي: الدِّين، والعِرْض، والعقل، والنفس، والمال».

ومنها: أن النسب مما لا يدخل فيه الاجتهاد، ولا يمكن تحقيقه والجزم فيه بالاستنباط والمقارنات، وهذا مما وقع فيه كثير من الجهال، الذين يلحقون أقواما بآخرين، أو ينفون أقواما عن أنسابهم لمجرد الهوى أو تمسكا ببعض الأقيسة، وكان ابن خلدون رحمه الله ممن لحظ هذا المسلك عند بعض المؤرخين فرد عليهم فيه[1].

ومنها: ما جاء في الشرع من الوعيد الشديد على مَن انتسب لغير أبيه وهو يعلم، وعلى من تولى غير مواليه.

والأصل في منع الاجتهاد في إلحاق ولَدٍ ما بوالدٍ معين من غير يقين قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ

(١) انظر مقدمة ابن خلدون (٢٨- ٣٤).

﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ من سورة الأحزاب.

فأمر الله تعالى أمرَ إيجاب بدعوة الولد إلى والده الحقيقي إن كان معلوما، فدل ذلك على حرمة نسبة الولد إلى غير أبيه، وأبطل الله بذلك منهج أهل الجاهلية في تبني الإنسان لغير ولده، فلما حرم الله دعوة الإنسان إلى غير أبيه الحقيقي ذكر بعد ذلك ما قد يستشكله من يريد دعوة من لا يعرف له أباً، كيف ينسبه؟ وبِمَن يناديه ويسميه؟ هل يجتهد فيلحقه بنسب ما بمحض غلبة الظن؟ الجواب: لا، بل يكف عن الاجتهاد ويكتفي بنسبته للأخوة الإسلامية، فكفى بالإسلام نسباً، وإن يكن مولى فلْيُدْعَى بالمولى، فأغلق الشارع باب الاجتهاد والتخمين فيما يتعلق بإلحاق شخص إلى نسب غير معروف.

وجاء عن الرسول ﷺ الوعيد الشديد على من خالف هذا فادعى إلى غير أبيه، أو انتسب إلى غير قبيلته، فمما جاء عنه ﷺ:

* عن أبي ذر رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر، ومن ادعى قوما ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار» أخرجه البخاري ومسلم.

* وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم فالجنة عليه حرام» أخرجه البخاري ومسلم.

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر» أخرجه البخاري ومسلم.

* وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم

الفِرَى أن يدعي الرجل إلى غير أبيه» أخرجه البخاري(١).

* وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: « .. من ادعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلاً».أخرجه مسلم.

فدل هذا على إغلاق باب الاجتهاد في هذه المسألة، وأنها غير خاضعة للأقيسة والعقل، ولا فرق في هذا بين أن يدّعي الإنسان نسبا لنفسه أو يدعيه لغيره، ومن هنا شرع الإسلام إلحاق المولود بالفراش، أي صاحب الفراش الذي وُلد فيه، قطعا لمادة الخلاف والاجتهاد في إلحاقه بأب آخر، وقبيلة أخرى والمراد بالفراش مالك الفراش، وهو الزوج(٢).

والحكمة في ذلك ظاهرة، وهي منع اختلاط الأنساب، وضياع الحقوق، وعقوق الأبناء لآبائهم وقبائلهم، ولو أجاز الشرع ذلك لجاز للناس كلهم أن يدعوا الأنساب الشريفة الرفيعة، ولصارت الأنساب للتفاخر والتباهي، لا للتعارف والتعايش، فيقع الظلم وتضيع الأرحام، وتذهب معاني الأخوة النسبية والإيمانية، وتبقى معاني العصبية الجاهلية المقيتة، ومفاخرها الزائفة الواهية الدنيئة، وهذا ما لا يرضاه الله لعباده، وقد خلقهم في أحسن تقويم، لعبادته وحده، وعمارة الأرض بشرعه الطاهر المطهِّر.

قال ابن حزم رحمه الله: «وإن كان الله تعالى قد حكم بأن الأكرم هو

---

(١) انظر صحيح البخاري ٤/ ١٥٦-١٥٧، كتاب المناقب. الباب الخامس.

(٢) انظر النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (فرش).

الأتقى، ولو أنه ابنُ زنجية لِغيَّةٍ، وأن العاصي والكافر محطوط الدرجة، ولو أنه ابن نبيَّيْن، فقد جعل تعارُف الناس بأنسابهم غَرضا له تعالى، في خلقه إيانا شعوباً وقبائل، **فوجب بذلك أنّ علمَ النسب علم جليل رفيع**، إذْ به يكون التعارف، وقد جعل الله تعالى جزءا منه تعلُّمه لا يسع أحدًا جهلُه، وجعل تعالى جزءا يسيرا منه فضلا تعلُّمُه، يكون مَن جَهِلَه ناقص الدرجة في الفضل، وكل علم هذه صفته فهو علم فاضل، لا ينكر حقه إلا جاهل أو معاند»[١].

إن الغرض من تعَلُّم الأنساب وتقييدها إنما هو صلة الأرحام، ومعرفة العصبات والأولياء، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ صدر سورة النساء. فأمر تعالى بمراعاة ما للأرحام من حقوق، وحَذَرِ تعلق تلك الحقوق بمن لا يراعيها، وقال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ من خاتمة الأنفال وأوائل الأحزاب. وهذه الأَوْلَوِيَّة التي أوجب الله مراعاتها لن تعرف إلا بمعرفة حقيقتها وجهتها وسببها بمعرفة الآباء والأمهات.

وعلى ذلك يُبنى التعارف بين الناس، حتى يعلم الإنسان قاربته وأرحامه ولا يعتزي إلى غير أبيه وفصيلته، وهذا هو المعنِيُّ بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ﴾ [سورة الحجرات].

---

(١) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (١-٢).

ويستفاد من معرفة الإنسان لفصيلته وأجداده أمور منها :

* أحكام توريث بعضهم من بعض، روي عن الرسول ﷺ أنه قال : «**ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقي فلأَوْلى رجل ذَكَر**» أخرجه البخاري ومسلم. فإذا لم يكن الأولى معروفا ضاع الحق، ومن أهم ما يلحق ذلك معرفة الحاجب والمحجوب من الورثة، وأصحاب الفروض والعصبة، ومراتبهم في الإرث.

* الولاية، فإن الإنسان تتولاه عصبته ويتولاهم، والولاية تكون في النكاح والصلة والنصرة ووراثة الملك، وغير ذلك. فإذا لم يعرف الإنسان عصبته ضاعت الولاية، وتعذر معرفه جهتها.

* أحكام العاقلة في الديات، فإن دية الإنسان في كثير من الأحوال يُحَمِّلها الشرع عاقلته وهم عصبته، وليست العاقلة في ذلك سواء، بل على حسب القرابة، فإذا لم تعرف القرابة ضاع ذلك وتعذرت معرفته.

* صَرْف الأوقاف المخصوص بها بعض الأقارب دون بعض، كأن يخصص الإنسان الوقف لطبقة معينة من أقاربه، فإذا جُهلت الأنساب جهلت طبقات الأقارب فضاعت الحقوق.

* الإلزام بالإنفاق على القاصرين ونحوهم، فإن الإنسان إذا كان عاجزاً عن الإنفاق على نفسه والقيام بمصالحه لسبب من الأسباب، وجب على أقاربه من العصبة أن يتولوا ذلك، ويُلزَمون به.

* الصلة، بالإحسان والعناية بأحوالهم، بكل أنواع الإحسان والعناية، معنى وحسا، قال تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء].

وقال تعالى - في معرِض مدح المؤمنين - ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد].

وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**من أحبَّ أنْ يُبسطَ له في رزقِه، ويُنْسأَ له في أثره، فلْيصِلْ رحمه**» متفق عليه.

وعن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث ﵂ أنها أعتقت وليدة لها، فقال لها النبي ﷺ: «**أمَا إنكِ لو أعطيْتِها أخوالكِ كان أعظمَ لأجرِكِ**» متفق عليه.

والنصوص في الباب كثيرة وإنما أردنا التمثيل بما يؤصِّل المسألة، فقد دلت هذه النصوص على أهمية صلة الرحم، وأنها من شعائر الإسلام وأوامره، وأن الإيمان لا يكمل بدونها، والإنسان يجب عليه أن يعرف هذه الرحم، فإن لم يعرفها ضاع ما وجب عليه، وإن فرّط في معرفتها وقع في المحظور. والله المستعان.

وثمة مسألة مهمة تتعلق بالأنساب، وهي أنه قد شاع عند الناس منذ قديم قولهم «الناس مصدقون في أنسابهم» وقد رأيت **ابن خلدون** ذكر هذه العبارة في مقدمته[١]، مدرجا إياها في كلامه، من غير إسنادها إلى أحد، وكذلك فعل **الدسوقي** في حاشيته على خليل، وهو يتحدث عمن تكره إمامته، فقال: «المراد بمجهول الأب اللقيط، لا الطارئ، لأن الناس مؤتمنون على

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٣٣، ٣٤).

أنسابهم»[١]. يريد رحمه الله أن الشخص الطارئ على الناس ولا يعرفون نسبه أو شخصه، ليس هو المراد بمجهول الأب.

قال **الإمام السخاوي**: «هو من قول مالك وغيره، بلفظ (الناس مؤتمنون على أنسابهم)»[٢]، ولم يزد على هذا، وأورده تلميذه **ابن الدَّيْبَع** في (تمييز الطيب من الخبيث) بلفظ (المؤمن مؤتمن على نسبه) وذكر كلام السخاوي السابق، ولم يعقب عليه[٣] وذكره **الشيخ أحمد بن عبد الكريم الغزي** في (الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث) فقال: «هو من قول مالك، أو غيره، وليس في المرفوع»[٤].

فعلق عليه **الشيخ بكر أبو زيد** رحمه الله بقوله: «وهو أيضا بلفظ: المؤمن مؤتمن على نسبه. ولم أر من أسنده عن مالك ـ رحمه الله ـ أو عن غيره، ومعناه على خلاف ظاهره، وما اشتهر عن الناس، فإنه والحال هذه يناقض الحديث الصحيح: «لو يُعطى الناس بدعواهم . . . الحديث» لكن معناه: الناس مؤتمنون على أنسابهم ـ في الاستلحاق والتبني، فلا يجوز لحاضن اللقيط، أن ينسبه إلى نفسه»[٥].

---

(١) حاشية الدسوقي (١/ ٣٣٠).

(٢) المقاصد الحسنة للسخاوي (٦٨٧).

(٣) تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث (٢٨٢).

(٤) الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث (١٣٢).

(٥) الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث (١٣٢).(الحاشية).

وبهذا تتبين لنا حول هذا القول المتداول بين الناس أمور، من أهمها وأولاها بالاعتبار والاستنباط ما يلي:

١. أن هذا القول ليس بحديث مرفوع فيما هو موجود لدى المسلمين من دواوين السنة.

٢. أنه أثر مروي عن بعض العلماء، قيل مالك، وقيل غيره.

٣. أن مراد قائله أن نسب المؤمن أمانة، فهو مؤتَمَن على نسبه، ولا يجوز له أن يغيره أو يدعي نسباً آخر غير نسبه، وأنه يجب عليه أن يحافظ على نسبه ما استطاع حفظًا للأمانة، لأن لفظ(مؤْتَمَن) اسم مفعول من الفعل(اؤْتُمِنَ) بمعنى مُكَلَّف بحفظ الأمانة، فنسبه أمانة في عنقه. وهذا هو المعنى الذي أشار إليه الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله.

٤. أن اللفظ المذكور ـ وهو (المؤمن مؤتمن) أو (المؤمنون مؤتمنون) ـ هو المشهور عند العلماء، وهو الموافق للتفسير المتقدم، وأما لفظ (مصدقون) فليس هو المعروف لديهم، وتوجيهه الذي يوافق به اللفظ المأثور أن الأصل في المؤمن الصدق، فالمؤمنون مصدقون في أقوالهم استصحاباً للأصل، وبناءً عليه لا يجوز لأحد أن يكذب أحدا في نسبه أو غيره، ما لم يتبين خلاف ذلك بقرائن أخرى، فإذا تبين بدليل ما أن الإنسان كاذب في ادعاء نسب ما فلا يجوز تصديقه ولا نسبته إلى الصدق.

٥. أن المعنى المشتهر عند الناس وعليه يستدلون بهذا الأثر غير صحيح

حتماً ـ كما ذكر الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ـ لأنه معارض للحديث الصحيح، وهو «**لو يُعطى الناس بدعواهم لادعى رجال دماءَ رجالٍ وأموالَهم، لكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر**» رواه مسلم وغيره. فدل ذلك على أنه لا يجوز أن يُصدَّق الإنسان في دعواه بدون دليل، مهما كانت الدعوى، في النسب أو غيره.

الفصل الثالث

الكلام على السلاسل النَسَبِيَّة

لما كان النسب أمانة مأمورا بحفظها، والحاجة إليه ملحة جدًا، وفوائد حفظه تتعلق بها مصالح دنيوية وأخروية كما تقدم، كانت معرفة الإنسان لأصله ورحمه التي أمر بوصلها أمرا واجبا مهما، ومن ثَمَّ جرت عليه عادة الناس منذ خلقهم الله، ولكن يقتصر فيه على ما تدعو إليه الحاجة، ولا يتعذر على الإنسان، فيحفظ الإنسان قبيلته وعشيرته الأدنين، وأما سلاسل آبائه فإن حفظ منهم خمسة أو ستة إلى عشرة أو فوق ذلك أو دونه بقليل كان ذلك حسناً، وهو الشائع الكثير بين بني البشر، لأنه الذي يُحتاج إليه، وتدعو إليه الضرورة عادة.

والأصل في هذا أن النبي ﷺ، لم يرد عنه وصل نسبه إلى آدم، ولا إلى إسماعيل عليه السلام، مع كونه ﷺ من بني إسماعيل حقيقة، بأدلة كثيرة مشهورة، وبينه وبين معد بن عدنان على ما يذكره النسابون نحو عشرين أبًا، ومع ذلك روي عنه أنه كان إذا انتسب لم يجاوز في نسبه معدّ بن عدنان ثم يمسك ويقول «**كذب النسابون، قال الله** ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ »(١)

وقال ابن سعد: «أخبرنا هشام بن محمد عن أبيه قال: بين معدّ وإسماعيل، نيّف وثلاثون أبًا، وكان لا يُسميهم، ولا يُنفذهم، ولعله ترك ذلك

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته (١/ ٥٦).

حيث سمع حديث أبي صالح عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان إذا بلغ معدّ بن عدنان أمسك»[١]، وأورد اختلافات للنسابين والمؤرخين في عدّ ما بين معد وإسماعيل من الآباء وتسميتهم، ثم قال «ولم أرَ بينهم اختلافا أن معدًا من ولد قيذر بن إسماعيل، وهذا الاختلاف في نسبته يدل على أنه لم يُحفظ، وإنما أُخذَ ذلك من أهل الكتاب وترجموه لهم فاختلفوا فيه، ولو صحَّ ذلك لكان رسول الله ﷺ أعلم الناس به، فالأمر عندنا على الانتهاء إلى معد بن عدنان، ثم الإمساك عما وراء ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم»[٢].

وأورد ابن كثير رحمه الله أقوالا وروايات عن السلف في تأكيد عدم تجاوز معد بن عدنان في النسب، وأن النسب إلى إسماعيل عليه السالم لا يحفظه عالم ولا شاعر، ولم يصح عن النبي ﷺ فيه حديث، فدل ذلك على أنه شيء غير محفوظ[٣]، كما دل على أنه غير مهم، ولا ينبني عليه إثبات النسب، مع تأكد صحة النسبة إلى إسماعيل عليه السلام.

وقال ابن حزم: «إن الذي يُقطع به، وُثبت ويُحقق ويوقن، فهو أنه ليس على ظهر الأرض أحدٌ يصل نسبه بصِلة قاطعةٍ، ونقل ثابت إلى إسماعيل ولا إلى إسحاق، عليهما السلام . . . .»[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٥٦).

(٢) الطبقات الكبرى (١/ ٥٨).

(٣) انظر البداية والنهاية لا كثير_٢/ ١٨٠-١٨١).

(٤) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ص ٨).

فهذه حجة واضحة على أن النسب إلى جد من الأجداد إذا كان محفوظا متواترا فلا يضر أن تكون أسماء عمود النسب إليه مجهولة غير معروفة، فهذا نبينا ﷺ والعرب جميعا ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام ولا يعرفون أسماء آبائهم المتصلة إليه، ومن كان ينتسب منهم إلى قحطان كذلك.

وهذا ردٌّ على مَنْ يطالب الناس بسلاسل أنسابهم إذا انتسبوا إلى أحد الصحابة، أو مشاهير القبائل، ولم يلتفت إلى أن الأصل عدم حفظ السلاسل الطويلة، وأن حفظها لا يبنى عليه صحة النسب، ولا يُحتاج إليه، لأن القبيلة من الناس لا يمكن أن يضيع منها نسبها إلا إذا انقرضت، ولم يبق منها من يصلح لحفظ النسب، فعاش غريبا غير معروف، أو جاهلا لا يعرف نفسه وأهله، أو اغترب إلى غير بلده الذي تُعرف به قبيلته، فصار في بلد لا يُعرف به لقبه وأصله، وربما تنوسي فاشتهر بغير نسبه الأصلي، فعند ذاك يحتاج إلى سلسلة معروفة تربطه بقبيلته نسبا.

ولكن هذا لا يكاد يمكن لأحدٍ من عدة وجوه:

منها: طول السلسلة النسبية. **ومنها**: كثرة تشابه الأسماء مع قلة ورع كثير من النسابين، وقلة توقّي الانتساب إلى غير الجدّ الحقيقي للإنسان. **ومنها**: اشتهار كثير من الآباء والأجداد بالألقاب الغريبة التي قد تكون من غير لغة صاحب النسب. **ومنها**: ما يعتري سلاسل النسب من تحريف في الأسماء، وسقوط بعضها، وتقديم وتأخير بسبب اختلاف الناقلين واختلاف الخطوط وكثرة التصحيف مع طول الزمن.

كل هذه الأسباب تجعل السلاسل النَّسَبية ضعيفة في الاعتماد عليها لإثبات النسب، خاصة إذا كان المنتسب في عصورنا هذه المتأخرة ويريد أن يصل إلى عصر الصحابة أو ما بعده.

ومن هنا تعلم قلة فهم من يشترط في إثبات نسب ما سلسلة قد تصل إلى ما بعد عشرة قرون أو أكثر، فإن هذا في غاية الضعف والوهن، ولم يعتمده العلماء في معرفة الأنساب، ولم يكن من هدي نبينا ﷺ ولا من هدي صحابته ﵃.

فما الذي ينبغي أنْ يُعَوّل عليه إذن في إثبات نسبٍ ما؟

الجواب: أما القبيلة فالمعوَّل عليه الآن في جميع القبائل والأمم هو التواتر، والاتصال الذي ليس عن طريق الآحاد، بل اتصال فروع القبيلة بأصولها عرفا وتواترا، فلا تجد قبيلة كاملة تتصل بأصل قديم إلا بهذه الطريقة، فإننا نجد الانتساب إلى قريش، وحمير، وقحطان، والأنصار، وزهران، وغامد، وثقيف . . . .وغيرها من القبائل العربية القديمة، وكل ينتسب إلى قبيلته منها اعتمادًا على المشهور المحفوظ بين أفراد القبيلة، ولا يُسأل أحدٌ عن إثبات صحة ذلك، لأنه أمر لا يحتاج إلى إثبات. فالقبيلة تنسب نفسها إلى آبائها من الجيل الذي قبلها، وكل جيل ينسب نفسه إلى ما قبله بالطريقة نفسها وهكذا إلى نهايته.

وأما الفرد المنقطع عن قبيلته فلا يمكن أن ينسب نفسه فيجعل لنفسه قبيلة معدومة غير موجودة تتصل بأصل قديم. إلا إذا رجع إلى قبيلته ـ إن كانت موجودة ـ فتعرفه بآبائه إن كان يعرفهم، وكانوا أيضا يعرفون فروع قبيلتهم

وأماكن وجودها في العالم.

والأصل عند المسلمين عربا وعجما ـ وهو من أخلاق العرب أصلاً ـ عدم الانتساب إلى غير الآباء الأصول؛ لِما جاء في ذلك عن الرسول ﷺ من الوعيد الشديد، ولعن صاحبه، ولكونه ينافي المروءة والديانة، ويدل على الضعة والذلّ، ويستثنى من ذلك الانتساب إلى الموالي للإنسان حلفاً أو احتماءً أو خؤولةً، ونحو ذلك كالجوار والنشأة والمصاهرة، وأشباه ذلك مما هو معلوم، من غير ادعاء نسب صاحب النسب الأصلي والدخول في سلسلة آبائه.

قال ابن خلدون رحمه الله: «اعْلَم أنه من البيِّن أن بعضا من أهل الأنساب يَسْقُط إلى أهل نَسَبٍ آخَرَ بقرابة إليهم، أو حِلْفٍ أو ولاء، أو لفرارٍ من قومه بجناية أصابها، فيُدعىَ بنسب هؤلاء، ويُعَدُّ منهم في ثمراته من النُّعْرَة والقَوَد وحَمْلِ الديات وسائر الأحوال، وإذا وُجِدتْ ثمرة النسب فكأنه وُجد، لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء إلا جريان أحكامهم وأحوالهم عليه، وكأنه التحم بهم، ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان، ويذهب أهل العلم به، فيَخفَى على الأكثر، وما زالت الأنساب تسقُط من شعب على شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم . . . . .»[١].

وقال أبو العباس القلقشندي في نهاية الأرب: «قد يُنْظم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليهم، فيقال فلان حليف بني فلان أو مولاهم، كما يقال في البخاري: الجعفي مولاهم، ونحو ذلك، وإذا كان

(١) مقدمة ابن خلدون (١٢٣)، الفصل العاشر.

الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب إلى قبيلته الأولى، وأن ينتسب إلى القبيلة التي دخل فيها، وأن ينتسب إلى القبيلتين جميعا، مثل أن يقال: التميمي ثم الوائلي، أو الوائلي ثم التميمي، وما أشبه ذلك»[١].

ثم اعلم أن كل بلد من بلدان العالم يعرفون سكانهم وجيرانهم ممن تعرف لهم أصول وغيرهم، فتجد كل أهل قطر يعرفون أن هؤلاء من قبيلة كذا، وغيرهم من قبيلة كذا، وأن أولئك لا تعرف لهم قبيلة، وهكذا.

هذا هو الغالب المعروف في الدنيا، ولا سيما إذا كانت القبيلة ممن لهم ميزة في الإسلام، أو في التاريخ البشري، أو في عرف أهل البلد، فالغالب حينئذ شهرتهم بذلك، لأن مَن له نسب متميز بسبب ما، أو تاريخ شريف لا يتخلى عنه بسبب من الأسباب، ولكن قد يضيع عنه بسبب الغربة والانفراد عن الأهل والوطن مع الجهل وقلة العلم.

وأما ما نجده من محاولات بعض الناس للالتصاق بأنساب غيرهم وادعاء نسب ما مع عدم معرفة ذلك، وعدم نقله من مصادر موثوقة، وعدم شهرته عند الناس، بل عندهم أنفسهم، وإنما بسبب أنه يجهل آباءه، فإذا رأى اسما في نسب يعجبه في الكتب يشبه اسم جده ألحقه به فبنى لنفسه سلسلة لا يعرفها أبوه ولا جده، ودخل في نسب لا يعرفه له أهل قطره و زمانه، لا الخاصة ولا العامة، ولم يجد عليه كتابًا معتمَدًا، ولا أحدًا يحفظه ويرويه، فهذا منشؤه قلة الوَرع، وجهل الأمر، وقلة الفقه في الدين، ولأجل صِغَر

(١) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب (ص ٣٠).

النفس، وعدم التفكير في العاقبة، فما ذا يفعل هذا إذا وقف أمام الله وكذبه فيما قال؟ وإذا قام أجداده يوم القيامة وخاصموه أمام رب العالمين؟ بل ما ذا يفعل هنا في الدنيا لو انكشفت الحقيقة فيما بعدُ على خلاف ما ادّعاه وتبنّاه؟! وتبين للناس أنه كان كاذبا مُدّعيا؟ وأنه أدخلهم في متاهة هم عنها أغنياء، ولم يكلفهم الله الدخول فيها.

فإن العبرة بالعمل الصالح، وحسن الفعال لا بالنسب والقبيلة، وإنما نلقى الله تعالى بأعمالنا لا بأحسابنا وأنسابنا. وروي عن الرسول ﷺ قوله: «**ومَنْ بطَّأَ به عملُه لم يُسرع به نسبه**» أخرجه مسلم في باب فضل الاجتماع لقراءة القرآن.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله مَن أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» رواه مسلم في كتاب الفضائل من صحيحه.

فربط الكرامة والأفضلية والخيرية بتقوى الله والفقه في دينه، فهذا إذن هو المقياس الأصلي للتفاضل، وليس النسب.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم

على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، **إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار بأصابعه إلى صدره**»(١).

وأورده ابن منده بلفظ: «قال رسول الله ﷺ إن الله عز وجل **لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأشار ﷺ إلى صدره**»(٢).

وقال الهيثمي في المجمع: «عن الحكم بن ميناء أن النبي ﷺ قال لعمر اجمع لي من ههنا من قريش، فجمعهم ثم قال: يا رسول الله أتخرج إليهم أم يدخلون؟ قال بل أخرج إليهم فخرج فقال: **يا معشر قريش هل فيكم غيركم؟** قالوا: لا، إلا بنو أخواتنا، قال: **ابن أخت القوم منهم**، ثم قال: **(يا معشر قريش إن أولى الناس بالنبي المتقون فانظروا لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها فأصد عنكم بوجهي) ثم قرأ**: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ رواه أبو يعلى مرسلاً، وفيه أبو الحويرث، وثَّقه ابن حبان وغيره، وضعفه غيرُ واحد، وبقية رجاله رجال الصحيح»(٣).

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٦).

(٢) الإيمان لابن منده (١/ ٤٦١).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي (١٠/ ٣٩١).

وأخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ الشاهد فيه أوضح، فقال: «جمع رسول الله ﷺ قريشاً فقال: «**هل فيكم من غيركم؟ قالوا فينا ابن أختنا وفينا حليفنا وفينا مولانا فقال حليفنا منا وابن أختنا منا ومولانا منا إن أوليائي منكم المتقون**» هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»[١].

ونحو ذلك ما أخرجه الطبراني في الكبير ـ وغيره ـ: «عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ خرج معه بوصية ثم التفت رسول الله ﷺ إلى المدينة فقال (إن أهل بيتي هؤلاء يروْن أنهم أولى الناس بي وليس كذلك إن أوليائي منكم المتقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا، اللهم إني لا أُحِل لهم فسادَ ما أَصْلَحْتَ وايْمُ الله لَتُكْفَأُ أُمتي عن دينها كما يُكْفَأُ الإناءُ في البطحاء)[٢]». قال الهيثمي: وإسناده جيد[٣].

فعُلِم بهذه النصوص وغيرها أن العبرة بصلاح العمل، لا بالنسب، ولا بالجاه، ولا بالمال، ولا بالسمعة والشهرة، ولا بشيء مما يترافع به أهل الدنيا، وفي رسول الله ﷺ وصحابته الأسوة الحسنة لنا، فلْنقتدِ بهم، ولْيَسَعْنا ما وسعهم، فقد كانوا يذكرون من أنسابهم ما يتعرفون به فقط، ويتركون ما سوى ذلك.

(١) المستدرك للحاكم (٢/ ٣٥٨)، كتاب التفسير. وأشار في التلخيص إلى صحته.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ١٢٠-١٢١).

(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ الهيثمي (١٠/ ٤٠١).

الفصل الرابع

التسمية بالأنصار

إن قبيلة (الأنصار) يراد بها ذرية الأوس والخزرج خاصة، ولا يقال لغيرهم «الأنصار» وهي تسمية إسلامية خصهم الله بها لنصرتهم الرسول ﷺ.

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا﴾ ـ من سورة الصف ـ روي عن قتادة رحمه الله أنه قال في قوله تعالى: ﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾: قد كان ذلك بحمد الله، جاء سبعون رجلا فبايعوا رسول الله ﷺ، عند العقبة، فنصروه، وآووه حتى أظهر الله دينه، قال: «**ولم يُسَمَّ حَيٌّ من الناس باسم لم يكن لهم إلا هم**»[١].

و **أخرج ابن عبد البر رحمه الله بسنده** عن غيلان بن جرير قال: «قلت لأنس بن مالك: أرأيت اسم الأنصار؟ أكنتم تتسمون به في الجاهلية؟ أم هو اسم سماكم الله به في القرآن؟ فقال: بل اسم سمانا الله به»[٢].

وقال حسان بن ثابت رضي الله عنه[٣]:

زادَتْ همومٌ فماءُ العيْنِ يَنْحدرُ سَحًّا إذا حفَّلَتْهُ عَبْرَةٌ دِرَرُ[٤]

---

(١) تفسير القرطبي (١٨/ ٨٩).

(٢) الأنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر (ص١٠٢).

(٣) ديوان حسان بشرح البرقوقي (٢٥١- ٢٥٣).

(٤) حفلته أي جمعته، دِرر سائلة متتابعة.

وَجْدًا بشعثاءَ إذْ شعثاءُ بَهْكَنَةٌ هَيْفاءُ لا دَنَسٌ فيها ولا خَوَرُ(١)
دعْ عنكَ شعثاءَ إذْ كانت مودَّتُها نَزْرًا وشرُّ وِصالِ الواصلِ النَّزَرُ(٢)
وأْتِ الرسولَ فقل ياخيرَ مؤتمَنٍ للمؤمنين إذا ما عُدِّلَ البَشَرُ
علامَ تُدْعى سُلَيْمٌ وهْيَ نازِحةٌ أمام قوْمٍ هُمُ آوَوْا وهمْ نَصَرُوا
سمَّاهمُ الله أنصارًا لنَصْرِهمُ دِينَ الْهُدى وعَوانُ الحربِ تَسْتَعِرُ(٣)
وجاهَدوا في سبيلِ اللهِ واعْتَرَفوا للنائِباتِ فما خامُوا وما ضَجِروا(٤)
والناسُ ألْبٌ علينا فيكَ ليسَ لنا إلا السيوفَ وأطرافَ القَنا وَزَرُ(٥)
ولا يَهُرُّ جنابَ الحربِ مجلسُنا ونحنُ حينَ تلَظَّى نارُها سُعُرُ(٦)
وكمْ ردَدْنا ببَدْرٍ دونَ ما طلبوا أهلَ النفاقِ وفينا أُنزِل الظَّفَرُ
ونحنُ جُندُكَ يوْمَ النَّعْفِ منْ أحُدٍ إذْ حَزَّبَتْ بطَراً أشياعها مُضَرُ(٧)
فما وَنَيْنا وما خِمْنا وما خَبَروا مِنا عِثاراً وجُلُّ القومِ قد عَثَروا(٨)

---

(١) شعثاء : اسم امرأة، بهكنة : غضة مليحة طيبة الرائحة، الخور : الضعف.

(٢) النزر : القليل.

(٣) عوان الحرب : هي الحرب التي تكرر وقوعها.

(٤) النائبات : المصائب. فما خاموا : أي ما جبنوا عن القتال.

(٥) ألب : أي مجتمعون متعاونون على عداوتنا. والقنا : الرماح. والوزر : الملجأ.

(٦) ولا يهر جناب الحرب مجلسنا : أي لا يكره مجلسنا ناحية الحرب. وتلظى : تتلظى.

(٧) النعف : أسفل الجبل. حزبت : أي جمعت. والبطر : الطغيان.

(٨) فما ونينا وما خمنا : أي ما نكصنا وما ضعفنا ولا أصابنا الجبن. وقوله وما خبروا منا عثاراً : أي ما آنسوا منا عثرة حين عثر كثير غيرنا.

وكلمة «**الأنصار**» بمعنى الأعوان الناصرين والمؤازرين، فهي بهذا المعنى اللغوي يمكن إطلاقها لغة على كل من اتصف بهذا الوصف، ولكن لا يتجاوز ذلك الاستعمال اللغوي فحسب، وأما من جهة الاصطلاح فهي عَلَمٌ اختص الله ورسوله به الذين آووا الرسول ﷺ، وآوَوْا سائر المهاجرين من المؤمنين، ونصروه من الأوس والخزرج خاصة دون غيرهم، بمعنى أنه لم يدخل فيه من قبائل العرب إلا هذه القبيلة فقط، وهم أبناء حارثة بن ثعلبة المعروف بـ(العنقاء) بن عمرو المعروف بـ(مزيقيا) بن عامر المعروف بـ(ماء السماء) بن حارثة المعروف بـ(الغِطريف) بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد[١]، ولم يشمل منهم إلا من آوى ونصر دون غيرهم ممن لم ينصر، كأهل عمان منهم، وهم من الأوس: بنو عامر بن النبيت بن مالك بن الأوس، و من الخزرج: بنو السائب بن قطن بن عوف بن الخزرج، فهؤلاء من الأوس والخزرج أزديون بعمان، وكقبيل من الغسانيين بالشام، وكذلك كل من انتسب إلى عمرو بن عامر مزيقيا من غير ولد حارثة بن ثعلبة، فهؤلاء كلهم ليسوا من الأنصار، ولكنهم إخوان الأنصار في النسب[٢].

ومناسبة اختصاص كلمة الأنصار بهؤلاء دون غيرهم من المؤمنين هو أن الرسول ﷺ عرض نفسه على قبائل العرب في موسم الحج ليلة منى، وكانت العرب قاطبة في منى تلك الليلة بحجاجها ووفودها، يطلب منهم أن ينصروه

---

(١) انظر: الأنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر (ص١٠٢).

(٢) انظر: الأنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر (ص١٠١) وما بعدها.

ويحموه حتى يبلغ رسالة الله، فلم يجبه أحد إلى ذلك، لمكانة قبيلته، سوى هذا الحي من بني حارثة بن ثعلبة، وهم الأوس والخزرج ـ **بنو قيلة** ـ فقد آمنوا به وأجابوه إلى أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم، وكانت البيعة المعروفة المشهورة[١]، فخصهم الله بهذا الاسم تشريفا لهم وتكريما لهم على ذلك، في وقت لم يجرؤ فيه أحد على ما قدموا عليه، وقد نتج عن ذلك أنْ رمتهم العرب قاطبة بالحرب، كما قال قائلهم في القصيدة السابقة يخاطب الرسول ﷺ في ذلك الوقت:

والناس أَلْبٌ علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوفَ وأطرافَ القَنا وَزَرُ

قال الإمام الطبري: «حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال حدثني الحسين بن عبدالرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ أحد بني عبد الأشهل أن محمود بن أسد أحد بني عبدالأشهل قال لما قدم أبو الجيش أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قوم من الخزرج، سمع بهم رسول الله، فأتاهم فجلس إليهم فقال هل لكم إلى خير مما جئتم له قالوا وما ذاك قال: (أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى الله أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل علي الكتاب) ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ ـ وكان غلاماً حدثاً ـ أي قوم هذا والله خير مما جئتم له، قال فأخذ أبو الجيش أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال دعنا منك

---

(١) انظر سيرة النبي ﷺ لابن هشام (٢/ ٤٩) وما بعدها.

فلعمري لقد جئنا لغير هذا ، قال فصمت إياس بن معاذ ، وقام رسول الله عنهم وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعاث بين الأوس والخزرج ، قال ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، قال : **فلما أراد الله إظهار دينه وإعزاز نبيه وإنجاز موعده له خرج رسول الله الموسم الذي لقي فيه النفر من الأنصار يعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم** ، فبينا هو عند العقبة إذ لقي رهطا من الخزرج أراد الله لهم خيرا ، قال ابن حميد قال سلمة قال محمد بن إسحاق فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخ من قومه قالوا لما لقيهم رسول الله قال لهم من أنتم؟ قالوا نفر من الخزرج ، قال أمِنْ موالى يهود؟ قالوا نعم ، قال أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟ قالوا : بلى ، قال فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله وعَرَض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . . . .قال : فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك وسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا عن رسول الله راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا ، وهم فيما ذكر لي ستة نفر ، قال فلما قدموا المدينة على قومهم ذكروا لهم رسول الله ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ، حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه بالعقبة وهي العقبة الأولى فبايعوا رسول الله على بيعة النساء

وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب»(١).

وبيعة النساء المذكورة هي التي ذكرها الله في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ خاتمة سورة الممتحنة.

وكان ثمة مَن آمن بالرسول ﷺ من قريش وغيرهم سوى بني قيلة هؤلاء، ولكنهم ضعفاء قليلون مستضعفون آنَذَاكَ، ليست لهم قوة ومنعة لحمايته وإشهار دعوته، ومن ثَمَّ لم يُسمَّوْا باسم الأنصار، بل إن المهاجرين وسائر مَن آمن بعد ذلك كانوا أنصارًا لله ورسوله ودين الحق، وخصهم الله بالذكر والثناء ووعدهم الجنة في كتابه، ومع ذلك لم يدخلوا في اصطلاح اسم «الأنصار» وتجد عطف كلمة «الأنصار» على «المهاجرين» في القرآن، فيدلك ذلك على أن هؤلاء قبيل وهؤلاء قبيل آخر، مع كون حقيقة النصرة صادقة على الجميع. لتعلم أن كلمة (الأنصار) أصبحت عَلَمًا خاصا بهذه القبيلة دون غيرها ممن دخل في المعنى اللغوي.

---

(١) تاريخ الطبري (١/ ٥٦٤-٥٦٧)، وتفسير الطبري (٤/ ٣٤)، وانظر تفسير البغوي (١/ ٣٣٤).

الفصل الخامس

مَواطِن الأنصار وأماكن وجودهم والرد على دعوى انقراضهم

إن مَوْطِن هذه القبيلة في الأصل هو المدينة المنورة، مدينة الرسول ﷺ، وهي طيبة الطيبة، وبعد ذلك انتقلوا منها جميعا، حتى قيل إنه لم يبق منهم أحد فيها، كما سيأتي قريباً، وأن كل من رأيته من هذه القبيلة في المدينة في العصور المتأخرة فاعلم أنه عائد من المهجر، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك.

ثم بعد انتقالهم من موطنهم الأصلي المذكور انتشروا في الأقطار، حتى ندر أن يخلو منهم بلد من بلاد المسلمين، في داخل الجزيرة العربية وخارجها، ومن ثَمَّ تجدهم في مكة وجدة وتهامة واليمن ونجد وعُمان والبحرين وقطر .... إلخ. وأما المدينة المنورة فقلَّ عددهم فيها جدا، غير أنهم لم يزالوا يعودون إليها، ويستقرون في موطن أجدادهم، ولا سيما في أزمان الخلافة الإسلامية التي كان آخرها الدولة العثمانية.

ومما أنشدته بمناسبة بعض زياراتي للمدينة حول هذا الموضوع:

لقد عُدْنا لِطَيْبةَ بعدَ حِينٍ　　وإنَّ لَها بنا علمَ اليقينِ
فكم كنا على شوقٍ إليها　　وكم كان الفؤادُ على حَنِينِ
ولَوْ سألَ الوَرى عَنّا ثَراها　　لقالَ همُ الغِراسُ وهمْ عُيوني
لقدْ قَطنَ النبيُّ هنا وفِينا　　وآثَرَنا فأكْرِمْ بالقَطِينِ
وآثَرَ شِعْبَنا في الأرض شِعْبًا　　إذا افترقوا بسهْلٍ أوْ حُزُونِ
وإنا لن نزالَ له جُنودًا　　وأنصارًا على الحقِّ الْمُبِينِ

وقالَ النـاسُ كلُّهمُ دِثارٌ ... وأنْصارِي الشِّعارُ وما يَلِيني
فكانَ لنا بذاكَ الفضْلُ دَوْما ... قَذًى في عَيْنِ ذي حَسَدٍ دَفِينِ
وأولُنا وآخِرُنا سَواءٌ ... لنا رُكنانِ من حَسَبٍ ودِينِ
فإنَّا خزْرجٌ نسبًا وأَوْسٌ ... سُلالَةُ آلِ قَيْلَةَ في القُرونِ
نَصرنا الحقَّ نَصْرًا ثم كُنّا ... لأهْلِ الحقِّ كالحِصنِ الحصينِ
فَمَنْ يجْمَعْ لِذَيْنِكَ فَهْوَ مِنّا ... وقد آوَى إلى رُكْنٍ رَكينِ
ورحمةُ ربنا الأعلى عمادٌ ... لنا الأنصارَ في كل الشؤونِ
لنا الإسلامُ دِينًا ثم عِزًّا ... وأيْقَنّا به حَقَّ اليَقِينِ

وكان انتقال كثير من الأنصار من الجزيرة في بداية دولة بني أمية، وكانت هجرتهم إلى الأندلس أكثر منها إلى غيره، واستقرت طوائف منهم في مصر والعراق والشام، وعبر بعضهم إلى بلاد فارس والهند، وإفريقيا، ولكن وجودهم في الأندلس كان أغلب وأكثر فيما يظهر لنا، لأن الانتقال إليه غلب كونه بالقبائل وعشائر بأكملها.

قال ابن سعيد: «والعجب أنك تعدم هذا النسب ـ الأنصار ـ بالمدينة وتجد منه بالأندلس في أكثر بلدانها ما يشذ عن العدد كثرة، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلا شيخا من الخزرج وعجوزا من الأوس، قال ابن غالب: وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة، وهم أكثر القبائل في الأندلس في شرقها ومغربها»[١].

---

(١) انظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (١/ ٢٩٥).

ثم قال: «ومن الخزرج بالأندلس أبوبكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء، من ولد سعد بن عبادة صاحب رسول الله ﷺ، وهو المشهور بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة»[١].

وقال ابن حزم: «وكان من ولد عبادة بن الصامت قوم يسكنون بالمدينة[٢] عندنا بباب العطارين بقرطبة، يعرفون ببني هارون»[٣].

وقال أيضاً: «ولسعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري عقب بالأندلس بقرية يقال لها (قرْبَلان) من عمل (سرقسطة)، من قِبَل الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة، وبـ(شذونة) بنو عرمرم بن جميل بن عصام بن قتادة بن وتّاد بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري»[٤].

وكانت بداية دخول الأنصار الأندلس منذ بداية الفتح الإسلامي، كسائر العرب الفاتحين بقيادة موسى بن نصير رحمه الله، ورُويَ أن موسى عهد إلى أحد الأنصار وهو عيسى بن عبد الله الطويل أن يتولى توزيع الغنائم في أثناء فتح الأندلس[٥]، وكانت منطقة استقرار أُسر الأنصار الرئيسة مدينة سرقسطة، وكانت هذه الأسر بقيادة المتقدم ذكرهم من نسل قيس بن سعد بن عبادة

---

(١) المرجع السابق.

(٢) يريد بالمدينة: مدينة قرطبة لأن ابن حزم قرطبي.

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٣٥٤).

(٤) السابق (٣٦٥.٣٦٦).

(٥) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، للدكتور عبد الواحد ذنون طه (ص٢١٦).

الأنصاري أمير الأنصار، ثم انتقل أعقابهم من مناطقهم المذكورة إلى مناطق أخرى في الأندلس، مثل قرطبة، وغرناطة، والبيرة، وطليطلة، وطرطوشة، وشارقة، وكانت هذه المنطقة الأخيرة مسكونة بجماعات مشهورة من الأنصار، حتى عُرفت باسم قلعة الأشراف[١].

قال صاحب «الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس»: «واستوطن مدنيون آخرون من الأوس والخزرج في مناطق مختلفة من الجزيرة، وكان بعضهم يسكنون قرب المدن الكبيرة، حيث كان لهم أماكن وقرى منفصلة، مثل جزء الأنصار قرب طليطلة، وقرية شوش الأنصار قرب إشبيلية، وإقليم تيبل بني أوس قرب البيرة، وتشير ثروة هذه المواقع وغناها إلى مدى اهتمامات هذه الجماعات من الأنصار في اختيار مناطق الاستقرار....»[٢].

وذكر أعلاما ممن سكن مناطق عدة في الأندلس غير هؤلاء، ثم استرسل مضيفا قوله: «ومن هؤلاء بنو خبيب وبنو قطين، الذين استقروا في قرية اختيانة قرب قبرة، التي تبعد نحو سبعين كيلو مترا جنوب غربي قرطبة، وعاش في هذه المنطقة أيضا أحفاد حيان الأنصاري من الأوس الذي استقر أولا في آروش في محافظة ولبة الحالية....ومن الأماكن التي استقر فيها

(١) انظر السابق (ص٢١٦)، نقلاً عن: التكملة لابن الأبار (١/ ٤٤، ٤٢٣)، (٢/ ٥١١-٥١٢).

(٢) الفتح والاستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس، للدكتور عبد الواحد ذنون طه (ص٢١٧).

الأنصار: قلعة رباح، ووادي الحجارة، و أندة، وسوريون في الشرق، أما في الغرب فقد عاش بنو الحبيب في شلب، جنوبي البرتغال الحالية»[١].

ونظرة سريعة إلى كتب: الذيل والتكملة لابن الأبار، والإحاطة لابن الخطيب، ونفح الطيب للمَقّري، والحلل السندسية للأمير اشكيب أرسلان، وتعريف الخلف برجال السلف للغول، واللمحة البدرية في أخبار الدولة النصرية لابن الخطيب، والديباج المذهب لابن فرحون، ونيل الابتهاج لأحمد بابا التنبتكي، وكفاية المحتاج له أيضاً، ودرة الحجال لابن القاضي، وما يماثلها من المراجع الكثيرة في هذا الشأن، كافلة بالوقوف على ما لا يحصى من أعلام قبيلة الأنصار وأعيانها في الأندلس والمغرب العربي جميعه، و بالرجوع إلى هذه الكتب وأمثالها تجد كثرة قبائلهم وعشائرهم المنتشرة في تلك الناحية.

وكانت آخر إمارة للمسلمين في الأندلس هي إمارة غرناطة التي يحكمها بنو الأحمر، وهم منتقلون إليها من منطقة أرجونة في محافظة جيان، وابن الأحمر هذا هو: محمد بن الأحمر بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس بن سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري. فقد تساقطت مدن الأندلس في أيدي النصارى مدينة بعد أخرى، حتى كان آخرها سقوطاً مدينة غرناطة سنة **٨٩٧**هـ.

وقد صمد حكام الأنصار أمام النصارى صمودا لم يعرف له مثيل عند غيرهم من سائر الإمارات الأندلسية، استمر قرنين ونصف قرن من الزمن،

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٢١٧ ـ ٢١٨).

بعد أن تخلى عنهم جميع حكام المسلمين في المغرب والمشرق، ولم يساندهم أحد لصد النصارى مع استنجادهم بالمسلمين في المغرب ومصر وغيرها(١).

وكان كثير منهم قد استوطن بلاد المغرب وكثيرًا من البلاد الإفريقية، ولكن بعد خروجهم من الأندلس صار انتشارهم في المغرب العربي وبلاد إفريقيا أكثر، كما هو شأن سائر القبائل العربية هناك.

وصارت للأنصار تجمعات مشهورة معروفة في البلاد الإفريقية، **أهمها وأشهرها في مدينة فاس في المغرب، والقيروان في تونس، وصحراء (أزواد) المعروفة بالصحراء الكبرى.**

قال ابن حزم: «ولجابر بن عبد الله الأنصاري عقب في جهة إفريقية في الموضع المعروف بالأنصاريين»(٢).

وكذا ذكر الحميري في كتابه (الروض المعطار في خبر الأقطار صـ٣٢) وذكر أنهم من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري.

ونزل في (فاس) ـ وهي مدينة في المغرب تربط بين صحراء(أزواد) وبلاد المغرب الأقصى ـ نزلها آخر ملوك الأنصار من بني الأحمر وهو أبو عبد الله الصغير محمد بن أبي الحسن على بن سعيد بن محمد بن أبي الحجاج يوسف بن محمد الخامس بن أبي الحجاج يوسف الأول بن أبي الوليد إسماعيل بن الرئيس أبي سعيد فرج بن أبي الوليد إسماعيل بن يوسف بن

---

(١) انظر: التاريخ الأندلسي لعبد الرحمن علي الحجي (٥١٩) وما بعدها.

(٢) جمهرة أنساب العرب (٣٥٩).

محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي.[(١)] فأقام في فاس مع عائلته وعدد كبير من رجاله الذين عبروا معه إلى المغرب عقيب سقوط دولتهم في الأندلس ـ قيل (١١٣٠) رجلاً ـ ينعم في قصر بناه هناك حتى توفي ثَمَّةَ ودُفِنَ سنة ٩٤٠هـ[(٢)].

قال الْمَقَّريّ: «انتهى السلطان المذكور بعد نزوله بـ(مليلة) إلى مدينة (فاس) بأهله وأولاده، معتذرا عما سلف، متلهفا على ما خلفه، وبنى بفاس بعض القصور على طريق بنيان الأندلس رأيتها ودخلتها، وتوفي رحمه الله بفاس عام ٩٤٠هـ ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريف، وخلّف ولدين اسم أحدهما يوسف، والآخر أحمد، وعقب هذا السلطان بـ(فاس) إلى الآن، وعهدي بذريته بفاس سنة ١٠٢٧هـ يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعدُّون من جملة الشحّاذين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم»[(٣)].

وصدق الله العظيم القائل: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من سورة آل عمران.

---

(١) انظر: الإحاطة (٢/ ١٣.٩١)، وكناسة الدكان بعد انتقال السكان (٢٠.٢١)، كلاهما للوزير ابن الخطيب، ونثير فرائد الجمان لابن الأحمر إسماعيل بن يوسف (١٦.١٧).

(٢) قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي لعبد الكريم غلّاب (٢/ ٢٨٧).

(٣) نفح الطيب (٤/ ٥٢٩). وانظر: التاريخ الأندلسي للعلامة الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحجي (٥٥٧).

الفصل السادس

مزيد من أمثلة أعلام الأنصار في بلاد المغرب والأندلس

ومن أمثلة الأعلام الذين تناسلت منهم أسر مشهورة في بلاد الأندلس **والمغرب**: محمد بن عبدالرحمن بن أبي العاصي بن يوسف بن فاخر بن عتاهية بن أبي أيوب بن حيّون بن عبد الواحد بن عفيف بن عبد الله بن رواحة بن سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، **قال ابن الأبار في التكملة**: قرأت نسبه بخطه ونقلته منه وهو من أهل شارقة قلعة الأشراف[(١)] عمل بلنسية ... روى عنه ابنه الحكم بن محمد وتوفي في نحو العشرين وخمسمائة[(٢)].

وذكر أيضاً أبا عبد الله يوسف بن يوسف بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن غزلون بن مطرِّف بن طاهر بن هارون بن عبد الرحمن بن هاجر بن الحسين بن حرب بن أبي شاكر الأنصاري من أهل شون عمل بلنسية، رحل حاجا سنة **٥٦٣**هـ وأدى الفريضة سنة **٥٦٤**هـ وحج ثلاث حجات متواليات ولقي بالاسكندرية أبا طاهر السلفي سنة **٤٦٦**هـ وسمع منه الأربعين حديثاً .... قال ابن الأبار: وبخطه قرأت نسبه وعلى الصواب ثبت هنا[(٣)].

ومن **أعلام الأنصار** ممن دخل بلاد المغرب من المشارقة المكيين:

---

(١) وقد تقدم أنها سميت قلعة الأشراف نسبة إلى سكنى الأنصار فيها.

(٢) الحلل السندسية (٣/ ١٨٠).

(٣) السابق (٣/ ١٨٣).

الشيخ النحوي شهاب، أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد المعطي بن أحمد بن عبد المعطي بن مكي بن طراد بن حسين بن مخلوف بن أبي الفوارس، بن سيف الإسلام بن قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي، أخذ عن أبي حيان وغيره، توفي سنة ٧٨٨هـ[١]

* **ومنهم**: أيوب بن منصور بن عبد الملك الأنصاري النحوي، من أهل قرطبة يكنى أبا سليمان ويعرف بالذهن كان عالماً بالإعراب وموصوفاً بالعدالة، وأدب بعض أولاد الخلفاء، وكان بعض الأمراء يسميه الفقيه[٢].

* **ومنهم**: أيوب بن عبد المؤمن بن يزيد الأنصاري من أهل طرطوشة يكنى أبا القاسم ويعرف بابن أبي سعد، سمع بقرطبة من ابن أيمن وقاسم بن أصبغ وغيرهما ورحل إلى المشرق فسمع بمكة من أبي سعيد بن الأعرابي وغيره وكان فقيها عاقدا للشروط، وتوفى رحمه الله في شوال ٣٧٤هـ[٣].

ومن أعلام الأنصار في بلاد المغرب العربي:

* **الفقيه العلامة الصالح** المفتي محمد بن قاسم أبو عبد الله الأنصاري التونسي المعروف بالرصاع، المتوفى سنة ٨٩٤هـ[٤].

---

(١) درة الحجال في أسماء الرجال لابن قاضي المكناسي (١/ ١٥٢-١٥٣). وشذرات الذهب لا العماد (٨/ ٥١٦).

(٢) تاريخ العلماء بالأندلس (١/ ١٠٣).

(٣) تاريخ العلماء بالأندلس (١/ ١٠٣).

(٤) نيل الابتهاج بتطريز الديباج (٢/ ٥٦٠).

* ومنهم: **الفقيه الكاتب** عبد الواحد بن منديل بن عبد الواحد الأنصاري الفاسي، توفي بفاس ٧٧٨هـ[١].

* ومنهم: **الفقيه العدل** أبو عبد الله محمد بن علي بن البقال الأنصاري الفاسي، توفي بفاس ٧٧٨هـ[٢].

* ومنهم: **الشيخ الحافظ المتفنن** يوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عديس الأنصاري، يكنى أبا الحجاج، توفي بفاس سنة ٥٠٥هـ[٣].

* **ومن أهل المغرب** أيضا الفقيه الزاهد الشيخ أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر الأندلسي الأنصاري، تنقل بين مدن المغرب من فاس إلى مكناسة ثم إلى سَلا التي توفي بها سنة ٧٦٤ أو ٧٦٥هـ[٤].

ومن أمثلة الأعلام ممن دخل إلى الصحراء وتوفي في تلك البلاد: أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الله بن عبدالله بن يحيى بن أبي يحيى بن أحمد بن السراج، أبو الحسن الأنصاري السجلماسي الخزرجي من ذرية سعد بن عبادة ولد بمدينة (تافِلالْت) ونشأ بسجلماسة، ثم رحل إلى فاس، وتوفي بالجزائر سنة ١٠٥٤هـ[٥].

---

(١) نيل الابتهاج بتطريز الديباج(١/ ٢٨٨).

(٢) الابتهاج بتطريز الديباج (٢/ ٤٨٥)، ودرة الحجال (٢/ ٢٧٤).

(٣) بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس لأحمد بن يحيى الضبي (ص ٤٢٩).

(٤) درة الحجال في أسماء الرجال لابن قاضي المكناسي (١/ ١٤٨-١٤٩).

(٥) انظر تعريف الخلف برجال السلف للغول (٧٣.٧٤).

* ومنهم: **الشيخ الفقيه** المؤرخ المحدث المسند أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن عبد الله الأنصاري، الأُسَيْدِي ـ نسبة إلى الصحابي أسيد بن الحضير الأنصاري سيد الأوس ـ القيرواني المعروف بالدباغ، توفي بها سنة **٦٩٩**هـ[١].

وذكر الفردبِل في كتابه «الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي» ـ بترجمة عبد الرحمن بدوي ـ في أثناء حديثه عن أحد الشرفاء من ذرية سيدي مسعود السرحاني، اسمه الحسن، وأخوه علي، : أنهما وأخت لهما ذهبوا إلى نواحي (تافسرة) وهي قرية لبني سوس فرحب بهم خير ترحيب وليّ يُدعَى شعيب بن عبد الحليم الأنصاري، وأضاف أنه لا يزال قبره حتى اليوم مبجلا في هذه القرية، على ما جرت به العادة هناك . . . .ثم ذكر أن شعيبا هذا صار زعيما للمنطقة بعد رحيل بني حبيب، وذاك في القرن الخامس الهجري[٢].

وممن ذكرهم الشيخ محمد الغول في تعريف الخلف: إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري التلمساني، ولد آخر ليلة من جمادى الآخرة بتلمسان ـ بالجزائر ـ سنة **٩٠٩**هـ، وتوفي بعد**٩٦٠**هـ[٣].

وذكر ابن الأحمر الأنصاري المتوفى سنة **٨٠٧**هـ: الفقيه الكاتب العلامة أبا علي حسن بن يوسف بن عبد السلام الخزرجي، الغرناطي **المتوفى**

---

(١) درة الحجال في أسماء الرجال لابن قاضي المكناسي (٣/ ١٠٥-١٠٦).

(٢) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي (ص٤٣٨).

(٣) تعريف الخلف برجال السلف للغول ١/ ١٥٧

بتونس، ثم قال: أدركته[١].

* **ومنهم**: محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن يوسف بن قطرال الأنصاري من أهل مراكش، يكنى أبا عبد الله، ويعرف بابن قطرال، توفي سنة **٧٠٩هـ**[٢].

* **وكذلك**: أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن يوسف بن أحمد الأنصاري فاسي المولد، أصله منها قديما ومن مراكش حديثا يكنى أبا الحسن، ويعرف بابن قطرال أيضاً ولد **٥٦٢هـ**، روى عن أبي بكر بن الجد، توفي سنة **٦٥١هـ**[٣].

ومن نزل بلاد (تنبتكو[٤] بـ(مالي): الفقيه المهندس الكاتب أبو

---

(١) نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر (ص٣٠٧).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (٣/ ٢٠٢).

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (٤/ ١٩٠).

(٤) تقع مدينة تمبتكو في قلب الصحراء الكبرى في شمال إفريقيا، وهي الصحراء المعروفة بـ(أَزَوادْ) أو: (آَظَوَا) بمعنى الصحن، على شاطئ النهر الذي يمر هناك متجها إلى شرقا صوب بلاد النيجر، و تُعد مدينة تمبتكو عاصمة إقليم أزواد منذ تأسيسها عام ٤٥٠هـ على يد طوارق إيمَقّشَرَنْ، الذين حكموها سنين بعد تأسيسها في عهد الدولة المرابطية، ثم حكمها أهل ملِّي بعد ذلك، ثم في القرن الثامن الهجري، ثم عاد إليها حكم أهلها إيمَقّشَرَنْ فمكثوا فيها أربعين عاما، ثم حكمها صُنْغَيْ وهم الأساكي، ثم الدولة السعدية المغربية بعد ذلك، وفي ظلها وأيامها امتد إليها حكم إمارة الأنصار التي تُعد جزءا من الدولة السعدية... والله يؤتي ملكه من يشاء. وقد كانت هذه المدينة بمنزلة مدن القيروان وفاس ومراكش وقرطبة، في ظل حكم الدولة المرابطية وما بعدها، فقد اجتمع فيها ووفد=

إسحاق إبراهيم بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي المعروف بـ(الساحلي وبالطويجن) قال ابن الأحمر الأنصاري: «توفي بمالي من أرض جناوة في عام ٧٤٤هـ أدركته»[١].

وترجم له غير واحد من المؤرخين كالسعدي وصاحب الإحاطة، واتفقوا على أنه مات بتنبتكو مسموما وترك ذريته هناك[٢].

وقد اتصلت مدينة تنبتكو بالمغرب إذكانت جزءاً منه منذ عهد المرابطين.[٣]

وممن توغل في الصحراء من المرابطين أميرهم: تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين المجاهد الصنهاجي المشهور، وكان من رجالات هذا الأمير وكتّابه: أبوبكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري، المعروف بابن

= إليها العلماء والفقهاء من جميع الأجناس والطوائف والأقطار الإسلامية، من المغرب والأندلس ومصر والحجاز والعراق، وبلاد السودان بعامة، وازدهرت ثقافيا وحضاريا وعمرانيا واجتماعيا واقتصاديا، وقد أتتها العمارة من قِبَل المغرب. كما صرح بذلك السعدي. وأول ما بُنِي فيها من المباني الطينية مسجد الجامع في عصر أهل ملّي، وأما مسجد (سنكري) فلم يُبنَ إلا في نهاية القرن التاسع الهجري وتكامل في أواسط القرن العاشر في عهد دولة الأساكي الصنغية... (انظر: تاريخ السودان للسعدي ص ٢٠وما بعدها، وكتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا لعصمت دندش ص٢٢٣.).

(١) نثير فرائد الجمان لابن الأحمر صـ٣٠٨هـ.

(٢) انظر: تاريخ السودان للسعدي (٨).

(٣) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس لأحمد العبادي صـ ٣٢٥هـ.

الصيرفي، مؤلف كتاب (تاريخ الدولة اللمتونية) وكان من أعيان شعرائها، وتوفي سنة ٥٥٧هـ[(١)].

وكان لهذه الدولة المرابطية الصنهاجية السنية المغربية اهتمام كبير بعلماء أهل السنة الأعلام، ولأجل ذلك استقطب حكامها كثيراً من أعلام الفقهاء والجهابذة الكبار، من أمثال أبي بكر بن العربي المتوفى ٥٤٢هـ، وأبي الوليد الباجي المتوفى ٤٧٤هـ، والقاضي عياض المتوفى ٥٤٤هـ، وابن رشد المتوفى ٥٢٠هـ وغيرهم كثير، رحمهم الله.

وفي جملتهم من علماء الأنصار:

* **الفقيه** أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري[(٢)].

* والفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن حيات الأنصاري المتوفى سنة ٥٠٣هـ[(٣)].

* **وأبو جعفر** عبد الوهاب بن حكم الأنصاري المتوفى سنة ٤٨٩هـ[(٤)].

وقال السعدي في كتابه: «تاريخ السودان» ـ في أثناء حديثه عن علماء تنبتكو ـ: «الفقيه الزاهد المؤدب سيد عبد الرحمن الأنصاري» وذكر أنه

---

(١) انظر: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا لعصمت دندش (ص١٤٦).ومقدمة ابن خلدون (٢٥٢)، وبغية الوعاة (٢/ ٣٤٣).

(٢) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين (ص١٨٤).

(٣) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين (ص٢٩٠)

(٤) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين (ص٢٩٠).

خال والده[١].

وقال أيضاً: «وفي عام ١٠٥٤هـ توفيت العمة أمّ نانا بنت الفقيه المقرئ سيد عبد الرحمن بن سيد علي بن عبد الرحمن الأنصاري، في تنبتكو»[٢].

ولست هاهنا بصدد حصر العلماء والشخصيات والأسر من الأنصار، في الأندلس والمغرب، فالكتب التي أشرت إليها كفيلة بذلك لمن أراد المزيد.

ولكن حسبي ما يُستدل به على وجود هذه القبيلة في المغرب العربي ومنه صحراء تنبتكو وما حولها، وقد تقدم لك ما يثبت ذلك بجلاء.

خلاصة الفصل:

لقد انجلتْ لنا من خلال السرد التاريخي السابق الحقائق التالية:

* أن الأنصار انتقلوا من المدينة المنورة في وقت مبكر، حيث كان ذلك منذ عهد الصحابة والتابعين، أي في القرنين الأول والثاني.

* أنهم انتشروا في جميع بلاد المسلمين، وأقاموا في تلك البلدان التي انتقلوا إليها وتناسلوا، حتى صارت منهم قبائل في كل نواحي الدنيا.

---

(١) انظر منه (صـ ٦٢).

(٢) تاريخ السودان للسعدي (صـ٢٩٩). وكلمة (نانّا) هي في الأصل (لالّة) لقب للمرأة النسيبة الشريفة. انظر المرجع السابق، وبداية الحكم المغربي للدكتور محمد الغربي (ص٥٥١). والأصل إضافتها إلى الاسم الأصلي، فيقال: لاله عائشة، ولالّه فاطمة... ثم صارت يكتفى بها في التسمية، فتسمى البنت (لالّة) أو (نانّة) وباللام أكثر، ولا يزال ذلك جاريا في بلاد المغرب إلى يومنا هذا.

* وفرة أعدادهم في بلاد الأندلس وإفريقية، وأنهم صاروا في تلك الناحية من أشهر الأسر المسلمة التي وردت إليها واستوطنتها، وانتشرت فيها حتى لا يكاد بلد من بلاد المغرب والأندلس يخلو منهم.

* أن منهم أعلاما وشخصياتٍ مشهورةً معدودة من كبار العلماء والقواد والأمراء والشيوخ في بلاد المغرب والأندلس.

* أنهم توغلوا في الشمال الإفريقي، ودخلوا الصحراء، وخالطوا أهلها، حتى صاروا في عدادهم منذ بدايات دخول الإسلام إلى المنطقة في القرن الثاني الهجري، كما هو شأن سائر القبائل العربية الأخرى، ولا فرق بين الأنصار وغيرهم في ذلك.

* ثبوت وجودهم في صحراء أزواد(١)، وفي نواحي مدينة تمبتكو

---

(١) يطلق على الصحراء الكبرى بشمال إفريقيا: صحراء (أزَوادْ)، وكأن الأصل: أزْواد، بسكون الزاي، جمع زاد، فيحتمل أن تكون سميت بذلك على أن المسافرين فيها لا بد لهم من أزواد متعددة، لطولها وعرضها، وانعدام السكان في كثير من متاهاتها، وتعرض الإنسان فيها للهلاك. . .ولكن ذكر لي الشيخ محمدهمّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) أن الأصل: (آظَوا) وهي كلمة طارقية بمعنى الصحن، أي القصعة الكبيرة التي يوضع فيها الطعام، أطلقوا عليها ذلك تشبيهًا لها بالصحن في الاستواء والخلاء من الأمارات ووسائل الحياة. ووقع في بعض كتب المؤرخين تسميتها بـ(أزوات) بالتاء، على أنه اسم منطقة معينة من تلك الصحراء، هي (أَرَوان) أو منطقة قريبة منها، (انظر: بداية الحكم المغربي للسودان الغربي (ص٢٤٢، ٣٨٣) وهذا موافق لما ذكره المؤرخ السعيدي الذي يسميها (أَظَوات) (انظر تاريخ السودان للشيخ عبد الرحمن السعيدي (ص١٨١). وبعض المؤرخين يصرح باسم (أزواد) اسمًا للصحراء كلها ويحددها بحدودها، (انظر مثلاً: دور=

خاصة، وكذلك ما حولها من نواحي تلك الصحراء، وهذه المدينة تقع حاليا في دولة مالي، وإليها ينتسب الأنصار الموجودون في مالي، وكانت هذه المدينة جزءا من الدول المغربية التي تعاقبت على المنطقة، أعنى دول المرابطين والموحدين والمرينيين وآل زيري والوطاسيين والسعديين، وكانت القبائل العربية من الأنصار وغيرهم يتنقلون بين مدن مراكش وفاس ومكناس وتلمسان ووهران والقيروان وتوات وولاتة وأرَوان وتمبتكو، وغيرها من مشاهير مدن المنطقة دون أن يعترضهم شيء، ومن ثَمَّ بقي نسلهم في هذه المدن إلى يومنا هذا.

* لقد تعمدتُ في ذكر أعلام الأنصار وأسرهم فيما تقدم التمثيلُ به أن أكتفي بمن صُرح بنسبته إلى الأنصار خاصة، في المراجع المحال إليها، إما بكلمة (الأنصاري) أو (الخزرجي) أو (الأوسي) أو بالأنصاري مع إحداهما، قطعا للجدال والريب، ولكن ينبغي لمن له معرفة وإدراك للأمور أن يعلم أن مَنْ عُرف من الأنصار بألقاب غير الألقاب المذكورة كثير جدًا، في كل بلاد العالم، فمنهم من عرف بنسبته إلى بلده، أو حلفائه، أو مهنته، أو جد من أجداده، أو بلقب طارئ بسبب من الأسباب، وهذا مشهور معروف لا ينازَع فيه، وقد تقدم في بداية الكتاب القول في ذلك.

وبناء على هذا ينبغي أن يُعلم أن كون الإنسان لا يُعرف باسم قبيلته

= المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، لعصمت عبد اللطيف دندش (ص٣٣)، نشر دار الغرب الإسلامي). والله أعلم بالحقائق.

الأصلي لا ينفي عنه انتسابَه إليها، وأن الأنصار في ذلك كغيرهم من الأمم، فَثَمَّةَ قبائلُ من الأنصار وأُسرٌ في كل بلاد العالم قد اشتهرت بألقاب غير لقب (الأنصاري).

فإذا عرفت هذا تَيَقَّنْتَ جهلَ من ينكر خروج الأنصار من المدينة، أو وجودهم في غيرها، أو من ينكر أو يشكك في وجودهم في الأندلس والمغرب والصحراء الكبرى في إفريقيا، وعلمت بالأحرى غفلة من يدّعي انقراضهم، وهذه الكتب تعج بهم، ونسلهم في الأرض منتشر في كل ناحية، وقبائلهم معروفة مشهورة أينما حلُّوا، لا ينكرهم أحد في أقطارهم التي اشتهروا فيها وعُرفوا. **وقد قال عنهم الإمام السمعاني المتوفى سنة ٥٦٢هـ: «الأنصار فيهم كثرة وشهرة على اختلاف بطونها وأفخاذها»**[١].

ومن **عجيب** ما رأيناه في عصرنا هذا أن بعض من يدعي العلم والمعرفة إذا قيل له هذا أنصاري من بلاد المغرب، أو من الهند، أو من خراسان، أو من إفريقيا، استنكر أشد الاستنكار، ويقول: الأنصار في المدينة، وأين تلك البلدان النازحة من الأنصار وهم من الجزيرة؟!! وكيف يوجد الأنصار في هذه الأزمنة المتأخرة وهم في عهد النبي ﷺ؟!!

ويجعل ذلك ذريعة للتشكيك في نسب المنتمي إليهم، وقذفه بالادعاء في النسب!! ونحو ذلك، ولا ريب أن مثل هذا القول يدل على جهل مضاعف، أو ضيق في التفكير، لأنه لو فكَّر وقدّر لوجد وعَلِم أن أكثر قبائل

(١) الأنساب للسمعاني (١/ ٣٦٧).

العرب الموجودة الآن كان آباؤها وأجدادها في زمن النبي ﷺ، وقبله، وإذن لَانْكشف له أن أولئك الصحابة الذين جاهدوا مع النبي ﷺ، لهم نسل منتشر في جميع أقطار الأرض، لا فرق في ذلك بين المهاجرين والأنصار وغيرهم، فما الذي خص الشك والتردد في وجود الأنصار دون غيرهم؟

لا ريب أن الشك والتردد في الإقرار بوجودهم ينبغي أن لا يصدر إلا ممن يجهلهم ويجهل التراث الإسلامي ومصادره، أو يجهل تاريخ الأمة الإسلامية، وأحوال الأمم والقبائل والبلدان، ويجهل سنة الله في بني البشر، وفي بقائهم في الأرض، فإذا اجتمع مع هذا الجهل والعمى المفرط هوًى متبع، أو غرور زائف، أو ادعاء باطل، كثرت المناكير من صاحبه واستحكم الجهل، ورُكبت العمياء، واختلطت الأخبار، وضاعت الحقوق، وانتشر الظلم، ولم يجد الضعيف موطنا يرفع فيه رأسه، ويتكلم فيه بحجته، لأن صاحب الحق حينئذ يصبح هو الضعيف، والسيطرة تصبح للجهل والباطل، إلى أن يزهقه الله ويدمغه بالحق.

إزاحة إشكال «الناس يكثرون والأنصار يقلون»:

لقد رأينا مَنْ يعتمد في دعواه السالفة بانقراض الأنصار، أو التردد في الإقرار بوجودهم وبقاء نسلهم في هذه الأزمنة المتأخرة، على الحديث الصحيح الذي أخبر فيه الرسول ﷺ أن **الناس يكثرون والأنصار يقلون حتى يكونوا كالملح في الطعام**، معتمدًا في فهم الحديث على ما تهواه نفسه، وقد يكون ذلك من بعضهم فرارًا من الاعتراف بفضيلة الأنصاري الذي يعيش معه في عصر واحد.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه، فقال: «(**باب قول النبي ﷺ اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**): **حدثني محمد بن يحيى أبو علي حدثنا شاذان أخو عبدان حدثنا أبي أخبرنا شعبة بن الحجاج عن هشام بن زيد قال سمعت أنس بن مالك يقول ثم مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال ما يبكيكم؟ قالوا ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، قال: فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، قال فصعد المنبر ـ ولم يصعده بعد ذلك اليوم ـ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**. حدثنا أحمد بن يعقوب حدثنا بن الغسيل سمعت عكرمة يقول سمعت بن عباس رضي الله عنهما يقول ثم خرج رسول الله ﷺ وعليه ملحفة متعطفا بها على منكبيه وعليه عصابة دسماء حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **أما بعد أيها الناس فإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن ولي منكم أمرا يضر فيه أحدا أو ينفعه فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم**. حدثنا محمد بن بشار حدثنا غندر حدثنا شعبة قال سمعت قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **ثم الأنصار كَرِشِي وعَيْبَتي والناس سيكثرون ويقلون فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**»(١).

والحديث تعرض له أئمة المسلمين بالشرح منذ قديم، وبينوا معناه بما

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي (٣/ ١٣٨٣)، مناقب الأنصار.

يكفي في إيضاحه، وإزاحة إشكاله، ولو دقق المنصف الحاذق لمعاني النص اللغوي، والعارف بمقاصد خطاب الشرع الحكيم في معنى هذا الحديث لتبين له أنه يحتمل المعاني الآتية:

١. يدل على أن الأنصار لن تخلو منهم الأرض، وأنهم لن ينقرضوا، وإنما يقلون بالنسبة لغيرهم من الناس، وذلك أن الناس من عجم وعرب يدخلون في الإسلام فيكثرون ويتناسلون فيكثرون، أما الأنصار فمهما تناسلوا لن يبلغوا بالنسبة لغيرهم من الناس إلا كنسبة المقدار المعتدل من الملح في الطعام، وهو ما يكفي آكله، والسبب في ذلك أن الأنصار هم ذرية الأوس والخزرج فقط، فإن النصرة انقطعت بهم، فلن يزاد على جنس هؤلاء بقبيل آخر إلى يوم القيامة، أما سائر الناس فيكثرون بسبب انتشار الإسلام والفتوحات الإسلامية في كل أنحاء الدنيا.

قال ابن حجر في الفتح: «قوله في حديث أنس (وإن الناس سيكثرون ويقلون) أي أن الأنصار يقلون، وفيه إشارة إلى دخول قبائل العرب والعجم في الإسلام وهم أضعاف أضعاف قبيلة الأنصار، فمهما فُرِض في الأنصار من الكثرة كالتناسل فُرِضَ في كل طائفةٍ من أولئك، فهم أبدا بالنسبة إلى غيرهم قليل، ويحتمل أن يكون ﷺ يتحقق على أنهم يقلون مطلقاً، فأخبر بذلك فكان كما أخبر؛ لأن الموجودين الآن[1] من ذرية علي بن أبي طالب

(١) في القرن التاسع الهجري، لأن ابن حجر عاش إلى ٨٥٣هـ وهو منتصف القرن التاسع.

ممن يتحقق نسبه إليه أضعاف من يوجد من قبيلتي الأوس والخزرج ممن يتحقق نسبه، وقس على ذلك، ولا التفات إلى كثرة من يَدَّعِي أنه منهم بغير برهان. وقوله: **حتى يكونوا كالملح في الطعام**: في علامات النبوة بمنزلة الملح في الطعام أي في القلة لأنه جعل غاية قلتهم الانتهاء إلى ذلك، والملح بالنسبة إلى جملة الطعام جزء يسير منه، والمراد بذلك المعتدل..» انتهى الغرض منه[١].

٢. كان الرسول ﷺ يخاطب أهل المدينة، وقد صعد المنبر آنذاك في آخر صعود له، ﷺ، فآسى للأنصار لما رأى حزنهم عليه، وشفقتهم من فراقه، فأخذ يوصي بهم، فأطلعه الله على ما سيؤول إليه أمر الأنصار في المدينة من قلتهم وانتقالهم منها، مع كثرة الوافدين على المدينة والمستوطنين لها من غير الأنصار، وكان كما أخبر النبي ﷺ، فقد تقدم بيان انتقالهم من المدينة وانتشارهم في أقطار الأرض، وحلت أمم غيرهم مكانهم في المدينة، وهذا واضح لمن تأمله، والحديث دال عليه دلالة واضحة، وهو معنى معاضد للمعنى السابق ومتمم له، فقوله (يقلون) أي يقل وجودهم في الأرض، وأول أرض تدخل في ذلك الأرض التي هم فيها آنذاك، وهي المدينة المنورة، والرسول ﷺ أوتي جوامع الكلم، وهذا منها.

٣. قوله (**حتى يكونوا كالملح في الطعام**) يدل على شدة قلتهم بالنسبة

(١) فتح الباري (٧/ ١٢٢).

لغيرهم، وهذا يدل عليه الواقع الذي نعيشه الآن، ويحتمل معنى آخر لا يحيله المنطق، وهو انتشارهم في كل نواحي الدنيا، مع ظهور قيمتهم المعنوية، حتى إنك إذا جئت إلى مكان فيه ثلاثة أو أربعة منهم بين مئات الناس بل وآلاف الناس خُيِّلَ إليك أن الأنصار كثير في هذا المكان، ولو أحصيت الموجود منهم في ذلك المكان لَتَبين لك أنهم كنحو عدد أصابع اليد، وقد جربنا هذا مراراً واستقام لنا معناه بالتجربة والبرهان، فظهرت بذلك المعجزة النبوية، ودِقَّةُ بلاغة النص النبوي في تشبيههم بالملح في الطعام، ألا ترى أن الملح في الطعام يوجد فيه كلِّه، وأن قيمته تبلغ إلى عدم الاستغناء عنه، وأن الآكل يجد طعمه قبل غيره، وكل ذلك يكون مع قلته؟!! فهذا يحتمله النص لفظاً، ولا مانع منه شرعا، ولا يحيله العقل، والواقع يصدقه، لأن النص جاء في معرِض المدح وتعداد الفضائل، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ.

توشيح:

لقد مرت بعض الألفاظ التي قد تخفى معانيها اللغوية على بعض القراء، وهي: (كَرِشي) و(عَيْبَتي) من قوله ﷺ: «**أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي . . .**» قال العلامة الشيخ أبوبكر عتيق بن أحمد بن الفراء الغساني: «معناه: جماعتي وخاصتي الذين أثق بهم وأعتمدهم في أموري. ثم قال: وقال الخطابي رحمه الله: «ضرب المثل بالكرِش لأنه مستمد غذاء الحيوان

الذي يكون به بقاؤه، والعَيْبَة هي التي يخزن فيها المرء جيد ثيابه ويصونه، ضرب المثل به، يريد ﷺ أنهم موضع سره، قال: والكرش أيضاً عيال الرجل وأهله»[١].

(١) نزهة الأبصار في فضائل الأنصار لابن الفراء الغساني الأندلسي (٢٣٣).

الفصل السابع

هل يشمل فضل الأنصار الأولِين والآخِرين؟

لقد فضل الله الأنصار وأثنى عليهم في كتابه الكريم، ومدحهم ورفع شأنهم في الدنيا والآخرة، وأثنى عليهم الرسول ﷺ، وفضّلَهم ونوّه بفضلهم، وأوصى بهم خيرًا، ودعا لهم، وأخبر أنهم أحب الناس إليه[1]، وجعل لهم ميزة يقصر عنها غيرهم، فهل هذا التشريف والتكريم والتفضيل يشمل أولهم وآخِرَهم؟ وهل يدخل الأبناء اللاحقون مع أجدادهم الذين نصروا الرسول ﷺ ونزل فيهم القرآن؟

الإجابة عن هذا السؤال تتضمن ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أن النصوص الشرعية، والقرائن المعتبرة شرعا وعقلا تدل دلالة واضحة على أن فضل الآباء والأجداد يتعداهم إلى أبنائهم مهما نزلوا، قال الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ ـ سورة الطور ـ أي ما أنقصناهم من عملهم من شيء، والولد من كسب أبيه، كما جاء في الحديث، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ـ من سورة آل عمران ـ فقد لحق فضلُ آدمَ ذريتَه ففضلهم الله وكرمهم على سائر الحيوان، ولحق فضلُ إبراهيم آلَه، كما لحق فضلُ عمران

(١) انظر فتح الباري (٧/ ١١٤).

آلَه من بعده، فشمل الفضل ذراريهم جميعاً.

قال القاضي أبو بكر ابن الفراء الأندلسي رحمه الله: «إن قيل هل يدخل أبناء الأنصار مدخل آبائهم في أن تكون محبتهم إيماناً وبغضهم نفاقا أَوْ لا؟

الصحيح أنهم يدخلون في اسم آبائهم، أو أن أبناءهم مثلهم في الاسم والحكم، لقول النبي ﷺ، في عبد الله بن أبي طلحة رضي الله عنه حين جيء به صبيحة مولده فحنكه بتمرة فجعل الصبي يتلمظ فقال ﷺ: **(انظروا حب الأنصار التمر)**[1] فسماه رسول الله ﷺ ودعا له، قال أنس رضي الله عنه: ما كان في الأنصار ناشئ أفضل منه وله عشرة أولاد كلهم قراء رضي الله عنهم، أشهرهم إسحاق بن عبد الله شيخ مالك رحمة الله عليهما، فموضع الدليل من الأثر حيث جعله النبي ﷺ من الأنصار، وقال ﷺ: **(اللهم اغفر للأنصار، وأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار)**»[2].

وهذا الحديث أخرجه مسلم في كتاب الفضائل من صحيحه، باب فضائل الأنصار رضي الله عنهم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، وفيه «عن أنس رضي الله عنه **أن رسول الله ﷺ استغفر للأنصار، قال: وأحسبه قال: ولذراري الأنصار ولموالي الأنصار، لا أشك فيه**»[3].

وقال القاضي أبوبكر ابن الفراء رحمه الله: «وأيضا فإن الأنصار لقي

---

(١) الشاهد فيه أنه جعل الصبي المولود أنصاريا، لأنه من ذرية الأنصار.

(٢) نزهة الأبصار في فضائل الأنصار للقاضي أبي بكر ابن الفراء (٢٣٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٦٧).

النبيَّ ﷺ منهم عصبةٌ أوفاها سبعون فشارَطوه على الدِّين، وعاقدوه على البيعة، وقالوا له: اشترط لربك واشترط لنفسك واشترط لنا، **فلما انعقدت البيعة لزمت من حضر ودخل فيها من غاب ومن يأتي إلى يوم القيامة**، لأن حكم العهود والعقود في الإسلام أن تفنى بفناء المدة، وإذا عقدت مؤَبَّدةً دخل فيها الداني والقاصي والموجود والمعدوم. قال: والقاضي في هذا الباب الحاسم للإشكال قوله ﷺ للأنصار: **(سترون بعدي أثرةً فاصبروا)**(١)، وهذا عام في جميعهم»، وعن إسحاق بن عبد الله أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ استغفر للأنصار ولأبناء الأنصار، ولأبناء أبناء الأنصار، لا شك فيه، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **(اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار)**(٢) أخرجه مسلم في صحيحه»(٣).

المسألة الثانية: أن الأنصار في هذا كغيرهم من سائر من ثبتت له فضيلة في الإسلام، كآل النبي ﷺ وقرابته، وسائر المهاجرين الذين نالوا فضل الهجرة قبل فتح مكة، ولكن ذلك بالنسبة إلى عصر كل جيل، فإن فضل الأنصار في زمن النبي ﷺ هو أرفع درجة من درجات الفضل، وفضل أبنائهم وأبناء أبنائهم دون فضل آبائهم الذين في زمن النبي ﷺ، ولكن لمجموع أبناء الأنصار في كل عصر خصوص فضل على من سواهم من أهل عصرهم

(١) أخرجه البخاري ومسلم في كتاب مناقب الأنصار من صحيحيهما.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٦٦).
(٣) نزهة الأبصار في فضائل الأنصار للقاضي أبي بكر ابن الفراء (٢٣٢-٢٣٣).

بمناقب آبائهم ودعوة الرسول ﷺ، كما كان لمجموع آبائهم على أهل جيلهم، وهذا ليس معناه أن كل فرد من الأنصار هو خير ممن سواه، بل إن فَضْلَ كلِّ فرد أنصاريا كان أو غيره هو بحسب تقواه وعمله.

المسألة الثالثة: هذه الفضائل التي ثبتت لهؤلاء القوم بسبب نصرتهم للإسلام وأهله لا تفيد واحدًا منهم إلا بالعمل الصالح، ولا تنخرق بها القاعدة الشرعية التي هي أن (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) فإذا لم يقترن شرف النسب بشرف العمل سقط شرف النسب، ولم يرفع رأسا لصاحبه.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ ـ من سورة التوبة ـ.

وموضع الشاهد من الآية قوله: «**والذين اتبعوهم بإحسانٍ**» أي اتبعوا من قبلهم فاقتدوا بهم في أفعالهم وأقوالهم الحسنة، دون غيرها من الزلات والهفوات[1]. فهؤلاء هم اللاحقون لمن قبلهم في الفضيلة فرضي الله عنهم كما رضي عن أسلافهم، ومفهوم هذا أن من لم يتبعهم في عمله بإحسان فليس منهم في الفضيلة وإن كان من سلالتهم. ولا يعني ذلك أنه يُطلَب من الأنصاري ـ مثلا ـ أن يعمل عمل الصحابة، أو أن يكون المسلم كالأولين من المهاجرين والأنصار في العمل لتثبت له الفضيلة !! فهذا غير معقول، ولا هو بمطلوب شرعاً، بل المطلوب أن يقتدي بهم الإنسان على قدر طاقته واجتهاده، ويعمل

(١) انظر تفسير القرطبي (٨/ ٢٣٨).

على قدر ما يعلم ويطيق ويناسب الحال والمقام، فيثب له من الفضل على قدر عمله وطاقته، فإذا اجتمع ذلك مع فضيلة اللحوق بهم في النسب ثبتت له المزية. والله تعالى يسع الجميع بفضله وكرمه.

أعجب العجب:

من أعجب العجب فيما يتعلق بهذه المسألة أنَّا رأينا في هذه العصور المتأخرة مَن يتبرأ من تبعية الأنصار، حِلْفا أو ولاءً، أو نحو ذلك، ويظن أن تبعيتهم منقصة فيه!! وذلك أن بعضا ممن كان آباؤهم أحلافا أو موالي لقبيلة الأنصار من بني إنْفَا التنبتكيين الذين نتحدث عنهم في هذا الكتاب على الخصوص، شرعوا في الأزمنة المتأخرة ينقضون عهود آبائهم، ويعلنون الخروج مما دخلوا فيه!! كأنهم استدركوا على آبائهم في ذلك!

ولم يدر هؤلاء أن الله تعالى أكرم الأنصار دون غيرهم من الناس بأن جعل حلفاءهم ومواليهم منهم في شمول الفضل والتسمية بالنصرة، وذلك لِما ثبت في صحيح البخاري رحمه الله عن زيد بن أرقم ﷺ قال: «**قالت الأنصار: يا رسول الله، لكل نبيٍّ أتباع، وإنّا اتبعناك، فادعُ الله أن يجعل أتباعَنا منّا، فدعا به، قال النبي ﷺ: (اللهم اجعل أتباعهم منهم)...**» وترجم له البخاري **بقوله (باب أتباع الأنصار) قال ابن حجر: أي من الحلفاء والموالي**[1]. ثم قال «**قوله: (أن يجعل أتباعنا منا) أي: يقال لهم الأنصار،**

---

(١) فتح الباري (٧/ ١١٤).

حتى تتناولهم الوصية بهم بالإحسان إليهم ونحو ذلك»(١).

فانظر كيف يفر أمثال هؤلاء - جهلا - من هذا الفضل الكائن لهم بدعاء النبي ﷺ، ابتغاء الرفعة فيما يزعمون، واستدراكا على آبائهم، الذين آووا إلى الأنصار في فترة من الفترات واحتموا بحلفهم وحمايتهم، وفرارا مما أوهمهم الشيطان من الاستضعاف، فوقعوا فيما فروا منه، وفاتهم ما فروا إليه، ولبَّس عليهم إبليس فأفسد عليهم صدورهم، وفاتهم الالتفات إلى قول الله تعالى ﴿**وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء**﴾. وربما دخلت على بعضهم شبهةُ أن هذا خاص بأتباع الصحابة من الأنصار دون أتباع من يأتي بعدُ من ذرياتهم، وهي شبهة تقدم ردها ودحضها، والدليل على ذلك أن بعضهم لما أُنكر عليه ذلك، وذُكِّر بما للأنصار من فضل، قال: أين أولئك من هؤلاء؟ فتبين أنه إنما يريد الفرار من الإقرار بفضل الأنصار. والله يهدي من يشاء إلى صراطه المستقيم.

وكأني ببعض بني الأنصار ينشد على هؤلاء قول القائل:

إذا وَلَّى الصديقُ بغير عُذْرٍ ... فَرَدَّ الله خَلَّتَه انقطاعا
إلى يوم التنادِ بلا رجوعٍ ... فإنْ رامَ الرجوعَ فلا استطاعا
إذا ولّى أخوكَ قفاهُ عنكَ ... فَوَلِّ قفاكَ عنه و زِدْهُ باعا
ونادِ وراءه يا ربِّ تَمِّمْ ... ولا تَجعَلْ لِفُرْقَتِه اجتماعا

---

(١) السابق نفسه (١١٤-١١٥).

بـــاب

الأنصار من بني إِنْفَا

وفيه ثلاثة وعشرين فصلاً :

الفصل الأول

التعريف ببني إنْفا وذِكْر نسبهم

إن هذا البيت من الأنصار الذين هم الأوس والخزرج نسبا وأصلا ، لم يعرفوا لأنفسهم غير نسبهم الأصلي هذا يوما من الأيام، ولم يَعرِفْ لهم أحد نسبا غيرَه، لا من أهل قُطرهم ولا من غيرهم، تواتر كونهم من الأنصار أباً عن جد، بالتسلسل والاتصال الجماعي من غير انقطاع ولا ملابسة، في تاريخهم، ولم يتسمَّوْا على مر الدهور باسم غير الأنصار، ولا عُرف ذلك عنهم، ومن ادعى غير ذلك فعليه الدليل.

ومن هنا تجد أن كل جيل منهم يحفظ من آبائه ما لا يقل عن عشرة فما فوق، والسبب في عدم الاهتمام بما فوق ذلك عادة هو ما قدمته عند الحديث على السلاسل النسبية من أن سلسلة النسب إذا طالت فلا فائدة في حفظها لمن تواتر اتصاله بها ، واشتهر أصله ولم يلتبس ، فهو ليس بحاجة إلى حفظ جميع آبائه من لدن أبيه الذي ولده إلى آدم، وكذلك شأن مَنْ اشتهر أمره وأمر قبيلته ، ولم ينقطع عنها ، فمعرفة القبيل كافية ، كما تقدم بيانه وتأصيله.

وإذ قد ثبت لك مما تقدم وجود الأنصار في بلاد المغرب العربي ، ومنه

صحراء تنبتكو ونواحيها، فاعلم أن من جملة من سكن بلاد المغرب وعاش متنقلاً بين السوس وفاس وتنبتكو وتوات وولاتة وإيكدَزْ وبَنْبا وأرَوان، ثم استقر في تنبتكو ونواحيها من الأنصار، الأنصار المعروفون ببني (إنفا) هناك، وقد اتفق أهل العلم من هذه الأسرة على أمور تُعد أُسسا عامة بُنِي عليها تاريخهم، واعتُمِد عليها نسبهم، تلكم الأسس وصلت إلينا بطريقين:

* **الطريق الأول**: الرواية الشفوية، المسلسلة عن طريق رواية الأصاغر عن الأكابر، يرويها كل جيل عن الجيل الذي قبله، وقد قدمت أن هذا هو أهم الأسس التي ينبني عليها تأصيل الأنساب التأصيل العام.

* **الطريق الثاني**: كتاب يتداولونه فيما بينهم يسمونه (الرحلة) ويروونه عن آبائهم رواية سماع ووجادة، وفيه تفصيل لمراحل انتقال أجدادهم من المدينة المنورة ـ أصل الأنصار ـ إلى استقرار آخرهم في صحراء المغرب العربي المعروفة بـ(أزواد).

وخلاصة ما تضمنته الروايتان المسموعة والمكتوبة نجمله في الأمور التالية:

١. أن هذه الأسرة التي عرفت في الأزمنة المتأخرة ببني (إنْفا)[1] هم من سلالة الأنصار الأوس والخزرج الذين نصروا النبي محمدًا ﷺ، فسماهم الله لذلك الأنصار، فصارت هذه التسمية عَلَما عليهم دون غيرهم من المسلمين.

---

(١) ستأتي مناسبة تسميتهم ببني إنفا في (صـ ١٢٤، ١٧٤).

٢. أن هذه السلسلة نهايتها أبو بكر الأنصاري، فمنها نسخ نصّت على أنه تابعي، وأن أباه من الصحابة الذين شهدوا جميع المشاهد مع النبي ﷺ، وهي أكثر النسخ، وفيما سواها أن أبا بكر هذا هو نفسه الصحابي الذي شهد مع النبي ﷺ جميع المشاهد، وفيها كلها بلا استثناء تلقيبه بـ(الأنصاري)، وليس فيما بين أيدينا من الروايات ما يُعتمد عليه في الجزم بتعيينه إن كان صحابيا، ولا بتعيين أبيه من الصحابة إن كان تابعيا، ولم يكن ذلك مما يرويه لنا آباؤنا بالرواية الشفوية، ومن ثَمَّ وقع الخلاف فيه، وسيأتي ما توصل إليه البحث من النتائج في ذلك بعد هذه الخلاصة، إن شاء الله[1].

---

(١) ومن المهم ذكره هنا أنه يوجد خطأٌ يتعلق بقول شاذ مذكور في نسخة من نسخ تاريخ هذه الأسرة، من النسخ التي نسخها بعض المتأخرين فحرفها، ذلك الخطأ هو قول صاحب النسخة في نهاية سلسلة هذه الأسرة: «أبو بكر الأنصاري العربي من بني كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس. . . . .إلى معد بن عدنان!!» وهذا القول يخالف جميع النسخ الأخرى، ويخالف المحفوظ المتواتر، والمشهور المتداول، ولا يعرفه أحد ممن رأيناهم ونقلنا عنهم من مؤرخي هذه الأسرة، وفيه تناقض واضح بنسب الأنصار إلى بني كنانة بن خزيمة جد النبي ﷺ، وهما نسبان مختلفان، وقد ذكر أحد إخواننا الفضلاء من طلبة العلم أن سبب هذا الخطأ هو أن صاحب النسخة نقل من نسخة مكتوب فيها «أبو بكر الأنصاري العربي الكناني» وقد كانوا يكتبون هذه النسبة يعنون بها أرض الكنانة، وهي مصر، لأن جدود هذه الأسرة الأوائل كلهم قد عاشوا في مصر، فكانوا ينتسبون إليها، وكانوا منذ قديم يسمونها «أرض الكنانة» وهي تسمية مشهورة، فلما رأى الناسخ ذلك ظن أن المقصود بـ(الكناني) النسبة إلى بني كنانة بن خزيمة الذين منهم قريش. وهذا توجيه =

٣. أن خروج جد هذه الأسرة من المدينة كان عقب وقعة الحرة الأليمة عام ٦٤هـ. فترك المدينة اعتزالا للفتن، وفرارا بدينه وأهله.

٤. أن جدهم الذي خرج من المدينة اسمه محمد ويُلقب بـ(سَنْبَة) ـ ولم أقف على ضبط هذه الكلمة بدقة[١] ـ ثم وقع اختلاف بين نسخ

= منطقي واضح، واحتمال قوي راجح، واستدراك سليم شارح. ولكن وجود هذه النسبة في النسخ المتأخرة التي كُتبت في أواسط القرن الرابع عشر الهجري يثير الشكوك حول دوافع إلحاقها بنسخة النسب، وهي خالية منها في الأصل، كما أن كتاب «الرحلة» غير متضمن لها، وليس فيه إشارة إليها، وجميع من كتب نسخًا من تاريخ بني (إنْفا) لنفسه من العلماء وطلاب العلم من الأنصار وحلفائهم من المتأخرين والمتقدمين لم يكتبوا هذه الزيادة، فإما أن تكون غير موجودة في النسخ التي نقلوا منها، وإما أنهم رأوها فلم ينقلوها لأنهم يعلمون يقينًا أنها خطأ. ومما يزيد من التشكيك في مراد ملحقها أنّا وجدنا غالب النسخ التي أُلحقت بها مكتوبة بغير خط أفراد هذه الأسرة! انظر فيما يلي (ص ٤٢٤).

(١) النسخ التي بين أيدينا ضُبِطتْ فيها هذه الكلمة بفتح السين وإسكان النون ثم باء موحدة مفتوحة، (سَنْبَ) وهكذا ينطقها أهلها، وهم يختلسون الفتحة الموقوف عليها بدلاً من زيادة ألف بعدها، وهي لهجتهم فيما سواها من الكلمات كذلك، وهي إحدى لغات العرب في الوقف على المتحرك، وهو المسمى بالرَّوْم، ويسميه بعضهم بالاختلاس، والجمهور على جوازه في المفتوح والمنصوب. ومع أن الأصل في أسماء الأعلام وألقابهم الارتجال، إلا أن النقل أكثر شيوعًا، وهو ـ أعني النقل ـ لا يُلتفت فيه غالباً إلى أصل معنى اللفظ المنقول. وهذه الكلمة في العربية تكون بالتاء وبدونها، فيقال (سَنْبٌ) و(سَنْبَةٌ) بمعنى الحقبة من الزمن، ويقال مضى سَنْبٌ من الدهر، أي مضت بُرهة منه. (انظر اللسان مادة «سنب») فنحن نجيز أن تكون هذه الكلمة منقولة من هذا المعنى، وأن تكون هكذا بدون تاء، لأن التاء.كما هو رأي سيبويه زائدة هنا ـ أو تكون في الأصل بالتاء ثم كثر =

الكتاب التي اطلعنا فيها، ففي بعضها أن (سَنْبَة/ سَنْبَ) هذا هو الذي توجه تلقاء مصر، حتى بلغها ونزل ببعض أريافها، وفي بعضها أن بعض أبنائه هو الذي وصل إلى مصر، واسمه يحيى بن منصور بن أبي بكر الأنصاري. وفي بعضها أنه يحيى بن عبد الله بن منصور بن أبي بكر، وفي بعضها منصور بن أبي بكر نفسه.

٥. أن الروايات التي تذكر أن الذي وصل إلى مصر هو يحيى بن منصور، أو ابن عبد الله بن منصور، أو منصور نفسه، نصَّت على أنه انتقل إليها معتزلا للفتن التي وقعت بين المسلمين أيام أبي جعفر المنصور العباسي بعد سقوط حكم بني أمية وقيام دولة بني العباس.

٦. أن جدهم الذي خرج من المدينة ترك لأبنائه وصية باعتزال الفتن التي تكون بين المسلمين، وباجتناب ما يؤدي إليها، والوصية بالتبتل والانقطاع للعبادة ولزوم الطريق المستقيم، ثم صار كل أبٍ من هذه السلسلة يترك هذه الوصية ويُوَرِّثُها لأبنائه، حتى وصلت إلينا في العصور المتأخرة. ولم ينقطع العمل بها إلا في نهاية القرن الثاني عشر الهجري عندما اضطروا اضطرارا إلى دفع الصائلين عنهم بالقوة والسلاح، لأنهم سكنوا صحراء يسودها النظام القبلي، ويستضعف قَوِيُّها ضعيفَها، وليس فيها حاكم مباشر يحمي حوزتها

= إسقاط التاء في النطق تخفيفا فكتبت على ما يوافق المنطوق، وأمثلة ذلك في اللغة لا تُحصى، ويؤيد كون الاسم بالتاء التزامهم فتح الباء مع الوقف. والله أعلم.

و يدفع الصائلين والمعتدين.

٧. أن جدهم انتقل من مصر بعد قرن من الزمن تقريبا إلى ليبيا، والمنتقل هو الابن الرابع أو الثالث للذي وصل إلى مصر. وأن الذي وصل إلى ليبيا نزل في بلاد (برقة[1] و(صبرة) وخالط البربر، لأنه لما نزل عليهم أكرموه واحتفوا به، لما رأوا عليه من حسن السمت والصلاح، وتزوج بامرأة منهم، ثم انتقل حفيده الثالث أو الرابع من ليببا إلى الأندلس، واسمه محمد، أو أحمد الملقب: الحادّ أو الحدّ أو لَحّذْ ـ هكذا ينطقونه ـ وهي كلمة منحوتة من (محمد أو أحمد) لعله كان ينادَى بها في صغره ترخيما وتصغيرا ثم جرت عليه لقبا بعدُ، كما هو مشهور، والاسم الذي اشتهر به أبوه هو مكتود. وهو ـ أعني مكتودًا ـ أول رجل منهم تلده امرأة غير عربية، فإن أمه بربرية، ويبدو أن لقب (مكتود) هذا محرف من (مكنود) بالنون بمعنى (أمكنودْ) أي القصير باللغة البربرية، ولم تذكر لنا النسخ التي بين أيدينا اسمه الأصلي.

وقد ثبت لدينا عن طريق تتبع أعلام الأنصار أن جمعًا منهم نزل مصر وبرقة من بلاد إفريقية منذ أيام الصحابة، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره ابن قدامة المقدسي فقال: «رويفع بن ثابت بن سكن بن عديّ حارثة بن عمرو بن

---

(١) ولقد أكد لي أحد المشايخ من أهل ليبيا أنه لا يزال بعض نسل الأنصار موجودًا في مدينة بُرقة في ليبيا إلى يومنا هذا.

زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك بن النجار الأنصاري الصحابي، **من الصحابة الذين نزلوا مصر واختط بها دارًا، وتوفي ببرقة، وهو أمير عليها، وعلى طرابلس، أمره عليها معاوية سنة ٤٦هـ»**[١].

وذكر أيضا مسلمة بن مُخلد بن الصامت بن نيار بن لوذان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة الأنصاري الصحابي، ولاه معاوية مصر وإفريقية، توفي سنة ٦٢هـ[٢].

٨. وأصحاب هذه المرحلة بعد محمد(سنبَ) المذكور هم ابنه الملقب بـ(لمتون)[٣]، ثم نزار بن لمتون، ثم قنوان بن نزار، ثم مكتود بن قنوان، ثم محمد الملقب(تحكّتْ)[٤] بن مكتود.

٩. ومن محمد الحادّ أو لَحَّذْ المذكور وابنه (معبد) الآتي ذكره ومَن بعدَهما عاش القوم في الأندلس إلى أن هاجت عليهم الفتن بعد

---

(١) الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، لابن قدامة المقدسي، تحقيق علي نويهض، (ص ٥٥، ط/ دار الفكر).

(٢) السابق نفسه (ص١٠٤).

(٣) تقدم في ذكر أعلام الأنصار أن منهم: حَيّون. وغزلون. . .مما جاء على وزن: لمتون. وقال ابن الفرضي: «لُبّ بن وَزْلون، من أهل باجة، يكنى أبا إسماعيل، وينتسب في الأنصار» تاريخ علماء الأندلس للحافظ أبي الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي المتوفى سنة ٤٦٠هـ (ص ٣٦٥).

(٤) في العصور المتأخرة صار من المتعارف عليه تلقيب (محمد) بـ(أَكْحَتِي) بكثرة عند هذه الأسرة، وهو مقلوب (تحكت) مع زيادة الهمزة لأجل سكون الكاف.

سقوط الدولة الأموية في الأندلس، وقيام إمارات ملوك الطوائف في بلاد الأندلس في منتصف القرن الخامس الهجري تقريبا، فخرج آخرهم آنذاك واسمه أبو بكر الأنصاري، وهو ابن يحيى بن علي بن معبد بن محمد الحادّ، أو هو ابن يوسف بن عبد بن الحسن بن أبي بكر بن يحيى المتقدم(١)، خرج من بلاد الأندلس معتزلا لتلك الفتن تنفيذا لوصية آبائه وأجداده منذ خروج أولهم من المدينة بعدم الاشتراك فيما يحصل بين المسلمين من الفتن، فتوجه إلى بلاد المغرب، ووافق ذلك توجه الملك المرابطي يوسف بن تاشفين من مراكش إلى الأندلس للتصدي للنصارى، فلقيه واجتمع به وافدًا عليه في مكان بين السوس ومراكش، لأن أمراء المرابطين كانوا يحتفون بالعلماء ويكرمونهم ويرحبون بهم في بلادهم.

وثمة رواية أخرى رواها لي الشيخ القاضي محمد المولود المعروف بـ(امَّلُو) بن محمد الطاهر المعروف بـ(حمتاهي) عن شيخه العلامة القاضي محمد المختار بن محمد حَوَّدْ الأنصاري أن الذي خرج من الأندلس هو (يحيى) نفسه وليس ابنه أبو بكر بن علي بن معبد، وأنه قدم من غرناطة. وغرناطة من بلاد الأندلس. والله أعلم.

---

(١) ثمة خلاف بين النسخ التي بين أيدينا فيمن خرج من الأندلس، أهو أبوبكر الأول؟ وهو ابن يحيى بن علي، أم هو الثاني؟ وهو ابن يوسف بن عبد بن الحسن، مع اتفاق جميع النسخ على أنهما اثنان، ثانيهما جد الأول. والله تعالى أعلم بالحقائق.

١٠. بعد ذلك عاشت هذه الأسرة في بلاد المغرب العربي إلى يومنا هذا، وجميع الأجداد الذين عاشوا في هذه الفترة من منتصف القرن الخامس الهجري إلى الآن معروفون محفوظون بأسمائهم وأعيانهم، وأماكن وجودهم وذرياتهم.

١١. اتفقت جميع نسخ هذه السلسلة على أن العلامة الشيخ محمد أحمد الآيري بن محمد المظفر بن الولدان بن أبي بكر بن يوسف بن عبد بن الحسن بن أبي بكر، هو أول مَنْ ولدتْه امرأة بربرية بعد دخول القوم في بلاد أزواد، فنشأ بين البربر في بلاد إيكدزْ فتكلم باللغة البربرية مع لغته الأمّ التي هي العربية لغة أبيه وجده، ثم تكلم بها أبناؤه من بعده، فأصبحت اللغة الرطانية البربرية ابتداء من هذا التاريخ لهجة لهذه الأسرة بالإضافة إلى العربية لغة آبائهم، وذلك في نهايات القرن التاسع الهجري.

١٢. هذه هي خلاصة أهم ما وُجد مكتوباً أو محفوظاً مما يتناقله علماء هذه الأسرة، فيما يتعلق بتاريخهم، نقلته كما وجدته مكتوبا متداولا بين كثير من أعيان هذه القبيلة. وقد سألت كثيرا من مشايخهم وأعيانهم وكبارهم عن هذه المعلومات فاتفقوا على أن هذه المعلومات كذلك وصلت إليهم وتناقلوها عن آبائهم، وهي صحيحة ولا يتطرق إليها الشك، ولكن ليس عليها المعوّل في إثبات نسبهم إلى الأنصار، وإنما المعوّل على ما استقر من التواتر الشفوي

المشهور، لا عن طريق الآحاد ولكن عن طريق الاستفاضة والجماعة، فما ثبت وصح مما يوافق هذا التواتر فهو المعتمد، وما سواه فلا يُعَوَّل عليه حتى تثبت صحته وموافقته للمتواتر المحفوظ. ولقد حدثني بعضهم أن أسلافهم كانوا يُحْجِمون عن الكلام في سلسلة النسب، مع اعتقادهم صحة سلسلتهم، خشية أن يُظن أن الاعتماد عليها في إثبات النسب، ولعلمهم بما يصيب سلاسل النسب من الخلل بسبب تقادم العهد، وتشابه الأسماء، وأخطاء النُّسّاخ، واختلاط الأسماء الأصلية بالألقاب الطارئة، ولأن الحاجة غير قائمة ولا داعية إليها عادةً، لاسيما لمن اشتهر نسبه. وقد قدمت إيضاح ذلك وبيانه عند الكلام على السلاسل النسبية. والله أعلم.

وقد انتشروا في البلدان اليوم، وكثير منهم عاد إلى الجزيرة العربية فاستقر فيها مؤخرا، ولكنهم محافظون على نسبهم وأصلهم، ومن لم يعرف آباءه منهم يرجع إلى القبيلة فيذكر لهم أباه وجده، فيعرفونه، وكلهم يرجعون إلى الشيخ محمد المختار (إنْفا) المذكور، ومن أبنائه اليوم من صار بينه وبينه خمس عشرة نفسًا، ومنهم من هو فوق ذلك بأب واحد أو اثنين تقريباً، ومنهم من هو دون العشرة بأبٍ واحد أو اثنين، ولكنهم محفوظون بالأسماء والتسلسل إلى (إنفا) أوفوقه.

* **ومن أسباب محافظتهم** على نسبهم ولقب (الأنصار) وشهرتهم به في

تلك المنطقة مايلي:

١ : وجود قبائل عربية أخرى منافسة لهم في الوجاهة والمكانة الاجتماعية والمآثر الموروثة.

٢ : وجود حروب بينهم وبين بعض القبائل، وهذا أدى إلى نشوء مهاجاة بين الشعراء من الطرفين، فجعل كل فريق يذكر آباءه وما لهم من مآثر ومفاخر مذكورة ومعدودة فيما يُمتدح به.

٣ : أن النسبة إلى الأنصار لها ميزة معلومة بسبب نصرتهم للرسول ﷺ، وشهرتهم بشرف نصر الإسلام والدعوة والجهاد، فكيف يفرط من ينتمي إليهم في نسبه؟ أو يرغب عنه إلى غيره؟

٤ : أنها أسرة ذات ثقافة، ومنها علماء وقراء وأدباء معدودون، وليسوا في تلك الصحراء كجهلة أهل البادية الذين لا عهد لهم بالعلم وأهله، وليسوا كمن لا سابق عهد لآبائه بالعلم والحضارة والتراث.

٥ : أن أجدادهم معروفون في كل بلد حلوا فيه بنسبهم، يُقصدون به ويُدعوْن، ويتجمع إليهم الناس ويُؤتوْن، ولما حلوا تلك الصحراء، عمدوا إلى عمارتها بالدعوة والعلم، وإحياء الأرض الموات. فكان ذلك سببًا في شهرتهم وذيوع نسبهم، ولم يكن لهم لقب غير لقب «الأنصار» يوما من الأيام.

ومما عبَّرْتُ فيه قديمًا عن رحلة الأنصار وما صاحبها من هجرات وأحداث قصيدة طويلة أنشدتها بتاريخ ٢٨/ ٢/ ١٤١٦هـ في الطريق بين مكة

المكرمة والمدينة المنورة، منها ما يلي:

قِفْ بالطلولِ على عُسْفانَ بعد سُرًى ... ودَّعتَ فيه على فَرْطِ الكرى سَرِفَا[(١)]

إن كنتَ تَسْطيعُ حطَّ الرَّحْلِ منه على ... بعضِ الرمال قليلا ثمتَ انصَرِفا[(٢)]

تَقْضِي على عَجَلٍ لُبانَةً عَرَضَتْ ... والمرْءُ ذُو أرَبٍ إنْ جازَ أَوْ وقفَا

وكم لنا من لُباناتٍ نَجُوبُ لَها ... ما بَيْنَ أُمِّ القُرَى وطَيبَةٍ زُلَفا

والدرْبُ حُفَّتْ به الأطلالُ موحِيَةً ... فكَمْ أرى أثرًا به لِمَنْ سَلَفا

فسَرِّح الطرْفَ في سَهْلٍ وأودِيَةٍ ... بذي قُدَيْدٍ فوادي الفرْعِ منك شفَا

ثم اسْتَقِمْ أيها المَيْمُونُ منحدِرًا ... صَوْبَ المدينةِ بالآكام مُكْتَنَفا

تَعْلُو وتَهْبِطُ من سَهْلٍ إلى جبَلٍ ... يُدْنِيكَ والشمسُ ما زالت به أُنُفا

حتى إذا افْتَرَّ ثَغْرُ الأرضِ مُبْتَسِماً ... على الثَّنِيّاتِ فالْزَم ما لها انعَطَفا

وانظُرْ إلى عَلَمٍ يَحُوطُ غُرَّتَها ... بسَفْحِهِ الروضةُ الزهْراءُ وهْو قَفَا

فَوَافِ طيبَةَ مَسْرورًا بِمَبْلَغِها ... وابْدَأْ بمسجِدِها فانزِلْ به طَرَفا

وصَلِّ للهِ في المحراب مُقْتَدِياً ... بفِعْلِ خاتَمِ رُسْلِ اللهِ مُزْدَلِفا

وأُمَّهُ للسلامِ في مُبَوَّئِهِ ... مع الوزِيرَيْنِ خَيْرِ الصحبِ والخُلَفا

إن الزيارَةَ هاتِيكَ التي شُرِعَتْ ... فلْيهْنَإِ الخيرُ من لِلشرْعِ قد رَدِفا

---

(١) عسفان وسرف موضعان قريبان من مكة على طريق المدينة.

(٢) انصرفا، أصله: انصرفَنْ، فعل أمر مؤكد بنون التوكيد الخفيفة، ثم أُبدلت النون ألفا، وهو إبدال قياسي. و(ثُمَّتَ) بمعنى ثُمَّ.

يا صاحِ فاحظَ مَعِي واظْفَرْ بِنَيْل مُنًى | كم قد تمنيتُها والقَلْبُ قد شُغِفا[١]
وكَمْ حَدَا بِيَ شَوقٌ نحوَ ساحتها | حتى غدَتْ مَهجَتي تشكو تقولُ كَفَى
قد طِبْتُ نَفْساً بها، لكنها حزِنَتْ | بعد التأمُّلِ في الحالِ الذي اخْتَلَفا
واسْتَوْحشَتْ عندما حَسَّتْ بِغُرْبِتِها | لِفَقْدِ قومي بني الأنصارِ وا أَسَفا!
وهذه سنَّةُ في الناس سارِيَةٌ | لم يَقْطُنُوا بلَدًا إلا خَلا وَعَفَا
وليس يُمْسِي الفَتَى وعَيْشُه رَغَدٌ | يومًا فَيُصبِحُ إلا زالَ وانْكَشَفا
أمَا سَمِعْتَ بِنَا من قَبْلُ في يَمَنٍ | كَمْ كان في سبإٍ لنا كما وُصِفا
فَقِيلَ في المثل المشهورِ: «قد ذَهَبُوا | أَيْدِي سَبَا» ودَهانا عاصِفٌ عَصَفَا
ثم استَقَرَّتْ بنا الدنيا بطَيْبَتِها | نلْنا الثُّرَيَّا بها بالمصطفى فَشَفَا
فبَيْنَمَا نَحْنُ فيها والزمانُ معًا | إذا بأَنْدَلُسٍ نَبْنِي بها غُرَفا
فصار قَوْمِي بَنُو الأنصار أكثرُهُمْ | أقصى المغاربِ في الزّحْفِ الذي زَحفا
ولم نَزَلْ رافِعِينَ لِلْهُدَى عَلَمًا | حتى استكانتْ وضاءَتْ واكْتَستْ شَرَفا
فاسْأَلْ بِغِرْناطةٍ أو سَلْ بقرطبَةٍ | وإن سألتَهُمَا عن ذاك تَعْتَرِفا
فما فَتِئْنا بها حتى إذا أَمِرَتْ | فأَمَّرَتْ غيْرَنا فَبَزَّنا ونَفَى
فأصبحَتْ بعد ذاك العزِّ باكيةً | وسِيمَتِ الضَّيْمَ من كُفْرٍ بها خَسَفا
تَفَرَّقَ الناسُ في الأمصارِ بَعْدَئذٍ | ومُزِّقَتْ دولةُ الإسلامِ وانقَشَفَا
وسارَ جَدِّي إلى الصَّحْراءِ معتصمًا | بالله ثم بحَدِّ السيفِ واعْتَسَفَا

(١) المخاطب في قولي: «يا صاح . . . إلخ» هو ابن خالي الشيخ أحمد بن محمد بن جاكر رحمه الله وهو الذي كان يرافقني في هذه الرحلة.

فَخَالَطَ الجِنَّ فيها والسِّبَاعَ معاً والأرضَ فجَّرَها ماءً لِمَنْ غَرَفا
وقال لِلنّاسِ: في إحدى يَدَيَّ هُدًى وفي قَرِينَتِها سُمٌّ لِمَنْ صَلَفا
لِكُلِّ واردةٍ عندي عُلالَتُها ولَسْتُ أبغي بِذَا إثمًا ولا جَنَفا
فَعَاشَ ما عَاشَ في عِزٍّ تَوارَثَهُ بَنوهُ بعْدُ قرونًا خمسةً شُرُفا

* * *

واستطردتُ فيما آلت إليه الأحوال في العصور المتأخرة في عدة أبيات ثم ختمت القصيدة بقولي:

ذاك الذي هَيَّجَ الذِّكْرى فعاوَدَنِي شَجْوٌ قديمٌ إذا ثابَ الهوى خَلَفَا
ووكَّلَ النفسَ في تَذْكارِها طَللاً أثارَ تَحْنانَها مُوَدِّعًا سَرِفا

* * *

الفصل الثاني

توثيق سلسلتهم

إن توثيق أي سلسلة من السلاسل النسبية ليس أمرا سهلا مواتيا ، بل صعوبته إن كان ممكنا آكد وأظهر من مواتاته إن كان مواتيا ، والأغلب كونه مستحيلا ، والسبب في ذلك يكمن في طول الزمن وبُعد أول السلسلة عن آخرها ، وينتج عن هذا أن السلسلة تناقلها الناس جيلا جيلا ، ومرت بأحوال شتى مجهولة ، والحكم الدقيق على تلك الأزمان والفترات والأحوال الغيبية ضرب من المحال ، لأنها غيب فليس للإنسان سبيل إلى اطلاعه ومعرفته ، فلم يبق إلا القياس على ما وصل ، والتماس أقرب القرائن والبراهين الصحيحة ، ثم يعتمد الإنسان ما تيقن صحته ، وثبتت لديه براهينه ، ويكل الحكم النهائي بصحته وعدمها إلى من رواه وعلمه.

غير أنه يجب على المنصف الملتمس للحق أن يعتمد طرق التوثيق العلمي المتبعة لدى الباحثين والعلماء قديما وحديثا لمعرفة الحق واستظهاره ، فيأخذ بالبراهين الموجودة والقرائن المصاحبة ، ويعتبر ما دلت الحال والواقع على اعتباره ، ويلتزم بالضوابط والشروط التي ذكرها العلماء في ذلك ـ وقد تقدمت في ص ١٧ ـ.

ونحن أمام هذه السلسلة نسلك طريقين في توثيقها :

الطريق الأول : **طريق الرواية ، وشهادة السماع.**

والطريق الثاني: **طريق النظر في رجالها والأحداث والملابسات التاريخية والجغرافية المتزامنة لحياتهم.**

أما الطريق الأول: فهذه السلسلة تقوى لدينا وتثبت من جهة كونها رواية وصلت إلينا بالمشافهة والكتابة، وقد سبرنا هذه الرواية فوجدناها جامعة للأمور العامة التي يجب توافرها في أمثالها من المرويات، وهذه الأمور هي:

١. أنها تثبت أمرا غير مجهول ولا شاذ، ولا مردود، ولا غريب، إنه أمر متفق عليه بين أصحاب هذا النسب، معلوم لدى من عرفهم، وهو أنهم من الأنصار الذين هم نسل الأوس والخزرج، ونحو ذلك من العموميات والمسلمات التي تقدمت في ذكر خلاصة ما جاء فيها. وكلها أسس يجب توافرها لإثبات صحة هذه السلسلة. وقد ذكر علماء الأصول من القواعد الكلية الثابتة في إثبات النسب المشهور ثبوته بشهادة السماع، والمراد بها الشهادة بما يُعلَم بالاستفاضة، واشتهر لدى أهل المعرفة. فالنسب يثبت بذلك إذا كان مشهورًا[(١)].

ومن أهم ما يؤكد انتسابهم إلى الأنصار أننا نجدهم صغارا وكباراً علماء وعوام يحتفون بذلك ويلهجون به، ويعدونه من مفاخرهم ومآثرهم، وينشدون فيه الأشعار، ويروون فيه القصص والأخبار، ويرون في أنفسهم ما لآبائهم من أوصاف وأخلاق، كالعلم والشجاعة والكرم وحب المؤمنين وإيثارهم

---

(١) انظر: المغنى لابن قدامة (١٤/ ١٤١)، المسألة (١٨٨٨) والكافي لابن عبد البر - باب شهادة السماع - (٢/ ٩٠٣).

على أنفسهم، وكره الكافرين، وبغض أهل الفسق والفجور، والتضحية في نصرة الإسلام والمسلمين . . . . . . .إلخ. بل إنهم يجدون الأثرة التي خُص بها الأنصار ملازمة لهم كما أخبر الرسول ﷺ آباءهم.

٢. أن هذه السلسلة مثبتة لنسب قوم موجودين مشاهدين، معروف لدى الناس في كل القرون أن لهم نسبا وتاريخا مشهورا مشهودًا، فالانتساب إليهم ليس بِدعًا غريبا، وقد أثبتنا وجودهم في كل مكان من الأماكن التي ورد في هذه السلسلة وجودهم فيها، والقاعدة عند المحدثين أن المثبت مقدم على النافي.

٣. أن رواتها ليس فيهم مجاهيل، بل هم معروفون وموثقون، وكل من ترجم لهم ذكر عن كل واحد منهم أنه ثقة عدل أمين تقي عالم، مثل صاحب كتاب فتح الشكور في تراجم علماء التكرور، وكتاب تاريخ السودان للسعدي، وكتاب تفتيش الوثائق لأبي بكر الشكاغي . . . .وغيرها، وبهذا نصت جميع نسخ كتاب الرحلة المذكور، وهؤلاء الرواة منهم: الشيخ محمد المختار بن محمد علي بن محمد بن محمد قطب، وقد نسخ هذه السلسلة سنة ١٣٦٧هـ ناقلا من خط العلامة الشيخ محمد بن محمد قطب بن محمد بن محمد المختار المعروف بـ(إنْفا) الأنصاري، عن أبيه عن جده، وعن خاله الشيخ محمد بن الهاشم القرشي، عن الشيخ الفقيه الرباني علي بن النجيب، عن الشيخ الفقيه الأمين بن محمد المجتهد، المتوفى سنة

١٠٤١هـ[١].

أ ـ تاريخ نسخة العلامة الشيخ علي بن النجيب : عام : ١١٢٢هـ.

ب ـ تاريخ نسخة العلامة الشيخ محمد بن محمد قطب بن محمد بن إنْفا الأنصاري : عام : ١١٥٨هـ.

٤. أنه لا يوجد انقطاع بيننا وبينهم ، فدل ذلك على أن ما كتبوه هو الذي وصل إلينا بعينه.

٥. أن الذين نقلوا هذه السلسلة كلهم علماء ، من أهل المعرفة والديانة ، من لدن أولهم إلى آخرهم ، وهم من أفراد السلسلة نفسها ، وتلاميذهم ، و شيوخهم ، فدل ذلك على علمهم بما كتبوه ونقلوه ، لأنهم يكتبون ويتحدثون عن أنفسهم وآبائهم ، أو شيوخهم وتلاميذهم ، وهذه أوثق طرق النقل والرواية ، لأن الراوي فيها لديه معرفة واتصال وعلم واهتمام بمن يروي عنه ، ومَنْ يتحدث في شأنه ، فهو خبير به ، ينقل عنه ويخبر عن علم ودراية .

٦. أننا لم نجد شيئا يعارض هذه الرواية على وجه اليقين ، ولم نجد بحثا علميا موضوعيا موثقا وصل إلى نتائج تشكك في صحتها أو تناقض ما جاء فيها ، أو يقدم لنا نتائج علمية يثبت بها خلاف ما فيها ، ولا بحثا ينتقدها نقدًا علميا غير عاطفي ، وقد كُتبت النسخة التي وصلت إلينا من هذه السلسلة منذ خمسة قرون مضت ، ولم نجد عبر هذه

(١) انظر تاريخ السعدي (٢١٩، ٢٤٧). وفتح الشكور للبرتلي (٦٢-٦٣).

القرون من يطعن في صحتها أو يشكك فيها غير ذي غرض معين، ينطلق من ذلك الغرض لا من جهة النقد الموضوعي، مع أنها متداولة بين أهل المنطقة عربها وعجمها في كل ناحية.

أما ما رأيناه مؤخرا من نقود موجهة لهذه السلسلة، فإنما صدر من أناس لا يخفى ما تنطوي عليه نفوسهم من شنآن بادٍ، يهيم بهم في كل واد، ويشهد به عليهم في كل ناد، وما يكتبونه أويقولونه أمور مبنية على قناعات سابقة، وإملاءات طارئة، ودوافع مبنية على التخمين وأثارة من رواسب عاطفية، أملتها ظروف معينة، وأوحتها أهواء جامحة في مجال الاعتراض والقدح، غير جانحة إلى محط الإنصاف والمدح، ولم يسلكوا فيها سبيل البحث العلمي الموضوعي، ولم ينتهجوا جادة الرواية الشفوية عن الثقات. وكذلك كل أعداء هذه القبيلة والناقمين عليها لم يجدوا مسلكا يقدمون فيه دليلاً علمياً أو عقليا يطعن في سلسلة نسبهم، إلا ممن حاد عن الإنصاف، ولم يرعو بالتقوى، أولم يسلك سبيل أهل العلم والمعرفة.

٧. أن النسب أمانة ـ كما تقدم ـ والناس مؤتمنون على أنسابهم[١]، ولا يجوز لهم التفريط فيها، وبناء على ذلك جرى تدوين رجال هذه السلسلة منذ خروج أول أصحابها من المدينة المنورة، إلى وصول

(١) تقدم معنى هذا الأثر وشرحه، وبيان كونه ليس حديثا، وأن معناه أن النسب أمانة يجب على الإنسان حفظها، وليس معناه أن الإنسان يجب تصديقه في نسبه وإن كذب فيه، كما يتوهم كثير من الجهال. انظر (ص ٣٢).

آخرهم إلى تنبتكو، ولم ينقطع ذلك عن أبنائهم إلى عصرنا هذا.

٨. أن طريقة التسلسل التي كتبت بها هذه السلسلة تعد أوثق الطرق وأقواها في الرواية عند المؤرخين والمحدثين، وهي أنهم ذكروا كل أب من آبائهم منذ خروج أولهم من المدينة، ثم ذكروا المنطقة التي عاش فيها، وذكروا المكان الذي مات فيه ثم ذكروا مع كل أبٍ بعض الظروف التي صاحبت وجوده وانتقاله من المنطقة حتى وصل آخرهم بلاد تنبتكو.

وأما الطريق الثاني: فهو الطريق الخاص الذي يعني ترجمة كل علم من أعلام السلسلة وذكر المصادر التي نصت على تاريخه وأخباره، على ما هو معتاد في غالب من يُترجم لهم في كتب التراجم.

وهذه الطريقة طريقة شاقة جدًا، وليس من السهل استقصاؤها لجميع المترجم لهم، ولا سيما هذه السلسلة التي يعتبر أكثر أعلامها من المغمورين الذين لا يعرفهم إلا الخاصة، ولكون كثير منهم لم يذكر إلا بلقبه أو كنيته، ومما زاد في صعوبة التعريف بأعلامها أنهم لم يعيشوا كلهم في بلد واحد، بل قد اغتربوا في جميع أجيالهم إلى القرن الخامس الهجري، والغريب مجهول الحال عند الناس غالبا، وأهل التراجم والتواريخ قل أن يتنبهوا أو يُعنوا إلا بمن كان له تأثير وأثر مقترن ببعض الأحداث التاريخية، ومن اشتهر حاله وأمره، أومن وجدوا له معارف ورواةً ومعرّفين، أما من سواهم فالغالب خفاء حالهم على المؤرخين.

وإن رجال هذه السلسلة كانوا من أهل الزهادة المغمورين، والغرباء في البلدان التي عاشوا فيها في خمسة القرون الأولى، ولأجل هذه الأمور وأمثالها عسر علينا ترجمتهم، ولا يزال البحث جاريا على أشده في تتبع أحوالهم وأخبارهم إلى حين كتابة هذه الأسطر، وسوف أكتب فيما يلي ما توصل إليه البحث فيما يتعلق بأول السلسلة وآخرها، لأن الاهتمام عندنا منصب على أولها وآخرها، والسبب في ذلك أن ذلك هو المحك المعتبر في كل سلسلة، لأن ما بين الأول والآخر لا تضر جهالته ولا خفاء أمره بعد إثبات صلة الأول بالآخر وتأكّده، فالطريقة الموصلة بينهما ليس لها أهمية كأهمية الأول والآخِر، ألا ترى أن الرجل قد ينتسب إلى جده مهما علا، ولا يضره أن يكون لا يعرف أسماء آبائه أبا أبًا إلى ذلك الجد، ولا يطعن ذلك في نسبه، وقد كان نبينا ﷺ، يقول: «أنا ابن عبد المطلب» وهو جده، وكان هو وغيره من العرب ينتسبون إلى إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولم يصح عنه ﷺ أنه سرد سلسلة آبائه إلى إسماعيل عليه السلام. وقد تقدم بيان ذلك.

وهذا رد بحجة قوية غير مشكوك فيها على من طعن في نسب الأنصار من بني إنفا بحجة أن بعض الأعلام في سلسلتهم قد يكون ساقطا، أو أن بعضهم نُسب إلى جده الأعلى ولم يذكر أبوه المباشر، أو أن جدهم من الأنصار الصحابة غير معيَّن . . .إلخ. فمثل هذا ـ مع عدم التسليم به ـ لو اعتبر في كل نسب مدوَّن أو مشهور أو محفوظ لسقط كثير من الأنساب وأُلْغِي.

الفصـــل الثالث

تحقيق جدِّ بني إنْفَا من الأنصار

تقدم أن هذا الفرع من الأنصار تنتهي سلسلة نسبهم إلى يحيى بن منصور بن أبي بكر التابعي الخزرجي الأنصاري، هكذا في أكثر النسخ التي وقفنا عليها من المخطوط المدَوَّن فيه تاريخهم، وفي بعض النسخ منها: يحيى بن عبد الله بن منصور بن أبي بكر الأنصاري الصحابي الذي شهد جميع المشاهد مع النبي ﷺ.

ثم تعددت الأقوال في تعيين أبي بكر هذا، فقيل هو: أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي النجاري، وهو من التابعين، وهو من جملة من لم يُعرف اسمه ممن يسمى بأبي بكر، هو وأبوبكر بن أنس بن مالك[(١)]، وكلاهما من بني النجار.

ويحيى بن منصور الأنصاري يحتمل أن يكون حفيدًا لأحدهما، فأما من جهة أنس بن مالك رضي الله عنه، فيحتمل أن يكون من قِبَل أبي بكر بن أنس بن مالك الأنصاري مباشرة[(٢)]. أو من جهة حفيده أبي بكر بن عبيد الله بن أبي بكر بن أنس بن مالك الأنصاري النجاري، خادم رسول الله ﷺ[(٣)].

---

(١) انظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (١/ ٣٥٢).

(٢) تهذيب الكمال في أسماء الرجال للحافظ المزي (٣٣/ ١١٨)، وانظر: (٨٥).

(٣) السابق نفسه.

وثمة احتمال آخر وهو أن يكون من جهة ابن عمه: أبو بكر بن يحيى بن النضر الأنصاري السَّلَمي[١].

وأما من جهة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم فيحتمل أن يكون من قِبَل عبد الملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، و هذا الاحتمال قد يعززه ما يلي:

١. أن عبد الملك هذا ولي القضاء في مصر عام ١٧٠هـ، وتوفي عام ١٧٦، وقيل بعده بقليل[٢].

ورجع بعد ذلك في عهد الرشيد فاستقضاه الرشيد، قال ابن سعد: «عبدالملك بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم بن زيد بن لوذان بن عمرو بن عبيد بن عوف بن مالك بن النجار وأمه أمة الوهاب بنت عبد الله بن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر الغسيل وكان قدم بغداد فأقام بها واستقضاه هارون أمير المؤمنين على عسكر المهدي فمات وصلى عليه هارون ودفن في مقبرة العباسية بنت المهدي وكان قليل الحديث ويكنى أبا طاهر[٣] ثم أضاف بعد ذلك قوله: «فولد عبد الملك بن محمد: عبد الله وعبد الرحمن، وأمهما هند بنت ثابت بن إسماعيل بن مجمع بن يزيد بن جارية من بني عمرو بن عوف، وأمة الملك بنت عبد الملك، ولم تسم لنا أمها، وكان عبد الملك

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٢/ ١٧).

(٢) التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة (٣/ ٨٩).

(٣) الطبقات الكبرى (القسم المتمم) (١/ ٤٦٤).

قاضيا لهارون أمير المؤمنين على عسكر المهدي»[١].

٢. أن أباه محمدًا مات سنة ١٣٢هـ، وهي سنة حصول الفتنة بين العباسيين والأمويين، ونتج عنها سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية.

٣. أن هذا التاريخ وما جرى فيه من الأحداث موافق لما وجدته في أكثر من نسخة من مخطوط تاريخ هذه الأسرة من أن جدهم الذي خرج إلى مصر خرج اجتنابا للفتن التي وقعت بين المسلمين أيام أبي العباس السفاح، وقيل أيام أبي جعفر المنصور ـ كما في نسخة الشيخ مجد الدين بن المهدي بن الشيخ محمد الملقب (أكحتي) ـ وكلاهما متقارب، لأن أبا جعفر تولى الخلافة بعد أخيه أبي العباس بخمس سنين[٢]. فإن يكن ابن أحد أبناء عبد الملك هو الذي خرج إلى مصر بعد وفاة أبيه عبد الملك فإن ذلك يتفق مع ما هو موجود لدينا من أنه خرج اجتنابا للفتن التي وقعت بين المسلمين آنذاك، وعندئذ يكون المراد الفتنة التي وقعت بين ابني هارون الرشيد بعد وفاته، وهما الأمين والمأمون.

٤. أن جميع نسخ تاريخ هذه الأسرة متفقة على أن جدهم الذي خرج من المدينة المنورة خرج منها عقب وقعة الحرة التي كانت سنة ٦٤هـ،

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (القسم المتمم) (١/ ٤٦٥).

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي (٢٤٢، ٢٣٨).

كما سبق بيانه في الخلاصة، فدل ذلك على أن الخروج من المدينة ليس هو المقصود بالخروج إلى مصر(١).

٥. ويعزز تعيين يحيى بن منصور الأنصاري من قبل عبد الملك بن محمد بن أبي بكر المذكور، أن يحيى هذا يروي عن أبي خالد يزيد بن عبد الرحمن الدالاني وهو من تابعي التابعين، لأنه يروي عن جمع من التابعين كزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومالك بن الحارث عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأبي خالد مولى جعدة عن أبي هريرة أيضا، وعمر بن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري، وقد هرب يزيد هذا من أبي جعفر المنصور(٢).

٦. أن كون اسم أبي عبد الملك محمدًا موافق لما اتفقت عليه أكثر النسخ الموجودة لدينا لتاريخ هذه الأسرة من أن جدهم الذي خرج من المدينة هو سيدي محمد(٣) الملقب (سنبَ/ سَنْبَة) بن يحيى بن

---

(١) وتقدم قبل قليل ذكر الدليل على نزول بعض الصحابة من الأنصار إلى مصر وبرقة وطرابلس بليبيا. نقلا عن الاستبصار للمقدسي.

(٢) انظر: التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة للسخاوي (٢/ ٣٣٢)، وتاريخ دمشق (٣٠/ ١٠٦)، وتاريخ واسط (١/ ٨٩).

(٣) كلمة (سيدي) درج أهل المغرب على ذكرها هكذا بضمير المتكلم، أو ضمير المتكلمين أمام كل شخصية محترمة أو متميزة ولا سيما أهل العلم والجاه، ومن ثم تجدهم يذكرونها أمام أسماء الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة رضي الله عنهم، غير أن الدارج مع هؤلاء إضافتها لضمير المتكلمين بدلا من ضمير المتكلم، فيقولون: سيدنا أبو بكر الصديق، =

منصور، وعندئذ يكون ابنه عبد الملك هو الملقب بـ(لمتون)[(١)] كما في جميع نسخ هذه السلسلة، ولكن لا يتعين ذلك فإن صح أنه ابنه فيجوز أن يكون ذلك لقبا أيضا لأحد أبنائه: الطاهر أوعبد الله أوعبد الرحمن. كما تقدم، كما لا يبعد أن يكون ابنًا آخر من أبناء محمد بن يحيى بن منصور.

٧. وجود من اسمه يحيى بن منصور الأنصاري ممن عاش في الفترة نفسها، وفي المكان نفسه، قال صاحب «التدوين» في ترجمة هارون بن أبي الشرف: «**هارون بن أبي الشرف القزويني روى عن يحيى بن منصور الأنصاري رأيت بخط أبي الحسين بن ميمون أنبأنا علي بن سلمة حدثني محمد بن عمرة بن كيسبة الكوفي ثنا هارون أبو الشرف القزويني ثنا يحيى بن منصور الأنصاري عن يزيد الدالاني عن زيد بن علي عن أبيه عن جده عن علي رضي الله عنه . . . .**»[(٢)].

ولا أرى أنه الذي ذكره الذهبي ممن اسمه يحيى بن منصور فقال: «أبا

= وسيدنا عمر بن الخطاب. . .إلخ، زيادة في التكريم والتبجيل. وهذا مثل ما شاع من الألفاظ المرادفة لمثل هذه الكلمات التي تذكر أمام أمثال هؤلاء، نحو: قدوتنا، إمامنا، الشيخ، العلامة، المكرّم، سماحة، فضيلة، سعادة، الإمام، الأستاذ. . . . .إلخ. من النعوت المستحدثة للتبجيل والتكريم، أو للتعبير عن المرتبة، أو الوظيفة، ونحو ذلك، ولكل عصر وبلد مصطلحاته الشائعة المتعارف عليها بينهم.

(١) تقدم أن من أسماء أعلام الأنصار حيّون وغزلون ولمتون. . . .إلخ.

(٢) التدوين في أخبار قزوين (٤/ ١٩٢).

محمد يحيى بن منصور بن يحيى بن عبد الملك، قاضي نيسابور»[(١)] فزاد (يحيى) آخر بين منصور وعبد الملك، ولم ينسبه، وذكر أنه مات سنة ٣٥١هـ، كما ذكره السمعاني في الأنساب، دون زيادة (يحيى) الثاني[(٢)] فإن تاريخ الوفاة المذكور يُبعد أن يكون يحيى بن منصور هذا هو الأنصاري صاحبنا، كما أن وجوده في نيسابور لا يوافق شيئاً مما عندنا.

وأما ما رأيته عند بعضهم من أن منصورًا أبا يحيى جد هذه الأسرة هو ابن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، شيخ الإمام مالك والسفيانين، فإن هذا قد يرده أن السخاوي رحمه الله ذكر في التحفة اللطيفة أن عبد الله هذا ليس له عقب[(٣)]. فإن صح ذلك يكن المقصود محمدًا أخاه كما قدمته. أو معاصره عبيد الله بن أبي بكر بن أنس بن مالك، أو معاصرهما وابن عمها أبا بكر بن يحيى بن النضر، كما تقدم.

غير أنه يجب أنْ يُعلَم أن هذا كثيرا ما يقع للمؤرخين وهو نفي أن يكون للشخص ذرية أو عقب، ثم يوقف له على ذرية وعقب بعد التحقيق والبحث، لأن المؤرخ إنما يتحدث بحسب علمه، وعدم علمه بالشيء ليس نفيا له، والقاعدة الأصولية المعروفة هي أن المثبت مقدم على النافي.

فهذه ثلاث احتمالات تبينت لنا من خلال البحث في تعيين أبي بكر

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٨)، والعبر (٢/ ٨٩).

(٢) الأنساب (٢/ ٣٥١).

(٣) التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة للسخاوي (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

الأنصاري الذي هو جد هذه الأسرة من التابعين أو من الصحابة، ولم نستطع تعيين أحدهم بالقطع على أنه المراد بسبب شدة تشابه الأسماء، ولكونهم من الأقران في زمن واحد، والكل يرجع إلى نسب واحد، وإلى جد واحد، وهذا هو المهم والحمد لله، أعني بعد ثبوت كون أبي بكر المذكور أنصاريّا بالتواتر، وسلسلة الآباء، وشهادة السماع المستفيض.

ومع هذه القرائن المتقدمة لا أجد ما يجعلني أقطع بأن أبا بكر جد هذه الأسرة هو أحد المذكورين المتقدمين، ولا أن يحيى بن منصور المذكور هو نفسه المتحدث عنه يقيناً، لجواز أن يكون هذا من باب تشابه الأسماء، مع اتفاق العصر، واجتماع أكثر من قرينة، وليس ذلك من المهام المنوطة بالباحث الموضوعي، ولكن مهمته أن يسجل ما توصل إليه بحثه، وما وقف عليه من النتائج. فها أنا أسجل هذه النتائج وأجعلها بين يدي قرائنا الكرام، تاركا بينهم وبين ما يفهمونه ويستنتجونه مما سجله البحث، من غير أن أفرض عليهم قناعتي أنا، ولا أن أكلفهم وإياي الخوض فيما أغنانا الله عن الخوض فيه، ولا نجد دليلا على أننا محاسبون على عدم الخوض فيه، وإنما نكل معرفة حقائق الأمور إلى الله تعالى.

الفصل الرابع

مناقشة النواقص التي تؤخذ على سلسلة بني إنفا

هذه السلسلة قد تنقصها أمور تؤخذ عليها، وهي أمور تنقص معظم السلاسل النسبية في التاريخ وتؤخذ عليها، من جهة التوثيق التاريخي، لا من جهة صحة نسب أصحابها، هذه الأمور نجملها مع مناقشتها فيما يلي:

* عدم ذكر جميع أعلامها بأسمائهم الصريحة، بل إن بعضا منهم ذُكِر باللقب، لأنه الشهرة، وقد يكون الاسم الصريح الأصلي منسيا أو مجهولا، وهذا نشاهده في أناس من بيننا نعرفهم ونعرف آباءهم، ولكننا لا نعرف إلا ألقابهم المحدثة، بل هم أنفسهم لا يعرفون إلا الألقاب التي يُنادَوْن بها منذ الصغر، ولا يدرون ما أسماؤهم الأصلية؟ مع علمهم يقينا أن هذه الألقاب ليست هي الأسماء الأصلية .والسبب في ذلك أن المقصود بالتسمية تعيين الشخص من بين سائر الناس، فإذا حصل التعيين بأي لفظ اكتفي به ولم يُلتفت إلى غيره، وكثيرا ما يحصل تعيين المرء بلقب محدث لمناسبة من المناسبات فيجري عليه عُرفا، ويُنسى اسمه الصريح، وهذا شائع مشهور في بني البشر منذ خلقهم الله، وفي الصحابة رضوان الله عليهم خلق لا يُعرفون إلا بألقابهم أو كناهم، فمنهم من يُعرف اسمه الأصلي، ومنهم من لا يعرف، نحو: أبي بكر، وأبي هريرة، ابن عمر، ابن مسعود، أبي دجانة، ذي اليدين، أبي حكيم الأنصاري، وأبي حميد الساعدي، أبي ذر الغفاري، أبي اللحم الغفاري،

سفينة مولي النبي ﷺ، زيد الخير بن مهلهل، المهاجر، مِثْعَب، وَحْوَح بن الأسلت الأنصاري . . . . وهم خلق لا يكادون يُحصَوْن. وكان في الجاهلية أناس كثير من العرب غير مشهورين إلا بألقابهم، ومنهم من لا تعرف أسماؤهم الأصلية، ولهم نسل معروف، ولا يُشك في نسبهم وحَسَبِهم، مثل:

إدريس عليه السلام، يذكر المؤرخون أن اسمه الأصلي (أخنوخ) - عبد المطلب، وهاشم جد النبي ﷺ - واسمه عمرو - وعبد مناف جده اسمه المغيرة - وقصي اسمه زيد[١] - أبو لهب - أبو جهل - العنقاء بن عمرو - مزيقيا - ماء السماء - الغطريف - غسان (وهو اسم ماء عرفت به القبيلة) - كندة (اسمه ثور، وصار لقبا للقبيلة) - الأشعر (جد الأشعريين، واسمه نبت بن أدد) . . . والأمثلة أكثر من أن تحصى في هذا الشأن[٢].

* مما قد يعد نقصا في هذه السلسلة توثيقها من مصادر متعددة، وذلك يحتاج إلى جهدٍ كبير، وزمن طويل، لأجل البحث عن كل علم من أعلامها في المصادر المتوافرة، ولكن هذا لا يدل على عدم صحتها وثبوتها، وإنما يدل على قلة تداولها في المراجع التاريخية، والسبب في ذلك أن أصحابها ورواتها يتداولونها من بينهم خاصة، ولم يعرضوها للنشر، ومع ذلك كله وجدنا لها نسخا في بعض مخازن المخطوطات في بلاد أزواد وموريتانيا، غير أنها لا تزال مخطوطة.

---

(١) انظر الأنباه على قبائل الرواة لابن عبد البر (٤٦).

(٢) انظر السابق.

* أن الأعلام المذكورين في هذه السلسلة غير مشهورين، ولا مذكورين في المصادر المشهورة بين الناس من كتب تراجم الأنصار، والكتب التي عنيت بأنسابهم، من لدن جدهم من الصحابة إلى آخرهم.

وهذا المطعن هو مستند العوام وأصحاب المعرفة السطحية، وأما أهل العلم فلا يعد هذا عندهم مطعنا، لأن المغمورين من الأعلام أكثر من المشاهير، ولم يُدَوَّن من أعلام الأمة إلا القلة، فكيف بمن لا يعرفه إلا الخاصة؟ ومع ذلك فهذا الحكم ليس حكيما ولا سليما من الجهة العقلية، لأنه لا يوجد في الدنيا من يستطيع أن يقول إنه اطلع على جميع الكتب، وعلى جميع من تُرجم لهم، أو أنه عرف جميع ما في كتب التراجم والتاريخ، أو جميع ما دُوِّن من العلوم، كل ذلك محال، وما دام الأمر كذلك فإنه لا يجوز لأحد أن يحكم بعدم وجود اسم ما فيما دُوِّن من التواريخ وغيرها .ويزيد الأمر تأكيدًا عندما نعلم أن ما كُتب عن الأنصار خاصة قليل جدًا بالنسبة لما كُتِب عن غيرهم، سواء في ذلك ما أُفرد لهم وما اجتمعوا فيه مع غيرهم، وما كتب في نسبهم أو في مآثرهم ومفاخرهم وفضائلهم.

قال عبد الرزاق بن محمد مرزوق ـ محقق كتاب (نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، للقاضي ابن الفراء) ـ: «**إن المصنفات في حياة الصحابة رضي الله عنهم وسيرهم وتاريخهم على وجه الإجمال كثيرة متنوعة، والمصنفات التي أَفردت الصحابة المهاجرين بالتأليف جماعات وأفرادًا كثيرة متنوعة أيضا، أسهم فيها القدماء والمحدثون على حد سواء، غير أن إفراد**

الأنصار ومناقب الأنصار بالتصنيف ـ وإن كان أيضا موضوع اهتمام بعض المؤلفين القدماء ـ لم ينل نفس المكانة، ولم يظفر بنفس الحظوة التي نالها الصحابة المهاجرون من هذه الناحية، فالذين أفردوا الأنصار بالتأليف معدودون»[١]. ثم ذكرهم وهم خمسة فقط.

وفي النهاية نقول إن هذا المطعن موجه لكثير من السلاسل النسبية التي لا يُشك في صحتها، ومن أكثرها لصوقاً بهذا الموضوع سلسلة بني الأحمر ملوك غرناطة، وهم ذرية أبي عبد الله محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر، وجمهور المؤرخين متفقون على أنهم من نسل الصحابي قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه وعن أبيه، ويسردون في ذلك سلسلة تصل بينهما، وما فوق أبي عبد الله هذا وهو أول ملوكهم إلى قيس بن سعد الأنصاري كلهم من المغمورين غير المشاهير، وبعضهم ليس له ترجمة ولا تعرف حاله وحقيقته، وأقوى مستند لدى المؤرخين في إثبات نسبهم هو قول الرازي: «دخل الأندلس من ذرية سعد بن عبادة رجلان: نزل أحدهما أرض تاركونا، ونزل الآخر قرية من قرى سقرسطونة، تعرف بقرية الخزرج»[٢].

ووقع خلاف عند بعضهم وفي بعض نسخ سلسلتهم في إثبات بعض الأعلام، وتعيين بعضهم، كخميس، ونصر، والأحمر، ويوسف، ومحمد

---

(١) نزهة الأبصار في فضائل الأنصار، للقاضي ابن الفراء، تحقيق عبد الرزاق بن محمد مرزوق (ص٥٨-٥٩).

(٢) انظر الإحاطة في أخبار غرناطة (٢/ ٩٢-٩٣). والسابق (ص ١٥).في الحاشية.

بن محمد. . . . .إلخ. فخميس أضافه بعضهم وحذفه بعضهم، ونصر تكرر مرتين وبعضهم جعل الأول نصيرا والثاني نصرا، والأحمر اختلف فيمن لقب به منهم، ويوسف تكرر واختلف في ابنه منهم، ومحمد بن محمد اختلف في تعيينه . . . . . وأما ألقابهم فلا يكاد شيء منها يتفق لفرط كثرة اختلاف النسخ فيها، بل إن بعض القرائن في نسبهم تشير إلى احتمال كونهم من سعيد بن سعد بن عبادة، وليسوا من قيس بن سعد بن عبادة[١].

وأما من حيث التباس السلاسل ففي سلسلتهم مالا يحصى من الأعلام المتشابهة مع أعلام آخرين من غير نسبهم، ويكفي دليلا على ذلك أن شهرتهم «بنو الأحمر» نسبة إلى جدهم **محمد ابن الأحمر** وهو يوسف بن محمد . . . .وهذه النسبة موجودة عَيْنُها لشخصية أخرى، هي: **محمد ابن الأحمر**، من كبار أعلام أهل الأندلس من ذرية هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، وهو من الأعلام المشهورة[٢]، وآباؤه من أرسخ الآباء وأعرقهم في الملك كما هو معلوم.

فلما ذكر بنو الأحمر نسبهم مسلسلا إلى قيس بن سعد الأنصاري، استدل له المؤرخون بصحة وجود ذرية قيس في الأندلس، ولم يهمهم أسماء أصحاب السلسلة وعددهم ومناسبة وجودهم في المنطقة، ولا كون بعض آبائهم عُرف بغير اسمه الحقيقي، ولا أن بعض الآباء سقط من السلسلة، ولا

---

(١) انظر السابق، مع نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر (٦٥، ٢١٥).

(٢) انظر جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (٧٩).

كون بعضهم التبس بآخرين . . . . ونحو ذلك مما يندر أن تخلو منه سلسلة نسب عبر عصور متباعدة؛ لأن السلسلة إذا وردت عن أصحابها الذين نقلوها عن آبائهم وحفظوها، اكتفي بإضافة ذلك إلى ثبوت كون أصحابها من أهل البلد.

ولقد أثبتُّ في مقدمة هذا الكتاب البراهين اليقينية على وجود أصحاب هذا النسب ـ سلالة الأنصار ـ في بلاد المغرب وصحراء أزواد وتنبتكو.

تنبيه وردّ شبهة:

قد زعم بعض مَنْ حاول الكتابة في تاريخ أسرة بني (إنفا) من الأنصار، أنهم من ذرية أبي عبد الله الصغير هذا، ودخلت عليهم الشبهة من قِبَلِ أنهم قد ثبت لهم أن جدَّ هذه الأسرة دخل بلاد المغرب فاستقر في مدينة فاس أول استقرار له في المغرب، واسمه أبو بكر بن يوسف الأنصاري، فذهب وهْمهم إلى أن يوسف هذا هو ابن أبي عبد الله الصغير المتقدم أنه وأخًا له اسمه أحمد خلفهما والدهما أبو عبد الله الصغير بعد موته سنة ٩٤٠هـ.

وهذا قول غير مستقيم، واستنتاج غير سليم، ولا يمكن أن ينتمي إلى الحقيقة بسبب من الأسباب، ولا أن يقبله أحد من ذوي الألباب الواعية، لأن أبا بكر بن يوسف المذكور نصت المراجع التي ذكرته على أنه دخل بلاد المغرب في عهد الأمير يوسف بن تاشفين أمير المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري، أي قبل قيام دولة بني الأحمر في غرناطة بحوالي مائة سنة تقريباً، وهي الدولة التي كان أبو عبد الله الصغير آخر ملوكها، وأولهم كان

سنة ٦٣٥هـ، فكيف يكون الرجل الذي عاش في القرن الخامس الهجري حفيدًا لرجل ولد وتوفي في القرن العاشر الهجري!! فإن بينهما ما يزيد عن خمسة قرون.

وقد جاء أبو عبد الله الصغير إلى مدينة فاس عام ٨٩٨هـ[1]، وفي ذلك الوقت كان والد الشيخ محمد المختار المعروف بـ(إنْفا) ـ وهو الابن السابع لأبي بكر بن يوسف الأنصاري جدّ هذه الأسرة ـ يتنقل بين بلاد تمبتكو وقرية أرَوان. كما سيأتي بيانه وتفصيله إن شاء الله، فانظر كيف التبس الأمر على هؤلاء ولم ينتبهوا إلى أن ما ذهبوا إليه ليس له طريق يلتئم به، ناهيك عن أنه استنباط عقلي لا يمكن أن يُعتمد عليه في إثبات حقيقة تاريخية، لأنه لم يستند إلى نقل ولا إلى رواية، مع كونه ساقطا منطقًا. والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ولا معقب لحكمه.

(١) التاريخ الأندلسي للعلامة الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحجي ٥٦٨.

الفصل الخامس

سيرة بني (إنْفَا) الأنصار

وآبائهم في بلاد أَزَوادْ

الشيخ محمدالمختار[١] المعروف بـ(إِنْفَا) بن مصطفى، ويقال فيه (محمد المصطفى) بن محمد الْمُزَّمِّل[٢] بن الشيخ العلامة محمد أحمد

---

(١) جرت عادة بعض القبائل من أهل المغرب أن يضيفوا إلى اسم (محمد) كلمة تميزه؛ لكثرة من يتسمى بمحمد منهم، وقد يكون للشخص عدة أبناء فيسمي كل واحد منهم محمداً، فيضطر إلى تمييز ما عدا الأول منهم بإضافة وصف مثل: المختار، أو المصطفى، أو الطاهر، أو المولود، أو الخير، أو الهادي... ونحو ذلك. وأحياناً يركبون اسم محمد مع اسم آخر فيسمون الشخص الواحد: محمد أحمد، أو محمد علي، أو محمد يحيى، أو محمد عثمان، أو محمد إبراهيم، ونحو ذلك. وكل ذلك لأجل التسمي باسم محمد تيمناً وتبركاً به لكونه اسم نبينا خاتم المرسلين ﷺ، وقد وقفت على أسماء عدة أعلام ممن عُرِف باسم (محمد أحمد) هكذا مركبا، من أمثال:

* أبو الفضل نصر بن محمد أحمد بن يعقوب العطار الصوفي. شذرات الذهب لابن العماد (٣/ ١٠٦).

* **محمد أحمد** بن ميمون. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/ ٤٣٧)

* **محمد أحمد** الأزدي أبو العباس الإشبيلي المعروف بابن الحاج. البلغة (١/ ٦٣).

* **نصر بن محمد أحمد** الساماني. تاريخ ابن خلدون (٤/ ٤٢٦).

* **أبو الحسين أحمد بن محمد أحمد** بن ميمون. التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٢٦٦).

وغيرهم كثير.

(٢) هكذا مركباً، ولكن المشهور هو (المزمّل) فقط، و في بعض المصادر مصطفى بن المزمّل. والله أعلم.

الآيري[(١)]، المشهور بابن آيِيرْ بن محمد المظفَّر[(٢)] بن أبي بكر بن يوسف بن عبد[(٣)] بن الحسن بن أبي بكر بن يحيى بن علي بن معبد . . . الأنصاري، الشيخ المشهور ببلاد المغرب

والصحراء، ويعرفهم الناس هناك بالأنصار دون غيرهم من القبائل المنتسبة إلى الأنصار، وببني «إنْفا»[(٤)] مؤخَّرًا.

---

(١) المراد: صاحب آيِيرْ، لأنه ولد في منطقة آيير في بلاد إيكدز، ونشأ فيها، حتى صار عالما مشهوراً فيها، كما سيأتي.

(٢) التسمية بالمظفَّرْ أو التلقيب به من الأمور الشائعة في بلاد المغرب في تلك الأثناء، ويحسن التنبيه إلى أن المقبرة القديمة في مدينة فاس تعرف باسم «تربة القائد مظفّر» وبها دفن الإمام ابن العربي رحمه الله. (انظر: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (٢/ ١١٨)، ونفح الطيب (٢/ ٣٠).

(٣) وفي بعض نسخ مخطوطات هذه السلسلة: عبد الله بن الحسن، وفي بعضها: عبد مناف بن الحسن، وفي بعضها: عبد الحسن، وأكثرها: عبد بن الحسن، ولذلك أثبته. والله أعلم.

(٤) بهذا اللقب اشتهر الشيخ محمد المختار بن محمد المصطفى بن محمد المزمل الأنصاري في بلاد المغرب والصحراء الكبرى (أزواد) وقد صارت سلالة هذا الشيخ في الأزمنة المتأخرة أكبر وأشهر قبيلة من الأنصار في تلك الناحية، وهذا اللقب أعجمي في أصله؛ لأن الشيخ له أخوال من الطوارق وكان يسكن معهم منذ صغره فلقبوه (إنْفَا) ومعناه (نَفَعَ) فيجوز أن يكونوا أطلقوه عليه في صغره تفاؤلاً، والله أعلم. وليس معناه (نافع) كما زعمه بعض من كتب عنه وحاول ترجمته، وليس اسمًا له أيضا كما ظنه آخرون. فتأمل. وقيل إن أمه ـ وهي طارقية من قبيلة إيدْنانْ ـ كانت تلاعبه وتقول له (إنْفَهي، أو إنْفاهي) ومعناه: نفعني، أو: النافع لي، ثم كثر ذلك حتى اشتهر به الولد، واختصر فيه على (إنفا) وصار شهرة له، لأن اسم (محمد المختار) كثير عندهم. والله أعلم.

لقد تبيّن لنا فيما سبق أن الشيخ محمد المختار الملقب (إنْفا) الأنصاري؛ من قبيلة الأنصار من الأوس والخزرج الذين نزحوا من موطنهم القديم المدينة المنوّرة، ثم استقر كثير منهم في بلاد الأندلس بعد فتحها، وانتشروا في الأقطار الإسلامية، ولا سيما بلاد المغرب ومصر، واستوطن خلق كثير منهم البلاد المعروفة الآن بتونس والمغرب والجزائر وليبيا وموريتانيا، وتعرف ببلاد المغرب العربي، حتى صارت هناك مدن عُرفت بهم، مثل مدينة الأنصاريين بتونس[١]، واشتهر منهم كثير من أعلام العلم والفقه والزهاد والدعاة في مدن فاس ومراكش وسجلماسة وتنبتكو وتوات والقيروان، وأَرَوانْ، و وَلاتَة، وغيرها من مدن بلاد المغرب والصحراء الكبرى، بل إن أعلام هذه القبيلة في تلك المنطقة يعدون من أشهر الأعلام فيها على مر تاريخها في الإسلام، ومن يطلع لذلك في كتب التراجم والأعلام المختصة يجد مقنعًا واضحًا لا تكتنفه الشكوك[٢]، وقد كثرت عوائلهم وبطونهم في بلاد المغرب من لدن بداية الفتح الإسلامي إلى يومنا هذا.

ولقد انتقل الشيخ محمد بن محمد المختار (إنفا) الأنصاريّ إلى بلاد

---

(١) انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري (ص٣٢)، بتحقيق الدكتور إحسان عباس.

(٢) نحو: الإحاطة لابن الخطيب، والصلة، والذيل والصلة لابن الأبّار، ونفح الطيب للمقري، والديباج لابن فرحون، ونيل الابتهاج، وكفاية المحتاج، كلاهما للتنبتكي، والحلل السندسية، و الاستقصا، و المُغْرِب وجذوة المقتبس، و تعريف الخلف برجال السلف للغول. . . . . .وغيرها.

تنبتكو بعد وفاة أبيه (إنفا) بعد المائة التاسعة من الهجرة، في نهاية القرن العاشر الهجري، فاستوطنها هو وذريته من بعده، حسب ما هو مدَوّنٌ في تاريخهم المروي عنهم، ولديّ عدة مخطوطات منه، وهذا التاريخ متفق عليه ببين جميع المراجع المخطوطة والمطبوعة، وفيها أن جدهم أبا بكر بن يحيى بن علي الأنصاري الذي كان معاصرا للملك يوسف بن تاشفين الصنهاجي المتوفى سنة ٥٠٠هـ، هو الذي قدم من (فاس) إلى (تَواتْ) ثم إلى قرية (إينْ صالَحْ) أو (عَيْن صالح) ـ والمدينتان الأخيرتان الآن تقعان في دولة الجزائر ـ فاستقر فيها حتى توفي، وكان هو أو أبوه يحيى قد قدم من غرناطة ـ كما ذكر الشيخ محمد المختار ابن حوّد رحمه الله فيما تقدم، من رواية القاضي امَّلُو عنه.

وخلف أبو بكر أبناء فوصى أحدهم الوصية الموروثة عن أجدادهم، بالسياحة في الأرض وترك الفتن، ولزوم الطاعة والعبادة والاستقامة في الدين، وهكذا تناقلها الخلف عن السلف، وقيل إن الذي انتقل من (فاس) إلى (توات) هو أبو بكر بن يوسف بن عبد بن الحسن بن أبي بكر بن يحيى (المتقدم). وهو الأشبه بالواقع، لأن ابنه الولدان الآتي ذكره كان من أعيان المنطقة في نهايات القرن الثامن الهجري، فلا يمكن بحال أن يكون أبوه هو الذي عاش في القرن الخامس أو السادس الهجري.

وقد اتفقت نسخ الرحلة الأنصارية كلها على أن الشيخ الولدان الأنصاري المذكور هو الذي آلت إليه هذه الوصية بعد أبيه أبي بكر بن يوسف، وتوفي الولدان في القرية نفسها، وخلف أبناء فوصى منهم ابنه محمد المظفر

بن الولدان، وسكن الشيخ المظفر في قرية الأنصار من منطقة تاكنيت في منتصف القرن التاسع الهجري، وخرج منها إلى توات، وبعد زمنٍ ارتحل المظفر من توات مع أخٍ له يُلقب بـ(أَمَكامَكا) إلى مدينة (إيكدَزْ)[1] في بلاد (أهقّار)، فنزل على أهلها وهم قوم من البربر يقال لهم (إهَقَّارَنْ) أي

---

(١) مدينة (إيكَدَزْ) عاصمة منطقة آيِيرْ. وبلاد (إيكدز) تقع شرق تنبتكو، قريبا من جبال الأدرار، وهي مساكن قبيلة إيفوغاس، وجمع من كبار قبائل مجموعات الطوارق الرئيسة، كإيدنان وغيرهم. ومن أشهر قبائل الطوارق في صحراء أزواد: إيوَرْلمدن، وكل أُولِّي، وكلغريس، وإيمقّشَرنْ، وتضم كل مجموعة منها بطونا وأفخاذا متعددة (انظر كتاب: الحكم المغربي في السودان الغربي، للدكتور محمد الغربي ص٣١٦). هكذا يذكر بعض المؤرخين كالمشار إليهم، ويبدو أنهم يعنون بذلك القبائل الصنهاجية فقط دون القبائل البربرية الأمازيغية الأخرى، كما أن هذه التقسيمات كانت في فترة من الزمن، فقد كانت هذه القبائل قديما معروفة بأسماء أخرى، أشهرها: لمتونة ومسوفة وجدالة (كدالة) ونفزاوة ولمطة وترجة(ترغة) وكزولة وبنووارث، وبربوشة. . . .(انظر: صحراء الملثمين للدكتور الناني ولد الحسين (ص٨٥) وما بعدها ط١، ٢٠٠٧م دار المدار الإسلامي) وهذه الأسماء حرفت إلى ألفاظ أخرى نحو: إيلمدَن وإيموشاغ ومشضوف وأهل تجكانت وإيمغاد وإيدنان. . .إلخ، ومن العجيب أن من يتكلم العربية منهم مثل مشضوف وعناصر من كنتة (أو: كانتا «انظر المرجع السابق» (ص٤٠٧) والبرابيش وأهل شنقيط. . . يعتقدون أنهم ليسوا من صنهاجة، ومن يطلع على المراجع المشار إليها يجد خلاف ذلك المعتقد. ومن أسباب ذلك اختلاط العناصر العربية بالبربرية، حتى صار الجهال من الناس يحكمون على النسب والأصل باللهجة المتكَلَّم بها، مع أن كثيرا ممن يتكلم اللهجات البربرية هم من أصول عربية، وكثيرًا ممن يتكلم اللهجات العربية هم من أصول بربرية. والله العالم وحده بالحقائق.

الهقاريون، فوجدوا الشيخ المظفر شيخاً جليلاً عليه سيما الصالحين وأهل العلم والخير، ووجدوه أميراً مطاعاً، فانضوَوْا تحت إمرته، ونكح منهم امرأة فوُلِد له منها بنون، أشهرهم العلامة الشيخ محمد أحمد بن محمد المظفر الآيري، وهو المعروف لدى هذه الأسرة بـ(أقْ آييرْ) أي «ابن آييرْ» وقد ولد في هذه المنطقة في أواخر القرن التاسع الهجري، وعاش فيها وذاع صيته في أيام السلطان «تلطة»، الذي أسقطه سلطان سنغي أَسِكَيا الحاج محمد عام ٩٠٦هـ[١].

وبعد وفاة الشيخ الأمير محمد المظفر رحمه الله ترك الوصية لابنه العلامة محمد أحمد الآيري المذكور، ثم انتقل محمد أحمد مرتحلا بمن معه من منطقة (أهَقَّار) إلى منطقة (إيكورْشان) بين «بورمْ» و «بَنْبَا» ونزل على قوم من قبيلة «إيذْنانْ» وسكن بينهم وتزوج منهم، فأنجب أولادًا، أشهرهم: محمد المزمّل، ومحمد المصطفى، وأحمد، وقد تناسل من كل واحد منهم قبيلة معروفة في المنطقة[٢]، ثم رحل الشيخ بعد زمن مع أبنائه وحشمه وأتباعهم مُيَمِّما بلاد تنبتكو، إذ كانت تنبتكو حينذاك مزدهرة بالحركة الثقافية في إمارة الأساكي من سُنْغَيْ[٣]، وكانت أعين الدولة المغربية السعدية عليها،

(١) انظر كتاب تفتيش الوثائق (١/ ١٦٤).

(٢) أما أحمد فذريته هم المعروفون بـ(تَهَبانَتْ)، وتركة محمد هم أهل قرية إيمَوَلْ، في بلاد إيكدَزْ.

(٣) سُنْغَيْ أو: صُنْغَيْ، أصلها: صنهج، من صنهاجة، سموا بذلك على أن أصلهم من صنهاجة كما ذكر السعدي في مقدمة تاريخه، أو سموا بذلك لجوارهم إياهم. وذكر أحمد بابا التنبتكي في كتابه (نصيحة الإخوان) أن آل سُكْيَة.وهم الأساكي والأسكيا.أصلهم من =

لأنهم يعلمون أنها من تركة إخوانهم المرابطين، وكانت شخصيات هذا البيت من الأنصار في اتصال مستمر مع ولاة السعديين في المغرب ـ كما سيأتي ـ فتوفي الشيخ محمد أحمد الآيري في الطريق تاركا أهله عند جبل ثَمَّ معروف يقال له: إهيرْ، أو: أهْيَرْ، و: أهَر، إهِرْ، وقيل إنه توفي قبل ذلك، تاركا الوصية المسلسلة لابنه الشيخ محمد المزمل.

فارتحل المزمل بمن معه مواصلا الرحلة إلى بلاد تنبتكتو، فنزل في قبائل «إيدْنانْ» أيضا، وتزوج منهم، فأنجب ابنين أحدهما مصطفى، المعروف بـ(محمد المصطفى) وبـ(مصطفى المزمل) وبـ(مصطفى بن المزمل)، والآخر اسمه البخاري، ولقبه (أُوفَ الْياضَنْ)(١) ـ بمعنى خير الفتيان ـ وأختا لهما اسمها أم محمد، وهي جدة الشيخ العلامة أحمد بن آدَّا(٢) الأرواني.

= صنهاجة، وأولهم الحاج محمد سُكْية، المتوفى عام ٩٤٤هـ وهو رجل صلاح سنيّ، حج ولقي العلامة السيوطي فأخذ عنه العقيدة وأحكام الإسلام (انظر الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى للسلاوي (٥/ ١١٠)).

(١) وهو لقب ألقته عليه أمه فعُرِف به، وأما أبوه فسماه (البخاري) ولا تزال هذه الأسرة يسمون باسم البخاري، تسمية على إمام الحديث صاحب الصحيح محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله.

(٢) الشيخ أحمد بن آدّ بن محمد بن أبي بكر الطاهر بن غوث الله بن بلال بن أحمد نور بن مالك بن عبد الرحمن بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه بن عبد المطلب. من أهل القرن العاشر الهجري. هكذا ذكره صاحب تفتيش الوثائق عن تاريخ الطوارق وغيرهم (١/ ٢١٨-٢١٩)، نقلا عن وثيقة نقلها أحد مؤرخي =

ومن ذرية البخاري بن المزمل قبيلة (أهل إينتُورْشاوَنْ) أي أهل صاحب شجرة العُشَر، وصاحب العشر اسم بئر، سميت به القبيلة لسكناهم عندها. والمنتسبون منهم للبخاري هم المعروفون بـ(أهل تَنَكَبَّاتْ) و(أهل كَرَاضَتْ) و(أهل ثَناتَتْ)[1]. و من ذرية البخاري أيضا بيت من قبيلة إيجلاذْ، ومنهم العلامة الشيخ محمد الفقي المعروف بحكّو بن إبراهيم الأنصاري.

وبعض نسخ كتاب الرحلة الأنصارية تشير إلى أن الشيخ المزمل هو الذي ترك أهله حيث توفي أبوه محمد أحمد في بلد (إهير) المذكور، في بلاد (إيكدز) ثم سافر إلى بلاد تنبتكو للاستكشاف والاستطلاع، فتوفي في مكان يقال له (أفَيْتاولْ) على شاطئ النهر الذي يجري هناك، قبالة الموضع المعروف بـ(تِينْ ناتَّنْ) وهو الذي صار مساكن الأنصار من «أهل إينابَلَحَنْ» فيما بعدُ، فدُفِنَ هناك ـ وهكذا ذكر لي الشيخ أكحتي بن محمد عالي (حُولّاي) الأنصاري، وهو من مؤرخي هذه القبيلة ـ فلما توفي الشيخ المزمل في ذلك المكان ترك الوصية المسلسلة لابنه محمد المصطفى المذكور، ثم انتقل هذا الأخير بعد وفاة والده المزمّل إلى قرية (أَروان) شمال تنبتكو.

= موريتانيا عن العلامة مختار بن حامد في كتابه (حياة موريتانيا).

ومن الموافقات الطريفة العجيبة أن عدة أعلام سلسلة الشيخ أحمد بن آدّ هذه مساويةٌ بالتمام لعدة سلسلة معاصره الشيخ محمد المختار إنْفا الأنصاري، رحمهما الله.

(١) هذه الألفاظ صارت أعلاما على هذه الأفخاذ من هذه القبيلة، ومعانيها كالتالي: (أهل تَنَكَبَّاتْ): بمعنى أهل القميص. أو أهل المنغلقة. و(أهل كَرَاضَتْ): بمعنى أهل الثالثة. و(أهل ثَنَاتَتْ) بمعنى أهل الثانية. يعنون بذلك الخطوط التي يَسِمُون بها حيواناتهم.

ويبدو أن محمد المصطفى انصرف إلى هذه القرية وترك التوجه إلى تنبتكو التي كان أبوها يريدها، لأنه لم يجد خبرا عنها من ثقة يطمئن به، فقد توفي أبوه الذي ذهب مستطلعا لها فانقطع خبرها، أو أنه أجَّل التوجه إليها لأمر مّا لا يعرفه آنذاك إلا الخاصة، وهو الغزو السعدي الوشيك لتنبتكو ـ كما سيأتي ـ فلما نزل بلدة أروان نزل على قوم من العرب والطوارق، وتزوج منهم امرأة اسمها: مامّة بنت تمكلت بن محمد بن أبي بكر، فولد له منها ولده الشيخ العلامة محمد المختار المعروف بـ(إنفا) بعد عام ١٠٠١هـ.

وبعد وفاة الشيخ محمد المصطفى في القرية المذكورة نفسها، وقيل بل في إيكدز حيث كان أبوه وجده، ترك الوصية لابنه الشيخ محمد المختار المعروف بـ(إنْفا) وهو الذي اشتهرت به هذه الأسرة، في العصور المتأخرة، وذهب الشيخ (إنفا) للحج وأخذ مدة عند أبناء عمه الأنصار الموجودين في فزّان في ليبيا، وهم من هذه السلسلة نفسِها، وبعد عودته من الحج تزوج امرأة من أهل أرَوَان، اسمها: فاطمة الفردوس بنت أحمد بن فرْدِيمس بن عياض بن محمد الفقي بن أيِتّا واسم أيِتًّا محمد المختار بن إبراهيم بن داود . . .إلى الحسن بن علي بن أبي طالب[١].

---

(١) هكذا ساق الشيخ أبو بكر الشكاغي نسبها متصلا بعلي بن أبي طالب ﷺ، في كتابه (تفتيش الوثائق / ٢٤٣و٢/ ١٢٢) مصرحا بأنها من قبيلة (إيمقشرَنْ)، وكذا أكد لي الشيخ أكحتي بن محمد عالي حُولّايْ الأنصاري أنها من قبيلة (إيمَقّشرَنْ)، وإيمقشرن قبيلة من صنهاجة، من أشهر قبائل صنهاجة في المنطقة، فكيف يلتئم أن تتصل بعلي بن أبي طالب ﷺ؟!! الجواب عن هذا الإشكال ساقه الشيخ أبو بكر نفسه في كتابه المذكور، فلقد ذكر =

وتوفي عنها بعد أن أولدها ولدًا هو محمد بن محمد المختار(إنفا) وتزوج بها بعده العلامة القاضي أحمد بن آدّ بن محمد بن أبي بكر بن غوث . . . إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وتقدم أن الأنصار أخوال جده، ودُفِن الشيخ (إنفا) في مدينة أرَوانْ، ثم حج القاضي سيد أحمد بن آدّا المذكور عام ١٠٠٢هـ وقيل بعد ذلك بقليل، وبعد عودته درّس ربيبه محمد بن إنفا الأنصاري والشيخ محمد الأمين البنكابي شيخ سيدي علي بن النجيب ـ الذي كتب هذه السلسلة عن محمد بن إنفا ـ ثم توفي العلامة ابن آدّا عام ١٠٢٠هـ في قريته «أرَوان» وهي المسماة (إينْ شقّاغَنْ).

هكذا ذكر الشيخ أبو بكر بن محمد المولود(إدْوَلْ) الشكاغي في كتابه (تفتيش الوثائق) نقلا من وثيقة العلامة الفقيه القاضي محمد محمود بن الشيخ الأرواني، وهو من أعلم أهل هذه المنطقة بأحوال سكانها، وأحفظهم لتواريخهم، كما ذكر لي الشيخ محمد همَّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) رحمه الله، وكان كثيراً ما يثني على محمد محمود الأرواني هذا.

ولكن جميع نسخ الرحلة الأنصارية على خلاف هذا! ففيها أن الشيخ إنفا رحمه الله لما كَبِر وضعف رحل به ابنه محمد إلى بلاد تنبتكو في المائة

= أن الشيخ أحمد بن فرديمس صار من أعيان قبيلة إيمقشرنْ لأنهم أخواله هو وآباؤه، وقد اختلط بهم حتى عُدَّ منهم، مع أنه في الأصل قرشي، كما تقدم في نسبه. (تفتيش الوثائق ١/ ١٥٨-١٥٩).

قلت: وهذا كثير ومشهور في القبائل والأعلام، ولأجل هذا وهم بعض المتأخرين فنسب إيمقشرنْ إلى الأشراف من قريش، ولم يدققوا في النسب.

التاسعة بعد الهجرة، ولم أجد فيها التنصيص بموضع وفاته بعد ذلك، غير أن المشهور عند مؤرخي هذه الأسرة أن الشيخ إنفا توفي ببلدة أرَوان، وهكذا حدثني الشيخ محمد همَّ بن محمد الطاهر (حمتاهي) عن أشياخه، مؤكدًا أنّ إنفا رحمه الله سكن إينْشقّاغَنْ وهو (أرَوان) أول قدومه، وتزوج في هذه القرية وعاش فيها، ثم أخذ يسافر إلى تمبتكو ويعود إلى أرْوانْ، حتى وُلد له ابنه محمد، فكان آخر أمره أن توفي وهو في (أرَوانْ) ودُفِنَ فيها.

فإن يكن الأمر كذلك يكن ابن آدّا تزوج أم محمد بن إنفا وهي طالق من إنفا، و إلا يكن إنفا هو الذي تزوجها بعد ابن آدَّا. وأما الشيخ أكحتي بن محمد عالي (حُولّاي) فذكر لي أن الشيخ آدَّا هو الذي تزوج أم محمد بن إنفا بعد وفاة أبيه إنفا، وأن الشيخ سيدأحمد بن آدّا هو أخو محمد بن إنفا من الأمّ، وهذا يؤيده أن أكثر نسخ الرحلة الأنصارية فيها العبارة التالية: «تزوج إنفا امرأة يقال لها فاطمة الفردوس بنت أحمد بن فرْدِيمس، وهي أيضا أم جد أهل أرَوانْ أحمد بن آدَّا. . .».

وخلاصة الأمر أن أُمَّ الشيخ محمد بن إنفا الأنصاري تزوج بها الشيخ سيد أحمد بن آدّا أو آدَّا نفسه، وقد يؤيد القول الأول أن راويه ينقله من كتاب حفيد الشيخ ابن آدّا وهو محمد محمود الأرواني وقد دوّن ذلك وكتبه، و الشيخ محمد محمود الأرواني علامة راوية ثقة مشهور، وسائر الروايات الأخرى الاعتماد فيها على الحفظ لا على الكتابة.

ولما صار الشيخ محمد بن إنفا الأنصاري من كبار العلماء بعد وفاة أبيه

وزوج أمه سيد أحمد بن آدّا خرج من أَرَوان وتوجه إلى تنبتكو فنزل قرية بَنْبا على شاطئ النهر، شرق تنبتكو، هذه عبارة بعضهم، وأما الشيخ محمد (هَمَّا) فقال لي: «بل نزل بلاد (إبَنْبَا) غرب تمبتكو». فوجد أخواله هناك فآوى إليهم، وهم حي الشريف آوّا بن محمد أُخَيْرِي، المكَوَّن من الشيخ الهاشم بن المختار بن آوّا، وإخوانه وأبناء عمه، وهم أبناء أعمار بن الفقيه أبي الهدى بن موسى بن محمد المختار المعروف بـ(آيتّا) المتقدم ذكره ونسبه الشريف، وهم أجداد قبائل (كل همَمْ، وكل إينْ الشريعة، و غيرهم كثير من القبائل المصدرة بـ«كَلْ») ووجد من ضمن هذا الحي (تانْدِيسْ) جدّ الغزّافيين، و(وَشَقَّغَنْ) جد قبيلة «كَلْ تشْغايِنْ» فقد ألفاهم قاطنين في ذلك المكان مستقرين، فرغب في السكنى معهم، فوجدوه شيخا فاضلا عالما، فأكرموه ورحبوا به، فلما ظهر لهم فضله ومكانته زوّجه الهاشم بن المختار ابنته عائشة بنت الهاشم بن المختار القرشي(١)، فتآزَرُوا وكَوَّنوا حِلْفًا واحدًا قويًّا في المنطقة، بقيادة محمد بن إنفا الأنصاري، وانضم إليهم أشتات من قبائل المنطقة، وسمي الحلف كله بالأنصار، وكلْ انتصر، وكلْ انْصَرْ، نسبة إلى محمد بن إنفا الأنصاري وإخوته وأبنائه، لأنهم رأس ذلك الحلف وقاعدته، وكل مَنْ

(١) وقد ذكر لي الشيخ أكحتي بن محمد عالي حولّايْ الأنصاري أن الشيخ الهاشم لما أراد تزويج محمد بن إنفا ابنته المذكورة اعترضه إخوانه وأبناء عمه، وقالوا له: كيف تزوج رجلا غريبا غير معروف؟ جاءك عابر سبيل، ثم تزوجه ابنتك!! فقال لهم إني تفرست فيه الخير، وأرى أنكم آيلون عن قريب إلى الاحتماء به والركون إلى حوزته، وأنه سيظهر على جميع هذه المنطقة، هذه فراستي فيه. فكان كما تنبأ له.

سواهم صار تبعا لهم، واستمر ذلك إلى يومنا هذا.

فصار الشيخ محمد بن إنفا الأنصاري أشهر أهل ذلك المكان، فقد قصده طلبة العلم، وتخرج به خلق كثير، وصار له أتباع وموالٍ وحلفاء، فتنازل له خاله الشيخ الهاشم بن المختار عن (الطبل) الذي لا يحمله إلا شيخ العامة الذي هو بمنزلة الأمير أو السلطان، وكان لهم تنظيم تقليدي، يتداولون فيه ذلك الطبل، باسم سلاطين العلويين السعديين، في المغرب، فهو رمز لتلك المكانة السياسية الاجتماعية.

ويبدو أن هؤلاء الهاشميين وإخوانهم الأنصار كانوا على اتصال شديد بسلاطين المغرب السعديين منذ قديم، وأنهم كانوا يترددون بينهم وبين منطقة أزواد، ولا سيما مدينة تنبتكو، وهذا ما جعل السعديين يتجهون إلى غزو هذه المنطقة واستتباعها كما كانت من قبل في عهد المرابطين ومن بعدهم، فقد كانت منطقة تنبتكو جزءا من المغرب منذ تأسيسها.

ومن القرائن التي قد تدل على هذه العلاقة بين الهاشميين والأنصار من جهة وملوك السعديين من الجهة الأخرى أن الحملة المغربية التي توجهت من قبل السلطان أحمد المنصور الذهبي ـ الذي سُمي بـ(السعدي) ـ لغزو بلاد تنبتكو بقيادة القائد جؤذر في أول محرم من سنة ٩٩٨هـ اتخذت الطريق الصحراوي الذي لا يعرفه إلا أهل الصحراء أنفسهم[١]، فقد خرجت الحملة

(١) انظر أخبار هذه الحملة ووصفها وطريقها في الصحراء في: الاستقصاه (٥/ ١٢٦)، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي للدكتور محمد الغربي (٢٢١)، وما بعدها.

من مراكش إلى (كتاوة) على بعد ٢٥٠كم، ثم إلى (تندوف) على بعد ٤٥٠كم، ثم توجهت الحملة مباشرة إلى (تاوْدَنِّي) في قلب الصحراء، وهي مكان المعدن الملحي المعروف بـ(تغازي) على بعد ٨٠٠كم، ثم توجهوا من تاودنّي إلى تمبتكو على بعد ٥٤٠هـ عبر آبار الصحراء، وبلغوها في مارس ٩٩٩هـ[١]، ولا ريب أن جملة من رجال أهل الصحراء من هذه القبائل المغربية المنتشرة في تلك المناطق من الأشراف والأنصار وغيرهم كانت مع هذه الحملة، يدلونهم الطريق وأماكن المياه والآبار.

وقد رُويَ لنا أن الشيخ مصطفى بن المزمل الأنصاري ـ الذي نتحدث عنه وعن ذريته ـ كان مع القائد جؤذر في تلك الحملة يحفرون الآبار في الصحراء ويسقون الجنود، حتى وصلوا إلى بئر بوجْبَيْه ـ ويقال لها: (أبو جبيهة)[٢] ـ

(١) انظر بداية الحكم المغربي لمحمد الغربي (٢٢٤، ٢٢٨).

(٢) يذكر المؤرخون أن جؤذرًا وأصحابه وجدوا هذه البئر هي الوحيدة التي لا تزال في تلك المنطقة في حالة جيدة مع غزارة المياه، ضمن عدة آبار كانت قد طمرت، وأنها تقع على بعد ٩٠كيلومترًا شرق أزوات، وقد تكون (أزوات) هذه هي نفسها (أرَوان) أو منطقة قريبة منها، (انظر: بداية الحكم المغربي (ص٢٤٢)، نقلا عن كتاب مناهل الصفا للقشتالي (ص١٣٦). غير أن المشهور إطلاق كلمة (أزَواد) على الصحراء كلها وهي الصحراء الكبرى (انظر: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، لعصمت عبد اللطيف دندش (ص٣٣، نشر دار الغرب الإسلامي). ومما تجدر الإشارة إليه فيما يتعلق بكون الشيخ مصطفى المزمل ممن كان مع القائد جؤذر باشا: أن هذه الحملة القادمة من مراكش من قبل الملك العلوي أحمد المنصور الذهبي كان فيها مجموعة من القواد كل منهم اسمه (مصطفى) مثل: مصطفى بن عسكر الأندلسي، ومصطفى التركي.... فهو اسم منتشر =

حيث توفي هناك، وقبره معروف إلى يومنا هذا[(١)].

أفادني بذلك الشيخ القاضي محمد المولود (امَّلُوا) رحمه الله روايةً عن شيخه العلامة محمد المختار بن حَوَّدْ الأنصاري، المتوفى **١٤٠٢**هـ. وذكر أن الشيخ محمد المختار تحدث بذلك أمام جمع من العلماء والأعيان في تنبتكو في اجتماع حافل، ضمن كلام له تحدث فيه مجيبًا لسائل سأله عن أصل الأنصار التنبتكيين، وعن موطنهم قبل قدومهم إلى تنبتكو. والله أعلم بالحقائق.

وهذا المذكور في هذه الرواية غير مستبعد، لِمَا تَقَدَّمَ من أن الشيخ مصطفى المزمل هو وغيره من أعيان منطقة أزواد ربما كانوا على اتصال دائم بحكام المغرب، يفدون عليهم ويجتمعون بهم، وينظرون معهم في أمر البلاد، ويبدو لنا أنه لم يكن لحكام المغرب أن يغزوا الصحراء لتوحيد دولة المسلمين في تلك البلاد لولا هذه الصلة القوية بأعيان أهلها، ومما يعزز هذا أن أبناء الشيخ مصطفى المزمل الأنصاري وعلى رأسهم ابنه محمد المختار (إنفا) المولود بعد عام ١٠٠١هـ وحفيده محمد بن إنفا كانوا على صلة بدولة السعديين هذه، وهذا يعد من أسباب تسليم أمراء الأشراف **الطَّبْل** لهذه الأسرة الأنصارية.

ومما يؤيد هذا ما تقدم أنْ ذكرته عن الشيخ أكحتي بن محمد عالي

= في أهل المغرب (انظر المرجع السابق ص٢٠٥ والاستقصا للسلاوي ٥/ ١٢٦).

(١) هكذا ذكر لنا، وهذا يعزز كون المتوفي في بوجبيه هو محمد المصطفى بن المزمل، لأن المدوَّن في تاريخ هذه الأسرة أن أباه الشيخ المزمل هو المتوفى في (أَفَيْتَاوَلْ) شرقي مدينة تنبتكو، وقبره فيه، ـ كما بينت ـ والله أعلم بالحقائق.

(حُولّايْ) الأنصاري وقد ذكر لي أن الشيخ المزمل خرج من عند أهله في إيكدز وتوجه إلى بلاد تنبتكو للتعرف على البلاد واستطلاعها، والتعرف على أوضاعها وطرقها، ونحو ذلك. فلا يبعد عندنا أن يكون مأمورا بذلك، وأنه يؤدي مهمة ما في ذلك، غير أنه توفي في تلك الرحلة في الموضع المذكور، فقام ابنه محمد المصطفى بالمهمة نفسها مع آخرين فيما نقدر.

ومن من معززات هذه الصلة وجود وثائق اعتمادية من ملوك السعديين العلويين لدى أمراء الأنصار من بني إنْفا، بل ثمة شيء آخر أقوى من هذا كله وهو زواج الأمير الشيخ محمد الملقب أَبَّانِينْ ابنة السلطان مولاي إسماعيل بن محمد الشريف بن علي بن محمد، واسمها: أُم حِلِّي بنت مولاي إسماعيل، وهي أم محمد المولود بن أبَّانِينْ، وذريته الآن يقال لهم: «أهل تَلْكَصْباتْ». والسلطان إسماعيل من أعظم سلاطين الدولة العلوية في المغرب، وفترة حكمه أطول فترة حكمتها الأسر الحاكمة في المغرب، من سنة ١٠٨٢هـ إلى سنة ١١٣٩هـ[١]، فنستبعد أن يكون مثل هذا دون وجود علاقة وطيدة بين الأسرتين، بل إن أخانا الشيخ محمد الصالح بن محمد بن محمد الأمين (تلَّا) قال لي إن الأمير محمد علي بن الطاهر ذكر له أن ملك المغرب لم يعتمده في المغرب ويسمح له بالإقامة إلا بناء على وثيقة أراه إياها، كانت مع أبيه الطاهر بن المهدي آخر ملوك الأنصار في تنبتكو، فيها

(١) انظر تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب، لأبي القاسم الزياني، تحقيق رشيد الزاوية (ص٧٩).

اعتماده أميرًا على بلاد تمبتكو من قبل ملوك السعديين في دولة المغرب، بناءً على ما كان عليه الأمر من قبل. والله تعالى أعلم بما كان من ذلك.

ومن الطرائف التي تتعلق بهذا ما ذكره لي الشيخ محمد همّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) رحمه الله من أن بعض أفراد قبيلة (إيجلّاذ) ـ وهي من القبائل المجاورة للأنصار في بلاد تنبتكو[(١)] ـ زعموا أن الشيخ محمد المختار لا يذكر جده المزمّل بما يجب من التبجيل والإكبار، بل ذكره بما يوهم أنه كبعض العمّال أو العبيد لدى القائد جؤذر، في الموقف السابق، أو في موقف آخر انتسبوا فيه إلى المزمّل أمام الشيخ، فغضب الشيخ لذلك، ثم أنشد معرِّضًا بصاحب هذه المقالة:

ومَنْ قال إني قلت كان مزَمِّلٌ		رقيقًا فكذّابٌ بجهلٍ مزمَّلُ
ولكنه جدّي حقيقًا وجده		سلالةُ أنصارِ النبيِّ المبجَّلُ[(٢)]

---

(١) ويذكر بعض كبار مؤرخي الأنصار أن قبيلة إيجلّاذ هذه عبارة عن أحلاف تتألف من عدة قبائل وأصول، وأن منها فريقا من بني الأنصار، غير أنهم دخلوا في قبيلة إيجلاذ هذه واندمجوا معهم حتى نُسي أصلهم، وهو أمر شائع في أمم تلك المنطقة، ومن هؤلاء المنتمين إلى الأنصار من إيجلاذ العلامة الفقيه الداعية محمد بن إبراهيم المعروف بـ(حكُّو) رحمه الله. ومما ساعد على هذا أن يُعلم أن كلمة (إيجلّاد) كانت تطلق على جميع القبائل العربية التي تتحدث باللغة الطارقية، ومنهم الأنصار ومن معهم من الأشراف، ثم صارت بعدُ عَلَمًا على قبيل واحد فقط.

(٢) قوله: «فكذاب بجهل مزمَّل» معناه: فكذاب مزَمَّلٌ بجهل، أي مغطى وملتحف بجهل. والمبجلُ: مرفوع على القطع، والتقدير: هو المبجل، كما تقول: مررت بزيدٍ الفاضلُ، على معنى: هو الفاضلُ.

الفصل السادس

خبر الشيخ محمد بن إنّفا الأنصاري وتفصيل ذريته

عَلَا شأن الشيخ العلامة محمد بن محمد المختار (إنفا) وذاع صيته، وكثر أتباعه وصارت له الطاعة في المنطقة، بسبب علمه وحسن تدبيره وسياسته للأمور، وظهر على غيره من العلماء والأعيان، فاعترفوا له بالفضل والتقديم، فلما آلت إليه الأمور شرع في عمارة الصحراء بحفر الآبار، ونشر العلم، وبَسْط الأمن، وجمع كلمة الناس، ودفع الظلم والظالمين، وأخذ يحفر الآبار، فكان أول بئر حفرها: بئر **إينتْلَكْ**، ثم **هَلُولْ**، ثم **أغَزّافْ**[1]، ثم

(١) وقد زعم بعض الغزافيين المتأخرين أن هذه البئر لجدهم، وزعموا أنهم وجدوا ذلك مكتوبا، أو منقوشا، والصواب أنهم إنما سُمُّوا (غَزّافيين) نسبة إلى هذه البئر، لسكناهم عندها والسقيا منها، حتى عُرفوا بها واشتهر ذلك، وقد تقدم أن محمد بن إنفا الأنصاري رحمه الله لما جاء إلى هذا الحيّ من بني هاشم كان من بينهم جد الغزافيين واسمه (تانْدِيسْ) فكان من أوائل حلفائه وجيرانه، فلما حفر الشيخ الأنصاري الآبار وآلت إليه أمور المنطقة بعد خاله الهاشم رحمه الله، جعل أحقية السقيا من هذه الآبار لحلفائه وأخواله وطلبته وجميع أتباعه، ومنهم تانديس رحمه الله وذريته، الذين اختصوا بتلك البئر حتى سُمُّوا باسمها، هذا ما علمناه ورويناه عن أبناء محمد بن إنفا الأنصاري، وهذا ما علموه وتواتر لديهم، وما سواه لا يعلمه إلا الله وحده.

وإنما غر هؤلاء الغزَّافيّين الذين زعموا ملكيةَ هذه البئر أنهم عُرِفوا واشتُهِرُوا بالنسبة إليها، فيقال لهم غزَّافيون، وهذا أمر شائع عندنا في المنطقة وهو تسمية القبائل والجماعات بأسماء أماكن سكناهم، فيقال: أهل إينْجارَّنْ، أهل إيرْتَكْ، وأهل إينَقُّوزْمِي، وأهل إينْ كومَنْ. . .إلخ. وكلها قبائل من أصول غير أنصارية نسبًا، ولكنهم سُمُّوا بهذه الآبار وهي =

إينَفِيسْ، ثم إينْ إبراهيم، ثم أشَبْ، ثم بئر أرَوَانْ[١] التي صارت بعد ذلك في وسط القصر الذي بُنِي حولها، وكان ذلك المكان صحراء لا عمارة فيها، ويبدو أن قرية أرَوان القديمة كانت بجانب ذلك المكان آنذاك، وفي النسخ التي لدينا من تاريخهم بعض الخلاف في ترتيب هذه الآبار، مع اتفاقها على أن هذه الآبار المذكورة هي أوائل ما حفره الشيخ محمد بن إنفا، ثم استمر في حفر الآبار متجها من (**تِكْراطْ**) شرقا إلى بئر (**أقْ أغِياسَنْ**)[٢] **غرباً في الحدود**

= آبار للأنصار، ولم يدِّعِها أحد منهم، فما بالُ هؤلاء المتأخرين من الغزافيين يدّعون ملكية هذه البئر، بحجة واهية كهذه، علمًا بأن هذا الادعاء ناشئٌ من متأخريهم الذين لا يعلمون شيئًا من تاريخ آبائهم وتاريخ علاقتهم بالأنصار.

(١) (أَرَوَانْ) قرية قديمة في المنطقة تقع شمال مدينة تمبتكو في الصحراء، وتسمى (إينْشقغنْ) أيضاً، وهذه التسمية طارقية، قال لي الشيخ محمد المعروف بـ(هَمَّا) بن محمد الطاهر المعروف بـ(حمتاهي) رحمهما الله: أصل الكلمة: (أَهَرَانْوَانْ) أي: مملحة البقر، فكلمة (أهَرا) بمعنى السبخة المملحة، وهي التي تعطى للبقر والغنم للحسها والاستشفاء بها، و(إيوانْ) بمعنى البقر. وكلمة (إِنْ) بمعنى النسبة. ثم طُوِّر لفظ الكلمة حتى صارت (أَرَوانْ).

(٢) جميع الكلمات المصدرة بـ(إينْ أو تِينْ، أو أق، أو كَلْ...) أعجمية طارقية، لأن سكان المنطقة من الطوارق، وقبيلة الأنصار الموجودة هناك يتكلمون بلغة الطوارق، لأجل اختلاطهم بالطوارق ومجاورتهم لهم، ولكون أوائلهم الذين وصلوا إلى المنطقة قد صاهروا الطوارق فكان أبناؤهم من أمهات طارقيات، ومن ثَمَّ فشت فيهم لهجة أخوالهم، مع استعمالهم للعربية، وأما في الدراسة والمراسلات ونحو ذلك من الأمور المهمة فلا يستعملون إلا العربية. و(تِينْ) بمعنى: ذات. و (إينْ) بمعنى: ذو، عند إرادة النسبة، كما أنها مرادفة لـ(ألْ) المعرفة، نحو: (إيمَلَّنْ) بمعنى الأبيض، و(إيفولّان) بمعنى الفلّانْ، ومرادفة لكلمة (أهل) وأحيانا ينطقونها: أَيْتْ، أو: آيِتْ، أو: أَقْ. وأصلها (أخ)، أو: =

الموريتانية، واستمرت ذريته من بعده في حفر الآبار في الصحراء. وسيأتي تفصيل لهذه الآبار، مع بيان حدود بلاد الأنصار.

وفي فترة من الزمن عاد الشيخ الأمير محمد بن إنْفا إلى بلده (أروان) زائرًا أقاربه ثمة، ومنهم إخوانه من أمه، أبناء الشيخ سيد أحمد بن آدَّا الأرواني، فتوفي هناك، ودفن بجانب أبيه وشيخه، رحمه الله. وقد ترك الوصية المتوارثة من بعده لابنه محمد المشهور بـ(قطب) وإنما لُقِّب قطبا لعلمه وشهرته، حتى شُبِّه بالقطْب الذي يستنار به، وأمه عائشة بنت الهاشم بن المختار القرشي التي تقدم ذكر زواج أبيه بها، وله إخوة آخرون هم:

١. الشيخ أحمد، المعروف بـ(أبي الزهراء) وهو من العلماء المعدودين.

٢. وعبد الله، المعروف بـ(بلَّهْ).

٣. وامَّامًا، وهذا الأخير لقب، ولم نقف على اسمه الأصلي، والغالب أن يكون محمدًا، مركباً مع أحمد أو نحوه، حسب ما جرت عليه عادة هؤلاء القوم.

ولقد اعتنى بهم أبوهم محمد بن إنفا الأنصاري عناية فائقة، حتى صاروا من العلماء المعدودين، وكانت لهم بسبب ذلك المكانة الكبرى في ذلك المجتمع، وصار كل واحد منهم رأس قبيلة، وقد كان أبوهم جعلهم وهم

= أيْدْ، أو: إيدُو، أو: إيدْ، أو: إد، وكلها بمعنى واحد، وهو من التطور اللفظي لكلمتي (ابن) و (ذو) وجمعهما وتأنيثهما. (انظر لكلمة «إد» كتاب: صحراء الملثمين. د. الناني ولد الحسين ص٣٢٣).

صغار عند الشيخ محمد المختار المعروف بـ(بَتَّا)بن الهاشم بن آتكنو بن آوَّا بن محمد أُخَيْرِي بن أعمار بن الفقّ أبي الهدى بن موسى بن الشريف محمد المختار المعروف بـ(آيتَّا) القرشي العلوي، فأقرأهم القرآن حتى حفظوه، فمنحه مقابل ذلك أولوية السقيا من بئر (إينَقُّوزْمِي) وهي من الآبار التي حفرها الشيخ محمد بن إنفا الأنصاري، وعمر بها الصحراء، ولما مُنِح بَتَّا بن الهاشم المذكور أحقية السقيا من هذه البئر آوى إليها هو وإخوانه وأبناء عمه، أعني حي بني آوَّا بن محمد أُخَيْري، وحيّ بني ولَّه بن لاكه بن الفق أبي الهدى، حتى عرفوا بحي إينقوزمي، و: كَلْ إينَقُّوزْمِي[1].

وتناسل من كل واحد من هؤلاء ذرية صارت قبيلة بعدُ، وتعرف كل قبيلة باسم جدها، وباسم المكان الذي تسكنه، وقد يصبح اسم المكان عَلَمًا على بني أب من الآباء ومن ينضم إليهم من الحلفاء والجيران.

***

فمن الشيخ أحمد أبي الزهراء قبيلة (أهل إنَابَلَحَنْ) سمُّوا باسم مكان سكناهم، كما هو عادة أهل المنطقة.

---

(١) انظر تفتيش الوثائق للشيخ أبي بكر الشكاغي (٢/ ١٢٤-١٢٥). وقد أخطأ ـ عفا الله عنه ـ فذكر أن الشيخ محمد بن إنفا عطى هذه البئر للشيخ بَتَّا المذكور، وهذا غير صحيح، فإن آبار الأنصار لا توهَب ولا تُعطى لأحد منذ حفروها إلى يومنا هذا، وإنما يمنحون لأولوية في السقيا منها لبعض القبائل لأسباب معينة، كما حصل هاهنا، وكما حصل للغزافيين على بئر (أغزاف) وكما حصل لأولاد غنام من البرابيش حين كتب لهم الأنصار الأحقية في السقيا من آبار الأنصار بعد الأنصار. وهكذا، أما الملك فلا.

وأبناؤه خمسة، هم:

١. بلَّهْ (عبد الله).

٢. محمد الملقب (امَّامَّا)(١)، ومن ذريته (إيدَمِي).

٣. أُوزِّي. وهو أيضاً لقب.

٤. كِيلِّي، هذا لقبه ولم أقف على اسمه الأصلي. ومن ذريته الشيخ محمد علي بن محمد.

٥. محمد الأمين، ويقال له (حمَّدَالَمِينْ).

وأمهم تَمِيدِيتْ بنت العُلَا، من أهل تاضْغَاغْتْ من (إينْ شقَّاغَنْ).

أفادنيهم الشيخ أكْحَتِي بن محمد عالي (حُولَّايْ) وأكدتنيهم بعد ذلك أختنا الفاضلة: فاطمة(فطِّي) بنت هَمَدْ بن حَوَايْ بن محمد(مَمَّا) بن محمد الأمين بن أحمد بن قطب.

ومن عبد الله (بلَّه) بن محمد بن إنفا قبيلة أهل تُبوراقْ، وهم ممن اندمج مع قبائل أهل السوق، ومن امَّامَّا بن محمد بن إنْفَا بيت من الأنصار اندمجوا

(١) يكثر في هذه الأسرة التسمية بـ(امَّامَّا) وهو من الألقاب التي تطلق على (محمد) مفردًا أو مركبا مع أحمد ونحوه. وكذلك (أحمد أمَّامَّا) وذكر لي الشيخ أكحتى بن حُولّاي أن المعروفين بهذا الاسم .أعني(أحمد امَّامَّا) .من الأنصار اثنان فقط، هما: أحمد امَّامَّا بن أمدايًا بن قطب. و أحمدامَّامّا بن حُودِي بن عمر بن الحاج بلّه بن قطب. وسألته عما أغرم به بعض الكتاب الذين يحاولون تأصيل الألقاب في أيامنا هذه من قولهم لأصحاب هذا الاسم: (أحمد إمام) فرفض ذلك أشد الرفض وأباه. وهو نوع من التزوير الذي شاع لأسماء الأعلام عند بعض هؤلاء المعاصرين.

في قبائل إينَتابَنْ. وعبد الله وامَّامًا ابنا محمد بن إنْفَا شقيقان، أمهما من قبيلة أهل النهر (كَلْ أَجَرِيوْ). وأحمد وقطب شقيقان، أمهما عائشة بنت الهاشم كما تقدم.

***

أما العلامة الأمير محمد المعروف بـ(قطب) الأنصاري فقد آلت إليه مقاليد الأمور بعد أبيه محمد، وتولّى أمر (الطبل) وصار فَيْئة القوم بعد والده، وكان مع ذلك من كبار العلماء، حتى لُقِّب بـ(القطب) تنويها بمكانته ومرتبته، ويقال له أيضا «سيدي قطب» ومع أن أمر الدولة العلوية السعدية في مراكش بدأ في الضعف في تلك الأيام، إلا أنه ظلَّ متمسكا بإمارة أبيه، المعتمدة أساسا على تلك الدولة، متعززًا بأمراء إيمَقّشرَنْ الذين لهم القوة في منطقة تمبتكو، ولكن ذلك لم يتجاوز المكانة التقليدية الموروثة، متأيدة بالمرتبة العلمية والمكانة الاجتماعية لأسرته، ومن ثم لم تكن له محاولة لفرض أي سيطرة بالقوة، ولم يدخل في نزاعات تجبره على ذلك، بل اكتفى بما ورثه عن آبائه، وما كان له من طاعة حسية ومعنوية في المنطقة.

ناهيك عن أن هذه الأسرة لا تزال قليلة العدد آنذاك، ولا يزال عودها رطبا في المنطقة التي استقرت بها أخيرا، فكان الطور طورَ تأسيس وتكوين مبدئي للإمارة الآتية بعدُ، وكان ذلك بعمارة الأرض بالعلم والدعوة وحفر الآبار، لتمكين الناس من الاستقرار في الصحراء بعيدًا عن النزاعات الشائعة في مدن تمبتكو وما حولها، فانتفع العباد بذلك، واعترفوا لهذه الأسرة بالفضل والسيادة والأحقية في المنطقة، دون قوة مفروضة ولا سلطة قاهرة.

أنجب الشيخ محمد قطب أربعة بنين، هم:

١ـ محمد المعروف بـ(مْدَايًّا) ـ وقيل إن اسمه محمد أحمد(هكذا مركباً)ـ كما جرت العادة.

٢ـ والشيخ عبد الله، المشهور بـ(الحاج بلَّهْ).

٣ـ والشيخ محمد إيمَلَّنْ المعروف بـ(أبَّانِينْ).

٤ـ ومحمد المصطفى.

وعاش الشيخ محمد قطب حتى تقدمت به السنّ، فكان أبناؤه ولاة أمور الناس في أواخر حياته، وله قصص طريفة مع زوجة ابنه الحاج بلَّه الآتي ذكرها بعدُ، وقد كانت امرأة جزْلة شريفة من ذوات العلم والفطنة، وكانت تحاور أبا زوجها في دروسه الفقهية، ويَتندر هو بكلامها لأنها كانت ابنة خاله، وتوفي رحمه الله فدُفِنَ في مقبرة إِيغَرْمانْ شمال بئر إِنَقُّوزْمي. على ما أفادنيه بعض شيوخ بنيه.

والثلاثة الأُوَل من أبنائه أشقاء أمهم (أنَانَّا) بنت إيلَقَيْ من قبيلة أهل الْحُرْمة، وهي قبيلة مكونة من عدة بطون أكثرهم من الأشراف من أبناء أحمد بن محمد بن مالك بن محمد الفق بن محمد المختار المعروف بـ(آيتّا) القرشي العلوي. وأختها هَماتَا بنت إِلَقَيْ أم أبناء امّامَّا(محمد) بن أحمد بن محمد بن إنفا الأنصاري، هكذا حدثني الشيخ أكحتي بن محمد عالي (حُولّاي) حفظه الله. وفي بعض النسخ: (أنَانَّا) بنت محمد إكْنَنْ، بن الحاج المعروف بـ(أُوكَلِلِي) من الغزَّافيين. وذكر بعض النسابين من الأنصار أن اسمها «عائشة»

وهذا متوجه جدًا لأن كلمة «انَّانَّا» أو «لالَّا» كلمة تضاف إلى أي اسم لامرأة شريفة، عند أهل المغرب، فيقال: لالَّ عائشة، أو لالَّ فاطمة، أو (انَّانَّا) بدلاً من لالَّ. . . . . .إلخ.

وكان لهؤلاء الأربعة ـ امدايًا والحاج بلَّه وإيمَلَّنْ ومحمد المصطفى ـ مثل ما كان لأبيهم وأعمامهم من جهة التربية العلمية، والمكانة الاجتماعية في مجتمعهم، ولا سيما الثلاثة الأشقاء الكبار، فقد كانوا من أهل العلم المعدودين، والشخصيات المرموقة في المنطقة، وبهم مع أبنائهم قامت إمارة الأنصار التنبتكيين على سوقها، واستقامت على أصولها، وتمددت فروعها، وراج أريجها، وفاح نسيمها، حتى عمت الساحة، وجلبت الراحة، بما فرضته من أمن وأمان، كما سيأتي.

وأكبرهم الشيخ أمْدايًا، وهو المعروف أبناؤه إلى يومنا هذا بـ(أهل إينْ جارَّنْ) نسبة إلى بئر (إينْ جارَّنْ) جمع (أجارْ) في اللغة الطارقية، وهو شجرة السرحة، ويقال لهم (البِيض) تمييزًا لهم عن (أهل إينْ جارَّنْ السود) وهم أبناء أُمَغْيانْ، وهو ـ أعني أُمَغْيانْ ـ ليس من الأنصار نسبًا، وإنما هو من حلفائهم، وأما أبناؤه فدخلوا في الأنصار، وتصاهروا معهم واختلطوا بهم حتى صاروا في عدادهم.

ولعل السبب في تسمية أبناء أُمغيان بـ(أهل إينْ جارَّنْ) إضافة إلى سكناهم عند هذه البئر هو اختلاطهم بأبناء امدايًا من جهة الجوار والمصاهرة، فإن أُمغيان هذا كان من فضلاء الرجال، وقد تزوج الأنصار بناته، ومنهم اثنان من أبناء قطب وهما: امدايًّا هذا، وأخوه محمد إيمَلَّنْ

المعروف بأَبَّانِنْ، وسيأتي. فقد تزوج امْدايَّا بنت أُمَغْيان وأنجب معها بنيه المعروفين ببني امْدايَّا.

بنو محمد أحمد المعروف بـ(امْدايَّا) بن قطب:

١. محمد.

٢. وأحمد امَّامَّا، وله ستة رجال من أبنائه، وهم سواد بني امْدايَّا ورأسهم، ومن ذريته الشيخ الصِّدِّيق ـ نزيل مدينة الخَرْج ـ بن محمد بن محمد الهادي (حمّهادي) بن محمد الأمين بن محمد المعروف بـ(حمَّا) بن أحمد امَّامَّا بن محمد امْدَايَّا. هكذا حدثني الشيخ الصديق نفسه. وكذلك الشيخ الصِّدِّيق بن محمد عالي بن أحمد بن الولي بن محمد (حمَّا) بن أحمد امَّامَّا .

٣. ومحمد المصطفى المعروف بـ(مُتَّفَنْ) وهو أبو عثمان.

٤. ومحمد المولود المعروف بـ(حمّلّو). وهو أبو حمَّادَة، ومن حمَّادَة محمد المتوفى في مكة المكرمة، وذريته موجودة فيها الآن.

٥. وأحمد، وهو أبو محمد عمر الذي منه: محمد(الظُّويَناسْ) ومحمد الأمين(هلَالبَّا)[١] ومحمد المختار (حمتَّالْ).

وسيأتي تفصيلهم هم وسائر بني إنْفا ـ إن شاء الله ـ في الجزء الثاني المخصص لذلك، أما هذا الجزء فهو لمجرد التعريف بالقوم. وقد استفدت

(١) ومن هلالبَّا سِيدَاحمد المتوفى في مكة المكرمة، وابنه محمد بن سِيداحمد لا يزال حيا وله ذرية.

تفصيلهم من بحث قدمه إلي الباحث الفاضل الأديب أبو عمار عمر بن داود بن الحاج محمد بن أحمد بن الولي بن محمد (حمَّا) بن أحمد امَّامّا بن محمد أحمد(امْدَايًّا) إضافة إلى مشافهتي لبعض أعيانهم، ومؤرخي القبيلة كلها.

***

ثم بعد امدَايًّا الشيخ العلامة الفقيه عبد الله المشهور بـ(الحاج بلَّهْ) ونعته في تفتيش الوثائق بقوله: «**العالم المفتي الذي انتهت إليه رئاسة الإفتاء في جميع الأقطار، الحاج بلَّهْ بن قطب بن محمد بن إنفا**»[(١)].

وكلمة (بلَّه) منحوتة من (عبد الله) وقد جرت عادة كثير من أهل هذه المنطقة على اختصار الأسماء المركبة بنحت كلمة واحدة من الاسم لتكون لقبا يُعرف به صاحب الاسم، مثل (بلّه) لعبد الله، و(دحمان) لعبد الرحمن، و(حمَّدْعلي) لمحمد علي، و(حمّاتّا) لمحمد الطاهر . . . . .ونحو ذلك كثير، وأما مناسبة تلقيب هذا الشيخ بـ(الحاج بلّه) فهي أنه توجه إلى الحجّ مع شقيقيه المذكورين محمد الملقب (أمْدايّا) ومحمد الملقب (أبّانِينْ / و: إيمَلَّنْ) ومعهم غلام لهم يُقالُ له (بُودَا)، من تنبتكو بالرواحل إلى ليبيا فمصر فمكة المكرمة، فحجوا ثم رجعوا فنزلوا في مصر منزلهم الذي نزلوه عند مجيئهم، فمرض الشيخ عبد الله، ومكث زمنا ثم توفي رحمه الله في مصر، ورجع أخواه والغلام، بعد أن غيبوه في لحده، فأخبروا الناس خبره، فقيل له (الحاج عبد الله) فعُرف بذلك حتى صار الناس يقولون (الحاج بلّه) اختصارًا، كما عُرف

---

(١) تفتيش الوثائق للشيخ أبي بكر الشكاغي (٢/ ١٢٥).

أيضاً بـ(صاحب مصر) وبـ(الأب المصري) يعنون المدفون في مصر.

وله قصة يطول ذكرها في نزولهم في مصر، وملخصها: أنه وقعت لهم مسألة بسبب امرأة - في البلد الذي نزلوا فيه - ظهر عليها الحمل وقد توفي عنها زوجها منذ ثلاث سنين، وولدت ولدًا مُثَغَّرًا، فأرادوا رجمها، وكانت مصر آنذاك محط حجاج المغرب - قبل شق قناة السويس - فكانت هي المعبر بين إفريقيا وبلاد المغرب والأندلس، فذهبت أم المرأة إلى قوافل الْحُجاج، بحثا عمن يفتيها بما يمكن أن يدرأ الرجم عن ابنتها، وكانت قافلة الشيخ نازلين قريبا عندهم، فدُلت على الشيخ عبد الله الأنصاري، فأفتاها بأن لا حدّ على ابنتها، وبيّن لها أن الفقهاء ذكروا أن أقصى الحمل خمس سنين، وأنشد على ذلك قول ابن عاصم في أرجوزته المسماة (تحفة الأحكام):

وخمسةُ الأعوام أقصى الحمْلِ ... وستةُ الأشهرِ في الأقلّ[1]

ففرحَتْ المرأة بذلك، فقيل إنها دعت قائلة: اللهم انفعنا بهذا الشيخ ولو بقبره! فحج وعاد إليهم ثم مات فدُفِن عندهم، وكُتب اسمه على قبره. هذا ملخص الخبر وهو خبر مستفيض مشهور في قبيلتنا، وقد حدثنيه بتفاصيله جماعة من رواة الأخبار الثقات، ومن أهل العلم، كالشيخ محمدهمّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) بن سيدي، والشيخ محمد (إنتحمّدينْ) بن المنذر بن إبراهيم، والشيخ أكحتي بن محمد عالي (حُولّايْ). . . . . وأخبرني

(١) انظر شرح ميارة. سيدي محمد بن أحمد المالكي. على تحفة الأحكام لابن عاصم (١/ ٤١١، ٤١٣، ط١)، بتحقيق عبد للطيف حسن ١٤٢٠هـ دار الكتب العلمية بيروت.

الشيخ أكحتي بن حُولَّايْ أيضا أن جماعة من أهل ليبيا ممن يسافر إلى مصر ويعود ذكروا له أنهم عاينوا ذلك القبر في ذلك المكان، كما ذكر لي أحد فضلاء مدينة دَقادُوس في مصر ـ وهو الأستاذ سيِّد عبد العظيم دحروج ـ سنة ١٤١٥هـ وكان يعمل معي في التعليم بمدينة الرياض؛ أن مسجد قريتهم (دَقادوس) بُني على قبر رجل صالح من المغرب اسمه (الحاج بلّه) فذكرت له هذه القصة، ففرح بها وكتبها بتفاصيلها في ورقة، وذهب بها إلى العلامة محمد متولي الشعراوي رحمه الله وهو من أهل ذلك المسجد، فذكر لي بعدُ أن العلامة الشعراوي وأعيان البلد أخذوا تلك المعلومات فطبعوها وكبروها وعلقوها فوق ذلك القبر في مسجدهم. والله تعالى أعلم.

وأنبه هنا على أن بناء المساجد على قبور الصالحين أو غيرهم من البدع والمنكرات التي ابتلي بها بعض المسلمين، فوقعوا بذلك في النهي الوارد شرعاً وتشبهوا باليهود والنصارى في ذلك الفعل السيئ، لأنه قد يفضي إلى تعظيم القبر واتخاذه معبدًا، غفر الله لهم وعفا. وقد نبهت ذلك الرجل على ذلك وبينت له أنه يجب عليهم نقل القبر أو عزله عن المسجد.

وأنبّه أيضاً على ما أكده لي جميع من رويت عنهم وسمعت منهم من أن الشيخ العلامة الفقيه عبد الله (الحاج بله) الأنصاري المذكور لم يقم بمصر قبل حجه ولا بعده قبل وفاته إلا قليلا، ولم يتزوج بها كما ادعى بعض مترجميه من المتأخرين، ولم يُعرف ذلك عنه ولم يُنْقلْ، وقد كان معه رفقة من إخوانه وغيرهم، وعادوا بعد وفاته وأخبروا الناس خبره، ولم يذكروا عنه زيادة على

ما تقدم، وإنما توجه إلى الحج وهو شيخ طاعن في السن، **وكان قد أنجب ثمانية أبناء، هم:**

١. محمد المعروف بـ(حاكِدُو)[1]. المعروف أبناؤه بـ(أهل إيمْ إيمَلَّنْ). أي أهل الْمَنْفَذ الأبيض.وهو مكان، و(إيمْ) بمعنى الفَم، ولكن المراد: المنفذ، لأن الفم منفذ.

٢. وبعده أبو بكر الملقب اللَّقي. المعروف أبناؤه بـ(أهل آنُو شَجْرِينْ). أي: أهل البئر الطويلة. ومنهم العلامة العَلَم، الداعية الواعي محمد المختار بن محمد(حَوَّدْ) رحمه الله.

٣. ثم محمد الأمين الملقب (أبِّينْ). المعروف أبناؤه بأولاد إدريس. وأَبِينْ اختصار لكلمة الأمين، بإبدال الميم باءً لأنها تجانسها.

٤. ثم محمد علي (هكذا مركباً) الملقب (بَدَا). المعروف أبناؤه بـ(أهل الْحَفْرَهْ). والحفرة غابة معروفة هناك، تقع غربّي بئر ذي إبراهيم(إين إبراهيم) نُسبوا إليها لسكناهم عندها.

٥. ثم أحمد الملقب (آخْوَا) وقيل اسمه «محمد». المعروف أبناؤه بـ(أهل إينْ تِيشَقْ). وتِيشَقْ شجرة الأراك.

---

(١) كذا وجدت اسمه لدى الشيخ محمد الملقب إنتحمَّدِينْ بن المنذر بخطه رحمه الله، وقد حرفه بعض المعاصرين فجعله عبد الحكيم. وهو نوع من التزوير. ومما قد يؤيّد أن اسمه (محمد) الاتفاق على أنه أكبر أبناء الشيخ عبد الله بن قطب، وقد جرت العادة على تسمية الابن الأول بمحمد عند هذه الأسرة، إلا أن يكون أبوه اسمه محمد.

٦. ثم عمر. المعروف أبناؤه بـ(أهل تَهُوبَتْ). أيْ أهل الْجَرَّة. لأنهم إذا وسموا حيواناتهم بالوسم الخاص بالأنصار جرّوا طرفه حتى يزيد، للتمييز.

٧. ثم عبد الرحمن الملقب (أمَّاحَّا).

٨. ثم عثمان، المعروف أبناؤه بـ(أهل تَجانْتْ).

وكان عثمان هذا حِمْلا في بطن أمه عند سفر والده، فَوُلِد بعده، هكذا رتبهم لي الشيخ أكحتي بن حُوَلَّايْ، غير أنه ذكر لي أن (امَّاحَّا) هو أكبرهم. ولكن أكثر الناس على خلافه وأنه قبل الأخير، وقد وجدت ذلك بخط الشيخ محمد الملقب إنتحمدين بن المنذر بن إبراهيم رحمه الله. وأمهم هي: الشيخة الشهيرة أَمَّهْ بنت آبَلَّا[١] بن القاضي طالِبَنّا بن محمد (أكينا) ـ ويسميه بعضهم «محمد إيكْنَنْ» ومعنى (إيكْنَنْ): الصالح ـ بن أحمد بن آدّا بن محمد بن أبي بكر ... إلى الحسن بن علي بن أبي طالب[٢]. وتناسل من كل واحد منهم ذرية،

---

(١) أفادني أخونا الباحث أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد بن الصالح بن محمد أحمد بن محمد المجتبى بن حمَّاد بن أبَّانِينْ أنّ (آبَلَّا) هو الذي حفر البئر القديمة التي سميت بآيْبَضَنْ، ومن ثم سميت القبائل التي سكنت عند هذه البئر بـ(أهل آيْبَضَنْ) وهم جماعات وكل جماعة ترجع إلى أصل معين: فمنهم:

١. أبناء آبَلَّا، جد أَمَّهْ. وهم الأصل.

٢. أبناء بَلَّه بن محمد المختار الملقب كُويْ، وكويْ هذا من كبار العلماء المعاصرين للشيخ حمَّادا بن أبانين، وقبره بجانبه على ذات الحجارة (تينْ تَهونْ). وهم حلفاء الأنصار.

٣. أبناء بابا بن الهاشم.

(٢) انظر: تفتيش الوثائق عن تاريخ الطوارق (١/ ٢، ٢٠٣/ ١٢٦) وقد ذكر السلسلة كاملة.

ما عدا (امَّاحَّا) فإنه لم يعقب سوى بنتين، ولهما ذرية. وسوف يأتي تفصيل ذرياتهم ـ إن شاء الله ـ في الجزء الثاني المخصص لذلك.

ولأبناء الحاج بلَّهْ أختان اثنتان، هما:

١ـ أمُّ كلثوم، وهي أم الخمسة الكبار من أبناء حمّادًا بن محمد أبّانِينْ الأنصاري.

٢ـ فاطمة، أمّ أبناء كُنَّهْ المعروفين بأولاد يعيش، من البرابيش.

وقد جعل الله البركة في أبناء كل واحدة منهما، فكان أبناؤها رأس بيت بني أبيهم وأقواهم وأعلمهم.

ومن الجدير بالتنبيه عليه هنا تصحيح الخطأ الذي شاع بين كثير من بني الحاج بلَّهْ من أن امَّهْ بنت الشيخ آبلَّا من قبيلة إيجلَّادْ، فهذا خطأ واضح، وقد قدمنا ذكر نسبها، وسبب هذا الخطأ هو ما قدمته من قبل من أنَّ جميع القبائل العربية التي تتكلَّم اللغة الطارقية كانت تسمى (إيجلَّاد) وأشهرهم الأنصار وبنو سيد أحمد بن آدَّا وذرية الشيخ محمد المختار آيِتَّا العلوي، ثم لما كَوَّن الأنصار حلفهم وتميزوا باسمهم وحالفهم من تبعهم من العلويين، اندمج سائر إيجلاد مع الطوارق، فصاروا منهم، حتى تغير لسانهم العربي.

وأما العلّامة محمدإيمَلَّنْ بن قطب فلقبه الذي اشتهر به هو (أبَّانِينْ) ومعناه «أبِي» اشتهر بذلك من قِبَل أولاده وأحفاده؛ لأن أبناءه الصغار عاشوا في زمن أحفاده، فكان الكبار من أبنائه يقولون لأبنائهم إذا اجتمعوا مع إخوانهم الصغار: هؤلاء أبناء أبانين . . .دعوا أبناء أبانينْ . . . افعلوا كذا

لأبناء أبّانِينْ . . .ونحو ذلك. حتى اشتهروا بأبناء أَبَّانِينْ، فقيل لأبيهم بعدُ: أَبَّانِينْ، ولكن هذا لا يتجاوز مجتمعهم. أما عند الناس فيقال محمد إيمَلَّنْ، أي: محمد الأبيض. وربما قيل له ذلك تمييزاً له عن أخيه أمدايّا فإنه أيضا محمد. وقد رأيت من نص على أن أحدهما مركب مع (أحمد) والله أعلم أي ذلك كان.

قد كان الشيخ الأمير محمد إيملَّنْ الملقب أَبَّانِينْ أبرز شخصيات هذه القبيلة بعد أخيه الشيخ عبدالله، فقد عاش في زمن تقدمت فيه السنّ بأخيه عبدالله وبأبيه قطب، ثم توفي أخوه عبدالله الذي كان مفتي بلاد أزواد كلها في عصره بعد أبيه قطب، ثم آلت أمور هذه الإمارة الأنصارية بعد قطب وابنه عبدالله إلى الشيخ محمد إيملَّنْ، فقد توفي أبوه أيضاً عقيب أخيه الأكبر عبدالله، فتولّى الشيخ محمد إيملَّنْ الإفتاء والإمارة وسيادة القبائل في المنطقة، حتى اتصل بحكام المغرب وبعثوا له بالاعتماد مكان أبيه قطب، وأخذ لهم البيعة من سكّان الصحراء، في بدايات القرن الثاني عشر الهجري، أي بعد ألف ومائة، وكان مشهوراً بالعلم والتقوى وعلوّ المنزلة، وهو معاصر للشيخ محمد الطاهر بن سيدي علي بن النجيب.

وقد نعته صاحب فتح الشكور بقوله: «فريد دهره محمد إملَّنْ بن سيدي قطب»[١].

(١) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور للبرتلي (ص ١٤٥).

أنجب الشيخ العلامة محمد إيمَلَّن بن قطب جمعًا من الأبناء، قد صارت ذرية كل واحد منهم الآن بطنًا مستقلا، وهم الآتية أسماؤهم:

١. العَلّامة الشيخ حمّادًا.

٢. محمد علي.

٣. محمد الأمين: المعروف بـ(إينْ تشْغايْتْ) أي صاحب الْحَرْبة.

٤. محمد أحمد: المعروف بـ(إينْ أغَبوب) و(أغَبُوبْ) اسم مكان.

٥. محمد المختار.

٦. محمد.

وهؤلاء الستة هم الكبار، وهم أشقاء أمهم كاسا بنت أُمَغْيان.

٧. محمد المولود. وذريته يعرفون بـ(أهل تَلْكَصْبَاتْ).وهي قرية.

٨. محمد الصالح. وذريته يعرفون بـ(أهل تِيمَغَنَّانِينْ) وهي قرية.

وهذان المذكوران شقيقان أمهما أمّ حِلِّي بنت مولاي السلطان إسماعيل بن محمد الشريف العلوي، سلطان المغرب(١).

٩. محمد المعروف بـ(ابن لَالَّهْ) وهي أمه، وهي من قبيلة «إيوْراغَنْ» من «إيمُوشاغْ» وذريته يُعرفون بـ(أهل تِيدَايْنِوينْ). وهي قرية.

١٠. محمد المعروف بـ(ابن فاطمة) وينطقونها «فضِيمَتُو» تلقيبا، ومنهم محمد الصالح المعروف بـ(شُجَعَا) رحمه الله، فقد حدّثني أنه ابن

(١) انظر الخبر وتفصيله في (ص ١٣٨) فيما تقدم.

محمدُنْ بن محمد الهادي بن محمد بن أبَّانِينْ.

١١. محمد المعروف بـ(ابن مريم). وذريته يُعرفون بـ(أهل جِنْبَنْقُو).

١٢. محمد الطاهر، المعروف بـ(حتَّاهِلْ) وهو شقيق ابن مريم، وذريته يُعرفون بـ(أهل قَرْقَرْ).

رُوِي لي تفصيل الستة الصغار عن الشيخ عبد الله بن محمد المولود بن محمد المنير بن محمد المختار بن محمد الصالح بن أبَّانِينْ، وهو موجود الآن في قرية (تِيلِي).

وأخبرني أحد شيوخهم أن الأربعة المسمَّى كل واحد منهم بمحمد، وُلِدُوا معًا، وهم من أمهات شتى، فقد كان الشيخ تحته أربع نساء، فسمى كل واحد منهم محمدًا، تبركاً، وخوفًا عليهم من العين، فيتوهم الإنسان أنه لم يولد إلا ابن واحد اسمه محمد! فكانوا يُدعَوْن بأمهاتهم، تمييزًا بينهم، وحدثني محمد الخير (تُورِي) بن محمد المصطفى بن محمد بن محمد الصالح (ألِيحِي) بن محمد المصطفى (مَنِينِي) بن محمد الطاهر (حتاهل) بن حَمَّادَا بن أبَّانِينْ، أن لهم أخًا يقال له «محمد بن آلِي» وهو من سُرِّية الشيخ أبَّانِينْ.

والخمسة الأوَل أمهم كاسا[1] بنت أُمَغْيانْ، حفيد خَمّ بن إينَضَلُويْ، من

(١) ويبدو أن اسم (كاسا) من الأسماء الشائعة للنساء في تلك البيئة، فقد ذكر السعدي في تاريخه (كاسا) ابنة الأمير أسكيا داود، في تمبتكو، وتزوجها الأمير أبو بكر بن محمد الملقب (وَيْبُعَلي) في إحدى السنوات العشر بعد الألف من الهجرة. انظر تاريخ السعدي (ص١٥٨).

إدْنانْ، حسبما سمعناه وبلَغنا، وهو المشهور بين الأنصار، وقبيلة إدْنانْ من أفاضل وأشراف قبائل الطوارق[1]، وقد صار أبناء أُمغيان من البطون التي اندمجت في الأنصار وعُدَّتْ منهم. ويقال لهم (أهل إينْ جارَّنْ). كما تقدم بيانه.

* * *

وأما محمد المصطفى بن قطب فأمه ابنة إيلَقَيَنْ، وفي بعض نسخ التاريخ: نانّا بنت إلياس، وكلها متفقة على أنه يقال له (إيلَقَيَنْ) وأنه من قبيلة إيمغاذْ الطارقية، وهذا محل اتفاق بين أبنائه وسائر مؤرخي القبيلة، وقد تزوجها الشيخ قطب في آخر حياته، بعد وفاة ابنه الحاج بلَّهْ فذهب إلى مدفنه في مصر ـ ولعل ذلك كان في طريقه في الحج ـ ثم عاد ومكث زمنًا عند طوارق إيمغاذْ وتزوج منهم ابنة إيلَقَيَنْ، فأولدها ابنه محمد المصطفى، ثم طلقها بسبب محاورة طريفة كانت بينه وبين ابنة خاله الشيخة «امَّهْ» أم أبناء ابنه الحاج بلَّهْ. رحمهم الله جميعاً.

وتناسلت منه ذرية أيضا ولكنهم قليل، وهذه أسماء أبنائه:

١. محمد. المعروف بـ(حَمَتْ).

٢. ومحمد المولود. ومن ذريته محمد ومحمد علي.

٣. حَدَابًا. ومن ذريته موسى (موسانْ).

٤. المجتبى.

---

(١) انظر: تفتيش الوثائق عن تاريخ الطوارق (٢/ ٦١).

٥. حَمَدُو.

أمهم حوريّة بنت إينْ تجْبَسْتْ. وقيل «إينْ تَجْمشْتْ».

أفادنيهم: عثمان بن المهدي بن الطاهر بن أنَمَّغْرُو ـ وهذا لقبه ـ بن محمد بن محمد المصطفى بن قطب .ويُعْرفون بـ(أهل جَنْجَبِيرِي) وهم من سكان غرب تمبتكو، مع جمهور بني محمدإيمَلَّنْ ومن والاهم.

وقد عُرِف الأنصار الغربيّون بمساكنهم، ومن أشهرها: أغَبوبْ، وبَنْكورْ، وفَرَشْ، ولِيرا، وغيرها من مناطق الأنصار غربي تمبتكو، فيقال: أهل أَغَبوب ـ أهل بنكور ـ أهل فرش . . . . .إلخ. غير أبناء محمد علي بن أبَّانِينْ فإنهم عُرفوا باسم أبيهم «محمد علي»، وغالبيتهم من سكان شرقي تمبتكو.

الفصل السابع

انقسام بني إنفا إلى شرقيين وغربيين

المراد بالشرقيين من يسكنون شرقيَّ مدينة تمبتكو(١)، والمراد بالغربيين

---

(١) تُعد مدينة تمبتكو عاصمة إقليم أزواد منذ تأسيسها عام ٤٥٠هـ على يد طوارق إيمَقّشَرَنْ، الذين حكموها سنين بعد تأسيسها في عهد الدولة المرابطية، ثم حكمها أهل ملِّي بعد ذلك في القرن الثامن الهجري، ثم عاد إليها حكم أهلها إيمَقّشَرَنْ فمكثوا فيها أربعين عاما، ثم حكمها صُنْغَيْ وملوكهم يُسمَّوْن بالأساكي، جمع «أسِكَيا» وينطقها بعضهم: «سُكْيَة». وذكر أحمد بابا التنبتكي في كتابه «نصيحة أهل السودان» أن آل سُكْية هؤلاء أصلهم من صنهاجة(انظر الاستقصا ٥/ ١١٠)، وأولهم الحاج محمد سُكْيَة المتوفى سنة ٩٤٤هـ وهو رجل صالح سُنيّ، حج ولقي الإمام السيوطي فأخذ عنه العقيدة وأحكام الإسلام (الاستقصا٥/ ١١٠).

ثم الدولة السعدية المغربية بعد ذلك، وهي التي أسقطت دولة الأساكي الصنغية، وفي ظل الدولة السعدية وأيامها امتد إلى تنبتكو حكم إمارة الأنصار التي تُعد جزءا من الدولة السعدية في أصلها... والله يؤتي ملكه من يشاء. وقد كانت هذه المدينة بمنزلة مدن القيروان وفاس ومراكش وقرطبة، في ظل حكم الدولة المرابطية وما تلاها، فقد اجتمع فيها ووفد إليها العلماء والفقهاء من جميع الأجناس والطوائف والأقطار الإسلامية، من المغرب والأندلس ومصر والحجاز والعراق، وبلاد السودان بعامة، وازدهرت ثقافيا وحضاريا وعمرانيا واجتماعيا واقتصاديا، وقد أتتها العمارة من قِبَل المغرب.كما صرح بذلك السعدي.وأول ما بُنِي فيها من المباني الطينية مسجد الجامع في عصر أهل ملّي، وأما مسجد (سنكري) فلم يُبنَ إلا في نهاية القرن التاسع الهجري وتكامل في أواسط القرن العاشر في عهد دولة الأساكي الصنغية... (انظر: تاريخ السودان للسعدي ص ٢٠وما بعدها، وكتاب دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا لعصمت دندش ص٢٢٣).

مَنْ يسكنون غربيَّها، ومن هنا جاء قول الناس: الأنصار الشرقيون، والأنصار الغربيون.

وقد تقدم أن الشيخ محمد بن إنْفَا ـ رحمه الله ـ عَمَرَ الصحراء بالآبار، وعلَّم تلك الآبار بالوسم الأنصاريّ، وهو شبيه بحرف النون اللاتيني مقلوبا أو غير مقلوب، هكذا: [N] أوهكذا:

وهو حرف النون بالهجاء التيفيناغي الذي يكتب به الطوارق، وقد كان الأنصار متأثرين بلغة الطوارق ويتكلمون بها، ويستعملون بعض حروفهم رموزًا لوسم البهائم، ومنها هذا الحرف، وهم لا يعرفون أنه حرف هجاء في لغة من اللغات.

ويقال إنهم أرادوا بهذا صورة الأفعى، لإرادة التحذير من التعرض لما عليه هذا الوسم، كما تقدم أن البلاد التي شملها ذلك امتدت من الجبال المحاذية لتمتغين وتِيغاوْغَوِينْ شرقا إلى الحدود الموريتانية غربا ـ كما سيأتي بيانه قريبا ـ وبعد أن استقر أبناؤه وأبناؤهم وكثر عدد أفراد القبيلة في زمن الشيخ قطب وأبنائه اختاروا المناطق الغربية المتصلة ببلاد المغرب وموريتانية، ولعل ذلك لقربها من النهر الجاري هناك، والمزارع في هُورُو ومِيسَبَنْقُو وبَنْكُورْ، وأكنافهن.

فحدثني ابن عمنا مبارك بن سِيدَ احمد بن محمد الطاهر (حمتاهي) حدثه حمَّامًّا بن الطاهر بن المهدي، وحدثه أيضاً أبو بكر بن محمد المصطفى (إِتَّها) عن بعض مؤرخي القبيلة، وعن آبائهم وعن بعض الساسة الفرنسيين الذين

رسموا خارطة المنطقة وحدودها حين استعمروها، قالوا:

«كانت الأراضي الزراعية الممتدة من مدينة قُنْدامْ فما بعدها غربًا، وهي المنطقة التي يشملها اسم (هُورُو) غربي مدينة تمبتكو كانت مشتركة بين أبناء الإخوة الثلاثة: الحاج بلَّهْ(عبدالله) وأمْدايّا (محمد) وأبّانِينْ(محمد إيمَلَّنْ) وأبنائهم، وكانت الطريقة المتبَعة في الزراعة معروفةً عندهم، وهي أن مواليهم وخدمهم هم الذين يتولون الزراعة، فإذا جاء الحصاد أخذ كل واحد من الأسياد ما يحتاجه من الطعام، ويتركون للمزارعين ما سوى ذلك مما يحتاجونه.

وهكذا مضت الحال سنين، حتى جاءت فترة بدأ فيها النزاع يدب بين أبنائهم بسبب ما يخرج من المزارع، فرأى أبناء الشيخ الحاج بلَّهْ أن أبناء عمهم الشيخ أبَّانينْ (إيمَلَّنْ) يريدون أن يستأثروا بتدبير ما يخرج من المزارع دون إخوانهم، فلم تطب نفوس أبناء الحاج بلَّهْ وأبنائهم لذلك، فخرجوا وارتحلوا، وتبعهم أبناء عمهم أمدايًا، وتركوا المنطقة، واعتزلوا القُرى والزراعة، وتوجهوا إلى منطقة تمبتكو، واختاروا جوانبها الشرقية، والشمالية الشرقية، حيث كان جدهم محمد بن إنفا وأبناؤه رحمهم الله قد حفروا فيها الآبار، فنزلوا على آبار جدهم وأبيهم قطب، وأخذوا يتوسعون ويزيدون في حفر الآبار، وعاشوا في الصحراء عند آبارهم وما يليهم من شواطئ النهر في منطقة (زرهو)، فأصبح هؤلاء هم الأنصار الشرقيين، وانضم إليهم جمع من حلفائهم، وبقي السواد الأعظم من أبناء الشيخ أَبَّانِينْ وحلفائهم في المناطق الغربية الزراعية فسموا بالأنصار الغربيين.

ثم إن الشرقيين كلما جاء زمن حصاد الزرع أرسلوا بعض القوافل للإتيان بما يحتاجونه من الطعام من مزارع هُورُو ومِيسَبْنْقُو، لأن المزارع مشتركة بينهم جميعاً وكذلك عمالها، أعني أنهم مشتركون فيها مع إخوانهم أبناء أبّانينْ، ثم قلَّ ذلك تدريجياً، حتى صاروا يرسلون قوافلهم فتعود غير مُحَمَّلَة بشيء.

وكانت هذه المزارع يتولاها أمير الأنصار في الغرب مثل: إنْقُونَّا وأَلُّودَا أخوه من بعده، ثم الطاهر بن المهدي بعدهما، ثم لما ضعفت إمارة الأنصار وانتثر نظام عقدهم استأثر بها المزارعون وصارت لهم، وصار الأنصار شرقاً وغرباً ليس لهم شيء، ولا سيما بعد استيلاء الزنوج على المنطقة في دولة مالي، والمزارعون كلهم أرقاء من الزنوج أنفسهم[١].

---

(١) وكان السبب في كون الأرقاء من الزنوج هوكونهم غير مسلمين في بداية أمرهم، فلما أخذهم المسلمون عنوة استرقوهم، وكان أمراء دولة السنغي أكثر الناس استرقاقا لأولئك الزنوج، والسبب في ذلك أن أولئك الأمراء كانوا مسلمين يجاهدون القبائل الوثنية من البمبارا والفُلَّان والموشيين وغيرهم، فكانوا يسترقونهم، ويستخدمونهم ويبيعونهم ويهبون منهم لمن شاؤوا، وأما الاسترقاق غير الشرعي للأفارقة فهو من قِبَل الأوربيين قبل الإسلام وبعده، (انظر: بداية الحكم المغربي للدكتور محمد الغربي ص ٦٠٣) وقد نقل عن عدة مصادر أن ملوك السنغي. وهم الأساكي. هم السبب في كثرة العبيد في تلك البلاد، وهم الذين استعبدوا الزنوج، وكانوا يعاملونهم معاملة قاسية، بينما كان عبيد كنتة والطوارق والأشراف يلقون معاملة حسنة. هكذا ذكر، والله أعلم.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن كثيرًا من ضعفاء العقول غير المتفقهين في الشريعة الإسلامية لم يفهموا مسألة الرِّق هذه، فربطوها باللون أو الجنس، جهلا وغفلةً!! وحملَ الجهلُ بعضهم على إنكار الرقِّ أصلا!! مع أنّ الرق موجود في البشرية منذ أقدم العصور، وهذا =

فهذه هي مناسبة انقسام الأنصار الإنفيين إلى غربيين وشرقيين، على ما رواه لنا المتقدم ذكرهم، ولكن هذا لا يُعَد سوى جزء من تفاصيل ما مر من حياة القوم وشؤونهم، وليس هو جميع حقيقة الوضع.

والحقيقة العامة التي وراء ذلك كله، أنهم انتشروا في ذلك الإقليم بعد أنْ كثر عددهم، بأبنائهم وأتباعهم، وأرادوا سكنى جميع بلادهم وعمارتها، وتتبعوا مع ذلك مصالح حياتهم الخاصة بأوضاع البلاد، من جهة المصالح الرعوية والمعيشية والاجتماعية المتأثرة بطبيعة المنطقة وجيرانهم فيها، فتمخض من ذلك كله وجود أكبر تجمعين لهم، سمي كل واحد منهما بالجهة المقابلة لجهة التجمع الآخر، من غير قصد للتفرق، ولا اعتماد للتوزيع، ومن غير وجود أي فروق بين الطرفين، بل الإقليم كله كان منطقة واحدة، وهو بمثابة مدينة كبيرة مترامية الأطراف، يتوزع السكان فيها بين جهاتها وأطرافها، بحسب مقتضيات ظروف الحياة وأوضاعها، ويختار كل واحد

= يوسف النبي الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم قد بيع واشتُري ووقع عليه الرقّ حتى حرره الله منه، وشاع الرق قبل الإسلام في الدنيا كلها، فلما جاء الإسلام لم ينزع من الناس رقيقهم ولم يكرههم على تحريرهم، ولم يمنعهم من الاسترقاق إذا قامت دواعيه، ولكن رغبهم في تحرير الأرقاء، وشرع لهم أبوابا عظيمة من الخير بتحرير الأرقاء، وأعلمهم أن تحرير الأرقاء من أعظم القربات إلى الله، وأنه من أعظم دواعي دخول الجنة ونيل رضا الله، ثم إنه شرع للأرقاء من حسن المعاملة ما يجعل العبد وسيده سواءً، ولا فرق بينهما في شيء، غير أن هذا يأتمر بهذا ويخدمه، ويُعد من ماله وملكه، دون أي منقصة أو مفاضلة، وجاء الوعيد الشديد، والزجر الكبير، لمن أساء إلى الأرقاء، وغلّظ الرسول ﷺ ذلك أيما تغليظ.

الموضع الذي يراه مناسباً لحياته ووضعه، و يتجاورون بحسب العلاقات الخاصة فيما بينهم، والمصالح الرابطة، والإمكانات المتاحة للتعايش والاستفادة من ثروات البلد.

فلما كان هذا التوزيع والانتشار بحسب مقتضيات الأحوال، وفوارق الميول والرغبات، انتهى إلى حالة شبه مستقرة، وصفة تلقائية مستمرة، وانكشف عن خلاصة واضحة ظاهرة، في جميع أطوارها الحاضرة والغابرة، ألا وهي أن جمهور الأنصار الذين يقطنون الجهات الغربية هم من ذرية الشيخ محمدإمَلَّنْ (أبَّانِينْ)[١] وأخيه محمد المصطفى وأتباعهم وحلفائهم، وجمهور القاطنين في المناطق الشرقية هم من ذرية أخويهما الشيخ عبد الله (الحاج بلَّه)[٢] ومحمد أحمد (أمْدايًّا) وأبناء عمهم الشيخ أحمد أبي الزهراء، وأتباعهم وحلفائهم.

والوضع العام واحد، من جهة الأوضاع الثقافية والسياسية والاجتماعية والمعيشية، حتى أحوال الخصب والقحط واحدة، والمصير كله واحد. وأما وجود أمير في الشرق وأمير في الغرب فهذه حالة تنظيمية اقتضتها ظروف الانتشار المذكور، وتعدد المناطق، وكثرة عدد أفراد القبيلة وأتباعها، مع اعتبار كل أمير في أي جهة من الجهات أميرًا على الجميع عند الحاجة. كما سيأتي مفصلا إن شاء الله.

---

(١) وفي الشرق منهم بنو محمد علي بن أبّانين وبعض بني محمد أحمد (حَنْدَ احَنْدَا).

(٢) وفي الغرب منهم بنو محمد المعروف بـ(حاكِدو) بن الحاج بلّهْ.

الفصل الثامن

تكوُّن القبيلة

لقد تناسل من أبناء الشيخ محمد بن محمد المختار (إنْفَا) الأنصاري - وهم أبناء أحمد وبنو قطب (أبناء أمدايا وأبناء الحاج بلَّهْ وأبناء أَبَّانِينْ) وأبناء محمد المصطفى - ذرية تكوَّنت منها الآن قبيلة كبيرة، هي قبيلة الأنصار التنبتكيين، وقبيلة بني إِنْفَا، وقد انضم معهم بعض إخوانهم من أبناء أعمامهم من ذرية محمد المظفر، ومحمد المزَّمِّل، وأبناء محمد أحمد الآيري، وأشهر هؤلاء:

١. أبناء البخاري بن محمد المصطفى بن المزمل، وتقدم أن من مؤرخينا من يجعل محمد المصطفى هو نفسه المزمل، والبخاري ابن أخي إنفا، وهم المعروفون بـ(أهْل إينتُورْشاوَنْ) وتقدم تفصيل من ليس منهم من الأنصار، ومنهم بعض بطون من قبائل إيجلاد. وأهل الحرمة.

٢. أبناء عبد الله الملقب (بلّه) بن محمد بن إنفا، وهم المعروفون بـ(أهْل تبوراغْتْ).

٣. أبناء محمد المعروف بأمَّامّا بن محمد بن إنفا، وأبناؤه دخلوا في قبائل إنَتابَنْ.

وأما مَنْ سواهم من الأنصار في بلاد تمبتكو فقد اندمجوا في قبائل المنطقة، من الطوارق والبرابيش وغيرهم، فَعُرف كل فريق بِمَنْ اندمج فيهم،

كما تقدم في السرد السابق فيما تقدم، إذ تَبين أن كثيرا من الأنصار من هذه السلسلة وغيرها قد توَزَّعوا في قبائل المنطقة وتلاشَوْا فيها، فمنهم مَنْ دخل في قبائل السوقيين، ومن دخل في قبائل إيجلّادْ، ومن دخل في قبائل إينَتابَنْ، ومن دخل في قبائل أهل الْحُرْمة، ومن دخل في قبائل البرابيش . . . . .إلخ.

وأما بنو إنفا فإنهم كوَّنوا إلْفا مُوَحَّدًا، وحِلْفًا موطَّدًا، بأنفسهم وإخوانهم وأتباعهم ومواليهم، فصاروا قبيلة عُرفت باسم الأنصار، **ولم تَعُد كلمة (الأنصار) تُطلَق على قبيلة سواهم في بلاد تمبتكو، مع وجود كثير من الأفراد والجماعات الأنصارية غيرهم، فإذا قيل هناك : «الأنصار» أو: «كَلِ انْتصَرْ» - كما يقولون لأنفسهم - أو «كَلِ انصا»[1] - بلغة الطوارق - فلا ينصرف هذا الاسم إلا إليهم، وجميع أهل المغرب العربي من عرب وطوارق وبربر يقرون لهم بنسبهم، ويعرفونهم با لأنصار دون غيرهم ممن ينتمي إلى الأنصار، بسبب غَلَبة هذا المصطلح عليهم، منذ ظهورهم في المنطقة، وكذلك الحكومات الموجودة هناك، ولا يعرفون بغير هذا الاسم (الأنصار) - أو ما يرادفه بلهجة أهل المنطقة - في تاريخهم، وسبب ذلك هو استقلالهم عن سائر القبائل، فكوَّنوا كيانهم بأنفسهم، وأصبح مَن ينضم إليهم هو الذي يندرج في اسمهم، فيطلق عليه ويُعرَف به، لأنه اختار هذا الإِلْف، وآوى لهذا الحِلْف، فاحتمى**

(١) كلمة (كَلْ) في لغة الطوارق تعني (أهل) أو (بني) أو: (آل)، لأن هذه القبيلة اشتهرت في هذه المنطقة التي غالب سكانها من الطوارق، فاختلطوا بهم وتكلموا بلسانهم، مع محافظتهم على نسبهم وأصلهم العربي.

بِحِماه، واستغنى عما سِواه.

هم في ذلك كسائر القبائل، فإن كل قبيلة معروفة باسمها المتواتر عن الآباء والأجداد ولا ينازعهم أحد ذلك ولا يشك فيه. وكذا يُقال فيمن انضم إلى القبائل الأخرى غير الأنصار فإنه صار لا يُعرف باسم (الأنصاري) بل يعرف باسم القبيلة التي دخل فيها وصار منها بالجوار أوالمصاهرة أو سبب آخر من أسباب المخالطة والانتماء.

ومن أشهر وأهم أمثلةِ العناصر والجماعات التي حالفت الأنصار، وتكَوّن منها هذا الحلف والإلف، وشملهم الاسم الأنصاري، عُرْفا وشُهرةً بسبب الحِلْف والموالاة والنصرة والمصاهرة والمخالطة، القبائل والجماعات التالية:

كَلْ أَغَزَّافْ (الغزّافِيّون)، وكَلْ إينْ جارَّنْ (أبناء أُمَغْيانْ)، وكَلْ إنْتجايِتْ، وكَلْ تجْبسْتْ، وكَلْ تِينْ تَهُونْ، وكَلْ الْحُرْمَهْ، وكَلْ إينُوكنْدَرْ، وكَلْ وَرُوزِيرْ، وإيمَقَّشَرَنْ، وكَلْ إينَقُّوزْمِي، وكَلْ تِينْ بُوكْرِي، وكَلْ إينْ تُوْلَكْ، وإيدَكَاكَمَنْ، وكَلْ تِينْ أكَواتْ[1]، وَبعض إيجِلَّاذْ . . . . وغيرهم من حلفاء الأنصار ممن يُسمَّون بالكَلْكَلِيين، أو: أهل كَلْكَلْ، أي: المبدوءة أسماؤهم بلفظة(كَلْ) وعامة هذه القبائل من أصول عربية قرشية، وقليل منها من هو من أصول طارقية.

ومن القواعد الاجتماعية المقررة، والعوائد الآدمية المكرَّرة، أن مَنْ

(١) المراد الفصائل غير الأنصارية.

استقل ودافع عن حريمه بنفسه، وقام بأمره وشأنه، وآوى إلى ظله وفيئه، وقَبِلَ واستقبل من انضم إليه وسكن، وأجار من استجار به واستأمن، فإنه يظل محافظا على كيانه وأمره، مشهورا بلقبه دون غيره، مذكورًا بنعته وحدِّه، منسوبا إلى فصله وجده، معلنا لحسبه فخرًا، رافعا لنسبه ذِكْرًا، وهذا من سنن البشر، التي تُعَدُّ أمرًا في كل زمان قد اطرد وانتشر[1]، وكل عاقل لها مصدِّق مدَّكِر، لأنها قاعدة تُقرر ما هو بالعقل مسانَد، وفي الواقع مفروض ومشاهَد، ومع ذلك كله نرى اليوم مَنْ يعترض على هذا، أو يتعجب بـ(ماذا)! وربما وصل إلى درجة الإنكار إذا هذى! ويقول: كيف يختص هؤلاء باسم الأنصار دون غيرهم من أبناء الأنصار في المنطقة؟! وكأنه يقول: كيف يكون الواقع كائناً!! وكيف يكون ما هو مشاهد ومسموع ومشهود ومعقول كائنًا!!!.

إن هذا التكوين القَبَلي، والتجمع الْحِلْفي، كان إيذانًا بتقوية إمارة الأنصار في المنطقة، تلك الإمارة التي اقتضتها الظروف القائمة آنذاك، وقد تقدم ذكر سبب إمارة الشيخ محمد بن إنفا الأنصاري ـ رحمه الله ـ، ثم امتدادها وتوسّعها بابنه قطب وأبنائه، ومن ثَمَّ أُطلقَ على هذه الإمارة وعلى هذا الحِلف الألقابُ الآتية في الفصل التالي، وهي الألقاب التي تميزوا بها من بين سكان المنطقة إلى يومنا هذا.

(١) انظر لمعاني هذه القاعدة الاجتماعية مقدمة ابن خلدون، الفصل الثامن، والحادي عشر، والثاني عشر.

الفصل التاسع

ألقابهم

أ ـ **الأنصار**: اللقب الأصلي لهذه القبيلة هو (الأنصار) لأنه اللقب الذي يميزهم من بين سائر قبائل المنطقة، فلكل قبيلة لقبلها الذي يُعدُّ عَلَمًا عليها، وهذا اللقب هو لقب الأوس والخزرج، ومنهم هذه القبيلة في تلك المنطقة، وهو اللقب المعتمد عندهم ويرددونه في كتاباتهم وأشعارهم ومراسلاتهم منذ قديم، ولم ينقطع ذلك يوما من الأيام، وكل أوراقهم الموجودة من ذلك العهد وقبله تثبت هذا وتبيِّنه، ومن هنا نجد غيرهم يخاطبهم بهذا اللقب كتابة ومشافهة، ولا يُعرفون بلقب غير هذا منذ كان أولهم إلى يومنا هذا، وما سواه من الألقاب إنما هو أشياء خاصة غير عامة، استُحدثت لمناسبات معينة، وأغراض محددة، ولا يتعرفون بها عند الإطلاق.

ب ـ **كَلْ انْصَرْ**، أو **كَلْ انْتَصَرْ**، وهذا اللقب هو السابق نفسه، وهذه طريقة من طرق نطقه واستعماله فيما جرت عليه العادة في بلاد (أزَواذْ). والطوارق هم الذين يقولون لهذه الأسرة (كَلْ انصَرْ) والأنصار هم الذين يقولون لأنفسهم (كل انتَصَرْ) والأصل: كَلْ الأنصار، يعنون: بني الأنصار، ثم اختصرت الكلمة فاقتصر فيها على ما ذكرته، ثم جرت هذه الكلمة لقبا على هذه القبيلة تغليبا.

ونسيت الألقاب المشابهة التي كانت موجودة في المنطقة قَبْلاً لبعض

القبائل الصنهاجية اللمتونية، وهي: إينْصَرْ، وإينْتَصَرْ، وآيت الأنصار، وقد يكتبها بعضهم بالياء بدل الهمزة: (ينتصر ـ ينصر) وصارت هذه القبائل تعرف بأسماء أخرى، وتلاشت في غيرها من قبائل المنطقة، وصارت هذه المصطلحات خاصة بهذه القبيلة التي هي بنو إنفا دون غيرهم في بلاد تمبتكو خاصة.

ومَنْ بقي من هذه القبائل على اسم (إينْصَرْ) أو (إينْتصَرْ) ففي مناطق نائية عن الأنصار بني إِنفا، فبعضها في موريتانيا، وبعضها في الجزائر، وبعضها في النيجر، وقد لا يُصَدَّرون بلفظ (كَلْ) بل يُنادَون باسمهم الأصلي وهو ما تقدم، على نحو ما ذكر لي الشيخ محمد المعروف بـ(إِنْتَحَمَّدِينْ) بن المنذر بن إبراهيم الأنصاري ـ رحمه الله ـ، أن هناك قبيلةً من الطوارق معروفة مشهورة في بلاد إيكدز وغيره، معروفة باسم (إِنْصَرِتَنْ) وهم ليسوا من الأنصار ولا ينتسبون إلى الأنصار، وقال إنه يعرف رجالاً منهم[1]. وتلك القبائل المعروفة بهذا للقب من القبائل اللمتونية الصنهاجية قديمة في المنطقة[2]، وكان بعض ملوكهم يسمى بـ(الأنصار) ومنهم فهرون بن الأنصار ملك إيلَمّدنْ، وقد قيل: إن سبب هجر تلك القبائل لهذه التسمية هو أن هذا الملك تهددهم على التسمية باسمه أو بما يقارب اسمه من الألفاظ، ذلك أن من عادات الطوارق الموجودة إلى يومنا هذا عدمَ التصريح بأسمائهم وأسماء آبائهم، لأنهم يرون

---

(١) ذكر لي ذلك في منزله الكائن في المدينة المنورة يوم الأحد ٢٧/ ٥/ ١٤٢٤هـ بعد صلاة العصر. وكان يحدثني عن ألقاب القبائل في بلاد أزواد.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٢٦).

في التصريح بالاسم إهانة لصاحبه، ولذلك يحظرون على الناس التسمية بأسمائهم وأسماء آبائهم، لئلا تكون تلك الأسماء معرضة للابتذال والامتهان.

وذكر الشيخ أبو بكر الشكاغي أن بني ينتصر قبيلة من لمتونة كانت لهم مملكة عظمى أيام الدولة المرابطية، ونقل عن العلامة محمد محمود الأرواني أن الأنصار الذين في موريتانيا أصلهم من بني ينتصر هؤلاء، وهم كلنتصر الأقدمون أيام ملك طوارق المرابطين. ثم أضاف أن مراده قبائل تجكانت الأنصارية، ومنهم: أرَقّان، وأبناء عمهم في كناتة وتكنة ويداس وتاكاط ودرشاك[1].

والخلاصة أن الناس في بلاد أزَواد يسمون الأنصار الذين هم الأوس والخزرج **كَلْ انْصَرْ**، أو **كَلْ انْتَصَرْ**، فغلبوا على هذا الاصطلاح، حتى ظنّ بعض المشاركين لهم في التسمية أنه منهم، اعتمادًا على التسمية فقط، لا اعتمادًا على النسب، وهذا خطأ، وهو الذي حدث لبعض المشاغبين على قبيلة بني إنْفَا حين نسبوهم إلى القبائل اللمتونية الصنهاجية استنادًا إلى أن أحد أجداد هذه الأسرة يسمى لمتونًا ـ تسمية أو تلقيبا ـ واستنادًا إلى أن كلمة (انصر) أو (انتصر) من أسماء القبائل الصنهاجية اللمتونية!! هم في ذلك كإخوانهم الذين كَبُر عليهم وجود ذريات الأنصار في هذه الأزمنة المتأخرة، ومن خارج المدينة المنورة!!

وكلا الأمرين نوع من السخف والهذيان، واللغَط الباعث على الغَثَيان،

---

(١) تفتيش الوثائق عن بلاد الطوارق (٢/ ١١٣).

والجهل المطبق، والغباء المفرط، بل هو من اللغو الذي لا ينبغي أن يصدر إلا من كل فاكٍّ تاكٍّ، ناقص ذي بُهتٍ أفَّاك، وقد عُرف أهلُ هذه المقالة الضالة، الذين يؤمنون بها أويهرفون، أويتكلفونها من كل مأفون ومغبون، على أنهم من جملة النَّوْكى، وأهل السماجة الحمقى، أصحاب العقول الغثيثة، والنفوس الخبيثة، والسيرة الدنيئة، والطلْعة الرديئة، همّهم بعث الشرارة، والتصنع بمعرفة النكارة، فيُشبِّهون ويموِّهون، ويوشون ويُنَمِّقون، ومما يؤسف له أنهم في هذه الأزمان جمٌّ أكثر من الحصى، وأوفر من الدَّبا.

وقد هممت أن أكتب رسالة مستقلة في الرد على أوهامهم، وهتك أسرارهم، وكشف عوارهم، بدلائل ناطقة، وشواهد صادقة، وحجج ساطعة تصرعهم كالصاعقة، ثم رأيت من نصائح العلماء، ووصايا الحكماء، أنه لا ينبغي للعاقل أن ينشغل بالرد على هذا النوع، لأن أهل الباطل ما انفكوا يلغون بمثل هذا البذاء، في كل زمن بلا حياء، فكفاهم أنهم صاروا مضحكة عند العقلاء، ومَسْخَرَةً عُدُّوا بها من السفهاء، وأشهر من وُلع بهذا طوائف من السوقيين، وإخوانهم من الكنتة الشرقيين، حاشا الصالحين المنصفين من هؤلاء وأولئك، ومَنْ عُصِمَ بالعلمِ من الحبائك، وربما وجد المرءُ منهم من الصالحين من يهوي في هذه المهاوي الغوية، ويقول هل أنا إلا من غزية؟!!

ج ـ بنو إنفا : تسمية حديثة تُضَم إلى كلمة الأنصار، عند إرادة التمييز والتفريق، لأن الأنصار كثير، فإذا أُريد هذا الحي خاصة عند من لا يعرفهم قيل له (بنو إنْفا) نسبة إلى جدهم محمد المختار الملقب (إنفا) لأنه الشخصية

التي اشتهر أبناؤه بالمحافظة على هذه التسمية (الأنصار) وصارت لهم إمارة انضوى تحتها من حالفهم ومن والاهم من القبائل والأفراد من أهل المنطقة، وصارت تلك الإمارة باسم الأنصار، فعرفوا بهذا الاسم في المنطقة واشتهروا به دون غيرهم من سائر أبناء عمومتهم الذين لم ينضموا إليهم.

د ـ **بنو قطب**: وقد يقول بعضهم: أهل قطب، والسبب في ذلك أن الشيخ قطباً ـ واسمه محمد و(قطب) لقبه الذي اشتهر به ـ هو الذي تناسلت منه أكثر بطون هذه القبيلة، وإليه آلَ الأمر بعد والده محمد بن إنفا، وتولى مقاليد الحكم بعده، كما آلت إليه المشيخة العلمية وإمارة القبائل الصحراوية التنبتكية التي كانت حِلْفا لأبيه، وقد عاش طويلا، وكان حيًّا عام ١١٥٨هـ فلما تكونت القبيلة بعد ذلك من أبنائه وأبناء إخوانه وأتباعهم وحلفائهم ومواليهم عُرفت به واشتهرت، لمكانته الدينية والعلمية والسياسية والاجتماعية، ولذيوع صيته وشهرة أمره في المنطقة.

هذه هي الألقاب التي عُرفَتْ بها هذه القبيلة جمعاء، ولكن ينبغي أن يُعلم أن ذلك لا يتجاوز منطقتهم التي يسكنونها، وفيما عداها لا يُعرفون إلا بالاسم الأصلي وهو «الأنصار» الذي يرادف كلمتي: «كل انتصر» أو «كل انصر».

شيوع التلقيب في المجتمع الأزوادي وطُرُقُه:

غلب على قبائل أزَوادْ التسمي بالألقاب وترك الأسماء الأصلية، والتلقيبُ سببه استثقال الأسماء المركبة، وكثرة تكرار الأسماء، ولاسيما اسم (محمد) و(أحمد) مفرداً ومركباً، أما مفرداً فالسبب واضح وهو إرادة

التمييز، لأن الكلمة الواحدة إذا أصبحت علماً على كل شخص من مجموعة في مكان واحد احتيج إلى فارق يميز كل واحد عن غيره، فجاءت ضرورة التلقيب للتمييز والتفريق.

وأما المركب فانضاف فيه ذلك السبب المذكور إلى إرادة التخفيف من اللفظ، فطبع الإنسان ـ ولاسيما العربي ـ ميال إلى تخفيف اللفظ وتسهيل النطق، فإن ذلك أسرع للكلام وأيسر على أعضاء النطق، وأبعد عن التكلف والثقل الناشئين عن الكلمات المركبة المتصاحبة، والحروف إذا تجانست وتصاقبت صعبت وثقلت، وإذا تباعدت مخارجها وتناسبت أصواتها سهلت وخَفَّتْ.

ولقد أخذ اختيار الألقاب طرائق عديدة، في المجتمع الأزوادي عموما، أهمها:

١. **النحت**: وهو أن تختصر الكلمة أو الكلمات، فتؤخذ منها كلمة خفيفة مكونة من بعض حروف الكلمات الأصلية، ثم يُركب منها الاسم، وقد تركب الكلمتان تركيبا مزجيا من غير حذف شيء منها، نحو حَمَّدْعلي ـ حَمَّدَاحْماد. كما قالت العرب (حَضْرَمَوْتْ) في: حَضَرَ موتٌ، وعَبشمي، في عبد شمس.

٢. **الإبدال**: فيبدلون الحروف المفخمة بحروف مرققة نحو: التاهل في الطاهر، وأحِّيل في (الخير) من محمد الخير، ومسّالح وماسّا بدلا من ماصّا ومصّالح من محمد الصالح، وفاضِماتَا من فاطمة لأن

الطاء أقوى من الضاد.

٣. النبر: وهو زيادة في الضغط على بعض الحركات، وتغيير طريقة نطق بعضها بحيث يرتفع بها الصوت ارتفاعاً معيناً، فيكون ذلك عَلَماً على شخص ما وتفريقاً بينه وبين مشابهه، نحو: آحماد ـ أحماد ـ أحمدُو ـ أحميد، فهؤلاء كلهم اسمهم (أحمد) ويفرق بينهم بهذه النبرات التي تولدت منها المدود، ونحو: حمّل ـ حمَّلّا، لمحمد الأمين، وهَمَّ وحامَّ وحمَّا وحمَّ وحمُّومُّ ومَمَّا ومَمُّو... إلخ كلها لـ(محمد) مفرداً أو مركباً.

٤. الحذف والزيادة: نحو بَكْرِينْ من أبي بكر، ويقال فيه أيضاً: بَكّ. وإدُو ـ إدولَحْمان ـ دُوحَّ ـ دَحّان ـ دَحْمان... إلخ، لـ(عبدالرحمن). وتالَحا وسُولَحا .... إلخ، لـ(محمد الصالح).

٥. الاختصار: نحو: عبد، وبَلَّهْ، وبَلّاهِ، ودُولَّ، ودَلّاهُ، ودَلّاهِ... إلخ، لـ(عبد الله).

٦. الجمع بين أكثر من طريق وطريقين مما سبق: فتكون الكلمة قد اختصرت وحصل فيها إبدال أو نبر، أو نحت، أو حذف أو زيادة، وهذا واضح في كثير من الأمثلة المتقدمة، ونحو: (حَوَّدْ): نحت من كلمة (محمد) بحذف الميم الأولى وإبدال الثانية واواً، و(أللُّودا) لمحمد المولود، ونحو: (حَمَتّال): نحت من محمد المختار، بإبقاء الحاء والميم من (محمد) وحذف ميم وخاء (المختار) مع

الألف واللام، وإدغام دال (محمد) في تاء (مختار) بعد القلب، وإبدال الراء لاما طلباً للتخفيف، لأن الراء مفخمة مكررة فهي ثقيلة على اللسان، ونحو ذلك يقال في: (حمّاتّا) من محمد الطاهر: نحت ـ وإبدال وحذف ـ وإدغام ـ ونبر. وكل هذه الطرق تعد من قوانين اللغة العربية الفصيحة المستعملة.

٧. التلقيب بكلمة لا علاقة لها بالاسم الأصلي: بسبب من الأسباب، نحو: أَكْحَتِي وتَحَكَّتْ لـ(محمد)، و(حَوَاَلَنْ) لمحمد المولود، و(دُوَّادُوّا) لمحمد الأمين، و(إِنْغَلالَنْ) لمحمد، و(أَدَدِي) لمحمد الأمين، و (إِيمَلَّنْ) و (أَبَّانِينْ) لمحمد، و(كلّا) لمحمد أيضا، و(آخْوَا) لمحمد أيضاً . . . إلخ.

٨. ومن الأسباب التصغير والترخيم: ذلك أن كثيرًا من الأطفال تُحرَّف أسماؤهم في زمن صغرهم، عند ملاعبتهم، فيُختزل الاسم، ويقتصر على بعض حروفه، وتُبدل حروفه الثقيلة بما يناسبها من الحروف الخفيفة الرقيقة الصوت، واللينة والطريفة لأجل ترخيم الصوت، والتدليل على التصغير إظهارًا للشفقة والرحمة، كما يقال لمحمد (حمّودي) وقد تحذف الحاء بعدُ ثم يصير إلى (مُودي) ثم يستمر هذا حتى يُنسى الاسم الأصلي، وهو (محمد) مفردًا، أو مركبا. وكما قيل لعبد العزيز: زِيزَا وبَعَزِي وعَزُّو . . . . وقيل لـ(فاطمة): فتّي وفاتّ وفاتّا وتفْتَا . . . إلخ.

وجميع هذه الطرق التي اتبعوها في تلقيب الرجال اتبعوها أيضاً في تلقيب النساء، وأكثر ذلك في فاطمة وعائشة وخديجة:

٩. فاطمة: من أمثلة ألقابها: فَضِيمَتُو ـ فاطِّمَتُو ـ فاضِماتا ـ فاطّ ـ فَطِّي ـ فتِّي ـ فَدِّي ـ فَدِي ـ فاتنَتَهْ ـ فتِّينَغْ ـ فَدَمَاتَه ـ فَنْضِيتُو ـ تَمَّهْ ـ تِيمَمَّهْ ـ فافَّهْ ـ فادي ـ فاتَنُو ـ فَدِيتُو ـ فنِّيتُو ـ تافطمة ـ فطُّومَهْ ـ فُطَيْمَة . . . . . . إلخ. وهي كثيرة، تصرفوا فيها تصرفا كثيرا حتى أبدلوا جميع حروفها بما يقاربها في المخرج أو في الصفات، فقد أبدلوا الطاء ضادًا، للتجانس في المخرج والصفات، وأبدلوا الفاء تاء للتقارب الشديد في الصفات بينهما، وتصرفوا في التاء الأخيرة كثيرا من جهة الإبدال والحذف والتحريك، كما فعلوا ذلك في الميم، كل ذلك لأجل كثرة التسمية بهذا الاسم. وقد تكون مركبة مع (عائشة) فيقال: (فَضِيمَتْ عايْشَهْ).

١٠. **عائشة**: من ألقابها: عَيْشَه ـ عيشعيشه ـ عاسَّه ـ مَعَاسَّه ـ عيْشتُو ـ لَلَّعَيْشَه ـ عايْشتُو ـ تِيعَيْشِتْ ـ تعاسَّهْ ـ تاعَيْشَهْ ـ مَعايْشَهْ ـ عُوَيْشِي ـ حُواشَّه ـ حاسَّه ـ . .إلخ. وهي كثيرة أيضا، فلما كثر التسمية بها تصرفوا فيها بأنواع متعددة لا تكاد تحصى من الإعلال والإبدال، كما فعلوا في (فاطمة).

ويتبين مما تقدم أنهم يركبون عَلَمَين لشخص واحد، ويستوي في ذلك الرجال والنساء، فكما يقولون: محمد علي، ومحمد أحمد، يقولون أيضاً:

فاطمتْعايشة، وفاطمت مريم . . . .وهكذا، وفي هذه الحال يسكنون تاء (فاطمة) ونحوها، وهو أحد وجهين للعرب في هذه التاء، كما ورد في القرآن الكريم في غير موضع، ومنه قول الشاعر:

والله نجّاك بكفَّيْ مَسْلَمَتْ من بعدما وبعدما وبعد مَتْ

صارت نفوس القوم عند الغَلْصَمَتْ

فقال: مسلمتْ بدلا من (مسلمة) والغلصمتْ بدلا من (الغَلْصَمة).

الفصل العاشر

ذكر أشهر مصطلحاتهم

من أهم ما يتميز به كل مجتمع إنساني الألفاظ والرسوم التي اصطلحوا على استعمالها، لأنها تختصر لهم أشياء كثيرة، وتعد بمنزلة الاسم العلَم على المسميات، ولقبيلة الأنصار من بني إنفا مصطلحاتهم التي جرى العرف عليها وصارت جزءا من ثقافتهم وحياتهم، بعضها خاص بهم، وبعضها مشترك بينهم وبين بعض قبائل المنطقة من الطوارق والحسانيين.

ومن هذه المصطلحات:

١. الوسم الأنصاري، وهو العلامة التي اصطلحوا على وسم الحيوانات الكبيرة بها، وهي الجمال والبقر والحمير، على الأوراك والظهور، ووسمها بوسم شبيه بحرف النون اللاتيني هكذا: (N) والغالب أن يكون مقلوبا قريبا من حرف الزاي اللاتيني أيضا: ويسمونه (إيزْجَتْ) وهو الوسم الذي أصبح عَلَمًا على هذه القبيلة، وبه يَسِمُون أيضا حدود بلادهم، وكل شيء يخصهم.

ولعل الأصل فيه أنه حرف (زِدْ) باللغة اللاتينية، والسبب في ذلك أن كثيرا من مصطلحات هذه الأسرة هي باللغة الطارقية التي صاروا يتكلمون بها، وهذه اللغة متأثرة بلغة الرومان الذين كانوا يحكمون المنطقة في حِقبة من حقبها التاريخية، والطوارق أيضاً يكتبون لغتهم بالحروف الفينيقية،

ويسمونها: (تِيفيناغْ) وحرف الزاي في تلك اللغة يكتب على هذه الصورة، وهذا الاحتمال أقوى فيما أرى، لأن حروف اللغة الفينيقية أقدم من اللغة اللاتينية.

وقيل إن الأصل فيها كلمة (آزْجَتْ) وهي كلمة طارقية معناها: (اهدؤوا) وهي في الأصل إشارة إلى صورة الحية، يعنون بذلك أن من تعرض للموسوم بهذا الوسم فقد تعرض للخطر، فهو بمنزلة من تعرض للحية، ومن ثَمَّ قالوا: (آزْجَتْ) أي اهدؤوا وكُفوا عن التعرض لصاحب هذا الوسم، وقد يجره بعضهم بأحد طرفيه، أو يجمع معه غيره، للتمييز والتفريق، وأما الحيوانات الصغيرة التي هي الغنم معزها وضأنها، فلكل أهل بيت منهم وسمهم الخاص عليها، بعضها حروف عربية، وبعضها حروف فينيقية ولاتينية، تُجعل على الآذان، مثل: اَ، T، Y، + ...إلخ. والحروف غير العربية مأخوذة من هجاء الكتابة الفينيقية (تيفِيناغْ) التي يكتب بها الطوارق لغتهم. وقد أخذ الأنصار هذه الحروف واستعملوها رموزًا للوسم فحسب، ولا يعرفون أصولها، لأنهم لا يكتبون إلا العربية، ولا يعرفون سوى الحروف العربية.

٢. **الطَّبَل**: هكذا ينطقونه بفتح الباء، والأصل فيه سكون الباء، وهو إناء كبير مجوف، قد ختمت فوهته بجلد، فإذا ضُرب الجلدُ أصدر صوتا كبيرا مجلجلا، يسمعه القاصي والداني من أهل المنطقة، وكانوا قديما يتخذونه من جلد بقرة يُجوّف حين انسلاخه، ثم يضم طرفاه وتُعلّق في وسطه أجراس من ذهب أو حديد ثم يغلق بإحكام

فيكون كهيئة الكرة الكبيرة وله عروة يُحمل بها ، فيترك حتى ييبس على تلك الصفة ، فإذا ضُرب عليه بحديدة ونحوها صلصل وجلجل وأصدر صدى عظيماً ، ولا يُفعل به ذلك إلا عند إرادة جمع الناس لأمر مهم جدا ، والغالب أن يكون ذلك الأمر حربا ، أو تنصيب أمير ، أو نحو ذلك ، ومن ثَم جرت العادة أن لا يحمله إلا أمير القبيلة لأنه الذي بيده أمر الحرب والسلم والتأمير ، ونحو ذلك ، ولهذا السبب اصطُلِح على تسمية أتباع القبيلة والداخلين في حمايتها وولائها **بالطبل** ، فيقال فلان من طبل فلان ، أي : من أتباعه والمؤتمرين بأمره ، والقبيلة الفلانية طبل كذا وكذا ، أي خَوَلٌ أو خدَم أو موالي . . .ونحو ذلك. والأصل الطبل الذي يُضرب عليه كما تقدم ، وإنما يُضرب عليه للاستتباع ، ولذلك لا يضرب عليه إلا متّبَع وهو الأمير.

٣. **الْحَيَّ** : بالياء المشددة المفتوحة ، وهو مصطلح مرادف لمصطلح «الطبَل» السابق إذا أُريد به الْخَول والموالي والأتباع.

٤. **الْحَرْطانِي ، أو أَهَرْضانْ** : أصل هذه الكلمة : الْحُرّ الثاني ، وهو مصطلح على الحر الذي كان عبدًا ثم أُعتِق ، وهم من الزنوج والأصل فيهم أنهم وثنيون من قبائل البمبارا ، والبوزو ، والموشيين ، وغيرهم ، وقعوا في الأسر في أثناء جهادهم لإخضاعهم للإسلام ، وكثر ذلك في أيام أمراء الأساكي في دولة السُّنْغَيْ فاسترقوهم ، ثم

أسلموا فأُعتِق كثير منهم[١]، ومن صار منهم في ملك الأنصار إنما كان بسبب الشراء أوالهبة، أونحو ذلك. فتكَوَّنَ ممن أسلم منهم قبيل كبيرٌ، أصبح يُعرف باسم (الحرطانيين) والواحد: حَرْطانيّ. وأكثرهم من موالي كنتة والبرابيش. وأما بلغة الطوارق فيسمَّون بـ(إيكْلَانْ) والواحد: (آكْلِي). ويبدو أن الكلمة مركبة من لفظين: الأول (أكْ) وهو نفسه (أقْ/ أجْ) الذي يرادف (ابن)، و(صاحب)، و(ذا)، في اللغة العربية، وأصله (أخ) و اللفظة الثانية (لي) وهي لام الملك دخلت على ياء المتكلم، بمعنى: أخي، أو: أخٌ لي. ثم طُوِّر اللفظ حتى صار (آكْلي). ولا ريب أن مَنْ يتتبع اللغة الطارقية فسيجد أن أكثر ألفاظها مأخوذ أومشتق من أصول عربية، ولا ينكر هذا أو يشكك فيه إلا جاهل باللغتين.

٥. **الفقِّي**: بفتح الفاء وتشديد القاف مكسورة: بمعنى الشيخ شياخة علمية مطلقة، والأصل فيه: الفقيه، ثم اختصر فيه على ما ذُكر، لكثرة استعماله، وهم يُطلقونه على كل واحد من أهل العلم، سواء أكان من كبار العلماء أو من دونهم ممن يُعرف بالعلم.

---

(١) انظر بداية الحكم المغربي للدكتور محمد الغربي: (ص ٦٠٣). وقد نقل عن عدة مصادر أن ملوك السنغي ـ وهم الأساكي ـ هم السبب في كثرة العبيد في تلك البلاد، وهم الذين استعبدوا الزنوج، وكانوا يعاملونهم معاملة قاسية، بينما كان عبيد كنتة والطوارق والأشراف يلقون معاملة حسنة. هكذا ذكر، والله أعلم.

٦. **العالِمْ**: هي عندهم مرادفة لكمة (الفقي) السابقة.

٧. أَنَسْلم: بمعنى المسلم، وهو مصطلح يُطْلَق على معنيين كلاهما صحيح في اللغة، **الأول** المعنى الشرعي، وهو المسلم الذي هو ضد الكافر، **والثاني**: المعنى اللغوي، وهو إطلاقه على الضعيف المستسلم، الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، فكل قبيلة من القبائل الضعيفة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها كالسوقيين (مثلا) يقال لهم: إنَسْلمَنْ، أي المستسلمون الضعفاء، والواحد منهم: أنَسْلمْ.

٨. **أمَشّركْ**: بمعنى المشرك، وهو مصطلح خاص عندهم بالسحرة، فكل من اتُّهِم أو عُرف أن له علاقةً بعمل السحر فهو مشرك (أمشّرك)، والجماعة: مشركون (إمَشَّركَنْ).

٩. **التّرْكَة** أو **تاركو الصلاه**: هذا المصطلح يراد به الصغار أو الأولاد، ومعناه واضح وهو تَرَكَة الصلاة، أي الذين يتركون الصلاة، ولا يعني ذلك أنهم لا يصلون، ولكن لَمّا كثر منهم ترك الصلاة والتهاون بها عادة شاع تسميتهم بذلك، حتى إن الإنسان إذا قال: **التركَه** أو: **تاركوالصلاه**، فإن ذلك لا ينصرف إلى مَنْ لا يصلي، بل معروف أنه يريد الأطفال الصغار، سواء يصلون أولا يصلون.

١٠. **كَلْ انْصَرْ أو كلْ اينْتَصَرْ**: معناه الأنصار، سواء أُريد به الأنصار الذين صاحبوا الرسول ﷺ، أو غيرهم ممن تناسل منهم إلى يومنا هذا، أُطْلِقَ عليهم من باب الغلبة، مع أن كلمة (اينْصَرْ) وكلمة

(اينْتَصَرْ) و(الأنصار) هذه من أسماء القبائل الصنهاجية، التي كانت في المنطقة قبل الإسلام، ولكن لما جاء الإسلام ودخل المسلمون المنطقة، وكان من بينهم بعض من سلالة الأنصار الذين نصروا النبي ﷺ، غلبت عليهم، هذه التسمية، ولم تعد القبائل الصنهاجية التي كانت تعرف بهذه الأسماء تعرف بها الآن، حتى ظن بعض الناس أن كل من تسمى باسم (كل اينصر) أو (كل اينتصر) فهو من تلك القبائل الصنهاجية القديمة، ولم يتنبهوا إلى أن هذا الاصطلاح قد غلب مؤخرًا على الأنصار من الأوس والخزرج دون غيرهم، وأن تلك القبائل الصنهاجية لا تزال موجودة ولم تَعد تُعرف بهذه التسمية، كما ظن بعض القبائل التي تعرف أن أصولها من (كل اينصر) أو (كل اينتصر) الصنهاجيين أنهم يرجعون إلى الأنصار من الأوس والخزرج، ولم يتنبهوا إلى أن تسمية الأنصار من الأوس والخزرج بهذا الاسم تسمية حديثة ليست قديمة، فوقع الناس في الخلط لعدم الاهتمام بأصل المصطلح القديم والحديث، ولأجل جهلهم بأصولهم.

١١. (كَلْ): كلمة تُصَدَّر بها الأسماء عند إرادة النسبة، مرادفة لياء النسبة، وهي بمعنى: أصحاب وأهل، والغالب في أسماء القبائل التي تصدر بها أن تكون من القبائل التي ليست من أصول صنهاجية أو بربرية، أو التي أصولها عربية دخلت في المنطقة بعد الفتح

الإسلامي، نحو: كل انصر، كل السوق، كل الحرمة، كل تين تهون، كل إينوكندرْ، كل وَرُوزيرْ، كل إينَكُّوزْمي .... إلخ. أو تصدر بها قبائل متفرعة من قبائل كبيرة، نحو: كل أُولّي، فرع من قبيلة كبيرة صنهاجية من أصل المنطقة، وهم إيوَلَّمَّدَنْ، هذا هو الغالب، ولكنه قد يتخلف ولا يلزم.

١٢. **إينْ / إِي/ ايد/ اذْ:** بمعنى ذو، أو: صاحب، أو: أهل، وهو مصطلح شائع أيضا في إضافة الشيء إلى شيء، وقد كثر استعماله وتُصُرِّف فيه حتى تنوعت طرق نطقه واستعمالاته، وتستعمله جميع قبائل (أزواد) في موريتانيا ومالي والنيجر والجزائر، وتُوُسِّع فيه حتى شاع أن تصدر به القبائل القديمة في المنطقة، من الحسانيين[1] أو من الطوارق، نحو: إيدو علي، ايديبوسات، ايديعقوب، إيدوعيش، إيدَكاكَمَنْ، إيدَرْفانْ، إيولمدن، إيدنان، إيموشاغ، إيمغاد . . . .إلخ. وقد يُصَدَّر به حِلْف مكَوَّن من عدة بطون وقبائل وأصول، عربية وطارقية، نحو إيجلاذْ، وإينتابَنْ . . . .إلخ. وكل

(١) المراد بالحسَّانيين من يتكلم اللهجة الحسَّانية، وهي لهجة عربية ولكن كثيرًا من كلماتها طارقية، ولكونها لهجة عربية ظن أهل المنطقة أن القبائل التي تتكلمها كلها عربية، وهذا غير صحيح، بل إن كثيرًا من القبائل التي تتكلم الحسَّانية هي من أصول صنهاجية طارقية، كما أن كثيرا من القبائل التي تتكلم اللهجة الطارقية هم من أصول عربية. واللغة لا علاقة لها بالأنساب والأصول. والحقيقة أن الإنسان يتكلم باللغة التي نشأ بين أهلها وعاش، مهما كان أصله.

هذا غالب وليس لازما، بل قد يتخلف.

١٣. **أَجْ / أقْ** : بالجيم اللاتينية التي تنطق بين القاف والكاف، وهو بمعنى (ابن) ويستعمل مرادفا لـ(إينْ)و(كَلْ) السابقين، وقيل أصله (أخ) أو (فرخ) فهو من أصل عربي. فيقال: أقْ كذا، بمعنى ابن كذا، أو صاحب كذا.

١٤. **كَلْ تَماشَقْ**: أي أصحاب لغة تماشق، وهي اللغة الطارقية، وهي اللغة التي يتكلم بها الأنصار من **بني إنفا** غالبا في المنطقة، ولكنهم لا يشملهم هذا المصطلح، فإذا قيل: كل تَمَاشَقْ، عندهم فالمراد غير الأنصار، ويقول المرء منهم: أذلك الشخص من الأنصار، أو من كَلْ تماشق؟ فهم لا يعتبرون أنفسهم من **كل تماشق** وإن كانوا يتكلمون بها، لأن أصولهم عربية، والعربية هي لغة الكتابة والتعليم، عندهم وبها يتكلم بعضهم، وبعضهم يجمع بين العربية وتَماشَقْ.

١٥. **آرَبَنْ**: بمعنى العرب، والواحد: (آرابْ) بمعنى العربي، وهو مصطلح يستعملونه ويطلقونه على كل من لهجته المحلية الْحَسَّانية ـ وهي من اللهجات العربية ـ سواء كان أصله عربيا أو أعجميا، ولا يطلقونه على أنفسهم مع علمهم بأنهم عرب، لأجل التفريق بينهم وبين الحسَّانِيّين، وكونهم عربا مما هو مسلَّم به معلوم حتى عند العوام، ومع ذلك فهم يعنون بـ(آرَبَنْ) من ليس من الأنصار ولا من الطوارق، فهذه الأسرة لا يطلقون على أنفسهم (آرَبَنْ) لأنهم لا

يريدون الانتساب إلى الحسَّانِيين، ولا يطلقون على أنفسهم **(كَلْ تَماشَقْ)** لأنهم لا يريدون الانتساب إلى الطوارق، وإنما يقولون لأنفسهم: **(كَلْ انتصرْ)** لأنها الكلمة التي صارت عَلَمًا على «**الأنصار**» سواء من كان منهم في عهد الرسول ﷺ، أو ذرياتهم من المتأخرين، كهؤلاء الإنفيين.

١٦. **أكافَرْ**: بمعنى الكافر، وهي تسمية غلبت عندهم على كل أوروبي، ولا يفرقون بينهم، ولو وجدوا من كان منهم مسلما فلا يقولون له إلا (**أكافر**)، لأن كلمة **أكافر** عندهم أصبحت مصطلحا على هذا الجنس من الناس بصرف النظر عن ديانته وعقيدته، ثم تُوُسِّع في المصطلح حتى أصبح يشمل كذلك كل فاجر أو فاسق أو شِرِّير أو متمرد أو سيئ الخلق أو عنيف أو شديد، أومرٍّ، أو حيوانٍ غير ذَلول، أو ما ليس بآلف من الحيوانات والناس ونحو ذلك، من باب المجاز والتشبيه، و«**ما قارب الشيء يُعطى حكمه**».

١٧. **الفَضولي**: باختلاس حركة الفاء وعدم إتمامها، أي فضول الكلام عموما، ولكن أصبح عندهم خاصا بالكلام الفاحش البذيء فكل فحش وبذاءة يسمونه الفضولي، وينطقون الضاد هاهنا وفي قراءة القرآن وسائر اللغة العربية كاللام المفخمة، وهو نطق قديم من أوجه النطق الواردة عن العرب لهذا الحرف، وهو أقرب إلى الضاد الفصيحة من الضاد المصرية الشائعة اليوم.

١٨. **مَلايِعْني**: أي ما لا يعني، ومرادهم به كل كلام لا معنى له، أو لا حاجة إليه، أولا داعي له، ويطلقونه كذلك على كل إنسان ضعيف، أوأيّ شيء ضعيف أو حقير.

١٩. **العافِتْ**: بمعنى العافية، ويعنون بها الأمن والسلامة، كذلك التخلي عن الشيء واجتنابه وتركه، أو البراءة منه، أو عدم التعرض له.

٢٠. **أعقاب الناس**: بالقاف المشوبة بالكاف، كما في اللهجات العربية الحديثة، والأعقاب جمع عَقِب، وهو مؤخرة القدم من خلفه، ومرادهم: لئام الناس وأوباشهم، أو شرار الناس.

٢١. **بَرِّكْ**: كلمة تقال عند الترحيب والتفضيل والرضا، وهي مرادفة لكلمة (تَفَضَّلْ) في اللهجات العربية الأخرى.

٢٢. **الوَحْلَ بِلَاحِيلَهْ**: يقولونه لكل شيء لا يُدرى ما الذي يناسبه؟ وللشيء الصعب، وللشيء المشْكِل، ونحو ذلك.

٢٣. **أخِيرُ الزمان**: هذه العبارة تعني «آخر الزمان» أي نهاية الدنيا واقتراب الساعة، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة أن آخر الزمان ستكون فِتَنٌ عظيمة يرقق بعضُها بعضا، وأن الأمور ستختلف كثيرًا عما اعتاده الناس، وأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، أما الأخيار فيذهبون شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى منهم أحد. وبناءً على هذا صارت عبارة «أخِيرُ الزمان» ـ هكذا ينطقونها بقصر الهمزة ـ مصطلحًا عند هؤلاء القوم يطلقونه على كل سوء ومكروه، وعلى

كل مصيبة وبلية، فيطلقونه على زمن القحط والمجاعة، وعلى أيام الخوف والفتن، وعلى كل شيء مكروه بلا استثناء.

والمصطلحات كثيرة، ولا يمكن استقصاؤها، ولكن هذه أمثلة موجزة منها ضربتها لإعطاء صورة من صور التعريف بالقوم. وهي كما يظهر خليط من اللغتين العربية والطارقية، وقد قدمت مرارًا أن هذه القبيلة صارت لغتها الشعبية المستعملة هي الطارقية: (تماشَقْ) منذ القرن التاسع، بسبب الاختلاط بالطوارق والاستخوال منهم، وهم غالب أهل المنطقة، واللغة كاللباس، يلبس منه الإنسان ما يُلبس ببلده، ويتزيَّا بما جرت العادة بالتزيي به، ولا علاقة لذلك بالنسب، ولا بالعقيدة، ولا بالتاريخ والأصول والأعراق، وهذا مما يجهله كثير من البُلْه الذين يحكمون على نسب الإنسان وأصله بلغته أو بلده أو لِبسته أو سلوكه وأخلاقه !!!

ونحن نجد من بين الشعوب العربية ـ مثلا ـ كثيرا من الزنوج الذين هم من أصول إفريقية أعجمية، يتحدثون اللهجات العربية لهجة لهم، ولا يعرفون غيرها، ويلبسون كما يلبس الإنسان العربي، ولكل واحد منهم من الطبائع والأخلاق والسلوك الاجتماعي ما يوافق أهل بلده الذين وُلد بينهم ونشأ، ولا علاقة لشيء من ذلك بأصله الإفريقي الزنجي، ونقول مثل ذلك فيمن سواهم من البشر الذين نجدهم وقد تحولوا إلى عرب في المجتمعات العربية، كالهنود والأتراك والأكراد والأوربيين . . . وغيرهم من أمم ليسوا من الفصيلة العربية أصلا، ومع ذلك لا تفرق بينهم وبين العرب في المجتمعات العربية،

وهذا أمر لا غرابة فيه ولا نكارة، بل هو من المسلَّمات لدى كل عاقل ذي فطنة ومهارة.

ومن هنا يدرك اللبيب سذاجة من يطعن في نسب من الأنساب، أو يحاول تأصيله ومعرفته عن طريق أمثال هذه الأسباب الواهية، التي لا علاقة لها بالعقول الواعية، ولا بالأعراف والطبائع البشرية، والنواميس الإلهية، والعوائد الأسرية، بل هي من جملة الأوهام والأقوال المنحرفة عن الحق، الموغلة في غيابات المحق، وضلالات الحمق، وإنما يرمي بها مَنْ شأنه ودَيدَنه التهويش، وغرضه التشويش، ولا يسأم لشدة لؤمه من التخميش، ليتصنع بمعرفة التفتيش، والتعالم بصنوف من التنقيش، فاجتنب الهدى، وارتدى بملابس الرّدى. نسأل الله لنا ولإخواننا المسلمين السلامة والعافية من سلوك هذه المسالك، الموردة إلى المهالك.

الفصل الحادي عشر

طريقة تعيين الأمراء والمسؤولين

لتعيين الأمراء والمسؤولين في إمارة بني إنفا الأنصارية وقبيلتهم طريقتان مشهورتان، بحسب ما جرت عليه العادة، وتتابعت له الأزمان والأحداث على الشهادة:

الطريقة الأولى: إن في القبيلة أعيانا يفرضهم الواقع، وتؤول الأمور إليهم تلقائيا ولهم الطاعة على الناس عرفا، وأولئك الأعيان هم الأب والأخ الكبير، والعالم، وذو الرأي الحسن والسياسة المستقيمة المهتم بأمر الناس وشؤون مصالحهم، وكذلك من له مزية وفضل من جهة القوة الجسمية والمال والكرم، وقد جرت عادة هذه القبيلة على أن كل من تتوافر فيه هذه الأمور فهو أمير مطاع، ويرجع إليه في تدبير الأمور، ويكون ذلك تلقائيا، وليس من الضروري أن يجتمع عليه ويُتفق فيُعتمد، فهذه الطريقة التلقائية، هي أهم الطرق التي يُعرف بها الأمراء من هذه القبيلة.

وأما الطريقة الثانية: فهي طريقة التعيين والاختيار، وتكون باجتماع من يعنيهم الأمر من أمثال المتقدم ذكرهم من أعيان القبيلة وشيوخها وكبارها وعقلائها، فيتفقون على تعيين شخص ما أميرا على القبيلة إمارة عامة أو خاصة، والغالب فيمن يتولى الإمارة العامة هذه الطريقة، كما أن الغالب على من يتولى الإمارة الخاصة ـ وهي إمارة أحد أعيان بيت من بيوت الأنصار على

سائر أهل بيته الأَدْنَيْنَ ـ الطريقة الأولى، وفي الطريقة الثانية أيضا لا يُختار غالبا إلا من عينته الحال ممن تنطبق عليهم الأوصاف المتقدمة، ولأجل تطبيق هذه القاعدة، جرت ولاية الشيخ محمد قطب بن محمد بن محمد المختار (إنفا) وأخْذُه للطَّبْل منتقلا إليه من أبيه محمد، الذي آل إليه من الشريف الهاشم بن محمد المختار آوًّا وهو جده لأمه، وكان الشيخ محمد قطب شيخا عالما مطاعا، ذائع الصيت له تلك الخصوصية دون سائر إخوانه، ثم طالت حياته حتى توفي أبناؤه الكبار، وكانوا علماء، ومن كبار الأعيان، وقد كان ابنه عبد الله المعروف بـ(الحاج بلّهْ) هو عميد هذه الأسرة وشيخها الذي يُرجع إليه بعد أبيه، وكان مفتي المنطقة وعالمها، ثم إنه توفي في حياة أبيه.

ولم تطل حياة أبيه قطب من بعده، وبعد وفاة الشيخ قطب الأنصاري ـ رحمه الله ـ كان ابنه محمد إيملَّنْ بن قطب، المعروف بأَبَّانِينْ هو كبير القبيلة نسبًا وعلما، لأنه كان أصغر إخوته الأشقّاء، وقد تُوُفُّوا قبله، ولم يكن في أيامه إلا أبناء إخوانه وأبناؤه، فآلت إليه الأمور بعد أبيه(١)، وكان عَلَمًا من

(١) وهذا هو الصواب والحق في مصير الأمر إلى الشيخ محمد إيمَلَّنْ، وفي جمع من نسخ كتاب الرحلة والسيرة لأنصارية أن أباه قد ترك له الوصية من بعده، وفي جمع منها أن قطبا إنما ترك الوصية لابنه الحاج بلَّهْ، ويبدو لي أن كل أبناء أبٍ يزعمون أن أباهم هو الذي تُركت له الوصية بتولي الأمر، لأن النسخ التي بين يدي على هذا النهج سارت، ولكن كل هذا غير دقيق، والسبب الذي أوقعهم في هذا هو عدم الانتباه إلى الأحداث التاريخية، ووفيات القوم، ومقتضيات الأحوال على ما يناسب عادة القوم والعرف الجاري، ولو تنبهوا إلى ذلك لا نقطع الخلاف، ولما لزم شيء منه البتة.

الأعلام في علمه وجسمه وصيته، وكان أبناؤه وأبناء إخوانه يسمونه (أَبَّانِنْ) أي: أبي، بلهجة الطوارق، وقد نال من الشهرة العلمية والسياسية ماجعله من كبار أعيان العصر في المغرب كله.

وعند هذه القبيلة عادة عجيبة لم أرها ولم أسمع بها عند غيرهم! وهي أن الكبير من أبناء العمومة وأبنائهم هو من كان أبوه أكبر، دون نظر إلى سِنِّهِ هو، ومن أجل هذه العادة اعتبر أبناء محمد إيمَلَّنْ إخوانَهم أبناء الحاج بلَّهْ هم الكبار! ولهم حق الأكبرية عندهم، لأن أباهم الحاج بله أكبر من أخيه محمد إيملن، ومن ثَمَّ كانت لهم الكلمة العليا والطاعة على أبناء أَبَّانِينْ عُرْفًا، مع كون كثير من أبناء أَبَّانِينْ أكبر سنا وأعلم من كثير من أبناء الحاج بله.

وهذا الذي جرت عليه العادة عند هؤلاء القوم من عجيب العادات!! لأنه تفسير مبالغ فيه للقاعدة التي أقرها الشرع في حق الأكبرية، فإن حق الأكبرية يجري بين الشخصين باعتبار حالهما لا باعتبار حال آبائهما، فالكبير هو من سبق وِلادةً، وإن كان أبوه صغيرًا، وهذه هي القاعدة الشرعية، وفيها حفظ حق الكبير لذاته، وأما تفسير هؤلاء القوم وتطبيقهم لهذه القاعدة ففيه تضييع لحق الكبير الذي يكون أبوه أصغر ممن سواه.

ولما توفي الشيخ محمد إيملن آل الأمر إلى ابنه حمَّادًا، لأنه كان أعلم أهل زمانه من الأنصار وغيرهم في المنطقة، وقد أثنى عليه العلماء ونبهوا على فضله ومكانته العلمية، ولم يكن يساويه أحد من بني إنفا آنذاك من جهة علمه ومكانته الاجتماعية والسياسية، فآل إليه أمر القبيلة تلقائياً.

ومما ينبغي ذكره واعتباره في معرفة ولاة الأمر من هذه القبيلة، منذ كانت إلى يومنا هذا أن التقليد جارٍ على أن كل بني أبٍ لهم أميرهم العُرفي، وكبيرهم المعنيّ، ولا يتعارض ذلك مع وجود الأمير العام للأنصار كلهم، ومع ذلك فإنه يجب أنْ يُعلم أن كل أميرٍ أنصاري ـ وإن كان أميرًا على أهل بيته خاصة ـ هو أمير على جميع الأنصار عند الحاجة، أعني إذا اقتضى الأمر ذلك، وهذا متأكد حتمًا إذا حضر أحد هؤلاء الأمراء في مكان ليس فيه أمير آخر من الأنصار، فليس بين القوم تلك الحدود والفروق الكبيرة، أو البالغة إلى حد عدم تدخّل أحد أمرائهم في شأن من شؤون قبيلته، أو في شأن من شؤون إخوانه من الأفخاذ الأخرى.

فإذا قيل فلان أمير بني فلان، فهذا يعني الإمارة التقليدية العُرفية، وهي إمارة غير ظاهرة في غالب الأمر، بل تكاد تكون معنوية عُرفية فحسب، ولكن لا يعني ذلك أنه ليس أميرًا على مَن سواهم من الأنصار إذا لزم الأمر، كما أن الواحد من الأنصار لا يمنعه شيء من أن ينضم إلى أي أمير من أمراء الأنصار في شأن من الشؤون، وإن كان ذلك الأمير ليس معَيَّنا على أهل بيته الأدْنَيْن، لأن هذه القبيلة لُحمة واحدة، وأمرها واحد، يسعى في أمرهم أنفعهم، ويُلجأ ـ بعد الله ـ إلى مَن قام منهم وعُني بأمورهم، بصرف النظر عن أيّ انتماء أو شيء آخر.

ولأجل هذه القاعدة التي هي أكبر وأقوى قواعد هذه المؤسسة الأنصارية كان الأمير محمد علي بن الطاهر أميرًا على جميع الأنصار، وكان

معه الأمير محمد المصطفى (إتّها) أميرًا على جميع الأنصار، وكان محمد المهدي بن الطاهر خليفة لأخيه محمد علي على جميع الأنصار ولا يزال، وكان الأمير محمد المولود «امّلُو» بن محمد الطاهر (حمتاهي) خليفة لعمه إِتَّها على جميع الأنصار، وهكذا يكون لكل أهل بيت من الأنصار أميرهم الخاص تقليديا، وهو مع ذلك إذا اقتضت الحال مسؤول عن جميع الأنصار. وعلى سبيل المثال تولى إمارة الأنصار الشرقيين بعد الشيخ عثمان بن الحاج بلَّهْ وعثمان بن أبِّينْ، محمد بن عثمان بن أَبِّينْ والفقيه محمد بن حلَّايْ، ثم الشيخ إبراهيم (بايَّا) بن حلَّايْ، وسِيدِي محمد بن محمد بن عثمان بن أبِّينْ، ثم محمد المختار (حمتَّالْ)، ثم محمد المختار (امَّعْتَا).

وبعد محمد المختار (امَّعْتَا) اختلفوا فيمن يتولى الأمر، ثم انقسموا فصاروا فِرْقتين، فرقة انضمت إلى إِتَّهَا بن سِيدِي الذي هو الأمير التقليدي والعُرْفي لبني أبِّينْ بعد أخيه حمتاهي - كما سيأتي تفصيله - وهم: بنو بَدَا (الحَفْرِيُّون) وبنو امْدَايَّا (أهل إينْجارَّنْ) وبنو أبي بكر (أهل آنُوشَجْرِينْ) وبنو آخْوَا (أهل إينْ تِيشَقْ).

وانضم الباقون إلى محمد بن مسَّالح أمير بني عثمان بن الحاج بلَّهْ بعد حمتَّالْ، كبني عمر (أهل تَهُوبَتْ).

ثم ما لَبِثوا أنْ انفصلوا جميعًا، فرجع كل بني أبٍ إلى أميرهم التقليدي، وذهبت الإمارة العامة والمتفرعة عنها، حيث ألزم النظام الجديد الذي حكم البلاد كل أهل بيت أن يكون لهم ممثل يخصهم يسمونه «الضامِن» غير أنهم إذا

اجتمعوا في مكان واحد فالأمر إلى واحد منهم فقط دون سواه، وإذا حضر واحد منهم في مكان من خارج المجتمع الأنصاري فهو ممثل لجميع الأنصار متحدث عنهم رَسميًّا.

سَرْدٌ موجزٌ للأمراء التقليديين(١) لكل بطن من بطون الأنصار:

اعلم أن الأمير العام للقبيلة كلها لا يكون إلا أحد الأمراء التقليديين (العُرْفِيين)، فكل زمن يوجد فيه أمير عام للأنصار فاعلم أنه أميرٌ على أهل بيته الأقربين على الخصوص، إضافة إلى الإمارة العامة، وبناء على هذا كان محمد علي (إينْقونّا) أميرًا على بني (حَوالَنْ) خصوصا مع إمارته العامة على جميع الأنصار، ومعه أمراء في كل بني أبٍ من الأنصار، كل واحد منهم بمنزلته في أمارته الخاصة على بني أبيه الأدْنَين.

وبعده تولى المنزلة نفسها أخوه محمد المولود«اللُّودَا» وبه سقطت الإمارة العامة للأنصار بسبب الاحتلال الفرنسي، وحاول محمد بن إينْقونًّا، ثم الطاهر بن المهدي بعده إعادتها، ولكن الرياح جَرَتْ بالسفُن إلى غير ما يشتهي السَّفِين.

ثم عُيِّن محمد علي بن الطاهر، ممثلا عاما للإمارات الأنصارية لدى الحكام الفرنسيين، وحاول بعد خروج الفرنسيين استعادة الإمارة العامة للأنصار والأزواديين كلهم، فلم يجدْ له في الساحة معينًا على ذلك.

(١) المراد بالأمير التقليدي: الأمير الأصلي بحسب العُرْف القبلي، والتوارث النسبي.

وبقيت الإمارة العامة مفككة من حينئذ إلى يومنا هذا، وتوزَّع الأنصار بعد ذلك بين أمرائهم التقليديين ممثلين لكل فخذ لدى الحكومة التي تولت البلاد، غير أن عامة أمر الأنصار الغرْبيِّين يدور بين أبناء الطاهر بن المهدي، فقد خلَّف محمد علي بن الطاهر بعد خروجه أخاه محمد المهدي عليهم، وهو لا يزال حيا بعدُ في المكانة نفسها، وكان أخوهما الأمير الهُمام محمد الملقب (حمَّامًا) من كبار أمراء الأنصار ـ رحمه الله ـ، وكذا سائر أبناء الطاهر.

أما الأنصار الشرقيون فقد آل أمرهم بعد ضعف الإمارة العامة إلى الأمير محمد المختار (حمتَّالْ) الذي عينه عمه الشيخ إبراهيم (بَايَّا) مراسلا له بينه وبين الفرنسيين لما قدموا إلى البلاد، وتَرَفَّعَ عن مقابلتهم والتعامل معهم، فاضطر إلى توكيل «حمتَّالْ» بعد أن أشار عليه الأمير سِيدي محمد بن محمد بن عثمان على ذلك وألح عليه، كما مرَّ وسيأتي مفصلا في أخبارهم. ثم توزَّعوا بعد «حمتَّالْ» واكتفى كل بني أبٍ بأميرهم التقليدي لبيتهم، بسبب خلافهم على من يتولى أمر العامة منهم. على التفصيل الآتي:

١. بنو أحمد أبو الزهراء، تولاهم بعد التقسيم محمد المختار المعروف بـ(امَّعْتَا) ثم ابنه. والغربيون منهم عليهم طالوت بن محمدُنْ. فيما بلغني.

٢. بنو امْدَايَّا: محمد عالي بن أحمد بن الولي بن حمَّا، وسليمان بن حازْ، ثم محمد بن الَّابَّا، ثم حمَّاتَّا بن محمود بن عبد الكريم. وهو الذي عليهم الآن.

٣. بنو أبي بكر: محمد الطاهر (حتّاهِلْ) بن حَوَّدْ ثم أخوه محمد علي ومعه ابن البخاري، ثم حَمَّدَا بن حتَّاهِلْ، ثم الطيب بن العلامة محمد المختار بن حَوّدْ الآن.

٤. بنو بَدَا: ابن حنبل بن حَمَّوَتَّا بن محمد بن امَّقَّال. ثم الزَّرُّوقْ بن أحْمادْ بن إيَّادِي..

٥. بنو عمر: أحمدامَّامَّا بن حودِي، ثم إيفَّادْ ـ بعده بزمن ـ ثم عبد الله بن الحاج بن آلَّاذْ.

٦. بنو آخْوَا: حمَّاتَّا بن هَمَنْ ثم حَمَّلِّي (محمد الأمين) بن حسّان بن هَمَنْ ثم محمد الملقب (إيكَمِيسْ) بن حمَّلِّي بن حسان بن هَمَنْ.

٧. بنو أبِّينْ: سيدي محمد المعروف بـ(سِيدِي) بن محمد بن عثمان بن أَبِّينْ، ثم محمد الطاهر المعروف بـ(حمتاهي) بن سِيدي ثم أخوه محمد المصطفى المعروف بـ(إتَّهَا) بن سِيدِي ثم محمد المولود (امَّلُو) بن حمتاهي، ثم عمر بن إتَّها. وهو الذي عليهم الآن.

٨. بنو عثمان: محمد المختار المعروف بـ(حمتّالْ) بن الصادق بن حلَّايْ، ثم محمد بن محمد الصالح (مسّالح) ثم الصِّدِّيق بن الحسن بن حمَتَّا، ثم سيداحمد بن سيدي محمد بن الحسن بن حمتَّا وعبدالله بن حَبَّلَّهْ بن انَقَّا بن ايَّحا. ثم موسى بن إينْ تَبْراهِيم بن انَّقَّا، ثم أبو بكر بن عبد القادر، ثم عبد السلام بن محمد بن مسَّالح. وبعد وفاة عبد السلام ـ رحمه الله ـ جعلوا عليهم ـ فيما بلغني ـ عبد العزيز

ابن محمد بن المحمود بن حبيب الله. فهو عليهم الآن، إن صحّت الرواية.

٩. بنو محمد علي بن أبَّانِينْ: المصطفى بن محمد بن ابَّاحَّا، ثم عبد الله بن محمدأحمد بن امَّهادِي بن محمد الصالح المعروف بـ(إينْتَحْنا) ثم محمد الملقب (بُويْنِي) بن سِيدي محمد بن ابَّاحَّا، ثم عمر بن محمدُنْ بن مَلَايَّا. وهو الذي عليهم الآن.

١٠. بنو حمَّادَا بن أبَّانِينْ: وهم فرعان فرع بين محمد الأمين المعروف بـ(دُوَّادُوَّا) وهؤلاء أول أمرائهم العُرْفيين بعد انقسام الأنصار: حَكُّويَّا بن محمد علي بن دوادوا، ثم الْخَضِر بن محمد الصالح بن محمد المصطفى (حمامُتَّفَا) بن دوادوا، ثم عبد القادر الملقب (بَقَّانِي) بن مِيلَناسْ بن سِيدِي علي بن محمد(سِيداقينا) بن دوادوا، ثم حمَّدَا بن حَمَّيْ بن الحاجْ بن حتَّاهِل بن دوادوا، ثم إبراهيم(ابْرَيْهِماتْ) بن المنير بن أكْحتِي بن سِيدي علي بن محمد بن سِيدَاقِينَا بن دُوَّادُوَّا بن حمَّادَا. وهو عليهم الآن.

١١. والفرع الثاني فرع بني محمد أحمد المعروف بـ(حَنْدَاحَنْدَا) بن محمد المجتبى بن حمّادَا المعروفين بأهل فَرَشْ. وهؤلاء أميرهم الأول بعد التقسيم: ابن امَّلُو بن محمد أحمد بن محمد المجتبى بن حمَّادا، ثم ابنه محمد أحمد المعروف بـ(إيتَلَّيْ) و إبراهيم بن عثمان بن الصالح بن محمدأحمد(حَنْدَاحنْدَا) بن محمد المجتبى بن

حمَّادَا، ثم هايْسْ بن محمد نجل ابن امَّلُو، ثم عبد الرحمن بن محمد بن الصالح بن محمد أحمد (حنْداحَنْدَا)، ثم عبد الصمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصالح. وهو الذي عليهم الآن.

وفي جميع بطون هذه القبيلة يكون الأمير المعتمد أحيانا من فرع واحد ولكن بجانبه من الفرع الآخر مَن يوازيه من جهة الاعتبار التسلسلي لأعيان القبيلة.

وهكذا في كل بيت من بني إنْفا، ولا يتنافى ذلك مع وجود أمير عام للقبيلة، بجميع بطونها وأتباعها وحلفائها، وهو الذي يتبعه الطبل، وكان آخر هؤلاء الأمراء محمد المولود (ألُّودَا) ـ رحمه الله ـ كما تقدم. لأنه آخر من اجتمع أعيان القبيلة على إعطائه الطبل، وتوليه لأمر القبيلة، ثم الطاهر بن المهدي بعده في أيام انقسام القبيلة وضعف أمر الطَّبْل.

وقد يتساءل الإنسان، فيقول إذا كان الأمر كما ذُكر، فكيف تكون الحال إذا اجتمع في موقف واحد عدد من هؤلاء الأمراء مع الناس، أو اتفق وجودهم في شأن من الشؤون؟ فالجواب عن هذا هو أن الأمر متروك للأمير العام على القبيلة إن وُجِد وكان من بينهم، وإلا تُرك لأكبرهم سنًّا وعلمًا، والسبب في ذلك أن هؤلاء القوم كلهم يعتبرون أنفسهم كأبناء رجل واحد، فإذا اجتمعوا في مكان فأكبرهم هو الذي يلي أمرهم، فإن اقتضت الحاجة أن يتولاه غيره بسبب من الأسباب ـ كالعلم مع خصوصية في حسن التدبير والنظر، أوفي المعرفة بما يقتضيه الموقف وتتم به المصلحة ـ فلا أحد ينازع

في ذلك، لأنهم في الحقيقة ليسوا قبائل شتى، ولا عناصر مختلفة، ولا شعوبًا متنوعة الأغراض، بل قضيتهم واحدة، وما منهم من أحد إلا وهو يمثّل الجميع وينوب عنهم على سواء، فإذا جد الجِدُّ، رجع الجميع إلى الأصل والْجَدّ، فيضطلع بأمرهم أسرعهم وأنفعهم فيه، وينهض بعِبْئِهم أكفؤهم للنهوض به، ولم يُنْظر حينَئذٍ إلى كونه من بني فلان ولا بني علّان، ولا إلى كونه أميرًا على هؤلاء ولا على أولئك، وليس لمن قام في الأمر حينئذ أن يقول لأحد لا، ولا أن يحيله بعلى، ولا أن يصرفه بقوله لست من الملا، ولا من بني جَلا، كل هذا النمط مرفوض لدى القوم وممقوت، ومستهجن بالنُّكْر منعوت، ولا يلتفت إلى ما قد يصدر من شاذ ضعيف الفؤاد، أو جاهل غافل وإن كان من السواد، فلا تخلو قاعدة من نادّة، ولا تخلو من شاذة جادّة، بل العبرة بمن تمسك بالأصول، وسار على نهج الأمراء الفحول، من بني الأنصار الأخيار، وأعلام آلِ إنْفا الأقمار، الذين قدمت نعتهم وسيرتهم، كما عُرفت واشتهرت ورُويت عنهم. و«**إلى الله تصير الأمور**».

الفصل الثاني عشر

ذِكْرُ الطَّبْلِ وإمارة الأنصار في أزَوادْ

كان الطَّبْلُ لدي مشايخ وأمراء قريش الموجودين في المنطقة، لأن الطَّبْلَ هو علامة الإمارة ولا يكون إلا لدى أمير القوم الإمارة العامة، على ما جرت عليه العادة، وكان المسلمون متمسكين بأصل سنة الإمارة في الإسلام، وذلك الأصل هو أن يكون الأمير من قريش، هذا هو الأصل المعمول به منذ مجيء الإسلام، وهو الذي يراه مَنْ يُعتد برأيه من علماء المسلمين، وقد استنبطوه من نصوص وأحوال ومقارنات متعددة[1]، ومن ثَمَّ كان أمر القبائل العربية والطارقية والبربرية[2] التي سكنت المنطقة بعد زوال دولة المرابطين معتمداً على هذا الأصل، فكانوا يرجعون في ولايتهم إلى أعيان القرشيين لديهم، وأشهرهم وأكثرهم من ذرية علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فكان الطَّبْل الذي هو رمز «الإمارة» في تقاليدهم لدى الشيخ الشريف الهاشم بن المختار بن آوّا، ثم كان عند بعض أبنائه، ثم انتقل إلى الأنصار

---

(١) انظر الإمامة للآمدي (١٧٩)، والأحكام السلطانية للماوردي (ص٧).

(٢) ثمة خلاف في نسب البربر وصنهاجة الذي يُسمَّوْنَ بالطوارق، وجمهور المؤرخين على أن صنهاجة من حمير، وقيل هم من ولد حام بن نوح، وعزاه ابن خلدون إلى المحققين من نسابة البربر، وذكر أن البربر وصنهاجة شيء واحد. [انظر: «ديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر» لابن خلدون (٦/ ٢٠١) ط. دار الفكر].

بمحمد بن إنفا الأنصاري، ثم ابنه قطب، ثم ابنه محمد إِمَلَّنْ المعروف بِـ(أبَاّنِينْ) ثم ابنه حمَّادَا ثم محمد الأمين المعروف بـ(دُوَّادُوّا) ثم محمد علي بن دوّادوّا، ثم تداوله بعد ذلك مجموعة من هذا البيت في فترة قصيرة، أشهرهم محمد الطاهر المعروف بـ(الفقِّي) وابنه محمد الأمين ومحمد المعروف بـ(إنْغَلالَنْ) وأخوه محمد الأمين (حَمَّلّا). ثم بعد هذه الفترة انتقل **الطبل** إلى الشيخ الأمير المقدام محمد علي المعروف بـ(إنْقُونَّا)، ثم أخيه محمد المولود المعروف بـ(الُّلودا)، ومن عنده انقطع أمر **الطبل** بسبب الاستعمار الفرنسي الذي أسقط إمارة الأنصار الإمارة العامة ظاهراً. وبقيت الإمارة الخاصة المعنوية ممتدة بامتداد أبناء هذه القبيلة إلى أن يشاء الله في تلك البلاد.

وحدثني الشيخ/ محمد هَمّا بن محمد الطاهر حمتاهي الأنصاري ـ رحمه الله ـ أن الأنصار لم يكن لهم في زمن قلتهم وأمنهم أَرَبٌ وأطماع في بناء إمارة بالقوة، وذلك منذ بداية دخولهم المنطقة، فقد كانت المكانة الاجتماعية والعلمية التي يتمتعون بها كافية لهم، ولم يكونوا ممن يريد الملك ويبحث عنه، ولكنهم اضطروا اضطراراً إلى ذلك بعد تكالب الأعداء عليهم، وبعد أن رأوا الخطر قد داهمهم، وكان أمر **الطبل** لا يتجاوز الرمز إلى كبير القوم المسموع الكلمة، الذي ينتدى عنده ويُرجع إليه في الأمور العامة، منذ وجوده عند الهاشميين إلى وصوله إلى الشيخ محمد حمادا بن محمد إملن.

فلما أحس الأنصار بالخطر بسبب أنهم أرادوا إقامة الحق، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم وُجِد في المنطقة من لا ينصاع لذلك بل يعارضه بقوة، فلما رأوا ذلك قام الشيخ الطاهر والشيخ محمد الصالح المعروف بـ(إنتحنا) بن محمد علي بن محمد إملن المعروف بـ(أبانيين) بإحياء أمر(الطبل) والسعي لبسط الإمارة على الصحراء الكبرى كلها لإقامة العدل، وحماية الضعفاء، ودفع القبائل الصائلة التي تنهب الناس وتأكل أموالهم بالقوة أو باسم الدين والعلم.

فقد ذكر لي ـ رحمه الله ـ أن الأنصار وجدوا أخوالهم الهاشميين ومن معهم من قبائل الطوارق والحسانيين الضعيفة تحت قهر جمع من القبائل القوية المطاعَة المستذِلة للناس بقوة السلاح والعلم، وبحجة أنهم أوصياء عليهم وطاعتهم واجبة، يأخذون منهم الإتاوات السنوية، ويتصرفون في أموالهم وديارهم، ويعتدون عليهم، فقال الأنصار لهؤلاء الضعفاء: إن هذا يجب أن ينتهي، فإنه لا يجوز للمسلم أن يستذل مسلما ولا أن يأكل ماله بغير حق، ولا أن يعتدي على عرضه، فقد صحّ عن الرسول ﷺ أنه قال: «كلّ المسلم على المسلم حرام، دمُه ومالُه وعِرْضُه».

فشرعوا في مناظرتهم أولاً، وتلطفوا لهم حتى إذا وجدوهم أشد ما يكونون من العنجهية والصَّلَف والاستبداد والغرور، أظهروا لهم المقاومة المسلحة، وكشفوا لهم عن نيوب الليوث، وذكروا لهم أنهم سيجاهدونهم حتى يقيموا الحق ويكفوا عن الظلم أو يبدونهم عن آخرهم.

وكانت العادة أن يأتي سلطان أولئك القوم في شهر من شهور السنة

ويأمر الناس بجمع الأموال والضرائب، ولا يجرؤ أحد على الاعتراض فضلا عن الامتناع، لأن ذلك السلطان يرى نفسه حاكم الأرض القائم بالشريعة، وأنه بمنزلة الخليفة في الأرض، وأتباعه هم السادة الشرفاء، والأئمة الحكماء، ومن سواهم سوقة همل، ورعية وخدم، فقال الأنصار لأخوالهم الهاشميين ومن معهم من ضعفاء القبائل: إذا جاؤوكم فلا تعطوهم شيئا، ودعونا حتى نناظرهم وننظر في حججهم، فلما جاء سلطانهم واسمه (البَكَّايْ) ونزل أماكن تسمى «**إيسَبِيري وأم الجيران**» تلقاه الشيخ الطاهر بن محمد أحمد بن أبّانِينْ، ومحمدالأمين المعروف بـ(دُوَّادُوَّا) بن حمَّادا بن أبَّانِينْ ومعهما جمع من العلماء وفقهاء الأنصار، فطلبوا منه المناظرة، وأنكروا عليه ما يفعله بالمسلمين، وقالوا له: أنتم إخواننا وأصدقاؤنا، وأنتم أمراء الناس وقضاتهم وأهل العلم والشريعة الإسلامية، وأنتم أهل للتمسك بالحق والعدل، ومع ذلك نرى هذا الذي تفعلونه بهذه الأمم الضعيفة من المسلمين، ونحن نرى أنه لا يجوز لنا السكوت على هذا الباطل، وقال (دُوّادُوّا) لأميرهم: لماذا لا توقف هذا الظلم والعدوان؟ وتأمر بالعدل والإنصاف ومحو الباطل وتمنع الفساد في الأرض؟ وتكف قومك عما يفعلونه من المنكرات؟ أريد أن تجيبني في هذه المسألة جوابا شافيا كافيا، فإني في حرج شديد من هذا الذي تفعلونه، وقد ضقت به ذرعا، لأني عايشته منذ ولدت على هذه الأرض، ومنذ أقمنا هاهنا لم نر شيئا يتغير من هذا المنكر!!

فاستشاط البَكَّايْ غضبًا، وظَنَّ أنهم إنما ينازعونه الإمارة والمشيخة

على القبائل الصحراوية، فقال لهم (البَكَّايْ) إما أن تستكينوا وتخضعوا كسائر القبائل والجماعات أونستبيح بيضتكم وندمركم تدميرًا!! فقال له الشيخ محمد الأمين (دُوَّادُوَّا) الأنصاري: أمَا وقد قلتَ ما قلتَ فخَيْلُنا وخيلكم، وسلاحنا وسلاحكم، ونحن وأنتم!!

وعندئذ أمر البَكَّايْ رجالاته وجُباتَه بالخروج وتَرْكِ الضرائب وجَمْعِ الأموال، وأمرهم بالتهيئة للحرب، وخرج إلى قرى **دِيرَيْ** وما يوازيها في (أريبَنْدَا) وصاح في أتباعه من قبائل البنبارا والفلّان والطوارق وأشتات قبائل السودان وأعراب الصحراء، يستنفرهم ويستحثهم، فاستقبل بهم الأنصار في جيش عظيم، فلم يصبح صباح يوم غدٍ إلا وقد أحاط ذلك الجيش بالأنصار ومَنْ معهم، وكان الأنصار قد أعدوا عدتهم وتهيَّؤوا لملاقاتهم، فتلاحمت الطائفتان، فأظهر الله الأنصار، وكانت لهم الغلبة بإذن الله، فطردوهم وأخرجوهم من مدن: فَرَشْ، ورَأْس الماء، وبَنْكورْ.

فأخذ الأنصار **الطَّبْل** وقرعوه في الصحراء، واجتمع إليهم من أطاعهم من القبائل العربية والطارقية، ولاسيما القبائل المتضررة بسبب ضعفها وقلة عددها، والأنصار آنذاك قلة ولكنهم كثير بأتباعهم ومواليهم وطلابهم وحلفائهم، ومن أشهر هؤلاء الحلفاء: كَلْ أَغَزَّافْ (الغزّافِيِّين)، وكَلْ إِينْ جارَّنْ (أبناء أُمَغْيانْ)، وكَلْ إنْتجايِتْ، وكَلْ تجْبسْتْ، وكَلْ تِينْ تَهُونْ، وكَلْ الْحُرْمَهْ، وكَلْ إِينُوكنْدَرْ، وكَلْ وَرُوزِيرْ، وإِيمَقَّشَرَنْ، وكَلْ إينَقُّوزْمِي، وكَلْ تِينْ بُوكْرِي، وكَلْ إينْ تُوْلَكْ، وإِيدَكَاكَمَنْ، وَإِيجِلَّادْ .... وغيرهم من حلفاء

الأنصار ممن يُسمَّون بالكَلْكَلِيين، أو: أهل كَلْكَلْ، أي: المبدوءة أسماؤهم بلفظة(كَلْ)، هكذا يسميهم الأنصار، و الأصل في هذه القبائل والجماعات أنها من أصول عربية، وأكثرها من قريش من ذرية علي بن أبي طالب ﷺ إلا قليلا منهم ممن كان من أصول طارقية صنهاجية كَإِيمقشَرَنْ، فكوَّنوا قوة بإمارة الأنصار، فقيل لهم جميعا: (كلْ إِنْصَرْ)، وبدأ الناس يتنفسون الصعداء في تلك البلاد، وتحرروا من الاضطهاد الذي كان قد ركبهم.

ثم استمرت الحروب إلى أن بسط الأنصار إمارتهم على صحراء أزواد لا يعارضهم فيها أحد ـ وسيأتي قريباً بيان حدود بلادهم - ولكن يجب على القارئ أن يعلم أن غاية هذه القبيلة هي إقامة العدل وبسط الأمن وإسكان الفتن، وليس غرضها تملّك رقاب الناس واستذلالهم، ولا منعهم وطردهم، و لأجل هذا تركوا جميع من في المنطقة في بلدانهم وديارهم، وعلى آبارهم ومسارحهم، ولم يطردوا أحداً سوى من سبق ذكرهم من المناوئين، ولم يتعرضوا لمن سالمهم من الناس، لذلك ستجد في داخل حدود بلاد الأنصار في أزواد مناطق تملكها قبائل أخرى، وآباراً يملكها غير الأنصار، وقرى يسكنها غير الأنصار ويملكونها، بل إن قبيلة كنتة ومن ناصرها وتعاطف معها من البرابيش أو الطوارق أو السودان ضد الأنصار، قد أظهر الله عليهم الأنصار، وتمكنت الأنصار من طردهم إلى خارج البلاد الأزوادية ومن استئصالهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل اكتفوا بكفهم ومنعهم من التعدي، وتركوهم في مسارحهم وآبارهم يجاورونهم ويكرمونهم ويشتركون معهم في

سائر شؤون الحياة، ويتبادلون معهم الاحترام والتقدير والتكريم.

وقد ذكر لي الشيخ هَمَّا ـ رحمه الله ـ الذي يروي لي هذه الأخبار أن في قبيلة كنتة علماء مذكورين بالصلاح، وأن الأنصار يحبونهم ويقدرونهم، ويستفيدون من علمهم، كمثل السيخ سيدي المختار، والشيخ بايَّا الكنتي، ونحوهما. ومعي فوائد مدونة وفتاوى ورسائل للشيخ بايّا الكنتي هذا ووصايا له، تدل على ذلك، وهي مما زوَّدني به شيخي هَمَّا ـ رحمه الله ـ، وكان الأنصار يكتبون كتب شيوخ كنتة وحلفائهم من بني سِيدي عالى بن النجيب ويعتبرونهم جزءا منهم، ولا يفرقون بين العلماء وطلبة العلم، ولا بين الأمراء والأعيان، على ما كان بين القوم من مكدِّرات كدَّرت عليهم صفو التعايش.

ومما يُستدل به على الوضع المذكور الذي بسببه قامت هذه الحرب الوثيقة الآتية التي عثرنا عليها، وهي رسالة للقاضي محمد حمّادا بن محمد بن قطب الأنصاري إلى الشيخ محمد بن سيد أحمد بن آدَّا الأرواني، يقول له فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد/ فإلى محمد بن أحمد بن آدَّا بالسلام والتحية والإكرام الشامل، ومن تعلق به من الأهل والجيران، والإخوة والصبيان، حتى العبيد، قائلا له: سبب الكتاب إليك إعلامك ـ علمك الله فعل الخير، ووقاك كل ضير ـ أنني أوكدت عليك توكيدًا يعم جميع طاقتك ووسعك، بأن تأخذ بسبب ما أنت فيه من البئر المسماة بـ(المعمور) والمسماة بـ(إِينْ إبراهيم) و(تِينْ تَمَغِيِينْ) وما كان منها من جهة المشرق والجنوب والشمال والغرب، إلى بئرك التي كنت

مقيما في أرضها، وكل بئر عليها من يَسِمُ هكذا (N) ولو على غير الساق، ولو مع غيره من العلامات، إذ أقصى بلادنا المسكونة بسببنا في هذه التكرور [(١)] ديار تجانَتْ في جهة المشرق، ما سكنها ساكنوها حتى جمعوا علامتهم إلى علامتنا المعروفة، على آذان الحمير، وعلى ظهور البقر، حتى تمكنوا من التمسكن، ثم بعد ذلك نسونا حتى كأنهم أصل إقامتهم فيها، وآبار (المبروك) ما سكنها ساكنوها وما بنوا أبياتهم حتى قبلوا على ذلك الغرامة وهي حمل بعير لباساً، وحمل بعير طابة، وعـ.....[(٢)]سراويلات، وبعير كل سنة[(٣)].

ثم بعد ذلك نسوا ذلك، من الآبار كـ(هَلُولْ وإينَفِيسْ) وآبار أزَوادْ إلى آبار (أقْ آغِياسَنْ)[(٤)]، فأداهم ذاك النسيان إلى الدعاوى الباطلة، هم وأمثالهم، حتى ادعوا ما ليس لهم دليل ولا طريق إلى ادعائه، وهو صفات الله تبارك وتعالى، إذ من صفاته أنه يفعل في المخلوق ما يشاء، ويمنع لغيره من المخلوقين أن يدعوا مال المخلوقين مما ليس لهم. وصاروا إلى هذه الحالة، إذ أخذوا رقاب الناس وأراضيهم وأموالهم، وجميع أحكامهم فيما ولاهم الله أمره، وأمّنهم فيه، وصرفوا ذلك إلى أنفسهم بلا أدنى سبب من

---

(١) بلاد التكرور هي بلاد أزَواد، وهي الشمال الغربي من إفريقيا.

(٢) لم تتبين لنا هذه الكلمة من المخطوط، وكأنها (عدله).

(٣) يريد أنهم أسكنوهم تلك الآبار وتركوهم يستقون منها تحت حمايتهم مقابل ما ذكره من الأجرة التي سماها (الغرامة).

(٤) الآبار المذكورة هنا هي التي سبق ذكرها و أن الشيخ محمد بن إنفا قد حفرها في الصحراء.

أسباب الملك، وهي: الهبة، والصدقة، والميراث، والشراء، ما وُهِبوا ولا تُصُدِّق لهم بشيء، ولا اشتروا، ولا ورثوا، فبأي حكم أخذوا إلا الادعاء المذكور لصفات الله الفاعل في خلقه ما يشاء؟ وهو عدل غير ظالم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ولما انهمكوا في هذه الصفات، استنكفوا واستكبروا عن تسميتهم ظالمين، مع أنهم لم يطيقوا القيام على الناس ولو أنفسهم، ولو يوماً. فالآن انظر فيما تخرج عن هذا، فإن رجعوا بك إلى أحكام الشرع فعلى محاجيجهم، وإن رجعوا بك إلى التعصب والحمية، فتلك إلى السلاطين والمتولِّين أمور الناس، فأنت أولى بهم. والسلام من محمد حمّادا بن محمد بن قطب.(هذا نقل صحيح)» انتهت الوثيقة، وهي تدل على استحكام إمارة الأنصار على تلك المنطقة، وأنهم أقاموا فيها بنصرة القبائل المستضعفة، وعمروها بالآبار والعلم الشرعي، وتصور جزءًا مما كانت عليه تلك القبائل التي كانت تستذل غيرها، وتتصرف فيهم بغير حق، كما تدل على أن الأنصار كانت لهم الأسبقية في حفر الآبار في تلك الصحراء، وأن الذين يدَّعون امتلاكها كانوا في الأصل مستأجرين لها من الأنصار، مقابل غرامة يدفعونها، ثم بعد ذلك ادعوا ملكها .

وربما وجد بعضهم كتابة منقوشة على بعض الصخور لأجدادهم في تلك الآبار أو في جوانبها، فيزعم أن ذلك أمارة على ملكية أجداده لتلك البئر، ولم يدر أن مثل هذا يقال في آبار لا يُعرف أصحابها، أو متنازع فيها، ولا يقال في آبار معروف أصحابها، و معروف تاريخ الظروف التي مرت بها

ومناسبة تلك الكتابات وغيرها من الآثار، ولم يَدْرِ هؤلاء أن أتباع الأنصار وحلفاءهم ومواليهم كتبوا أسماءهم على آبار الأنصار وانتسبوا إليها وأضافوا وَسْم الأنصار إلى أوسامهم على حيواناتهم، لأجل حماية أنفسهم بحمى الأنصار، ولأجل دخولهم في استحقاق ورود آبار الأنصار والاختصاص بها دون غيرهم من قبائل المنطقة المعادية أو المنافسة أو المنازعة، وأباح لهم الأنصار ذلك لأجل هذا الغرض، لا لأجل التملك والاستقلال. وهذه قاعدة عامة معروفة، قد جهلها كثير من أبناء سلالات أتباع الأنصار في تلك المنطقة.

ولمزيد من التمثيل والتدليل على الأوضاع الكائنة في تلك المنطقة عندما بسط عليها الأنصار إمارتهم، وعمروها بالآبار والعلم، ونصروا فيها الضعفاء، فأنصفوهم من الظلمة الأقوياء، وقهروا الأعداء، سأورد وثيقة أخرى بعث بها الشيخ الأمير محمد الطاهر بن محمد أحمد بن محمد(إيمَلَّنْ) بن محمد قطب إلى بعض حلفائهم من العلويين المعروفين بـ(كَلْ إينْ تِشْغِينْ) حين تضرر هؤلاء الحلفاء من حلفاء كنتة من أهل سِيدِي عالي، فكتبوا بذلك إلى الأنصار، فكتب إليهم محمد الطاهر ما يلي:

«الحمد لله وحده، ولا يدوم إلا ملكُه، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد: فمن عند محمد الطاهر بن محمداحمد بن محمد بن محمد قطب وغيره من أهل بيته من أهل الحِل والعقد، إلى أخيهم دينًا ونسبًا محمد الملقب بـ(إنْ تكُيَا) بن ادْبَلِي[1]، مسلِّمين عليه، وقائلين له: احفر الآبار في كل موقع

(١) محمد الملقب بـ(إينْ تَكُيَا) من قبيلة (كَلْ إينْ تِشْغِينْ) من حلفاء الأنصار من العلويين،

أردت، لا يضيق على وارد من عامل وغيره، ووسّع لنا الماء، ولكل مسلم في حوزتنا، بقدر مقدورك، من هَلُلْ وقرية المامو إلى بئر أكْ آغِيَسَنْ(١)، ولا تخَفْ لومةَ لائمٍ في ذلك، فإن عارضك أحدٌ فنحنُ له، من كل صائل يريد الشحناء، أو يزعم أو يدعي الملكيةَ. والسلام، والكاتب محمد الهادي بن محمد بن محمد بن محمد قطب المذكور بأمر شيخه محمد الطاهر المذكور».

انتهت الوثيقة.

ولدينا مجموعة أخرى من الوثائق المثبتة لما ذكرناه، ولكن نقتصر على

وأخوالهم من الأنصار، ولذلك أشار الشيخ إلى أخوتهم لهم نسباً، والمناسبة أن أبناء عمهم من قبيلة تِينْ أكْ الهاجْ (الحاج) وهم من ذرية أحمد بن آدّا، منعوهم من حفر البئر في منطقتهم شمال شرق تنبتكو بحوالي سبعين كيلو مترًا تقريبا، فشكا محمد إينْ تكُيا وهو زعيم قومه إلى حلفائه الأنصار، لأن قبيلة تينْ آك الحاج. وهم أهل سيدي عالي. من حلفاء كنتة، مع أنهم في مناطق الأنصار، وبين آبائهم والأنصار حلف قديم وتبادل معهود للاحترام والتقدير، بسبب جدهم سِيدي عالي رحمه الله. ولكنهم لما حالفوا كنتة تركهم الأنصار ولم يتعرضوا لهم في بلادهم، مع كون كنتة حربا على الأنصار. ومما يعجب له المرء أن جد الأنصار وجد كنتة وجد أهل سيدي عالي كلهم كانوا في منطقة (أَرَوان) من تلاميذ العلامة أحمد بن آدّا العلوي القرشي رحمه الله، ومع ذلك انقسمت ذرياتهم وصار بينهم من التنافر ما أدى إلى التقاتل!! وانقسمت ذرية أحمد بن آدّا إلى فريقين فريق حليف للأنصار، وآخر حليف للكنتيين. اللهم اغفر لهم جميعًا.

(١) الآبار المذكورة هنا من قديم آبار الأنصار، وهي من الآبار التي حفرها الشيخ محمد بن إنْفا الأنصاري ـ رحمه الله ـ: وهلُول أولها شرقا، وآك آغيسنْ آخرها غربا، و(ألمامو) كان قرية بنيت على البئر، ثم انقرضت تلك القرية ولم يبق سوى البئر التي فيها. وانظر تفصيلها في الفصل الخاص بالآبار.

هذا خشية الإطالة، لأن منهجنا هنا الإيجاز، دون إلغاز ولا إعجاز، ذلك أنَّا أردنا التعريف بالقوم، وبيان أمرهم، وتأسيس قاعدة يبني عليها من أراد التعريف بهم والكتابة عنهم، لأنا رأينا الأصوات قد عَلتْ، والأقوال قد كثُرتْ، والخلافات قد نجمت، ثم لما سبرنا الأسباب، وجدناها تعود إلى جهل القوم بحقائق هذه القبيلة، وغياب تفاصيل الظروف التي عاشتها عنهم، وكل من كتب عنهم إما صحفيون يكتبون ما هبَّ ودبَّ، مما يُقال ويُكَبّ، بدون أي دليل ولا سند، ولا علم ولا أدب، وإما منافسون يريدون نيل قصب السبق، في إظهار أنفسهم والتعريف بأقلامهم، من غير مراجعة ولا مناقشة، ولا توثيق ولا مفاتشة، ولا تدقيق ولا موافَقة!

الفصل الثالث عشر

مناسبة انتقال «الطَّبْل» إلى دُوَّادُوَّا

وحدثني الشيخ محمد همّ بن محمد الطاهر حمتاهي ـ رحمه الله ـ الذي توفيّ في أثناء إخراجي لهذا الكتاب وكنت أخذت منه كثيرا من أخبار هذه الأسرة وتاريخها منذ عشرين سنة ـ قال إن الشيخ الأمير الطاهر بن محمد أحمد بن محمد إملن والشيخ محمد الصالح المعروف بـ(إنْتَحْنَا) بن محمد علي بن محمد إمَلَّنْ المعروف بـ(أبانين) رحمهما الله بعد أن مضى زمن **والطبل** معهما هم وإخوانهم من أبناء الشيخ محمد إمَلَّنْ المعروف بـ(أبانين) حدثت حادثة انتقل **الطبل** بسببها إلى الأمير البطل الشيخ (دوّادوّا) وهو محمد الأمين بن حمَّادَا بن محمد إمَلَّنْ الذي قاد بداية هذه الحروب، وتلك الحادثة هي أنهم لَمَّا أرادوا إقامة الحدود وبسط الحق وتحكيم الشريعة الإسلامية في المنطقة، حدث من بعض فقهائهم فتوى اجتهادية قد بالغ فيها بشأن حادثة أفتى فيها بالتعزير.

ذلك أن شاباً من أبناء محمد المعروف بـ(حاكِدُو) بن الشيخ عبد الله المعروف بـ(الحاج بلَّهْ) بن قطب الأنصاري، قد تغزل بامرأة من ذرية محمد إملن المعروف بـ(أبانين) وكان أبناء حاكِدو يسكنون مع أبناء أبَّانِينْ في نواحِي (قُنْدام)، فلما علموا بما فعله ذلك الشاب استفتوا فيه أحد فقهائهم، فأفتاهم ذلك الفقيه وكان من أعيان أمراء أبناء أبانين ـ ولم يذكر لي الشيخ هَمَّا اسمه ـ

بأن يأخذوا الشاب المذكور ويربطوه في الشمس ويتركوه، ففعلوا ذلك، حتى مات، وكان شيخ الأنصار وكبيرهم آنذاك هو الشيخ عثمان بن الحاج بلَّهْ، لأنه أصغر أبناء الحاج بلَّهْ وقد ولد بعد وفاة أبيه، فعاش في زمن أبناء إخوانه وأحفادهم، فكان هو شيخهم وكبيرهم، وإليه يرجعون في شؤونهم المهمة.

فلما أُخبر الشيخ عثمان بن الحاج بله ـ رحمه الله ـ بما كان من أمر الشاب الذي مات من أبناء أخيه محمد (حاكِدو) غضب غضباً شديداً، وقال: إن هؤلاء زعموا أنهم يقيمون الحق ويحكمون الشرع، وهذا عين الجهل بالحق، والتعزير لا يصل إلى القتل، إلا في حالات مستثناة...، ونحو هذا الكلام، هذا معنى كلامه الذي ذكره لي الشيخ همّا. ثم أخذ يهددهم ويقول: سيعلمون أني لن أكون لهم الطعمة التي يجرّبون عليها الفتاوى الباطلة، هذا معنى ما ذكره لي همّا ـ رحمه الله ـ.

ثم أرسل ابن أخيه، وهو عثمان بن محمد الأمين(أبِّينْ)، وأمه بنت محمد علي بن محمد إمَلّن، وقال له اذهب إلى إخوانك وائتني **بالطبل**، فركب عثمان جواده، وكان رجلاً فارساً شجاعاً قوياً مهاباً، حتى وصل إلى حيّ أبناء أبَّانِينْ ـ وهم أخواله وأبناء عمه ـ، وهو يؤم الخيمة التي عُلِّقَ فيها **الطبل**، وهي خيمة كبيرة، وتسمى خيمة الإمارة، وفيها **الطبل** معلقاً على أعمدة معترضة في وسطها، فلما رأوه مشمراً مقبلاً جادّاً لا يلتفت ولا يلوي على أحد، عرفوا قصده ومراده، وكان قد بلغهم تهديد عمهم عثمان بن الحاج بله لهم من قبل، فتحاشوا ملاقاته ومعارضته.

فاندفع الفارس بجواده إلى داخل الخيمة وكان رجلاً طُوالاً، وجواده فارعٌ مُشْرِفٌ، فلما أراد دخول الخيمة اعترضه طرفها وقد عَلَتْها هامته، فأخرج سيفه فشق به الخيمة لئلا يلزمه أن يطأطئ رأسه، فتقدم حتى وصل إلى **الطبل** في وسط الخيمة فنزعه وحمله بيده وعاد أدراجه، ولم يكلم أحداً ولم يكلمه.

قال الشيخ همّا ـ رحمه الله ـ فمكث **الطبل** زمناً عند الشيخ عثمان بن الحاج بله، ثم أمر بقرعه حتى اجتمع الناس، الأنصار ومن معهم، فقام فسلّمه للأمير محمد الأمين الملقب (دُوّادُوا) وأمّره على الناس، وقال: لتعلموا أن **الطبل** لي وأنا أعطيه من أشاء من أبنائي، قال الشيخ هَمَّا: وإنما اختار الشيخ عثمان (دوادوَّا) ولم يُعِد **الطبل** للطاهر ولا لإنْتَحْنا عقاباً لهما على تلك الحادثة، ولكَوْنِ (دوادوَّا) قد اجتمعت فيه الشروط المؤهلة له أن يكون أميرا، لشجاعته وعقليته وكفاءته في تدبير الأمور، فكانت هذه الحادثة سبب انتقال **الطبل** من أبناء محمد أحمد إلى أبناء حمَّادَا.

قال: وفي هذه الأثناء بدأت الحرب الكلامية بين الأنصار ومناوئيهم، وجعل البَكَّايْ - شيخ كنتة - يهجو الأنصار ويسميهم بني جالوت، يريد بذلك الزعْم أن الأنصار من الطوارق، ومما قيل في نسب الطوارق أنهم من البربر وأنهم من الكنعانيين[1] ـ من بني جالوت الذي قتله داود عليه السلام كما جاء في القرآن، فأجلى قومه حتى بلغوا أقاصي إفريقيا ـ وجعل الشيخ الطاهر يردّ

---

(١)) وكل هذا زعم وباطل، انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٤٩٥). وصحراء الملثمين للدكتور الناني ولد الحسين (٧٦)، وما بعدها.

عليه وينقض قصائده، ومن ردوده على تسميته للأنصار ببني جالوت قصيدة يقول فيها:

ونحن بنو الوِلْدانِ لَمْتونُ جدُّنا تواتَرَتْ عَنّا الأنصَرِيّة من قبلُ
ولَيْسَ عدوُّ اللهِ جالوتُ جَدَّنَا ولكِنْ أبو بَكْرٍ لنا الجدُّ والأصلُ

وتقدم عند مناقشة نسب بني إنفا التعريف بهذه الأسماء: الولدان ـ لمتون ـ أبوبكر.. وغيرها من أعلام هذه الأسرة الأنصارية.

ثم أخذ أحمد بابا تلميذ البكايْ سلاح الشعر عن شيخه البكايْ، فعارضه الشيخ محمد همّا بن الطاهر، ونقض كل ما قاله وأفحمه[1].

وبعد تأمير الأمير محمد الأمين (دُوَّادُوَّا) وتسلّمه **للطبل** بدأت الحروب الفعلية وبدأ الدفاع بالقوة، وجعل الأنصار يبسطون إمارتهم على الصحراء،

(١) وتلك المساجلات والنقائض التي كانت بين الأنصار وكنتة قد جمعها بعض المعاصرين ونشرها في كتاب، فلا أجد داعيا لإعادة نشرها هنا، ونحن إنما نذكر هذه الحوادث وتلك النزاعات لأنها أصبحت تاريخا يُروى، وهي مع ذلك منتشرة ومعلومة، وتُعد جزءا من الحوادث التي كانت بين المسلمين واستمرت منذ مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ولم تنقطع إلى يومنا هذا، ولم يزل الناس يروونها ويذكرونها ويحللونها، ويستنبطون منها الدروس والعبر، مع تألم وتأسف كل مسلم واع صادق الإيمان على ما جرى فيها من سفك الدماء وانتهاك الحرمات، وغير ذلك مما جره الخلاف بين المسلمين، مما أدى إلى ضعفهم واستخفاف عدوهم بهم، نسأل الله أن يغفر للمظلوم منهم بسبب ما وقع عليه من الظلم، وللظالم منهم بسبب ما ناله من ظلمه، وما وقع عليه من جهله، بفضل تمسكهم بشهادة أن «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

ويحاربون كل من حاربهم من البرابيش والفلان والبمبارا والكنتة ومشضوف، وغيرهم، كما مرّ.

حدثني بهذا كله الشيخ همّا، وهو: محمد بن محمد الطاهر بن سيدي محمد بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين (أبّين) بن عبد الله (الحاج بلَّهْ) بن محمد (قطب) الأنصاري[1]، وحدثني أنه أخذ هذه الأخبار عن أناس كثيرين من أهمهم أبوه عن جده، وخاله حَتَّاهِلْ بن حود، وهو راوية حافظ للأخبار، وخاله وشيخه محمد المختار بن حود، والطاهر بن طَيْفورْ، وعثمان بن محمد(إنغَلالَنْ)، وإينَدِّرْفِي بن حَمَّدَا، وآخرون غيرهم.

(١) انظر ترجمته وافية في (ص ٤٠٥).

الفصل الرابع عشر

انتقال طَبْل الإمارة إلى الأمير محمد علي «إِينَقُونَّا» ـ رحمه الله ـ

وبعد وفاة الشيخ الأمير محمد الأمين دُوَّادُوَّا انتقل (الطَّبْل) الذي هو رمز الإمارة إلى بعض أبناء عمه، من أبناء حمّادا، وتداوله اثنان أو ثلاثة منهم: أشهرهم ابنه محمد علي، ثم العلّامة محمد المولود حَوَالَنْ بن محمد أحمد بن حمّادَا، وابنه محمد (إِينْ غَلَالَنْ) في فترة قصيرة، ثم وقع اختيار الأنصار على الشيخ الهمام المجاهد المغوار محمد علي المشهور بـ(إينْقونَّا) بن محمد أحمد بن حَوَالَنْ بن محمد أحمد بن حمّادَا، فتولى الدفاع عن ديار الأنصار، وإخضاع القبائل التي تحاربهم، وتمسك بوصية آبائه وأجداده وأمراء هذه القبيلة، وهي أنهم لا يقاتلون إلا من قاتَلهم من المسلمين، أو لأخذ الثأر ممن غدر بهم واعتدى.

ووقع في عصره كثير من الوقائع والحروب، وفي عهده قويت سلطة الأنصار، وبلغت أقصى عزتها، واستأمنوا البلاد، وطردوا السباع والعوادي، وجعلوا الصحراء مأمنا لا يخشى فيها أحد إلا الذئب على غنمه، واشترك الناس في الآبار والشواطئ وموارد المياه، والمسارح، لا فرق بين أبيض وأسود، ولا بين عربي وعجمي، وقامت النهضة العلمية، وكثرت المدارس في تَجَانْتْ وأروان وأَغَبُوبْ وأطراف شنقيط، ولم يكن أحدٌ ينازع الأنصار في

تلك المنطقة لا من الطوارق ولا من البرابيش والكنتة والشناقطة والسودان.

وقال لي الشيخ محمد المعروف بـ(إينْتَحَمَّدِينْ) بن المنذر بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين (أبِّينْ) بن العلامة عبد الله الحاج بلَّهْ الأنصاري: «**إن الأنصار ملكوا تلك البلاد بعد انحسار حكم الدولة السعدية المغربية، واستمر ذلك حتى جاء الاستعمار الفرنسي والأنصار هم سلاطين تنبكتو، وقد استقرت حدود بلاد الأنصار عقب غزوة الأنصار التي ردوا فيها على عدوان كنتة في تمتغيين**».

وهكذا استمر الوضع إلى مجيء الاحتلال الفرنسي، فزلزلت البلاد من جديد، وقُتِل الشيخ المجاهد محمد علي إينْقُونَّا الأنصاري على أيدي الفرنسيين، فكان ذلك شرفًا له، غفر الله له وأسكنه فسيح جنانه.

قال: لي الشيخ هَمَّا، إن الشيخ الأمير محمد علي إينْقُونَّا نازل الفرنسيين وغلبهم في عدة معارك، ثم إن كثيرا من أنصاره قد خانوه واصطلحوا مع الفرنسيين سرًّا، فانتقل إلى إخوانه شرق بلاد تمبتكو، واستقبله الأمير سيدي محمد بن محمد بن عثمان بن أَبِّينْ، استقبالا عظيمًا، وبالغ في إكرامه ـ وهو أهل لذلك ـ وأهدى له جمَلا بعيرًا متميزًا عليه جميع عُدة الرحل المعتادة، وأشياء أخرى، قال: ، فطلب منه الشيخ إنقونا أن يتنازل له عن الإمارة، فأبى سيدي، وقال: إينْقونَّا، ما رأيت أميرًا في بلادنا أعظم من هذا الرجل! وكان سِيدِي ـ رحمه الله ـ أميرًا يفعل أفعال كبار الأمراء.

وقد كان إِينْقونَّا يعرف سِيدِي من قبلُ ويعرفُ مكانته، وقد حدثت من

قبل حادثة بينهما زادت من تلك المعرفة، ذلك أنهم في أثناء رجوعهم من غزوة تِمْتَغِينْ وفي أثناء نزولهم في منزل على بعض الآبار، حصل من بعض مرافقيهم أمر أغضب إينْقونَّا غضبا شديدًا، فجعل يتهدَّد ويتوعد، حتى اشتد ذلك على بعض من كانوا معهم، وكان إينْقونَّا ـ رحمه الله ـ رجلا شديدًا أعطاه الله بسطة في الجسم، وكان من الأقوياء والشجعان الذين تهابهم الأبطال، مع كونه ملكاً مهابًا، فلما رآه سِيدِي ـ رحمه الله ـ في هذه الحال، شديد الغضب يتحرك ذاهبا وجائيا في موضعه، وقد امتلأت النفوس خوفًا منه وتهيابًا، أمر أحد رجاله الأبطال الأقوياء وهو خاله محمد الأمين المعروف بـ(إينْ سَبَّا) بن محمد إكْنَنْ الْمَقَّشَريّ أنْ يعمد إلى إينْقونَّا فيلتف خلفه فيمسك به ويثبّته حتى لا يستطيع الحراك، فأدار خلفه وأمسك بعضديه وصدره وضمه إلى نفسه، فانتفض إينْقونَّا كأنه السبُع الضاري، فوجد نفسه كأنما وثّق بالحديد من شدة مِسكَةِ الرجل به! فقال في غضب وتعَجُّب: مَنْ ذا الذي يمسِكُ بي؟!! فرفع سِيدِي صوته قائلاً له: أنَا الماسك بك! قال الراوي: فعندئذ بَرَدَ إينْقونَّا، وقال: نَعمْ إذَنْ، فأمر سيدي إينْ سبَّا أن يرسله، فأرسله، فانطفأت جمرة غضبه، وضحكوا كلهم مما حدث، وجعل إينْقونَّا ـ رحمه الله ـ يقول لسيدي: إنَّ الفتى الذي أمسك بي لجدير بالمكافأة والتمييز!

وكان إينقونّا ـ رحمه الله ـ متواضعًا ليّنًا على حدته وقوته، صاحبَ خُلق كريمٍ سمحًا، مع صلاح وتقوى، وقد كان رجال الأنصار ـ كما ترى من هذه الحادثة وغيرها ـ يقدر بعضهم بعضًا، ويسدون كل ذريعة قد تؤدّي إلى الشقاق

والنزاع، متحابين متآلفين، إخوةً كالجسد الواحد، قد امتلأ كل واحد منهم حَدَبًا وشفقةً على أخيه، لا تمييز بينهم ولا تفريق، يوثر بعضهم بعضًا، ويتنافسون في الفضائل ومعالي الأمور، وصنائع المعروف، ويطيع صغيرُهم كبيرَهم ويقدره ويحترمه، ويعرفون حقوق العالم والشيخ والأمير، والضعيف والغريب، فيعطى كل ذي حق حقه، وبهذا كَوَّنوا أنفسهم وبنَوْا إمارتهم، فنظر إليهم الناس بعين الاحترام والتقدير، وهابوهم وأحبوهم، وآووا إليهم.

قال الشيخ همَّا ـ رحمه الله ـ: ثم مكث الشيخ الأمير إنقونًّا زمنا يجهز لملاقاة الفرنسيين، ثم أراد أن يزور دياره وأوضاع بلاده في الغرب، فاصطحب معه مجموعة من الأعيان، عدَّد لي هَمَّا بعضهم وهم عشرة، ومنهم الأمير سِيدي المذكور، قال: فبينما هم نازلون تحت شجرة كبيرة في مزرعة قد طال عشبها مع كثافة، إذا هم براكب معه رسالةٌ من الفرنسيين إلى إنقونًّا يطلبون منه الاستسلام، فقام ـ رحمه الله ـ وقال: أصلح الله الحال، هذا استعباد!! فوثب على جواده، وكانوا قد كمنوا له كمينا من بعيد، فما أنْ وثب على جواده حتى أطلقوا عليه الرصاص، فخر صريعًا من على جواده، ـ رحمه الله ـ، قال همَّا: قال لي: والدي: فتراجعنا واسترجعنا، وجعلنا نجهز جنازته، حتى وارَيناه الأرض، ثم رجعنا، وكان ذلك في عام ١٣١٥هـ.

الفصل الخامس عشر

الإمارة بعد محمد علي (إينَقُونًا) ـ رحمه الله ـ

لمّا قتل الأمير المجاهد محمد علي إنقونا سنة ١٣١٥هـ وأُخِذ ابنه محمد أسيراً، وقع الخلاف بين الأنصار فيمن يأخذ **الطبل**، فقام الشيخ إبراهيم بن محمد الأمين (حلَّايْ) بن عثمان بن الحاج بله وجمع أعيان الأنصار، ثم أمر **بالطبل** فقُرِعَ للتجميع العام، وأخذ الناس يتجمعون **والطبل** يجلجل ويدندنُ صداه في نواحي البلاد، من الصبح إلى صلاة الظهر، فقام الشيخ إبراهيم ـ رحمه الله ـ فقال لهم: أتدرون ماذا يقول **الطبل**؟ فضحكوا منه، وقالوا له: لا يقول شيئاً إلا الصوت الذي يخرج منه. فقال لهم إنه يقول: الأمير محمد المولود (الُّلودَا) ـ وهو أخو الأمير محمدعلي إينقونّا ـ ولم يعترض عليه أحد، قال لي محمد هَمَّا وكان فلان وفلان ـ أشخاص سمّاهم لي ـ معترضين على ذلك خِفْيَةً من غير إظهار، لأن كل واحد منهم كان يطمع في أن يصير الأمر إليه، ولكن لم يجرؤ أحد على اعتراض كلام الشيخ إبراهيم، لأمور: منها أنه كبير القوم وشيخهم وعمهم، وقد جاء لهذا الأمر ومعه قرابة عشرين رجلاً من الأقوياء والأعيان، وهم طوع أمره وإشارته، ومنها أنه يمثل أبناء الحاج بلَّه، وهو أكبر من أبَّانِينْ، فلأبنائه حق الأكبرية والأولية في تدبير الأمور والأخذ بأزمتها، بحسب ما جرى عليه العرف عند هذه القبيلة، فحيث حصل الخلاف فيمن يتولى أمر **الطبل** فلهم الأحقية في

أخذه وإعطائه لمن يستحقه منعاً للنزاع وجمعاً للكلمة. كما فعل جده عثمان بن الحاج بلَّه فيما سبق.

ولم يكن الأنصار يفرقون بينهم، فلا يجد أبناء الحاج بلَّهْ ولا أبناء امْدايّا[1] ولا أبناء أبَّانِينْ غضاضة في أن يحمل (الطَّبل) أحد من أبناء أعمامهم، ولا أنْ يتأمر عليهم، ولم يكن الأمير منهم ولا شيخهم إلا كأحدهم، دون أيِّ تفريق ولا تدافع، وقد كان أكثرهم من العبَّاد والزهَّاد الذين يتحاشون المناصب، ويشكرون من يتولى منهم هذا المنصب ويدعون له، لأنه تحمَّل عنهم مالا يريد أحد منهم أن يصير إليه، تورُّعًا وزهادَةً، ولم يكن الشيخ عثمان بن الحاج بلَّه ولا أحد من إخوانه وأبنائهم يتمنى أن يصير إليه الطبل لهذا السبب، وقد كانوا يرون حمله مشقة وتكليفًا لا تشريفا وتفضيلا، هكذا كان القوم، وهكذا بَلَغَنا عنهم، وقد حدثني بهذا غير واحد من المشايخ.

والعادة المتبعة عند تعيين الأمير العام أن يُعَين معه شخص وظيفته تولي الأمور التي تحتاج إلى قوة اليد أو السلاح، وهو المعروف في عصرنا بوزير الدفاع. ويعين معه قاضٍ يتولى الفصل في الخصومات ونحوها.

فلما تم تعيين الأمير اللّودَا قال الشيخ إبراهيم: والدفاع والحماية يتولاه فلان ـ سماه لي الشيخ همّا ولكني نسيته وضاعت مني الأوراق التي سجلته

---

(١) تنبيه: جميع الكلمات المبدوءة بحرف ساكن، تنطق في لهجة هذه القبيلة بهمزة وصل قبل الحرف الساكن، وتلك الهمزة مختلسة الحركة، غير محركة بحركة معينة بل هي مُشَمَّة فتحًا وليست مفتوحة فتحًا كاملاً، ويخطأ من يكتبها همزة قطع مفتوحة، نحو: امدايا ـ اللودا ـ امَّلو ـ ادّويّاحيم ـ انَّقّا ـ اللادي ـ امّا ـ انَّانَّا ـ امَّعتالْ . . . إلخ.

فيها ـ ثم أخذ برأس الُّلودَا وقال لهم: تعالَوْا فادعوا له، وسَلُوا الله أن يبارك لكم فيه، وأعينوه على أمره، ثم قال له: قم فاقض حوائجنا وانظر في أمور الناس، ومُر بحقائبنا أنْ تُملأَ بطعام «كَمَنْقو»[١] فإننا على عجل، وقد تركنا العوائل والضيعات واستعجلنا لإبرام هذا الأمر.

وذكر لي الشيخ هَمَّا جمعًا من الأعيان الذين جاء بهم الشيخ إبراهيم بن حلَّايْ من الأنصار الشرقيين، ومنهم أبوه حمتاهي، وجده سيدي، ومحمد البشير (حَبُّوبَّا) وآخرون.

ولَمَّا وقَّعَ الأمير اللُّودَا الصلح مع الفرنسيين، اضطر الشيخ إبراهيم ومن معه من أعيان القبيلة القاطنين شرق تمبتكو إلى قبول الصلح أيضاً، بعد أن ضَعُف أمر المقاومة، ووقع جمع من الأنصار في أسر الفرنسيين.

فلقد حدثني إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن ابِّينْ، وهو وإخوانه معروفون برواية الأخبار والاهتمام بها ولا يكذبون، قال لي: لَمّا اضطر الشيخ إبراهيم (بايًّا) بن حلَّايْ إلى الصلح مع الفرنسيين، أرسل إلى الحاكم الفرنسي الذي نزل في مدينة بمبا وقد أسر مجموعة من الأنصار من جماعة الشيخ إبراهيم (بايا) وهم الأنصار الشرقيون من أبناء إنفا، مجيبا له على الصلح بحسب الشروط التي يتفقون معه عليها، فتوجه الحاكم الفرنسي واسمه (البِرْناني) إلى **أتليك** وهي بئر، وسميت بها المنطقة، حيث كان حيّ الشيخ إبراهيم قاطنين، واصطحب معه ترجماناً من قبيلة إيمغاد اسمه (نَهُمْ)

---

(١) كَمَنْقو: مزارع الأنصار غربي تمبتكو.

من تَرْبَناسْ، ففاوضهم على الصلح حتى تمَّ، ودُوِّنت شروطه، ثم أراد أن يتركهم على تنظيم يستطيع التعامل معهم بواسطته، فاتفق مع الشيخ إبراهيم ومن معه من أعيان القبيلة على أن يبقى الشيخ إبراهيم هو المسؤول العام الذي ينتهي إليه كل أمر مهم، ويُرجع إليه في كل ما يتعلق بالقبيلة، فيما يتعلق بعلاقتها مع الدولة ووضع البلاد، ويكون سيدي محمد بن محمد بن عثمان بن أبّين، الملقب (سيدي) هو المسؤول الثاني والمستشار الرسمي في أمر القبيلة.

فلما اتفقوا على ذلك، قال الشيخ إبراهيم لسيدي: أنا أريد من أبنائنا من يكون لي مراسلا بيني وبين هؤلاء النصارى الكفار، لأني لا أريد لقاءهم ولا مخاطبتهم، فقال له سيدي: لا يصلح لهذا إلا محمد المختار (حَمَتَّالْ) بن أخيك الصادق. فقال له الشيخ إبراهيم مقللا من شأن حمتال في ازدراء: أنت تشير لي أن أولي أمر الناس هذا الأُقَيْرِع؟!! الأقيرع: تصغير (الأقرع) وكان الشيخ حمتال ـ رحمه الله ـ أقرع الرأس ـ وكان بايًّا ـ رحمه الله ـ يريد أن يولي (حَدَحِّيلْ) وهو زوج ابنته فاطمة بنت بَايّا، واسمه محمد الخير بن محمد المختار(حمَتَّا) بن حلّايْ، وكان من الأعيان وله مكانة عند الشيخ بايًّا.

فقال له سيدي: هذا الذي تسميه الأقيرع هو خير أبنائك وأنجبهم. وكان بايّا ـ رحمه الله ـ لا يخالف سيدي من شدة ثقته به ومعرفته بسداد رأيه. فوافقه على ذلك وأخبرا به الحاكم الفرنسي فاعتمده وسجله في سجلاته.

هكذا حدثني إبراهيم بن محمد (كلا) المذكور، وأما خبر اختيار حمتال فكنت سمعته من همّا قبل ذلك واتفقا عليه. كما ذكرته.

فلما توفي الشيخان إبراهيم بايًّا بن حلَّايْ، وسيدي محمد(سِيدِي) بن محمد، اعتُمِدَ محمد المختار (حمتَّال) أميراً للأنصار في ناحية تمبتكو الشرقية، وكان يتمتع بصفات قيادية ممتازة تؤهله لذلك، فقد كان شيخاً متعلماً ذكياً صبورا حسن السياسة والتدبير شجاعاً، معنيا بشؤون القبيلة. ثم لما تقدمت به السن وخرف ترك الإمارة فأراد العلج الفرنسي الذي يحكم البلاد من الأنصار أن يتفقوا على رجل يتولى مكانه، فاختلفوا ولم يتفقوا على أحد، وأمهلهم أياماً، فلما لم يتفقوا ولىّ عليهم محمد المختار المشهور بـ(امَّعْتَا) أو (امعتال) من ذرية الشيخ أحمد بن إنفا، المعروفين بـ(كل إينابَلَحَنْ)، وكانوا له كارهين، فلم يُفلح، حتى اضطر الأمير إِتَّهَا (محمد المصطفى) بن سِيدِي والشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ رحمهما الله مع جماعة من الأنصار إلى إسقاطه. فلم تعد لهم بعد ذلك إمارة عامة بل صارت كل مجموعة منهم تحت أمير خاص، إلى يومنا هذا. والله يؤتى ملكه من يشاء.

وأما الأنصار الذي يقطنون غرب تمبتكو في منطقة قُنْدامْ وما يليها، والخوبة وفَرَشْ، وجميع تلك الناحية، فذكر الشيخ همّا ـ رحمه الله ـ أنهم بعد وفاة الشيخ الُّلودَا ـ رحمه الله ـ كان ثمةَ مال يُراد جمعه منهم، يطلبه الحاكم الفرنسي، فأراد محمد بن إينْقونَّا أن يصرفهم عن ذلك، وقال لهم أنا المسؤول عن المال، ثم نقموا عليه وخافوا أن يقوم بإعادة إمارة أبيه فيجاهدهم، فسجنوه ونَفَوْه.

ثم حصل نوع من الخلاف فيمن يتولى الأمر بعد الُّلودَا، فقال لهم

الحاكم الفرنسي: من يؤدي المال المطلوب فهو الذي يصير أميراً للقبيلة، فأدَّاه الطاهر بن المهدي بن محمد بن حَبْدَا (محمد أحمد) بن حمادا بن محمد إملن (أبانين) فاعتمده الحاكم الفرنسي أميراً عليهم، ثم خلفه ابنه محمد علي ابن الطاهر ـ رحمه الله ـ، وهو آخر أمرائهم الْمُعْتَبَرِين على القبيلة.

ويجب هنا أن أشير إلى أن إمارة الأنصار استمرت إبَّان الاحتلال الفرنسي لبلادهم، لأنهم في الأصل إنما كان بينهم وبين الفرنسيين صلحٌ قَبلوه ترجيحا للمصلحة العامة بعدما تقدم بيانه، ومن ثَمَّ استمرت لهم إمارتهم، إذ كان من ضمن شروط ذلك الصلح ألّا يتدخل الفرنسيون في الشؤون الخاصة لهذه الإمارة، وإنما يحكمون البلاد وتكون لهم الدولة فيما يخص الأمر العام، ويُعطون مساعدة سنوية مقابل جهودهم ودفاعهم عن البلاد.

ولكن ذهاب هذه الإمارة واضمحلال شأنها الحقيقي كان باحتلال مالي لبلادهم، فإن الفرنسيين لما خرجوا من البلاد سَلَّموها للماليين، فقام الماليون بالقضاء التام على إمارة الأنصار، وجميع الإمارات العربية والطارقية في البلاد، كإمارة كنتة وإمارة إيموشاغْ، ونحوها.

فقد أدى قيام الدولة المالية الحديثة واستيلائها على بلاد الأنصار وغيرهم من أهل أزواد، أدى إلى هجرة أشهر أمراء الأنصار القائمين على القبيلة آنذاك، وهما الأمير محمد علي بن الطاهر ـ المتقدم ـ والأمير محمد المصطفى (إتَّها) بن سِيدي، فتركا تلك البلاد، واصطحبا من خَفَّ معهما من قومهما إلى بلاد الحجاز، حيث كانت الدولة السعودية ـ كما سيأتي ـ فأما

محمد علي بن الطاهر فخلفه أخوه محمد المهدي بن الطاهر، على الأنصار الغربيين، وأما محمد المصطفى بن سيدي فخلفه ابن أخيه: محمد المولود(امَّلو) بن محمد الطاهر بن سِيدي، على الأنصار الشرقيين عامة وعلى بني أَيِّنْ خاصة.

الفصل السادس عشر

الطوائف التي حاربت الأنصار

لقد تبين من بعض الفصول السابقة أن الأنصار لما كوَّنوا إمارتهم، كوَّنوها مضطرين للدفاع عن أنفسهم ومن يأوي إليهم من الضعفاء، ومِنْ ثَمَّ تبَنَّوا مبدأ المقاومة المسلحة، لدَفْع القبائل والجماعات التي كانت تنهب الصحراء، أو التي كانت تستضعف الضعفاء وتستعبدهم، وكذلك الأمم التي تساعد أهلَ الجوْر والظلم، فلما فعلوا ذلك حُوربوا من بعض العناصر، وقامت الحروب بينهم وبين بعض الأمم والطوائف الموجودة في المنطقة، ممن لم يرضَ بوجود قوة تمتنع منه وتقاومه، وأشهر هذه الطوائف والأمم هم:

١ ـ البرابيش. ٢ ـ كنتة. ٣ ـ أولاد علوش. ٤ ـ الفُلَّانْ. ٥ ـ البَمْبارَا. ٦ ـ أعراب الساحل من الرقيبات والنهرات ومن انضم إليهم من المرتزقة وعصابات النهب والظلم والفساد وقطع الطرق. ٧ ـ الاستعمار الفرنسي، الذي قاوموه حتى وَقَّع الصلح معهم، واعترف لهم بأرضهم وحدودها، ودوّن ذلك في سجلاته، فهو مدوّن موجود إلى يومنا هذا في سجلات وريثه مالي، وكان ذلك الصلح عقب مقتل الأمير المجاهد الشيخ/ محمد علي الملقب بـ(إينْقونا) الأنصاري سنة ١٣١٥هـ ـ رحمه الله ـ، وهو آخر سلاطين بني إنفا الأقوياء من ذوي النفوذ والسيطرة على البلاد والدفاع عن الحريم، وبعد ذلك ضعفت القبيلة تدريجيا بسبب تأثير الاحتلال الفرنسي.

وقد تبيّن لنا في الفصل السابق أن أشهر الأمراء بعد إينْقُونَّا أخوه: اللُّودا - محمد المولود - ثم الطاهر بن المهدي، ومحمد المختار الملقب حمتّالْ بن الصادق، ومحمد المختار الملقب امّعْتا، ثم محمد علي بن الطاهر ومحمد المصطفى إتّها بين سيدي، وهما اللذان وطّآ للأنصار المكانة لدى أمراء وملوك آل سعود في المملكة العربية السعودية، أعني الأمير محمد علي بن الطاهر الأنصاري ومحمد المصطفى - إتّها - بن سيدي الأنصاري، وكان ذلك من خلال وفودهما على الملك سعود بن عبد العزيز وولي عهده الملك فيصل بن عبد العزيز رحمهما الله، مع جماعة من الأنصار، حوالي عامَيْ ١٣٧٩، ١٣٨٠هـ، حيث لجآ إلى المملكة بعد استيلاء دولة مالي على بلادهم، وسيأتي تفصيل ذلك قريباً في الفصل الثاني والعشرين.

الفصل السابع عشر

حدود إمارة الأنصار الإنْفِيِّين

لما بدأ الأنصار في تأسيس إمارتهم أسسوها في البلاد التي لا ينازعهم فيها أحد، إما لكونها خالية من السكان ولا عمارة فيها، أو لكون من فيها هم من الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، فانضموا إلى الأنصار وكوَّنوا معهم حِلْفًا واحدًا، فصارت أرضهم في حماية الأنصار وحماهم.

وقد حفروا الآبار في المناطق الصحراوية فعمروها بها، وعلَّموا تلك الآبار بوسمهم المعروف، وتركوا عليها الناس يعيشون ويستقون منها، ولم يتعرضوا للبلاد التي عليها إمارة غير إمارتهم، كبلاد إيفوغاس وبلاد إيموشاغ وبلاد شنقيط، وبلاد الصُّنْغَيْ ونحوها. وقد كان تحديدهم لبلادهم بعد زوال سلطان الدولة السعدية المغربية على بلاد تمبتكو، ولم تستقر حدودهم الاستقرار التام إلا بعد غزوة تِمْتَغِينْ، وقال العلامة محمد (هَمَّا) بن الطاهر الأنصاري:

ما بينَ أسْلَغَ لم نَتْرُكْ بساحتِها ... إلى ولاتَةَ لا ذِئْبًا ولا نَمِرَا

وفيما يلي موجز لحدود إمارتهم من جميع الجهات الأربع:

تبدأ بلاد الأنصار القديمة المعَلَّمة بعلاماتهم حتى مجيء الاستعمار الفرنسي من نبكة تقع غرب مدينة (بَنْبَا) تسمى (تُنْدُو) شرقا، ثم تتجه الحدود إلى الشرق الشمالي تقريبا إلى شُجَيرات تسمى (تِينْ غَرْيَسَنْ) على نبكة تقع

شمال بئر تَمَيْهورْتْ، وهذه البئر حفرها الأنصار، و قيل شاركهم فيها أولاد مَلُّوكْ من البرابيش، وهي بئر واحدة فقط، ويدعيها الهمَّالْ لأن أولاد ملّوك حلفاؤهم.

ثم نبكة (إِينْ أَغَرْبوشْ) شرقي بئر أتليك، ثم إلى بئر (إِينْجِبَا).

ثم إلى بئر (إِينْ الشَّابِي) شرقاً، حزاءَ سُوبَرِي، شرق مدينة بَنْبَا.

ثم اتجهت شمالاً إلى مرتفعات جبلية تسكنها قبيلة (إِيدْنانْ) جنوب تمتغين بعد منطقة إِجِيفْ، ثم تنزل إلى تمتغين و(تِغَاوْغَاوِينْ).

ثم تتجه شمالاً إلى بئر (تِيكْرَاطْ).

ثم تتوغل شمالاً إلى مملح تَاوْدَنِّي، (تغازي).

ثم تتجه غرباً إلى داخل البلاد الموريتانية، بلاد شنقيط.

ثم انعطفت الحدود إلى الجنوب الغربي حتى بلغت بئر (أَقْ آغِياسَنْ) في حدود موريتانيا مع مالي.

ثم نزلتْ بعد ذلك متجهة شرقاً إلى منطقة غربيّ مدينة (لِيرَا).

ثم استمرت متوغلة شرقا حتى وصلت إلى مصب النهر غربيّ بَنْكُورْ من تحتها.

ثم اتجهت شرقاً على شاطئ النهر الجاري هناك مرورًا بقُنْدَامْ وتمبتكو وزَرْهو، وما سواها من مدن الشاطئ إلى حيث بدأتْ شرقي مدينة بَنْبَا. والله أعلم.

أملاها عليّ محمد المختار بن محمد الصالح بن مَمُّو (محمد المصطفى) بن محمد علي بن أبين الأنصاري وقد جاءنا زائرًا من هناك ثم عاد، في

٨/ ١١/ ١٤٢٩هـ في الرياض، في جمع من الأنصار، منهم عبد الله بن أحمد بن محمد المصطفى (مَمُّو) ومحمد الطاهر بن محمد بن مَمُّو، ومحمد الخير بن حذيفة بن محمد عمر بن الطيب، وآخرين.

هذه هي الحدود القائمة إلى مجيء الاحتلال الفرنسي للبلاد، فلما صار الصلح بينهم وبين الأنصار كان من جملة شروط ذلك الصلح بقاء بلاد الأنصار كما كانت، ونسبتها وحمايتها لهم خاصة دون غيرهم، فأقرَّها الْحُكّام الفرنسيون في بلاد مالي للأنصار، ودوِّنت في السجلات، ولا خلاف عليها، ولقد تُركت أماكن صارت للأنصار بعد ذلك، أعني بعد الزمن الأول الذي حددوا فيه الحدود المتقدمة، وأهم تلك الأماكن المناطق الواقعة جنوب النهر، مما يحاذي بلادهم المذكورة شمال النهر، باتجاه الجنوب إلى حدود دولة بوركينافاسو، ثم ما يخصهم من ذلك إلى حدود دولة النيجر، والسبب في ذلك أن إمارة الأنصار صارت من مكوِّنات دولة مالي الحديثة، وصارت هذه القبيلة من جملة القبائل المالية، ولذلك اتسعت أملاكها من البلاد إلى كل منطقة عمروها ولم يُسبقوا إليها.

ومما أنشدته قديما في ذكر بلاد الأنصار القصيدة التالية:

ألا قِفْ يا بنَ قُطْبٍ وسْطَ زَرْهُو ... وحَيِّ حِمَى الجدود به وزُرْهُ
لقد عَلِمَ القبائلُ دون رَيْبٍ ... بأن مساكن الأنصار زَرْهُو
فتنبتكو فرأسُ الماءِ غربًا ... فصحراءُ البلادِ فما اجْتَبَوْهُ
لهم فيها المسارحُ والمياهُ ... وما أجدادُهم قِدْمًا بَنَوْهُ

بــهــا دُفِــنــوا وإنَّ الــقــبــرَ مــلــكٌ لـصـاحـبـه وأعـلـى الـقـبْـرِ مِـنْـهُ
كــفــى آثــارُهــم عــنــهــم دلــيــلا تراها مثل شمس الظـهـر تَبْهُو
وفــي أَرَوَانَ دارُ الــشــيــخِ إنْــفَــا وملحده عــفـا الـرحـمـن عنهُ
وفــي غــرنــاطــة كُــنَّــا مــلــوكــا نسوس الناس في الحمرا ونزهو
لــنــا فــي الأرض تــاريــخ شــهــيــد فمن ذا ينكر التاريخ مَنْ هُو؟!

* * *

الفصل الثامن عشر

المراكز الرئيسة لبني إنْفَا في أَزَواد

إن قبيلة الأنصار ـ من بني إنْفا ـ الذين عُرِفوا في شمال إفريقيا **بكَلْ انْتَصَرْ وكَلْ انْصَرْ** يعيشون في المنطقة الممتدة من الأراضي الموريتانية غرباً إلى أراضي دولة النيجر شرقاً، ومن حدود مالي مع دولة بوركينافاسو جنوباً إلى داخل الأراضي الجزائرية شمالاً، غير أنهم جماعات متفرقة ومتعددة، فمنهم أهل قرى، وعامتهم بَدْوٌ رُحَّل يسقون من الآبار، ويتتبعون أماكن تجمع مياه الأمطار، ومنابت العشب والكلأ في الصحراء بسائمة أنعامهم، وقد تقدم ما يدل على أنهم قبل القرن العاشر الهجري لم يكن لهم عدد يُذكر، ولا مركز ومستقر يُحضر، ولم تتكون منهم قبيلة، وليس لهم إلى ذلك من وسيلة، وأهم الأماكن التي استقر فيها أجدادهم في تلك العصور المتقدمة ثلاثة: بلاد **توات، وعين صالح** في الجزائر، ثم بلاد **إيكدَز** في الشرق، ثم **أرَوَانْ** في قلب الصحراء شمال تمبتكو، وجميع أجدادهم في القرون السادس والسابع والثامن والتاسع من الهجرة توزعوا في هذه المراكز الثلاثة، وفيها قُبِرُوا رحمهم الله.

ومن الأسباب التي أدتهم إلى عدم الاستقرار فيما نقدره ونستظهره من سيرتهم التمسكُ بوصية أجدادهم، التي تقتضي اجتناب الفتن، وعدم المشاركة في أي نزاع يكون بين المسلمين، والركون إلى التعبد والورع وطلب

العلم، وترك التدخل في الشؤون العامة، ومما يساعد على ذلك الترحل وعدم الاستقرار في مكان واحد، وقد كانت تلك البلاد مسرحا للنزاعات الطائفية منذ سقوط الدولة الأموية في الأندلس وقيام دول ملوك الطوائف عام ٤٢٢هـ، وقد تقدم لنا أن جد هذه القبيلة قدم إلى هذه المنطقة بعد هذا التاريخ بقليل قادمًا من غرناطة، معتزلا للفوضى التي نشبت إبَّان تمزق المسلمين في الأندلس ومحاولة العلوج النصارى الاستيلاء عليها، فاستنجد المسلمون بالسلطان المرابطي المجاهد يوسف بن تاشفين، فتوجه إليهم، حوالي سنة ٤٧٥هـ، وفي هذه الأسثناء وفد عليه جد هذه القبيلة قادمًا من الأندلس.

وهدَأ الوضع في بلاد المغرب بفضل هذه الدولة المرابطية السنية، ثم مال بعدها إلى عدم الاستقرار بسبب الفتن التي قامت وهاجت أيام الموحِّدين والحفصيين، ثم المرِّينيين، ثم الوطَّاسيين، وهكذا إلى قيام الدولة السعدية المغربية، ففي كثير من هذه الفترات كانت البلاد يسودها الحكم القبلي، كل قبيلة تحمي منطقتها وتسيطر على كيانها، وكانت الصحراء معزولة غير مأهولة، يعيش فيها الأسود والفيلة وعوادي السباع، ولا يوجد غير بعض التجمعات السكانية في أطرافها، من مثل التي تقدم ذكرها.

ومن هنا قام الشيخ محمد بن إنفا الأنصاري ـ رحمه الله ـ بإحياء هذه الصحراء بحفر الآبار، وتعليم الناس، محتميا بالسلطة الفتية في المغرب على يد ملوكها العلويين، وإخوانهم الموجودين في بلاد أزواد، وتعد هذه الخطوة هي أولى خطوات الاستقرار لأفراد هذه الأسرة، حيث كوَّنوا منطقة جغرافية

واسعة الأطراف لا ينازعهم فيها أحد، ولم يسبقهم أحد إلى إحيائها وعمارتها، وبعد أن صار لهم ثقل، وتعددت أحياؤهم، على ما تقدم ذكره، وما سيأتي بعدُ، وُجِدَتْ لهم تجمعات رئيسة، حول آبارهم وآثار آبائهم، فكانت لهم مراكز لا تخلو منهم صيفا ولا شتاء في جميع الأزمنة، يتجمعون فيها ويلتقون حولها، وإن تفرقوا بقي فيها منهم أعداد مستقرة، في قرى معينة، أو حول آبار مُعلَّمة، وفيما يلي بيان أهمها:

١ ـ **منطقة شرق تنبتكو**: مركزهم مجموعة من الآبار المتجاورة المتقاربة، يتنقلون بينها ويتجمعون حولها، مكونين أحياءً شبه القرى، أو يتفرقون حولها ويردونها للسقيا جميعا، تبدأ هذه المنطقة من مدينة تمبتكو غربًا، ثم تتجه شرقًا إلى مركز قرية بِيرْ، قريبا من تمبتكو ثم تَدمُومْتْ، ثم جميع المناطق المحصورة بين النهر جنوبا ونهايات الآبار شمالا باتجاه الشرق إلى نهاية حدود بلاد الأنصار، وهذه المنطقة منها ما هو مأهولٌ معمور، ومنها ما صار مهجورًا في الأزمنة المتأخرة، فالأماكن المأهولة منها تنقسم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: منطقة آبار: آتلك و أوديكة أو: تين وديكة، وإين كلّا، وإينوشف، وتَجُّوَغْ، وهذه المنطقة بمنزلة مربع من الأرض، حده الشرقي آتلك، والغربي إينْ كلّا، والجنوبي إينُوشف، والشمالي تين وديكة، وفي الوسط تجّوغْ.

القسم الثاني: المنطقة الممتدة بين آبار: إنْجِيبَا شمالاً، وأمَيْهورْ في

شمالها الغربي، وأُوبْدِيرْ غربها، ثم إِينْجَارَّنْ، وفي شمالها الغربي آنُوشَجْرِينْ، ثم في غربها قليلاً الْمَعْمُورْ، وفي الغرب الجنوبي إينَقُّوزْمِي، وفي الجنوب الغربي عنها إِيرْتَكْ، ومن جنوبها مباشرة إِينْبَكْسَا، وإينْكُومَنْ، وهي أكثر توغلاً في الناحية الجنوبية، ثم تِينَكَوَاتْ في شرقها مع ميلان قليل نحو الجنوب، وفي الشمال الشرقي لتينكوات بئر إينْتِيشَقْ، فهذه منطقة مربعة أيضاً أو دائرة الشكل، تقع فيها مجموعة من الآبار، وأهلها ينتقلون بين هذه الآبار، ويتجمعون حولها ولا يبرحونها.

القسم الثالث: منطقة جنوب النهر الذي يجري هناك ماراً بمدينة تمبتكو متجهاً شرقاً إلى دولة النيجر، وهذه المنطقة تحاذي القسم الأول جنوباً، لأن القسم الأول متصل بالنهر وشواطئه، وأهم تلك الشواطئ شاطئ زرهو، وشاطئ بلدة بَنْبَا، وما يحاذي هذين الشاطئين جنوباً للأنصار فيه منطقة فيها مجموعة من الآبار والغُدران والأضاءات وقيعان مائية يرتادونها وينتقلون حولها ومن بينها صيفاً وشتاءً، وهي كذلك تعد مركزاً لهم، وتسمى هذه المنطقة بـ(أرَبَنْدا) كما تسمى (جُرْمَا).

وأهم تلك الآبار بئر **تِينْ تِيشَقْ**، غربا، ثم تتجه شرقا إلى بئر **إينَلْمَغْرَجْ**، ثم بئر **تِينْ أَلَدَا** في الشرق الجنوبي، ثم بئر **تِينْ تَسَلِيتْ**، في الجهة نفسها إلا أنها أكثر توغلا في الجنوب، وفي شرقها مباشرة مياه **تاكَمَدّاسْتْ**، وفي شمالها بئر **إيرْنَجِيفْ**، وبمحاذاة ما بينهما شرقا بعد بضع كيلوات مملح مَلْكَكُو وتَاكَيَا.

تشمل هذه المنطقة تجمعاتٍ لمياه الأمطار متناثرة جنوب جبل (تين

تِيلُوتْ) وغربه وشرقه، وهي غُدران وبِرَكٌ، وتِرَعٌ تمسك الماء شهوراً، فيأتون ويضربون خيامهم

حولها إلى أن تجفّ[1]، تمتد هذه المنطقة شرقا إلى مدينة قُوسِي، وغربا إلى مدينة تَغارُوسْتْ على الشاطئ، وتِينْ تَماتْ في جنوبها، فهذه المنطقة هي القسم الثالث وهي أيضاً بمنزلة مدينة كبيرة ينتقلون بين جوانبها ومراتعها.

١- **منطقة غرب تنبتكو**: هذه المنطقة تمتد من تنبتكو شرقًا فمدينة قُنْدامْ غربيها إلى ما بعد مدينة لِيرَا غرباً، وما بعدها إلى الحدود الموريتانية، وأهمّ التجمعات فيها مدن: قُنْدامْ، وضواحي تِينْ عَيشَه، ثم آضَرْ مَلَّنْ، في الشمال الغربي، ثم الشريط الغربي على الشاطئ إلى مدينة لِيرَا، وأَغَبُوبْ. وبَنْكُورْ، وقرى فَرَشْ ومِيمَا، ومنطقة مِيسَبَنْقُو، وتاشَرِينْ، ومنطقة رأس الماء كلها، وما بين هذه المناطق وما حولها من مسارح ومساكن، مما كان على شريط الشاطئ النهري جنوبا، وما يحاذيه من الصحراء شمالاً، فبعضهم له شبه استقرار في هذه المدن والقرى، وبعضهم يتنقل بينها وبين ما يجاورها من مزارع ومياه وآبار، وهم أكثر استقراراً والتصاقاً

(١) أهم تلك الموارد والتجمعات المائية: تِينْ تَماتْ في أقصى الغرب بمحاذاة مدينة تغارُوست جنوبًا، ثم في شرق هذا الموقع: مياه تِينْ تَمِيوِينْ، وبعد ذلك مياه تِيكْنِوِينْ، ثم مياه تِينْ وَيْرُو، وفي جنوب تِيكْنِوِينْ مياه بانِيا، وفي شرقها الجنوبي تقريبا مياه إِيغَشَرْ، ثم جبل تِينْ تِيلُوتْ، وفي شرقه مياه نبكة بُوبَكَرْ، وفي جنوبها مياه تِيبَتَكْرَارِينْ، وبعدها جنوبا أيضا مع ميلان قليل إلى الشرق تقريبا مياه إيمَكَسْ.

بالحضارة والتمدن من إخوانهم الذين في شرق تنبتكو. ولهم أربع مراكز رئيسة، وهي: قَرْقَنْدُو، وفَرَش، ورأس الماء (الْخوبة)، وأَغبوب(تِيبَرْجَنْتْ).

والعاصمة العامة للأنصار كلهم هي مدينة تنبتكو.

الفصل التاسع عشر

لمحة عن منطقة زَرْهُو

هذه الجزيرة في وسط النهر الذي يمر على تنبتكو ويسمى نهر النيجر، ويجري من الجهة الغربية متجها شرقا، وتقع هذه الجزيرة شرق تنبتكو بحوالي ١٠٠كم تقريباً في وسط الصحراء الكبرى، وبدايتها من الجهة الغربية بداية (واغَيْ) وهو بداية شبه جزيرة(بَرَنْبِيرِي) غربا، عند الحاجز الذي يقال له: (إينْ دَرَانْ)، ثم امتدت واحة زرهو إلى منطقة (آغَشَوْشاوْ) شرقًا، عند المكان الذي يقال له: (إبُوهَنْتْ)، وهو عبارة عن تلال متصلة من الرمال، مطلة على مياه أَفِيلالْ.

وتبدأ من جهة الشمال من عِرْق (قَرْبَيْ) الرملي، وهو منزل سيدي بن محمد بن عثمان بن أبِّينْ، وحَوَّدْ بن محمد الملقب (بُوحَيْدَهْ) بن محمد المختار الملقب (بقُّولِي) بن أبي بكر بن الشيخ عبدالله الملقب (الحاج بلّه). ثم منطقة تافَرَغْرَغَاتْ، ثم خليج تِبلْبلينْ، ثم سوقوساري، ثم المنطقة الجنوبية الغربية وتتضمن تاغشيت وأق إينزالِّي، ثم الجنوبية الشرقية وتتضمن بُويا وإينْ سونِيا.

وهذه الجزيرة هي مصيف قبيلة الأنصار الشرقيين قديما، كانوا ينزلون فيها ثلاثة أشهر في كل سنة، من بداية دخول شهر مارس صيفا إلى أنْ يخف الحر، ثم يدخلون الصحراء، وهم فيها سواء، ولا فرق بينهم فيها، ولا في شيء من بلاد الأنصار، غربيين وشرقيين، إلا أن كل حي اعتاد نزول مكان

معين لا ينزل فيه أحد غيره، حتى عُرِف به، ومن أشهر الأماكن ما يلي:

١. **نبكة تابِوِينْ**، وسط زرهو: ينزل فيها إبراهيم ومحمد الهادي ابنا محمد بن عثمان بن أبِّينْ ومن يتبعهما من إخوانهما، والأمير حمتَّال بن الصادق بن حِلَّايْ وحيُّه وهم إخوانه وأبناء إخوانه وأبناؤهم.

٢. **تَسانَّاتْ الداخلية**، وهي عبارة عن مرتفع صغير داخل الجزيرة ويسكنها حِمِتاهي (محمد الطاهر بن سيدي بن محمد بن عثمان بن أبين).

٣. **تَسَانّاتْ الخارجية**: فوق الجزيرة، وهي عبارة عن تل مرتفع قليلاً خارج الجزيرة بمحاذاة الأولى ويسكنها المهدي بن سيدي أخو حمتاهي.

٤. **تِسَمَقَّتِينْ**: وينزلها مَسَّالِحْ (محمد الصالح) وحَدَحِّيلْ(محمد الخير) والحسن، أبناء حَمَتَّا.

٥. **نبكة زرهو**: وهي التل المشهور فوق الجزيرة شمالا، وينزل فيها الطاهر وموسى ابنا المنذر بن حلَّايْ. وعلى اليمين منها مساكن الشيخ الأمير إبراهيم بن حلَّاي وحيّه.

٦. **تِنالِوِينْ**: وينزل فيها أبناء محمد بن آلي وهم أبناء (امْدايَّا).

٧. **شجرة الإهليليج المعروفة بدوحة زرهو**: يسكن عندها أبناء عمر بن الحاج بلّه.

٨. **أَشَبُوتْ**: شرقي زرهو، يقطنه حمَّلْهادِي (محمد الهادي) بن محمد

بن عثمان بن ابِّين، ومحمد الملقب (سَغْدَا) بن محمد البشير المعروف بـ(حُبُّوبًّا) بن محمد علي بن أبِّينْ. وهما أول من دخله ولم يُسكن قبلهما ولم يُعرف لأحد سواهما. وسيدي حَمَّا(سيدي محمد) بن محمد المصطفى بن أبي بكر بن أَبِّينْ.

٩. **أَفُودْ**: وهو نهاية زرْهو شرقا، يسكنه أبناء أبي بكر بن الحاج بلّه.

ولأهل زرْهو في القديم مسجدان:

الأول: **مسجد الأراك**، سمي بذلك لأنهم بنوه عند شجرة أراك، وهو خارج الجزيرة فوقها وهو للطاهر بن المنذر أبي المبارك من أبناء عثمان بن الحاج بلّه، وإمامه محمد (كِلّا) بن إبراهيم محمد بن عثمان بن أبِّين بن الحاج بلّه ويؤمهم فيه للتراويح أيضاً ويدرس فيه القرآن.

الثاني: **مسجد تابِوِينْ**، وهو مسجد داخل الجزيرة، وهو للأمير حمَتّال بن الصادق وأتباعه، وإبراهيم بن محمد بن عثمان بن أبين، وإمامه حمّاتّا بن حمتّال المذكور، وهو مدرس القرآن والحلقات العلمية فيه، ويصلي بهم التراويح فيه ذو الأذن، وهو محمد بن محمد المولود بن القاسم(١).

هذا ما يتعلق بوصف الجزيرة وأهلها قديما، كتبته عن جمع من أهلها القدامى كالشيخ همَّابن حمتاهي، وأبناء كلَّا، وغيرهم، رحمهم الله، ولكن

---

(١) حدثني بهذا كله محمدُنْ بن محمد (كِلّا) بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن إبين بن الحاج بلّه بحضرة أخيه عبد الله بن كِلّا، وابنه أحمد بن عبد الله، وابن أخيهما يوسف بن إبراهيم في ٢١/ ١/ ١٤١٧هـ بعد صلاة الجمعة.

بينهم خلاف وفروق، بعضها لا يكاد يتفق، ومن ثَمَّ كتبت أهم الأشياء التي اتفقوا عليها، وفي بعض الأشياء لم أتمكن من التوفيق بين أقوالهم، فتركتها، وكذلك من سألتهم من المعاصرين وجدت بينهم خلافا في تفاصيل المنطقة وأهلها القدامى، وأنا لا أعرفها، فقد كنت رأيتها وأنا صغير، ولا أذكر إلا صورتها العامة فقط. والله أعلم بحقائق الأمور.

وأما اليوم فقد اختلفت الحال، فقد بنى الأنصار مدينة كاملة بالمفهوم العصري في المكان، وبنَوْا فيه مسجدًا، ومدرسة، وسائر المرافق الضرورية، ومن أهمها سوق تُجلب إليها البضائع من مالي والنيجر والجزائر، وجميع البلدان المجاورة، ويرتادها أهل المدن القريبة وبادية أزواد وأربندا معًا.

الفصل الْمُوفِي عشرين

قاعدة ملكية الأرض

جرى العُرف عند الأنصار من أبناء محمد بن إنفا الأنصاري علىٰ أنّ البلاد التي ملكوها وكانت عليها إمارتهم، وسبق تحديدها وتعريفها، أنها ملكهم كلهم على السواء، يملكونها دون سائر قبائل المنطقة، وتجري عليها أحكامهم دون غيرهم، وبناء على ذلك لا يحق لأحد من غيرهم أن يكون له فيها ما يكون سببا للملك، كحفر الآبار، وبناء المساكن، ونحو ذلك، ولا يمنعون أحدًا من المسلمين أن يعيش عليها، أويستقي من مياهها، أو يرعي في مراعيها، أو يأوي إليهم فيها، ونحو ذلك من أنواع الانتفاع، وإنما يمنعون مَنْ يريد أن يكون مالكاً للأرض، فيتحكم فيها، بأن تكون له مزارع أو بناء أو آبار، أو نحو ذلك، لأن مثل هذا يؤدي إلى الفتنة بين المسلمين، وإلى فساد الأرض، ونشوء النزاع، وكثرة الخلاف. . . .إلخ. ولذلك وجب منعه.

وقد جرى العُرف في مجتمع الأنصار على أن آبارهم وديارهم ومآثرهم لاتُباع، ولاتوهَب، ولا يستقل بها أحد دون غيره، ولكل أنصاري داره وبئره ومزرعته، وما أحاطه لنفسه، لا ينازعه في ذلك أحد، ولكن لا يحق له أن يبيع شيئا من ذلك أو يهبه لشخص آخر غير أنصاريّ.

قال لي الشيخ همَّا ـ رحمه الله ـ: إن بعض علماء الأنصار نوقشوا في هذه المسألة، ورُفعت إلى القضاء، بسبب اعتراض بعض العلماء من قبائل

أخرى عليها، وعُقد لذلك مجلس ضم جمعاً من علماء المنطقة، وأراد المعترضون أن يبينوا أن هذا الذي جرى عليه العُرف عند بني الأنصار في الأرض غير مشروع، ولا يحق لهم، فأجابهم الأنصار، بما أقنعهم من أن هذا العرف مما يقره الشرع، وتدعو إليه الضرورة، وتتم به المصلحة، لما فيه من سد ذريعة الفتنة بين المسلمين، ولما جاء في الحديث من أنه «**ليس لعرق ظالم حقّ**» ولما تقرر من «حق الشفعة» وأن ما كان خاصًّا يجب ألا يخرج من خصوصه فيتغير حكمه، وذكر لي في ذلك أشياء قيلت في ذلك المجلس لم أحصها، ولكن مفادها إقرار ذلك المجلس بحكم الأنصار على أرضهم، بما ذكر.

والقول الأقوى عدم اشتراط إذن ولي الأمر في إحياء الأرض الموات، وإن قيل بالاشتراط، فالأنصار ملكوا تلك الأرض وأحيوها في زمن ليس عليها ولي أمر يحكمها، ولا ينازعهم فيها أحد، وإن نازع المنازع واحتج بأن الزمن الذي ملك فيه الأنصار تلك الأرض كانت فيه تحت حكم الدولة السعدية في المغرب، فالجواب أن الأنصار آنذاك كانوا جزءا من الدولة السعدية، وقد ذكرنا من قبل أن أميرهم معتمد ومعروف من قبل تلك الدولة، قد أُقِرَّ على بلاده، وأن (**الطبل**) الذي كان لدى الشيخ محمد بن إنْفا الأنصاري كان رمزًا لذلك، فما ملكوه من الأرض ملكوه بإذن من السلطان العام، وكان بمنزلة الإقطاع[١].

---

(١) وقد قال لي محمد الصالح بن محمد(حمَّدوني) بن محمدالأمين(تَلَّا) مسؤول بني إنْفا في السعودية إن الأمير محمد علي بن الطاهر الأنصاري قال له: «قد كانت لديه وثيقة كانت

وأما القول بعدم أحقية أحد أفراد الأنصار أن يبيع شيئا من تلك الأرض على غير الأنصار، فللمصلحة العامة، ولأن ملكه لها إنما هو لا ستحقاق الانتفاع بها لكونه أنصاريًا، فيحق له ما يحق لكل واحد منهم خاصة، ولم يملكها بسبب خاصٍّ من أسباب الملك، وما كان عاماً بين الناس لا يحق لأحد أن يتصرف فيه تصرفاً فيه إضرار بالآخرين، ومن القواعد المقررة في شرعنا «إزالة الضرر ومنعه» لحديث: «**لا ضرر ولا ضرار**».

ومن الأدلة التي تُقال للمعترض من غير الأنصار ممن يريد الشراء على وجه التملك: ما جاء في الخبر الصحيح «**عن الشعبي أن عُتبة بن فرقد اشترى أرضا على شاطئ الفرات ليتخذ فيها قَصبًا، فذكر ذلك لعمر، فقال عمر: ممن اشتريتها؟ قال من أربابها. فلما اجتمع المهاجرون والأنصار، قال له عمر: هؤلاء أربابها، فهل اشتريتَ منهم شيئًا؟ قال: لا، قال: فارددها على من اشتريتها منه، وخُذْ مالك**» قال ابن قدامة معلقا على هذا الخبر: «فهذا قول عمر في المهاجرين والأنصار، بمحضر سادة الصحابة وأئمتهم، فلم يُنْكَر، فكان إجماعًا، ولا سبيل إلى وجود إجماع أقوى من هذا وشبهه . . .»[1].

مع والده الأمير الطاهر بن المهدي باعتماده أميرًا من قِبَل ملك المغرب في الدولة السعدية، وقال إنه ورثها عن آبائه، قال ثم قال له: قد سرقها مني بعض الشناقطة ثم أخفوْها وجحدوها، قال: ولكن من حسن حظي أنني كنت أَرَيْتُها ملك المغرب (الحسن الثاني) قبل ذلك، وعلى أساسها سَمح لي بالبقاء في المغرب على هذه الحال».

(١) المغني لابن قدامة المقدسي (٤/ ١٩٣).

والسبب أن أرض العراق فتحت عنوة، ولم تقسم، فهي للمهاجرين والأنصار الذين فتحوها عامة، وأُقِرَّ عليها أهلُها الذين كانوا عليها من قبل ينتفعون بها، ولا يحق لهم بيع شيء منها. ووجه الاستدلال بالخبر قياس الحق العام على العام، وما يجوز من التصرف فيه للخاصِ، فهذا حكم عام وإن اختلفت الصور.

وهذه الأرض للأنصار جميعًا، ويستحيل جمعهم كلهم وشراؤها منهم، فليس لأحد منهم أن يستأثر بشيء منها فيتصرف فيه بما يخصه ويضر به غيره، وإن باع أحدهم منها شيئًا أو أذن لمن بنى عليها أو حفر فيها بئرًا من غير الأنصار، فللأنصار الحق في طمر بئره، وهدم بنائه، إلا أن يكون الأنصار يريدون الانتفاع بتلك البئر أو بذلك البناء فيدفعون له ما تكلفه، في مقابلة تلك المنفعة. لقوله ﷺ: «**ليس لعرق ظالم حقٌّ**» ولما أخرجه أبو داود وأحمد والترمذي ـ وحسنه ـ بألفاظ متقاربة عن رافع بن خديج: قال: قال رسول الله ﷺ «**من زرع في أرض قومٍ بغير إذنهم، فليس له من الزرع شيءٌ، وعليهِ نفقته**»[1] ولا يعتبر إذن الواحد منهم، فإن فعل ذلك بإذن واحد منهم، أو بغير إذن أحد منهم، فهو غاصب، أو داخل في شبهة، فلا حقَّ له. وفي الحديث الصحيح: «**على اليد ما أخذت حتى تؤديه**» أخرجه جمع من أصحاب السنن. وهو نص عام في الأمانات والعواري، والسرقات وما غُصب أونُهب، أو أُخذ بغير حق بأي وجه من الوجوه.

(١) قال الألباني: صحيح. صحيح الجامع الصحيح (٢/ ١٠٧٥).

الفصل الحادي والعشرون

من أشهر آبار الأنصار في أزوادْ

لقد كان من خيرة ما فعله الشيخ العلامة محمد بن إنْفا الأنصاري عامر الصحراء، أنه حدد حماه بالآبار، من جميع الجهات، وكان ذلك إيذانا بعمارة الصحراء، وسببا لاجتلاب السكان إليها، وتسهيلا للتنقل عبرها، وتيسيرًا للربط بين أطرافها، وفتحًا على من يضطر للجوء إليها والاحتماء بها، وغير ذلك من الفوائد والمصالح التي اعتمدت على هذه الآبار، ولقد استمر أبناء الأنصار بعد أبيهم محمد بن إنفا في حفر الآبار، غير أن الفطن المتأمل يلحظ أن الشيخ محمدًا كان يهتم بتوسيع إمارته، وبسط ميدانه، وإحاطة حريمه، وتعليم ثغره، وإقامة سُوره، بينا نجد أبناءه قد أهمهم ما بداخل السور، وما تضمنه ذلك البور، فأخذوا في إحالته إلى معمور، بعد كونه كالمهجور، فأحالوا تلك المهالك إلى رياض وأرائك، وواحات وممالك، وساحات لكل طارق وسالك.

فشرعوا في حفر الآبار في داخل المحيط الأنصاري، وركزوا جهودهم في البناء الصحراوي، على المناطق التي تصلح للسكنى، من جهة قربها من المدن والقرى، ومن جهة غناها بالمرعى، وصلاح أرضها وفيئها للمأوى.

وأنبه على أن الغالب تسمية الآبار على الأماكن التي حفرت فيها، وقد تحفر البئر في مكان شجرة قطعت فتسمى باسم تلك الشجرة، وقد تكون البئر

واحدة، وقد يكون معها مجموعة من الآبار، فتسمى كلها باسم واحد، وفيما يلي مجموعة من أشهر وأهم تلك الآبار، التي تعد أهم الرموز لهم والآثار، وكلها تُعرف باسم الأنصار، أملاها عليَّ كلها بالتفصيل الآتي إبراهيم بن محمد (كلّا) بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين (ابِّينْ) بن الحاج عبد الله بن قطب الأنصاري، بمساعدة أخيه عبد الله بن كَلَّا رحمهما الله رحمة واسعة، يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ١٤١٠هـ، كما أملاها عليَّ ابن عمهما محمد بن عبد العزيز بن إبراهيم، ونبهت على ما خالفهما فيه:

١. تقدم أنْ ذكرت أن الشيخ محمد بن إنفا شرع في حفر الآبار من بئر تِيكْراط شرقًا، إلى بئر أق آغِيَسَنْ غرباً، واستمر أبناؤه من بعده في حفر الآبار، فحفروا كثيرا من الآبار بعده، والآبار القديمة كثير منها صار غير مشهور ولا مأهول مثل آبار: تِين تمَغِيينْ ـ هَلُولْ ـ إنْ إبراهيم ـ آبار المبروك ـ بئر أروان ـ أشبْ ـ إينتْلَكْ ـ أغزّافْ ـ إينَفِيسْ . . . . وغيرها، مجموعة كثيرة من الآبار التي تقع في الأطراف وفي الوسط.

٢. **تَمَيْهُورْتْ**: وهي توازي مدينة بَنْبَا الساحلية، من جهة الشمال الشرقي، بين بَنْبَا وسُوبَرِي، حفرها الأنصار، وشاركهم فيها أولاد مَلُّوكْ من البرابيش، وهي بئر واحدة فقط، ويدعيها الهمَّالْ لأن أولاد ملّوك حلفاؤهم.

٣. **إينَمَنْكُورْ**: وهذه البئر حفرها الفرنسيون للأنصار، وهي توازي مدينة

بنبا أيضاً شمالاً.

٤. **آتْلَكْ**، أو: **أَتْلِيكْ**: وهما بئران الأولى الشمالية حفرها الشيخ إبراهيم بن حِلّايْ بن عثمان بن الحاج بلَّهْ، والجنوبية حفرها عبد السلام بن مَمَّاتَنْ بن حمَّيْ بن حَنَا.

٥. **إينْ سَيْدْ**: شمال آتلك وشرق الشلِيحْ، وهي بئر واحدة للأنصار، ولكن هجروها فأحياها الهمّال أخيراً، لأنها قريبة من بئرهم (الشلِيحْ).

٦. **إنْجِيبا**: شمال إنْ سَيْدْ، حفرها محمد أمْدايًّا بن قطب بن إنفا الأنصاري، وأمدايا هذا مدفون شمال هذه البئر في مكان يسمى إِنَلْهَسْ. وهي بئر واحدة، عليها عشر خشبات يُستقى عليها.

٧. **إمَّلّاشْ**: شمال إنجيبا، حفرها الشيخ محمد بن إنْفا الأنصاري، وهو مدفون في مقبرة إيغَرْمانْ شمال إِنَقُّوزْمان.

٨. **أَمَيْهُورْ**: تقع هذه البئر شمال غربي إنجيبا، حفرها الشيخ محمد بن إنفا أيضاً.

٩. **أُوبْدِيرْ**: تقع غرب أميهور وحفرها الشيخ محمد بن إنفا أيضاً. وحدثني الشيخ محمد(همَّا) بن حمتاهي أنه قد حصل عليها نزاع بين الأنصار وكنتة، ورُفعت القضية إلى الشيخ محمد بن محمد علي الأنصاري البَلَحيّ، ثم جد النزاع عليها مؤخرًا، فقضى فيها الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ، وبنى حكمه على حكم الشيخ محمد بن

محمد علي، قال: ولكن لما تكلم الشيخ محمد المختار في القضية جاء بتاريخ وأحكام لم يعلمها العلامة محمد بن محمد علي.

١٠. **إِنْ جَارَّنْ**: أربعة أبيار، الكبيرة حفرها الشيخ محمد بن إنفا، وهي الشرقية منهنّ. والتي بعدها حفرها حفيده محمد الأمين الملقب بـ(أَبِّينْ) بن الحاج عبد الله، ويقالها: تَلْوَضَّاتْ، والثالثة حفرها أبناء محمد (آخْوا) بن الحاج عبد الله، والرابعة حفرها أبناء محمد علي المعروف بـ(بَدَا) بن الحاج عبد الله بمشاركة السابقين.

١١. **آنُو شَجْرِينْ**: اللَّقِي وهو أبوبكر بن الحاج عبد الله، وأخوه عمر بن الحاج بلَّهْ، وهما بئران تقعان شمال غربي إنْ جارّن.

١٢. **المعمور**: غربيّ أنو شجرين، حفرها الشيخ محمد بن إنْفا.

١٣. **إِنَقُّوزْمِي**: حفرها الشيخ محمد بن إنْفا أيضاً، وهما بئران، وتقع جنوب غربيّ آنو شجرين.

١٤. وبعد إنَقُّوزْمي مجموعة أخرى من الآبار التي حفرها الشيخ محمد بن إنْفا وابنه قطب، في الجهتين الغربية والشمالية.

١٥. **إِيرْتَكْ**: جنوب غرب إينقوزمي، حفرها أبناء محمد علي بن محمد إيمَلَّنْ (أَبَّانِينْ) وقيل: يشاركهم فيها أبناء محمد الأمين المعروف بـ(دُوَّادُوَّا) وهما بئران.

١٦. و من جنوبها مباشرة **إِينْبَكْسَا**، وهي للأبَلَحيين، أبناء أحمد بن محمد بن إنفا، لأبناء إيدَمي بن أحمد منهم خاصة، وهم أهل

(أَتْ). لأن وسمهم حرف التاء اللاتيني.

١٧. وغرب إينبكسا مع ميلانٍ إلى جهة الجنوب تقع بئر **(إينْ كُومَنْ)** وهما بئران الأولى الشرقية حفرها أبناء محمد أحمد بن محمد المجتبى بن حمادَا بن أبانينْ، وهم المعروفون بأبناء (حنْداحنْدا). والغربية منهما حفرها الفرنسيون للأنصار.

١٨. وفي غرب شمال إينْ كومَنْ بئر **تِينْ بوكْرِي**، لأبناء محمد الأمينْ دُوَّادُوَّا، وهي مجموعة من الآبار: منها(إِغِيدَرْ) لأبناء حتاهل بن حمادَا، و(إينْ غَسِيوَنْ) للبخاري بن محمد أحمد بن محمد المجتبى بن حمّادَا.

١٩. بعد تِينْ بُوكْري في الغرب الشمالي بئر **إين اسْطَلَنْ**، لأبناء محمد أحمد بن محمد المجتبى بن حمَّادَا، وهم كَل إينكومَنْ.

٢٠. **إينْ تَبَرِمْتْ**: تقع جنوب شرقي إينْبَكْسَا، بئر واحدة حفرها الحسين الملقب بأَوَرَغَا الأبلحي، من أبناء إيدمي بن أحمد بن محمد بن إنْفا.

٢١. وفي شرق إنْ تَبَرِمْتْ تقع آبار **تِينَكَوَاتْ**، وهي ثلاثة أبيار أقدمها للحاج عبد الله بن قطب، وهي الوسطى، والشرقية حفرها في الأصل كَلْ تِينَكَواتْ، وهم من غير الأنصار، وأحياها أبناء أمدايًّا، والغربية تسمى إِينِيرَّاغَنْ حفرها بعض أبناء أَبَّانينْ أيضًا مع أهل أَقُوزْمي (قبيلة أخرى).

٢٢. وفي شمال شرق تِينَكَوَاتْ توجد آبار **إنْ تِيشَقْ**، ومعناها ذات

الأراك، لأنها حفرت في مكان قُطعت منه شجرة الأراك، وهي ثلاثة أبيار، الغربية الشمالية حفرها الظُّويَناسْ بن محمد عمر من أبناء أمْدايّا. والكبيرة منها حفرها أبناء آخْوَا (محمد بن الحاج عبد الله) أبناء لوُلَّهْ منهم خاصة، والثالثة لهم أيضا حفرها أبناء محمد الصالح (سُولَحا) وأبناء إينْ قُورْيا (محمد بن حَلِّيلِّي).

وقال: لي محمد بن عبد العزيز بن إبراهيم: إن إحدى هذه الآبار لِحُوَلَّايْ، وإن الكبيرة منها آخر من أحياها، محمد بن حُوتَّفَا. والله أعلم.

٢٣. **إينْ كِلَّا** [(١)] : جنوب شرق (إين تيشق) وهي أربعة أبيار، الأولى من الجهة الغربية منهن حفرها أبناء حَوَّدْ (حَتَّاهِلْ ومحمد المختار) وبجانبها أخرى يقال لها (إينْ أَبالُولْ) حفرها محمد بن عثمان بن أبِّين ومحمد[(٢)] بن الطاهر بن آخوا، فهما مشتركان فيها. والثالثة حفرها حسان بن هَمَنْ بن وَتَّايْ من أبناء آخْوَا، وهي الوسطى. والرابعة وهي الشرقية لعبد الله المعروف بـ(دَلَّاهُ) ابن إينْتَحْنا بن بَلَلِي من أبناء آخْوَا أيضاً.

٢٤. **إينُوشَفْ** : وهي ستة أبيار، الشرقية منها حفرها محمد بن محمد

---

(١) قال لي الشيخ محمد هَمَّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) إن كلمة (كِلَّا) اسم لرجل من قبيلة أهل الحُرْمة، سميت به هذه البئر لأنه أول من حفرها ثم منحها للأنصار بعد أن طمرت، فأحيوها. أو سميت به لأنه كان مقيما في المكان الذي حُفرت فيه.

(٢) أو ابنه حَمَمُو بن محمد بن الطاهر.

المنير بن محمد(أمَّقَّالْ) بن محمد علي (بدا). والتي بعدهاغرباً حفرها حَدَتَّا(محمد الطاهر) بن أَنَّقَّا بن إِيَّحَّا(محمد) بن عثمان. والثالثة هي الوسطى حفرها محمد الأمين المعروف بـ(أيْلي) بن مَدَتَّا. والرابعة يقال لها تَبَنْكورْتْ لعبد الرحمن بن الزبير بن محمد(الفقي) بن حَلَّايْ، والخامسة للولي بن محمدالأمين(حلَّايْ) بن عثمان بن الحاج عبد الله. والسادسة آخرهن غربا حفرها سِيدِي بن محمد بن عثمان بن أبِّيْنْ.

٢٥. **أَوْدَيْكَهْ ويقال لها**: تِينْ وَدِيكَهْ: وهي بئر واحدة، ذات ثماني خشبات حفرها هُوكَّا بن حمَّادا بن محمد علي بن أبّانِينْ، ومحمد بن عثمان بن أبِّيْن. وقال: لي محمد بن عبد العزيز: المعروف عندنا أن الخشبات الأربع الشمالية لأبناء محمد علي بن أبَّانِينْ، والأربع الجنوبية لأبناء الحاج بلَّهْ(١). ثم استحدث الفرنسيون بئرًا أخرى بجانبها تسمى (الجِيرْ) في الجهة الغربية، لإشراك البرابيش والكنتة عليها، لكثرة النزاع الكائن بينهم وبين الأنصار على هذه البئر.

(١) وقال لي الشيخ هَمّا بن حمتاهي رحمه الله: إن هذه البئر أول من حفرها القائد جؤذر لدى غزوة لبلاد تمبتكو عام ٩٩٩ هـ - انظر صـ ١٣٥ -، وبعد ذلك اندثرت ثم أحياها رجل من أهل (الحُرْمة) اسمه (البَكْري) وهو خال بني اخْوَا وبني عمر وبني أبي بكر (اللقي) من بني الحاج بلّه؛ قال: وهذا الرجل - وهو البَكْري - صديق لجدي (سيدي) ثم اندثرت البئر مرة أخرى ودفنتْها الرياح فحفرها الأنصار وأحيَوْها وتخلّى عنها البكري وتنازل لهم عن حقه منها.

٢٦. **تجُّوَغْ**: وهي بئر واحدة، حفرها عبد الله بن محمد (كلَّا) بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن أبِّينْ.

٢٧. **أما الآبار التي تقع جنوب النهر في منطقة (آرِيبَنْدَا) فأهمها في القديم ما يلي: بئر تِينْ تِيشَقْ**: حفرها حَتّاهِلْ (محمد الطاهر) بن حَوَّدْ من أبناء أبي بكر بن الحاج بلَّهْ. وهي تقع بمحاذاة مدينة تَغارُوسْتْ في الشرق الجنوبي تقريباً.

٢٨. وبعدها شرقا بئر(**إينَلْمَغْرَجْ**) وهي بموازاة الطريق الآتي من تَغارُوسْتْ متجها شرقا، وهي لأبناء محمد المصطفى بن أبي بكر بن محمد المولود بن أبِّينْ بن الحاج بلَّه. بدأها عبد الواحد، ثم أتمها أخوه الشيخ الحسن، رحمهما الله.

٢٩. وفي الجنوب الشرقي منها تقع بئر (**تِينَلَدَا**) حفرها الشيخ الحسين بن محمود من بني محمد(آخْوَا) بن الحاج بلَّهْ.

٣٠. وفي الجهة نفسها بعد عدة كيلوات تقع بئر (**تِينْتَسَلِيتْ**) وهي لجميع سكان المنطقة، من الأنصار والطوارق وغيرهم، حفرها لهم بعض الشركات الأوروبية.

ولهم جمع من الموارد المائية من آبار صغيرة وغُدرانٍ وقيعانٍ تتجمع فيها المياه شهورًا في هذه المنطقة الممتدة من مدينة تَغارُوسْتْ الساحلية غربا إلى مدينة قوسي شرقًا.

أهم هذه الموارد والتجمعات المائية: **تِينْ تَماتْ** في أقصى الغرب

بمحاذاة مدينة **تغارُوست** جنوبًا، ثم في شرق هذا الموقع: مياه **تِينْ تَمِيوِينْ**، وبعد ذلك مياه **تِيكْنِوِينْ**، ثم مياه ذوات **تِينْ وَيْرُو**، وفي جنوب **تِيكْنِوِينْ** مياه **بانِيا**، وفي شرقها الجنوبي تقريبا مياه **إِيغَشَرْ**، ثم جبل تِينْ تِيلُوتْ، وفي شرقه مياه نبكة **بُوبَكَرْ**، وفي جنوبها مياه **تِيبَتَكْرَارِينْ**، وبعدها جنوبا أيضا مع ميلان قليل إلى الشرق تقريبا مياه **إيمَكَسْ**.

والعُرف جارٍ ومستقر على أن جميع آبار الأنصار لا تُباع ولا توهَب لأحد، وأن البئر لصاحبها الذي حفرها، وله الأولوية في الانتفاع بها، لكنه لا يجوز له أن يمنعها غيره من الأنصار، ولا يجوز لشخص غير أنصاري أن يستقي منها إلا بعد استيفاء الأنصاري حاجته، ولا فرق بين الأنصار في ذلك. هكذا ذكر لي الشيخ هَمَّ بن حمتاهي - رحمه الله - وقال إن هذا يُعَد إجماعًا بين الأنصار.

وقد ذكرت أمام كل بئر صاحبها الذي حفرها ويملكها، ولكن ذلك ليس هو المهم هنا، وإن كنا ذكرناه للفائدة، بل المهم الذي نقصد إليه في هذا الكتاب هو إثبات ما للأنصار من الآبار والآثار فقط، ومن ثَمَّ لم نتكلف التحقيق في نسبة كل بئر من هذه الآبار لمن نُسبت إليه على وجه اليقين، بعد التحقق من أنها كلها للأنصار، لأن هذا الأخير هو الغرض، وإن كان ما ذكرناه من التفصيل هو المعروف. والله أعلم.

الفصل الثاني والعشرون

الهجرة إلى المملكة العربية السعودية

تقدم التنبيه على أن إمارة الأنصار استمرت إبّان الاحتلال الفرنسي لبلادهم، بسبب الاتفاق الذي جرى بينهم وبين الفرنسيين، وبموجبه كان الصلح الذي بسببه وقفت المقاومة، حيث أدركتْ فرنسا قوة إمارة الأنصار، وانتشار الطائعين لهم تحت إمرتهم في منطقة واسعة جدًا، فاضطرت إلى دعوتهم للصلح، واضطر الأنصار أيضا إلى ذلك بعد موت قائدهم الأمير محمد علي (إينْقونَّا) الذي غُدِر به فقُتِلَ غيلة.

وتضمنت معاهدة الصلح بقاء إمارة الأنصار على ما هي عليه، وأنْ لا يتدخل الفرنسيون في شؤونهم الخاصة، ولا يتدخلون في تحكيمهم الشريعة الإسلامية، ولا في إقامة شعائر الإسلام، ولا في تعليم اللغة العربية والأحكام الشرعية، ولا في علاقتهم بأتباعهم وحلفائهم، ولا في حدود إمارتهم ومحتوياتها من آبار وقرى ومرافق، ولا في أموالهم وأعمالهم .... إلخ.

فكان الأنصار يتمتعون بكامل إمارتهم في تلك الحقبة، إلى أنْ سلَّم الفرنسيون حكم بلاد أزَوادْ لدولة مالي الحديثة، عام ١٣٧٩هـ الموافق ١٩٦٠م، فلما استولت مالي على البلاد رأى أعيان الأنصار أن في ذلك إزاحةً لإمارتهم وسلطانهم، فلم يطب المقام لهم في تلك البلاد، فقد وجدوا

أنفسهم مسلوبي الحكم والتدبير في شؤون سلطانهم، ولم يجدوا وسيلة مناسبة لإصلاح الوضع أو المصالحة مع السلطة الجديدة.

ومن هنا اختار بعضهم الهجرة إلى بلاد الحجاز، وقد صارت بلاد الحجاز ضمن الدولة السعودية، وكان الأنصار منذ قديم يتحدثون عن الهجرة إلى هذه البلاد، ويلهجون بها، صغارًا وكبارًا، وعلى ذلك أدركنا آباءنا وأجدادنا، لأنهم يعتبرون أنفسهم من جملة أهلها، لما يربطهم بها من روابط دينية وتاريخية لا تخفى، فهم في الأصل من المدينة المنورة، وتاريخهم مشهور ومشهود، وهذه جزيرة العرب، والعودة إلى الأصل أحقُّ، وهي أولى من التشبّث بأي سبب آخر.

وقد أحسن ابن عمنا الشاعر النبيه أبو عبد الكريم أحمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين(ابِّينْ) حين عبَّر عن ذلك مشيرًا إلى تلك الهجرة في إحدى غرر قصائده فقال:

فلما دَهَى ذاك البلاءُ تَشتَّتُوا ... فما وَجَدُوا مَنْ تَرْتَضِيهمْ من الدُّوَلْ
فعادوا إلى الأصل القديم لعلمهم ... بأنّ الفروع في الأصول لها محلْ
فها نحن في أرض الجزيرة أمّنا ... وضَعْنَا عصا التَّرحالِ فالأمُّ لا تملّ
وإنَّا بني الأنصار أولى بقومنا ... وإنَّ بني عبد العزيز هم الأمل

* * *

وكان أشهر أمراء الأنصار من هذه الأسرة في تلك الحِقبة: الأمير محمد علي بن الطاهر، الذي خلف أباه الطاهر ـ رحمه الله ـ، والأمير محمد

المصطفى بن سِيدِي، الذي خلف أباه سِيدي ـ رحمه الله ـ. وكان الأول هو الذي يمثّل إمارة الأنصار التقليدية في الغرب، كما كان ممثلا للأنصار كلهم لدى الحكام الفرنسيين. وكان الثاني أحد أمراء الأنصار في الشرق، وقد تقدم بيان الأصل في اعتبار هؤلاء الأمراء وتعددهم في فصل (تعيين الأمراء) وبينت ثمة أن هذا التعدد إنما هو تنويع وتنظيم تقليدي جرى عليه العُرف، ولا يعني اختلافا ولا تعددًا حقيقياً.

فلم يطب لهما الوضع الجديد، فهاجرا بمن أطاعهما ورأى رأيهما من القوم إلى البلاد السعودية، وألفيا عليها الملك سعود بن عبد العزيز، وولي عهده آنذاك الملك فيصل بن عبد العزيز، فشرحا لهما الوضع، وأخبراهما بما آلت إليه أوضاع بلادهم في أزوادْ، فرحبا بهما، وأذِنا لهما بالبقاء مع من معهما من القوم في البلاد السعودية.

فكانت هذه الخطوة هي بداية استقرار الأنصار من هذه القبيلة في البلاد السعودية، ثمّ توالتْ الهجرات بعد ذلك إليها، ولم تنقطع إلى يومنا هذا، غير أنها تضعف أحيانا وتزداد حينا لأسباب تؤدي إلى ذلك.

ونستنتج من هذا أمورًا تُعدُّ ركائز يعتمد عليها فيما يتعلق بوجود هذه الأسرة في المملكة السعودية، نجملها فيما يلي:

أولا: أنهم في الأصل قَدِموا مهاجرين، يريدون الاستقرار، والبقاء في الجزيرة العربية، أصلهم الأول.

ثانيا: أن هجرتهم لم تكن إلا بعد أنْ فقدوا الحكم على بلادهم في

الشمال الإفريقي، فلم تعد لهم الهيمنة على أوضاع بلادهم التي ورثوها من آبائهم، ولم يطب لهم المقام مع حكامها الْجدد.

ثالثا: أن اختيارهم للهجرة إلى المملكة السعودية دون غيرها من البلاد العربية القريبة لهم والمجاورة كان بسبب ما يرونه ويعلمونه من انتماء متأصل قديم، فهم يعتبرون أنفسهم عائدين من المهجَر، وليسوا بمنزلة الوافدين الغرباء.

رابعًا: أن هذه الهجرة اكتسبت الشرعية الحقيقية من عدة جهات، وهي:

١. أنهم هاجروا مع ولاة أمرهم، وبإذنهم وتدبيرهم.

٢. أن مبرر الهجرة واضح جلي، وهو ما تقدم من زوال حكمهم، ووجود سلطة غير سلطتهم على بلادهم، ومثله يحق معه لكل إنسان أن يهاجر، على أساس أن ذلك آخر العلاج، إذْلم يكن في مقدورهم أكثر من ذلك، فليس ترك الوطن بالأمر الهين على النفوس، فلا يحمل عليه إلا خطب جلل.

٣. أنهم لَمّا قَدِموا إلى المملكة رَفعوا أمرهم إلى ولاة الأمر، واستأذنوهم في الاستقرار والبقاء، وكان التماسهم للإذن في الاستقرار شفوياً وكتابياً، وهو عام لجميع أفراد هذه الأسرة، في جميع هذه العصور المتلاحقة، كما أنه موجه لجميع ولاة أمر هذه المملكة حاليا ولاحقاً. أما الالتماس الشفوي فقد حدثنا به غير واحد أنه قدمه الأميران محمد علي بن الطاهر، ومحمد المصطفى

بن سِيدي محمد، وأما الالتماس الكتابي فقد قدمه الأمير محمد المصطفى (إتَّها) إلى الملك سعود بن عبد العزيز وأخيه فيصل، وهو موجود مُدَوَّن ومعروف.

ولأخينا محمد الصالح بن محمد بن محمد الأمين بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن محمد الأمين (أبِّينْ) جهود مباركة في محاولة المحافظة على هذا الأساس، وإثبات استقرار هذه الأسرة في المملكة بناءً على المشروعية المتقدمة، ليكون أمر هذه الأسرة مسلسلا مبنيا على أسس شرعية صحيحة مستقيمة، وهو من جملة المهاجرين الأُوَل الذين قَدِمُوا في تلك الفترة، حيث جاء بمعية والده وإخوته، وخاله الأمير محمد المصطفى المعروف بـ(إتَّهَا) المتقدم ذكره، فلما توفي خاله ـ رحمه الله ـ، وسافر الأمير محمد علي بن الطاهر إلى المغرب، لم يبق في الساحة من يشغلها ممن يواصل تلك الجهود المذكورة، ومن هنا رأى مع من معه من الأنصار، أن يمثِّلهم في القيام بالمهمة المتقدمة في شأن استقرار هذه الأسرة في المملكة العربية السعودية، ولا يزال على هذا الوضع، سدده الله وأعانه.

وقد حدَّثني محمد الصالح المذكور أن خاله الأمير محمد الصطفى إتَّها قدَّم كتابين أحدهما قدمه للملك سعود بعد مقابلته إياه، حين أراه أوراقه وأعلمه أنه أمير قومه، وكان معه الأمير محمد علي بن الطاهر وشهد له بذلك عند الملك سعود وأقره عليه، وقدم الكتاب الآخر إلى وزير التعليم، وهو عبدالملك آل الشيخ آنذاك، لأجل قبول أبناء الأنصار في المدارس، قال:

فجاءت الموافقة عليه، وهي تتضمن قبول أبناء المهاجرين الأنصار في التعليم في المملكة العربية السعودية، وعلى تلك الموافقة درس جميع الطلاب الذين درسوا في ذلك الوقت من أسرتنا في مكة المكرمة، منهم محمد الصالح نفسه وإخوانه، وأبناء محمد (حمَّا)بن محمد الصالح (ودسَّا) وإبراهيم بن محمد الأمين (بَرْكَنْجَيْ) وأبناء عبد الله بن محمد الصالح(سولَحا) وأبناء الصادق . . . وغيرهم.

قال: وأما الكتاب الثاني فأُحيل إلى وزارة الداخلية وفيه التماس من الأمير محمد المصطفى بن سِيدِي محمد الأنصاري إلى الملك سعود للسماح باستقرار الأنصار، قال فأخذت المعاملة مجراها في وزارة الداخلية، فكان الشيخ يتابعها إلى أنْ حدثت حادثة سِجنه، فتوقفت المعاملة، قال: وبعد سجن خالي أخذتُ أراجع جميع الدوائر الحكومية وأقدم المعاملات باسمه، وظللت على ذلك زمنًا قبل وفاته وبعد وفاته، فكانت الأوامر تخرج باسمه وأنا آخذها باعتباري وكيله.(حدثني بهذا في منزله الكائن في الرياض).

وحدثني أبو المنذر موسى المعروف بـ(محمد أوْلَى) بن المنذر بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين(ابِّينْ) ـ وهو من المهاجرين الأوائل إلى الحجاز ـ قال: لما قدِمَ الشيخ محمد المصطفى المعروف بـ(إتَّهَا) قَدَّمَ أوراقه إلى الملك سعود بن عبد العزيز وأخبره أنه جاء مهاجرًا مع طائفة من قومه، قال: وأراه وثائق كان يحملها تثبت كونه أميرًا على قومه، وأنه أحد زعماء الأنصار، قال: فرحب به الملك سعودٌ وسمح له بالبقاء مع قومه في

المملكة، وأعطاه كتابًا يقدمه إلى وزارة الداخلية لتسجيل أسرته في المملكة.

قال: فقدم الشيخ محمد المصطفى معاملة باسمه وبمن معه من الأنصار إلى وزارة الداخلية، وأخذت المعاملة مجراها في الوزارة، وكان ذلك في عامي ١٣٧٩و١٣٨٠هـ. وبعد ذلك بقليل قدمت فرنسا ومالي معاملة إلى المملكة فيها دعوى ضد الأميرين محمد المصطفى (إتَّهَا) ومحمد علي بن الطاهر، والدعوى تتضمن اتهامهما بمعارضة تحرير الأرقاء، فصدر الأمر بالقبض عليهما للتحقيق، فأما الأمير محمد علي فتمكن من الانفلات والسفر إلى الخارج، ثم تابعته مالي وفرنسا حتى قُبِض عليه في الجزائر فسُلِّم لمالي، وسُجن بضع سنين ثم تمكن من الخروج، واستقر في المغرب إلى أن توفي - رحمه الله -.

وأما الأمير محمد المصطفى فقد أُحيلَ إلى السجن، ثم حُوكِمَ فظهرتْ براءته مما ادُّعي عليه، فخرج من السجن بعد أن أمضى فيه حوالي ثلاث سنين أو أربعا، فلما سُجِن توقفت المعاملة في وزارة الداخلية، وقد مرض في السجن وكان آنذاك شيخا طاعنًا في السنِّ فضعف جدًا واختلَّ عقله، فعاش بِضعَ سنين بعد خروجه من السجن في المدينة المنورة في ضعف شديد وسوء حال، قال أبو المنذر: ولكنه مع ذلك كله لم يزل لسانه رطبا بقراءة القرآن، ليلا ونهارًا، كلما ختمه عاد فيه، وكان يحفظه حفظًا عجيباً! يقرأ غيبا كأنما ينظر إلى المصحف! ولم يزل يقرؤه حتى فاضت روحه - رحمه الله -.

قال أبو المنذر موسى بن المنذر: وبعد وفاة الأمير إتَّها الأنصاري

اجتمعتُ أنا أيها المتحدث، مع محمد الصالح بن محمد بن محمد الأمين، والصِّدِّيق بن محمد عالي، والصِّدِّيق بن محمد، ومحمد المختار بن الصادق وأحد إخوانه، اجتمعنا في الرياض، فاتفقنا على القيام بإحياء تلك المعاملة، فاتفقنا على أن نقدم أنفسنا من جديد إلى وزارة الداخلية، وكان ذلك في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ، فكتبنا كتابا زكَّانا فيه وعرَّف بنا بعض الأعيان والعلماء. قال: وذكروا في الكتاب أنهم جاؤوا مهاجرين إلى المملكة وكان معهم شيخهم وأميرهم الذي يمثلهم، فقدم لهم معاملة، ثم إنه توفي فانقطعت المعاملة، فصاروا الآن بلا شيء يجيز لهم الإقامة في المملكة!

قال: فطلب منهم وزير الداخلية أن يقدموا أحدهم على أنه ممثلهم يسعى في شأنهم ويتولى متابعة معاملتهم، قال: فاتفقنا على محمد الصالح بن محمد بن محمد الأمين، لكونه أعرف منهم بطرق التعامل مع المسؤولين ومراجعة المعاملات، وله اتصال بكثير من الشيوخ والأعيان، ويتميز في ذلك بنشاط غير موجود في غيره منهم.

قال: فقدمْنا تلك المعاملة فنجحتْ وعليها استقر إثبات مشروعية إقامة المهاجرين الأنصار في المملكة العربية السعودية رسميا إلى يومنا هذا. (حدّثني بهذا في منزله الكائن في المدينة المنورة).

ومنذ عام ١٣٧٩هـ إلى يومنا هذا ١٤٣١هـ تُعدُّ أسرة الأنصار الإنْفِيين جزْءًا من سكان المملكة العربية السعودية. «والله يرزق من يشاء وهو القويّ العزيز».

الفصل الثالث والعشرون

تفريعٌ في سِيرةِ أُمَراء الأنصار من بني أَبِّينْ

ذكرتُ جملةً من أمراء هذه القبيلة الإنفية الأنصارية، ونبهت على أن في كل بطن من بطونها أُمراءَ وأعيانًا في كل زمنٍ، وأنهم متعاونون متفاهمون في شؤونهم وسياسة قبيلتهم، ولا فرق بينهم في حقيقة الأمر، وإن كان كل أمير ينتمي إلى بطن معيَّن، أو بيتٍ على حِدةٍ، ولكنهم يمثّلون القبيلة كلها عند الحاجة، والواقع يشهد بذلك، ولم يسعني في هذا المختصر أن أُفصِّل في أُمراء كل بطنٍ من بطون بني إنْفا، لقلة المعلومات التي تتوافر لديّ عنهم، ومن ثَمَّ اكتفيتُ بالاقتصار على بعضهم ممن توافرتْ لَدَيَّ معلوماتهم خاصةً، كمن تقدم ذكرهم وتفصيل أخبارهم، وذكرتُ لكل أهل بيت أمراءهم بحسب العُرف وواقع الحال، ولم أجمع من سيرهم وأخبارهم ما يكفي لإفراد تراجم وافية لهم.

وممن توافرت لديَّ بعض المعلومات عنهم أمراءُ وأعيانُ بني محمد الأمين الملقب بـ(أبِّينْ) بن الشيخ عبد الله (الحاج بلَّهْ) بن قطب بن محمد بن إنْفا الأنصاري، وسوف أتناولهم بإيجاز بقدر ما بلغني من أخبارهم وسِيرِهم، فأقول مستعينا بالله:

أَبِّينْ: كلمة أُطلقت لقبًا على محمد الأمين بن الشيخ عبد الله المشهور بـ(الحاج بلَّهْ) بن الشيخ قطب بن الشيخ محمد بن محمد المختار المشهور

بـ(إنْفَا) الأنصاري المغربي التنبتكي رحمهم الله جميعاً.

وكلمة (أبِّينْ) ـ فيما يبدو لنا ـ مأخوذة من كلمة (أَمِينْ) الشق الثاني من(محمد الأمين) مع إبدال الباء ميمًا مشددة، لأن الباء والميم حرفان متجانسان، ويتبادلان المواقع في كثير من الأحيان، وربما انقلبت الباء ميما إذا سكنت وتلتها الميم، كما قرئ بذلك في كلمتي (اركَبْ مَعنا) من قول الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة هود ٤٢] ولا يبعد عندنا ـ أيضا ـ أن تكون كلمة (أبِّينْ) محرفة من كلمة (أبِينَا) أو (أبي) على أن الأصل في ذلك نطق صغار أبنائه لهذه اللفظة في مناداة أبيهم، ثم حُرّفتْ الكلمة مع مرور الزمن حتى صارت إلى (أبِّينْ) وكثر استعمالها حتى تنوسي أصلها واقتصر عليها في العَلَمية. وكل ذلك له نظائر لا تحصى كثرة، وهو من الأصول المشهورة في ألقاب كثير من أعلام هذه الأسرة.

وهناك اصطلاحان أُطلقا على هذا الحي من الأنصار ـ غير اصطلاح (بني أَبِّينْ) ـ وهما:

١. **أولاد إدريس.**

٢. أهل خيمة عثمان.

أما الاصطلاح الأول ـ **أولاد إدريس** ـ: فهو من تسمية الأنصار لهذا الحيّ منهم، وهو الذي صار علَمًا عليهم إلى يومنا هذا، ومناسبة ذلك باختصار أن **أولاد إدريس** حي كبير من أحياء قبائل البرابيش الحسانيين الذين

يسكنون صحراء تنبتكو مع الأنصار، وقد انحاز إليهم الشيخ عثمان بن أَبِّينْ بحي بني أبيه، فاختلطوا بأولاد إدريس وسكنوا معهم حتى عُرفوا جميعًا بهذا الاسم، فأُطلقَ عليهم تمييزًا لهم عن سائر الأنصار الإنفيين التنبتكيين. وتفصيل ذلك سيأتي قريباً.

الأمير عثمان بن محمد الأمين(أَبِّينْ) ـ رحمه الله ـ:

أول أمراء هذا البيت من الأنصار هو عثمان بن محمد الأمين أَبِّينْ، فقد تولَّى إمارة بني أَبِّينْ بعد أبيه. وقال لي الشيخ محمدُنْ بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عثمان هذا: «إن عثمان كان أميرًا لجميع بني الحاج بلَّهْ في زمنه، له عليهم الهيمنة والسلطان، وكان مطاعاً مسموع الكلمة فيهم، لِمَا كان يتمتع به من زيادة بسطة جسم، ورجاحة عقل ظاهرة، مع تحمله للمسؤولية وحرصه على القبيلة كلها» حدثني بذلك في ٢١/ ١/ ١٤١٧هـ.

وكان عثمان من صغار بني أبيه، وقد عاش في زمن أبناء إخوانه الكبار، وهو ثالث ثلاثة أشقاء، من أبناء محمد الأمين الملقب بـ(ابِّينْ) وشقيقاه هما: محمد المولود، ومحمد علي، وعثمان أكبر الثلاثة، وأمهم ابنة محمد علي بن محمد إيمَلَّنْ المعروف بـ(أبَّانِينْ).

وتزوج عثمان آمنة بنت ابن عمه الشيخ محمد الآمين الملقب بـ(حلَّايْ) بن عثمان بن الحاج بلَّهْ بن قطب، ولزواجه بها قصة طريفة يرويها الخلَف عن السلف من طرافتها، وهي أن عثمان ـ رحمه الله ـ قد بالغ لابن عمه مبالغة غير معتادة في المهر، فقام الشيخ حلَّايْ ـ رحمه الله ـ وقد اجتمع الناس في

المسجد فقال: «اعلموا أنَّ مَنْ أراد من أبناء عثمان بن محمد الأمين (ابِّينْ) أن يتزوج امرأة من ذريتي فمهرها مدفوع بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة»!!

وقد تقدمت قصته مع عمه عثمان بن عبد الله(الحاج بلَّه) حين أرسله إلى حيٍّ أخواله من بني محمد إيمَلَّنْ الملقب بـ(أبَّانِينْ)، لينزع منهم طبل الإمارة، لتلك الحادثة التي تقدم ذكرها وتفصيلها، فانطلق عثمان بن أَبِّينْ على صهوة جواده يؤم الخيمة التي عُلِّقَ فيها **الطبل**، وهي خيمة عظيمة طولا وعَرضًا، وتسمى خيمة الإمارة، وفيها **الطبل** معلقاً على أعمدة معترضة في وسطها، فلما رأوه مشمراً مقبلاً جادّاً لا يلتفت ولا يلوي على أحد عرفوا قصده ومراده، وكان قد بلغهم تهديد عمهم عثمان بن الحاج بله لهم من قبل، فتحاشوا ملاقاته ومعارضته.

فاندفع الفارس بجواده إلى داخل الخيمة وكان رجلاً طُوالاً، على جواد فارع فاره، فلما أراد دخول الخيمة اعترضه طرفُها الذي عَلَتْهُ هامتُه، فنزع سيفَه فشق به الخيمة لئلا يلزمه أن يطأطئ رأسه، فتقدم نحو **الطبل** متدليا في وسط الخيمة، فنزعه وحمله بيده وعاد أدراجه، ولم يكلم أحداً ولم يكلمه، فسلَّم الطبل لعمه عثمان بن الحاج بلَّهْ، ثم سلمه الشيخ عثمان لابن أخيه الأمير محمد الأمين الملقب دُوَّادُوَّا ـ رحمه الله ـ، على ما تقدم تفصيله.

وكان عثمان رجلا ذا مال من إبل وبقر خاصة، ثم من عموم ما يملكه أهل البادية من خيل وشاء وخدم ونحو ذلك، فأغار بعض الصائلين الصحراويين على سائمته فأخذوها وهربوا بها، فلم يبق معه إلا قليل من البقر

والخيل، فانحاز إلى رجل ثري جار لهم من قبيلة البرابيش المذكورة، اسمه «عليّ» فحالفه على الجوار والتعاون والمؤاخاة، وعلى أن يتولى عليٌّ البربوشي الإبل وأسفارها وما تأتي به من الميرة من بلاد المغرب وملح (تَوْدَنِّي) ونحو ذلك. ويتولى عثمان الأنصاري أمر الخيل وإعدادها، والبقر ورعاتها، ونحو ذلك. فتمكن بذلك من تعويض ما فاته من ماله، واستطاع بذلك أن يواصل النفقة والرعاية لضعفاء إخوانه وبني عمه، ومضت الأحوال على هذا سنين.

ثم تُوُفيَ عثمان بن أَبِّين ـ رحمه الله ـ، وهم على بئر (وَرُوزِيرْ) ودُفِن على تل جنوبي تلك البئر اسمها (تاذْرارْتْ) قال لي الشيخ محمد (هَمَّا) بن حمتاهي: «لقد أراني البخاري بن إهالَسَنْ قبره، وقال لي: أرانيه والدي». وإهالسَنْ هو محمد المولود بن محمد الملقب(بقُّولِي) بن أبي بكر بن الحاج بلَّهْ، وإهالسن هذا هو الذي كان مع عثمان في جوار البرابيش إلى أنْ توفي عثمان.

ولما تُوُفي عثمان كان له ابنتان اثنتان إحداهما أم محمد الملقب (إينبَرْهَيْ) بن محمد الملقب (أنَّايْ) بن محمد المولود بن أبِّينْ، ولقبها(سادِدَة) والأخرى أم محمد المصطفى بن أبي بكر بن محمد المولود بن أبّينْ، ولقبها(تِلَّا). وله ابن واحد هو محمد بن عثمان بن أَبِّينْ، وكان محمد شاباً آنَذاك، قال الشيخ هَمَّا: وكان قد أطلق الخط الشَّعْري في نصف الرأس ـ وهي عادة البرابيش إلى يومنا هذا ـ ولا يزال الشاب كذلك إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب الأولى فيوفر الْجُمَّة بعد ذلك على الرأس ويرسلها على قفاه.

فلما توفي الأمير عثمان وترك ابنه محمدًا وأخواته في أولاد إدريس قام أعمامه وأبناء أعمامه من بني الحاج بلَّه فأَتَوْا إليه واستأذنوا من جاره وحلِيفِ أبيه عليّ البربوشي، فرحلوا بمحمد وحيِّه جميعاً من ديار برابيش أولاد إدريس إلى ديار الأنصار، وكان الشيخ الفقيه محمد بن حلَّايْ - رحمه الله - هو الذي تولى ذلك بمن معه، فلما قدموا على إخوانهم من أبناء الجاج بله سموهم «**أولاد إدريس**» لما تقدم من سكناهم ومحالفتهم لقبيلة «أولاد إدريس» البربوشيين، وأطلقوا على محمد بن عثمان - أميرهم - : (ابن علي)، أو محمد بن علي، يعنون علياً البربوشي الذي تقدم ذكره، وغلبت تسمية «**أولاد إدريس**» على بني أَبِّيَنْ منذ ذلك الحين إلى يومنا هذا، كما غلب لقب: «ابن عليّ» على محمد بن عثمان بن أَبِّيَنْ منذ ذلك الحين.

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن الشيخ محمدهَمَّا بن حمتاهي - رحمه الله - الذي حدثني بهذا الخبر قال لنا: لما جاء الأمير محمد بن عثمان من «أولاد إدريس» كان لا يتكلم إلا اللهجة الحسانية وهي لهجة البرابيش، وهي من اللهجات العربية، هو وأخواته، ومن ثَمَّ كان أبناؤه من بعده كلهم يتكلمون بها، غير أنهم تعلموا اللهجة الطارقية فيما بعدُ، قال: وكان الأمير سِيدِي - رحمه الله - هو الذي اشتهر أكثر من غيره بملازمة التحدث بالحسَّانية بسبب كثرة اختلاطه بالبرابيش.

وأما لقب: **خيمة أهل عثمان**: فهذه التسمية التي أطلقتها قبيلة أولاد إدريس المذكورة على بني أَبِّيَنْ منذ أن سكنوا معهم واختلطوا بهم، وكان من

شأنهم أن يسموا كل حي أو بطن من بطون القبيلة: (خيمة أهل كذا) ويضيفون لفظ (خيمة) إلى أمير القبيلة أو جدها، وعثمان هو عثمان بن أَبِّيِنْ المذكور، ثم فشت هذه التسمية حتى عرف هذا الحي بين قبائل البرابيش بـ(خيمة أهل عثمان).

وحدثني الشيخ محمد المعروف بـ(هَمَّا) بن محمد الطاهر المعروف بـ(حمتاهي) بن سِيدي بهذه الأخبار ليلة الخميس لسبعَ عشرةَ ليلةً خلَتْ من رمضان سنة خمسَ عشرةَ وأربعمائة وألفٍ من الهجرة النبوية، بعد أدائنا لصلاة التراويح في مسجدي بمدينة الرياض، وكان ذلك بحضور ابنه أبي بكر وأخي عبد الرحمن.

وذكر لنا في تلك الليلة كثيرًا من الأخبار في تاريخ الأنصار من أهل تمبتكو، وتاريخ قبائل «أَزَوادْ» وكان يسند كل ذلك لأبيه عن جده، ولشيخه محمد المختار بن حوَّدْ، ولبعض أعيان قبائل البرابيش وأهل أَرَوانْ وتمبتكو، **وقال لنا: تولَّى الإمارة بعد محمد بن عثمان ابنُه سِيدِي محمد المعروف بـ(سِيدِي) اختصارًا، ثم محمد الطاهر المعروف بـ(حمتاهي) بن سِيدِي، ثم محمد المصطفى المعروف بـ(إتَّها) بن سِيدِي، ثم محمد المولود المعروف بـ(امَّلُو) بن حمتاهي بن سِيدِي.**

ذِكْرُ محمد بن عثمان بن أَبِّينْ ـ رحمه الله ـ:

تقدم أن أمه آمنة بنت الشيخ محمد الأمين الملقب: حِلَّايْ بن الشيخ عثمان بن (الحاج بلَّه) فهي ابنة عم أبيه، ونشأ محمد بن عثمان نشأة أبناء

الأعيان، وفي وقت تقدم فيه السنُّ بأبيه فلم يجد بداً من أن يتولى كثيراً من شؤون قبيلته في حياة أبيه مع صغر سنِّه، ونشأ مع عربِ الصحراء على الفروسية وتحمل المشاق، ومات أبوه ـ رحمه الله ـ ولم يزل محمد في ريعان شبابه، ولم يكن له أخ ذكرٌ فزادت عليه الأعباء، فقد وجد نفسه وهو عمود بيت مليء بالنساء والأيتام والموالي، وحوله أبناء عمومته وأبناؤهم.

كان محمد بن عثمان ـ كأبيه ـ رجلاً شجاعاً قوياً تبدو عليه أماراتُ الرجولة، ويتمتع بقوة العقل وحسن التدبير، فكان عليه أن يظهر بمظهر الأمير الهمام المجرّبِ للأمور، في بيئة كانت تعج بالمخاطر، لما ينتابها من قطاع الطرق، والأعداء الذين تُرتقب غاراتهم على الأحياء في كل حين ليقتلوا وينهبوا ويشرِّدوا، وقد كانت تلك البلاد آنذاك ـ وهو نهايات القرن الثالث عشر الهجري ـ مسرحًا لغارات أعراب الساحل الأطلسي الذين يقومون بغارات منتظمة في منطقة (أزواد)كلها في عصابات مسلّحة بالسلاح الناري، الذي يأتون به من مراكش وطنجة وفاس ونحوها من مدن المغرب الأقصى، ويشترونه من الأسبان عبر شواطئ الأطلسي، وعاثوا في الأرض فسادًا عظيما، فقتلوا ونهبوا ما لا يُحصى من الأموال والعبيد وسائر ما يملكه الناس، وأصاب الناسَ منهم بلاءٌ عظيم، حتى تمكن الناس من امتلاك الأسلحة النارية في أخرة، فهزموا به تلك العصابات.

ومع هذه الظروف الشديدة من جهة أمن البلد، كان القوم في بادية لها ظروفها الملحة لسائر مقومات العيش والحياة، ناهيك عما تستدعيه العلاقات

بالقبائل المجاورة، ولهذه الأسباب لم يجد محمد بداً من أن يرحل بإخوانه وأهل بيته ومَن معه من الأنصار وجميع قبيلته إلى أبناء عمومته من بني (الحاج بلَّه) ولا سيما بعد إلحاحهم عليه في ذلك، كما تقدم.

وكانت قبيلة الأنصار عموماً تمتع بمكانة ومناعة خاصة دون كثير من قبائل الصحراء، فترك جوار حي «أولاد إدريس» البربوشيين، ولما نزل الأمير المذكور على إخوانه وبلغ سن الزواج تزوج بامرأة تقية صالحة، هي فاطمة بنت محمد إكْنَنْ المعروف بـ(حِمِّيكَّا) من قبيلة (إِيمَقَّشرَنْ) اللمتونية المغربية المشهورة في تنبتكو.

ولم يكن زواجه منها مرضيا للأنصار ـ حسبما ذكر لي الشيخ أكْحتي بن حُوُلَّايْ ـ حتى إن بعضهم هجره وأظهر له الإنكار والعتاب، معللين ذلك بأنه تزوج امرأة لا تكافئه! لأنها غير أنصارية، وأجابهم بأنه توسَّم فيها وفي أبيها الخير، وأنَّها من قوم ذوي حسَبٍ معروف ومكانة مرموقة، وقال لهم الشيخ الفقيه محمد بن حلَّايْ: دَعوه فقد توسمتُ فيه أن يكون له شأنٌ، وأرجو أن يظهره الله ويعلو أمره على جميع إخوانه، (معنى كلامه على ما حدثنيه الشيخ أكحتي). ومن أجل ذلك همَّ بالرجوع إلى حلفائه البرابيش وأن يترك جوار قومه بعد هذه الحادثة، فأخذ زمنا منحازًا إليهم، ثم استقر أخيرًا مع الأنصار عند آبارهم في الصحراء.

أنجب محمد بن عثمان أربعة بنين، هم:

١. إبراهيم. ٢. محمد الطاهر. ٣. سيدي محمد. ٤. محمد الهادي.

وأمهم جميعًا فاطمة بنت محمد إِكْنَنْ (حمِّيكًا) المقشرية اللمتونية المتقدم ذكرها.

وأنجب بنتاً واحدة هي: تِمَمَّة بنت محمد بن عثمان وهي أمُّ أبناء محمد البشير المعروف بـ(حبُّوبًا) بن محمد عالي بن أَبِّينْ، ما عدا جاكراً وعبد الله منهم، فأمهما تالَّاتْ بنت الصادق بن حلَّايْ بن عثمان بن الحاج بلّهْ.

ورُزق محمد مالاً كثيراً وبركة وطاعة في قبيلته واحترامَ سائر الأنصار له، لما كان يتمتع به من شجاعة فذَّة وقوة ومهابة، ورجحان عقل وحسن سياسة وتدبير، وكان الأنصار يعرفون له ذلك ويجلونه، ومن عجيب ما يُروَى وطريفه أن بعض الأنصار كان يسمي محمدًا هذا: «الرعد»! ذكر لي ذلك حفيده الحسن بن محمد بن سيدي محمد بن محمد، قال: وسبب ذلك أنهم لم يَرَوْا رجلا في زمانهم أقوى منه ولا أشد بأسًا عند اللقاء، ولم يجرؤ أحد على مبارزته أو معارضته يومًا من الأيام.

وتقدم السن قليلاً بالأمير محمد بن عثمان فوافاه الأجل المحتوم على الساحل الشمالي من النهر المعروف هناك، ودفن في المقبرة الكبرى في (أُوفِيْبَتْ).

وكان أبناؤه كلهم من أعيان قبيلة الأنصار، وإليهم يأوي جميع أبناء أَبِّينْ[1]، وكانوا من الرجال المعدودين المرموقين، غير أن بينهم فوارق ظاهرةً في اهتماماتهم، فمحمد الهادي ومحمد الطاهر كانا من الشجعان

(١) ذكر لي ذلك الحسن ابن محمد بن سِيدي بن محمد بن عثمان، والشيخان هَمَّا وامَّلُو ابنا حمتاهي.

البواسل، والفرسان الأماثل، وكانا يتمتعان بقوة جسمية وشارة أَخَّاذةٍ، مع سداد رأي، والاضطلاع بالمهام الكبار، وقد كان محمد الطاهر من كماة الأنصار البارزين، له مواقف عظيمة في حروب الأنصار، وفي معركة (أُوفِيبَتْ) العجيبة العظيمة ساخت قوائم فرسه في وحل الطين فارتجل عنه ونازل العدوّ، وكان مع ذلك من النساك العبَّاد.

وقال لي الشيخ محمد المعروف بـ(إينْتَحَمَّدِينْ) بن المنذر بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ إن عمه محمد الطاهر بن محمد بن عثمان بن أَبِّينْ ـ رحمه الله ـ، كان رجلاً شجاعاً عابداً لا يفارق المسجد والسلاح، وقد كان خرج يوماً بعد العصر فعدا عليه كلب مسعور عظيم يريد افتراسه، فاخترط سيفه فضرب به وجه الكلب، فأسقط أنفه وبعض وجهه، فهرب الكلب حتى دخل بيت مالكه، فلم يلبث إلا قليلا فنفق، ثم شكا صاحبه إلى الشيخ إبراهيم (بايّا) بن حلايْ أمير الأنصار وشيخهم آنَذاكَ، وكان أصحاب الكلب من الطوارق، فقال الشيخ إبراهيم (بايّا) للشاكي امكث حتى إذا صلينا العشاء في المسجد، فقم فأشِرْ إلى قاتل كلبكم بأصبعك، ولا تتحدث عنه الآن فيختفي، فسمع محمد الطاهر ذلك فأسرّه في نفسه، واغتاظ لذلك فوجم، حتى إذا صلى الناس العشاء، قام صاحب الكلب أمام الناس فأشار إلى محمد الطاهر أنه الذي قتل كلبه، فبادره محمد الطاهر بضربة بصفحة سيفه، على خده فخر صريعاً، فاعتذر بايّا لهم، وقال لهم إن هذا الرجل لا يُشار إليه بسوء، ولا يواجه بالمكروه، ولم يفعل بك هذا إلا لكون كلبك معتديا عليه، ولا أستطيع

أن أكلمه إلا بالتي هي أحسن أنا أو غيري، فكيف تشير إليه على أنه معتدٍ وكلبك الذي اعتدى عليه؟!.

قال: الشيخ: إينْتَحَمَّدِينْ إن هذه القصة رواها له عمه المهدي بن سيدي هكذا، وقال إنها ليست بالقصة التي حدثت لمحمد الهادي بن محمد أخي محمد الطاهر المذكور، حين قتل كلب أمير قبيلة إيموشاغ (دنبلوش) أو (أتّنَاسْ) وأكد لي أنهما قصتان منفصلتان.

الأمير سِيدِي محمد بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين (أَبِّيِنْ)

لما تُوفي الأمير محمد بن عثمان ـ رحمه الله ـ آلتْ أمور القبيلة بعده إلى ابنه سيدي محمد المشهور بـ(سِيدِي) تلقائيا، وكان يتمتع بصفات قيادية عدة كالصبر والجود والكرم والسخاء الكبير، وحب الخير للناس، وحسن التدبير والسياسة، ومعرفة الأوضاع والظروف المحيطة، ومعرفة أعيان أهل زمانه، كما كان حليمًا ذا أناةٍ ورَوية في الأمور، ومن أمثلة حلمه وأرْيَحيّته ـ وهي كثيرة ـ أن بعض بني عمه ضرب يدَه بالخنجر حتى كاد يقطعها، فأبى أن ينتقم منه، فلما همَّ الناس بالانتقام له قال لهم أرجو ألّا تزيدوا علي ما أصابني، فإن انتقامكم من ابن عمي قطع ليدي الأخرى وزيادة للألم علي، فإياي أن أسمع أن أحدًا منكم تعرض له بسوء!!

وكان رجلاً بارزًا في الساحة يؤمه أهل الوجاهة من كنتة والبرابيش والأنصار والطوارق وسائر سكان المنطقة، لشهرته وجوده وكرمه. وكان الشيخ الأمير الهمام محمد علي (إنقُونّا) ـ رحمه الله ـ، يعرف له ذلك، حتى

قال فيه: «ما رأيت في الأنصار مثل هذا الرجل، ولوكان في غير هذا البلد لكان ملكًا» هكذا حدثنيه الشيخ همَّا بن حمتاهي، والحسن بن محمد بن سيدي، وآخرون.

وكان الشيخ الأمير إبراهيم بن حِلَّاي - رحمه الله -، يجله كذلك ويعرف له مكانته، ولا غروَ فقد كان سيدي محمد - رحمه الله - ساعدَه الأيمن، ومعاونه في شؤون بني الحاج بلَّه، وله مواقف معه يطول ذكرها تدل على ثقته فيه، من أشهرها أخذه برأيه في تولية حمتَّالْ بن الصادق، أمر السفارة بينهم وبين الحاكم الفرنسي، كما تقدم ذكره.

وحدثني محمد(همَّا) بن محمد الطاهر(حمتاهي) بن سيدي محمد، والحسن بن محمد بن سيدي محمد، وبعض أعمامي، قالوا: إن الشيخ الأمير محمد علي إنقونَّا نازل الفرنسيين وغلبهم في عدة معارك، ثم إن كثيرا من أنصاره قد خانوه واصطلحوا مع الفرنسيين سرًّا، فانتقل إلى إخوانه شرق بلاد تمبتكو، واستقبله الأمير سيدي محمد بن محمد بن عثمان بن أَبِّيَنْ، استقبالا عظيمًا، وبالغ في إكرامه - وهو أهل لذلك - وأهدى له جمَلا بعيرًا متميزًا عليه جميع عُدة الرحل المعتادة، وجاريةً شابة، وتُحفًا وأشياء أخرى، قالوا فَسُرَّ الأمير إنقونَّا جدًا وكبر في نفسه ما رآه من الشيخ سيدي محمد، وتبيّن له أنه ذو شأنٍ، فطلب منه الشيخ إنقونا أن يتنازل له عن الإمارة، فأبى سيدي، وقال محمد علي إنقونَّا «ما رأيت أميرًا في بلادنا أعظم من هذا الرجل! ولو كان في غير هذا البلد لكان ملكًا»وكان سِيدِي - رحمه الله - أميرًا يفعل أفعال كبار الأمراء.

وقد كان إينْقونَّا يعرف سِيدِي من قبلُ ويعرفُ مكانته، ولكن زادت عنده مكانته بعد هذه الحادثة، وقد حدثت من قبل حادثة أخرى بينهما مهدت لتلك المعرفة، ذلك أنهم في أثناء رجوعهم من غزوة تِمْتَغِينْ وفي أثناء نزولهم في منزل على بعض الآبار، حصل من بعض مرافقيهم أمر أغضب الأميرَ إينْقونَّا غضبا شديدًا، فجعل يتهدَّد ويتوعد، حتى اشتد ذلك على بعض من كانوا معهم، وكان إينْقونَّا ـ رحمه الله ـ رجلا شديدًا أعطاه الله بسطة في الجسم، وكان من الأقوياء والشجعان الذين تهابهم الأبطال، مع كونه ملكا مهابًا، فلما رآه سِيدِي ـ رحمه الله ـ في هذه الحال، شديد الغضب يتحرك ذاهبا وجائيا في موضعه، وقد امتلأت النفوس خوفًا منه وتهيابًا، أمر أحدَ رجاله الأبطال الأقوياء وهو خاله محمد الأمين المعروف بـ(إينْ سَبَّا) بن محمد إكْنَنْ الْمَقَّشَريّ أنْ يعمد إلى إينْقونَّا فيلتفَّ خلفه فيمسكَ به ويثبّته حتى لا يستطيع الحراك، فأدار خلفه وأمسك بعضديه وصدره وضمه إلى نفسه، فانتفض إينْقونَّا كأنه السبُع الضاري، فوجد نفسه كأنما وثّق بالحديد من شدة مِسكَةِ الرجل به! فقال في غضب وتعَجُّب: مَنْ ذا الذي يمسِكُ بي؟!! فرفع سِيدِي صوته قائلاً له: أنَا الممسك بك! قال الراوي: فعندئذ بَرَدَ إينْقونَّا، وقال: نَعمْ إذَنْ، فأمر سيدي إينْ سبَّا أن يرسله، فأرسله، فانطفأت جمرة غضبه، وضحكوا كلهم مما حدث، وجعل إينْ قونَّا ـ رحمه الله ـ يقول لسيدي: إنَّ الفتى الذي أمسك بي لجدير بالمكافأة والتمييز!

جمع سيدي أبناء أبّين على نفسه وكفل أيتامهم وقام بشؤونهم الخاصة

والعامة، وتتبع ضعفاءهم فأنفق عليهم وجعل لهم منائح يتمعشون منها، وزوجهم بناته، وأحاطهم بالعناية التامة، فنظروا إليه نظرة إكبار، فكان رجلاً مرموقا مسموع الكلمة، مطاع الأمر، وكان قومه لا يحركون ساكناً إلا بأمره، ولا يقضون شيئاً دونه، ولم يكن الأمر يُقضى في الأنصار بناحيته دون مشاورته، وكان رحب الصدر سهل الخليقة سمح الطبع عالي الهمة بعيد النظر حليماً وقوراً مهيباً جليلاً في قبائل الأنصار والطوارق والبرابيش والكنتة، يشار إليه في المهمات ويُلجأُ إليه في المُلِمات ـ بعد الله تعالى ـ وينظر إليه ويُرمقُ بعين الاعتبار.

حدثني محمدُنْ بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عثمان، وأمه خديجة (سنَّاتة) ـ وقيل اسمها فاطمتْ عائشة ـ بنت سيدي، قال: إنه أدرَكَ سِيدِي ويعرفه معرفة تامةً، وأخذ يصفه لي، ـ كما وصفه لي محمد المعروف بـ(دَوِّي) بن محمد(ابَلَلْ) بن محمد الأمين بن حمَّادَا بن عثمان بن الحاج بلَّهْ ـ فكان مما ذكره لي أنه كان رجلاً رَبْعة من الرجال لا بالطويل ولا بالقصير، تبدو عليه البساطة والبشاشة، هادئ الطبع، له سمت حسن ووجه طلق، غير أنه كان مهيبًا، يُغضى منه حياءً، وفي لونه سُمرةٌ، ولا ينفك متعممًا بعمامة فاخرة، ويكلم اللهجتين العربية والطارقية سواءً، قال: ولم يكن في زمنه مثله سوى الشيخ إبراهيم(بايًّا) بن حلَّايْ، والأمير محمد علي (إنقونًّا)، وقد طلب منه الأخير أن يتنازل له عن إمارة قبائل الأنصار كلها، فأبى سيدِي بمشورة أخيه إبراهيم.

وأضاف محمدُنْ قائلا: «وكان ممن ينهب الناسَ آنذاك أميرٌ من أمراء

الطوارق اسمه» «الغَرْنوق» أو «الغَرْنق» فنهب كثيرًا من أموال سكان صحراء أزواد وأهل تنبتكو من الأنصار وغيرهم، ثم عاد بجيوشه الجرارة وغنائمه، فمر في طريقه على حي الأمير سِيدِي محمد، وكان سيدي محمد حينئذ مريضًا، يشكو من حساسية شديدة بجسمه، فقيل له ـ وهو يُداوَى في ممرضة له ـ قد غشيك الجيش! فنهض من حينه ولبس لِبْسةً سريعة غير تامة، لا ئثًا عمامته على هامته، ووثب على صهوة جواده فتلَقَّى أمير الجيش الجرار «الغرنوق» أو «الغرنق» وأخذ بلجام جواده، وجعل يكفه ويقوده، فزجره الأمير الطارقي قائلا: من هذا السفيه الذي يجرؤ على هذه الفعلة؟!! فأجابه أحد رجاله العارفين بالقبائل، وقال له: كفّ، هذا سيدي محمد أخو الشيخ إبراهيم بن حلَّايْ، وكان الشيخ إبراهيم بن حلَّايْ معروفًا مشهورًا لديهم، فقاده الأمير سيدي إلى مكان وأعدَّ له نُزلاً، واحتفل به وأكرمه، ثم أتاه بجواد كريم جميل وأهداه إليه، وقال له: خذ هذا الجواد هدية مني، وانصرفْ واترك ظلم العباد، ورُد للناس أموالهم، فإنك إن لم تفعل حاربناك، وإن حاربنك فسوف تخسر وتفارق إمارتك، ويحتقرك الناس، فرضي الغرنوق بذلك، وأمر جيشه بالتخلي عن جميع ما نهبوه من أموال الناس من الحيوان وغيره، فأمر الأمير سيدي أن يُنادى في الناس في جميع أنحاء البلاد أن من كان له شيء أخذه الغرنوق فليأتِ لأخذه، فجعل الناس يقدمون من كل صوبٍ، يأخذون أموالهم وكانت كثيرة جدًا، وأكثرها البقر والغنم والإبل والخيل، ففرح الناس بذلك وجعلوا يشكرون الأمير سيدِي ويثنون عليه «انتهت حكاية

الشيخ محمدُنْ حكاها لي يوم الجمعة الحادي والعشرين من محرم سنة ١٤١٧هـ بحضور أخيه عبد الله وابن أخيه أحمد بن عبد الله، وابن أخيه يوسف بن إبراهيم. وأكدها لي الشيخ همَّا بن حمتاهي وأخوه القاضي (امَّلُو).

وقد ألف بعض معاصرينا رسالة تكلم فيها عن بعض أعيان وشيوخ الأنصار من هذه القبيلة، وعرَّض فيها بالأمير سِيدِي هذا، وذكره بما يشبه الذم من المدح، لأنه لم يجرؤ على التصريح بذمه، فاستعمل لذلك التعريض والتلويح، وغض منه بما يفي بغرضه، وكان ذلك في حياة الشيخ القاضي الأمير محمد المولود(امَّلو) بن حمتاهي بن سيدي، فاستاء من ذلك أيما استياء، فألف رسالةً في فضائل جده سيدي ردًا على ذلك الشخص، وكتب منها نسخا متعددة، وأرسل إلي بنسخة منها، وتوجد منها نسخ أخرى عند بعض أفراد القبيلة، وها أنا أورد نصها فيما يلي:

رسالة الشيخ امَّلُو في مناقِب سِيدِي:

قال الشيخ القاضي امّلوا ـ رحمه الله ـ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على النبي الكريم. إن الله كلفني إخلاص توحيده ومعرفته مجملاً ومفصلاً لسلامة العقيدة التي لا صلاح للإنسان المكلف إلا بها، إذ الأعمال الصالحة لا تنفعه بل تنحبط إلا بإصلاحها، فمن هناك تترتب عليه لوازم الشرع كلها، وقرن بعد عبادته الإحسانَ بالوالدين، وهذا العطف بالواو التي هي أم أحرف العطف يونِسُ ويُشعر من له إحساس بالغيرة الدينية المحمدية أن يتحرك ولو بقليل عما يختال

يَمس كرامتَها في الدنيا فقط، إذ التغافلُ عن مثل هذا يورث تبلُّداً والعياذ بالله تعالى عنها، إذ هو نوع خذلان.

فبذلك أردتُ أن أكتب قليلاً ـ ولو مثقال ذرة ـ من مناقب جدي سيدي محمد بن محمد بن عثمان بن أَبِّين ـ رحمهم الله آمين ـ الأنصاريين، مختصراً. إذ لو أردت كَتْبَ ما سمعته وحققته روايةً عن روايةٍ من رواة الطبقة التي أدركتها أنصارَها وأبناءَها وإخوانَها وجيرانَها، عرباً وعجماً، بيضاً وسوداً، إناثاً وذكوراً، أقاربَ وأباعدَ، أحبابَها وأعداءها، وعنعنتها عن فلان وفلانة؛ لَمَلأْتُ الدفاترَ من مناقب جدِّي وحده في السياسة على الجميع قاطبة، فضلا عما تحمَّلَ مؤنته من العشيرة الأقرب فالأقرب وأداها، كالنفقة والكسوة الواجبة عليه تحَمُّلاً مشهوداً به عليه حتى هلك من هلك بين يديه وجهزه معتاد التجهيز في الشرع والعادة بين الزَّمْنَى والشيوخ والمرضى والمجانين والأرامل واليتامى والأيامى عام الجفاف وأعوام الحروب ونهْب الأموال ولا سيما (إِوَلَّمَدَنْ، وَدَنْبَلُوشِ أمير إِهَقَّارَنْ) حيث قام بغير معين وحده ـ خلا ما كان من خاله بَايًّا[1] ـ وهو إذ ذاك أعمى فقير لا مال له، ولكن يطيعه بما أمر به، وهو وليّ مُهاب، له بركة غير خافية على أي أحد، ومسح رأسه في الجماعة، وقال له: يا ابن أخي أرجو لك البركة، يومَ إعطائه لخاله بَايًّا جوادًا

(١) هو الشيخ إبراهيم بن محمد الأمين حلَّاي بن عثمان بن عبد الله (الحاج بلهْ)، وهو خال محمد بن عثمان الذي هو أبو الأمير سِيدي، كما تقدم. والشيخ إبراهيم هذا هو أبرز أمراء أبناء الحاج بلَّه في زمنه وشيخهم، وكان الأمير سِيدي معينَه في كل شؤونه.

طِرْفاً[١] أشهبَ مُتدرِباً، طلبه منه أمير (إهَقَّارَنْ) حين رآه وأعجبه، واسترد بذلك الطِّرْفِ أموال ما بين (الكصبة[٢] إلى (غِيرْغُو) حين أعطاه بايًّا لـ(دنْبَلُوشِ) بأموال الأنصار، والأكثر من مال الأنصار أغنام أبناء عمر (كل تَهُوبَتْ) بين المعز والضأن، وبقر (كَلْ أُولِّي) وشيء من إبل أولاد غنَّام (البرابيش) عند ماء معروف بمسيرة من «زَرْهُو» قريب منه يقال له (أَسُورانْ) وعلى رأس ذلك الماء مغربَه نزل دَنْبَلُوشِ فجاءه بايًّا بعد نهبه تلك الأموال يريد منه استرداد الأموال تامّة، وهدده بايًّا بالدعوة عليه، وبما للأنصار كلهم من القوة، فردّها كاملة، فحينئذ قال له دنبلوشِ أنا تلميذك لا تلحقني بدعوتك حيث رددتُ لك ما نهبت كلّه[٣].

ثم في عام الجفاف من صحراء (أزواد) عامَ مولد أخي (هَمَّا) كانت لجدنا سيدي محبةُ البرابيش، خاصة (أولاد غنام) وكان قد استرعاهم قطيعاً من الإبل بالمحبة والكراء، مات بقر ما بين «الكصبة» إلى «تنبكتو»، فاجتمع ما اجتمع من الأنصار وغيرهم وأبناء أَبِّينْ فيما بين (قَرْبَيْ و زرهو) فأخذ إبله التي جعلها عند البرابيش، وفيها حوالي عشر لقاح ملأى من اللبن، والشجرُ

(١) الطِّرْفُ من الخيل هو الجواد الكريم السريع.

(٢) وهي مدينة (بَنْبا) الساحلية، سموها بالكسبة؛ لأنها سوق للكسب والتجارة، وجرت العادة بنطق سينها صادًا، فقالوا «الكصبة».

(٣) قد تكون هذه القصة التي يرويها القاضي (امَّلُو) رحمه الله هي نفسها التي تقدمت مع أمير الطوارق «الغرنوق»، وقد تكون قصة أخرى في يوم آخر، لاختلاف اسم الأمير الطارقي، والاختلاف في بعض تفاصيلهما. والله أعلم.

مثمرٌ، وفيهن لبن كثير، فجعل كل ليلة ونهار يقسمها على هؤلاء كلهم ليلاً ونهاراً، وأخذ من تلك الإبل ناقتين لِقِحتين فباعهما عند «أولاد غنَّام» بمائة ستلد[1] من المعز فاستولدهن، فازداد لبنُ مائة من المعز بلبن عشر من الإبل، فصار اللبن كثيراً، فهنالك قسّم المعز والإبل منائح، حتى ما بقي أحد إلا وعنده منحته، يتولى أمرها بنفسه ولم يؤثر نفسه وعائلته عن غيرهم بشيء.

واشترى شُقَّةً كثيرة بجَمَلَين وقسمها كسوة على الجميع، وأخذ ثمانية أبعرة كبار فسافر بها إلى أرض (قُندام)[2] وقصد قوْمًا عندهم ميرةٌ أي طعام كثير، فباع واحداً حسنا من تلك الأبعرة، بحِمْل السبعة الباقية من الذرة الدقيقة والغليظة والفول، وكثيرٍ من قارورات الدهن المسمى (بَلَنْقَا) حتى جاء بها إلى بيته عند «زَرْهُو» بحضرة خاله الشيخ بايّا ووزعها على الخلق أيضاً، على غير إيثار عائلته بشيء!! وهذا مما يُتَعجب منه!! وكل هذا مشهود عليه بالتواتر الذي يدني ما يُستَبْعَدُ، و«الحق ما شهدت به الأعداء» وهذه قاعدة كلية لا يُستثنى منها الخيار ولا يُستأنف فيها النظر، بل هو حق مرويٌّ إلى الآن معروف كنارٍ على علم. اهـ. باختصار.

وأما قصة الأسود فمشهودة أيضاً كذلك كما يقع الحافر على الحافر، وهي سبعة أسود وفيها لبوتان بشبليهما حاصرت ما بين قَرْبَيْ وإِينوُشَفْ وزَرْهُو[3]

---

(١) قوله: (ستلد) أي دوافع مُقْرِبات، قد قرب أوان ولادتها.

(٢) (غُنْدَامْ) بالغين الممزوجة بالقاف، أو بالقاف الممزوجة بالكاف، مدينة على ساحل النهر غرب مدينة تنبتكو، وهي من الأسواق التجارية المشهورة هناك.

(٣) قَرْبَيْ وإِينوُشَفْ وزَرْهُو: مناطق معروفة هناك. وقربي وزرهو على الساحل، وأما إينوشف =

حتى افترست كثيراً من الماشية بين الليل والنهار، وخطفت بليلتين متواليتين رجلين منا، واحداً اسمه سيدي محمد بن حامَّا، من قبيلة أبناء أَبِّيَنْ وهو أخو أحْماذْ الذي هو أبو تَعَبُسَا وكلِيلَا[١]، قال: لي أبي حمتاهِي[٢] اختطفه حِذاءه على فراش واحدٍ في (زرهو) أثناء الليل، وتصايح الناس ولم يروا شيئاً[٣]، فلما أصبحوا أخذ جدِّي سِيدِي خيله المدرَّبة وهي إذ ذاك ستة، فأركبها الفرسان من الرجال، واقتفى بخيالته هذه أثر الأسد الذي هجم عليهم البارحة، حتى وجدوا مابقي متصلاً من أعضاء الْمُختطَف عند ماء قريبٍ من زَرْهُو يقال له (أَسُورانْ) وكفَّنَ سيدي تلك الأعضاء المتمزقةَ ودفنه هنالك، فصار بعد مقبرة، لذلك أكثر من دُفِنُوا فيها أبناء أَبِّيَنْ، لأنه واحد منهم.

والثاني[٤] ابن الطاهر بن المنذر[٥] وخبره معروف، اختطفه في البيت

= ففي داخل الصحراء.

(١) تَعَبُسَا: اسمه إبراهيم بن أحمد بن محمد الملقب (حامَّا) بن إيّاذْ بن القاضي بن محمد الأمين (أبِّيَنْ). وأمه مريم بنت محمد الأمين المعروف بـ(تلَّا). وكلِيلَا: اسمه محمد، وهو الأخ الأكبر لإبراهيم المذكور، وأمه خَيْ بنت سيدي محمد الملقب (سِيدِحَمَّا) بن محمد المصطفى بن أبي بكر بن أَبِّيَنْ.

(٢) واسمه محمد الطاهر، و(حمتاهي) اختزال له.

(٣) يريد أن الأسد هجم عليهم ليلا فاختطف ذلك الشاب، وكان بجانب حمتاهي على فراش واحد نائمَيْنِ، ففزع الناس وصاحوا به ولكنهم لم يدركوه.

(٤) يريد الثاني من الرجلين اللذين سبقت الإشارة إليهما في قوله: «وخطفت بليلتين متواليتين رجلين منا».

(٥) الطاهر بن المنذر بن محمد الأمين(حلَّايْ) بن عثمان بن الشيخ عبد الله (الحاج بلّهْ).

ليلاً في «زَرْهُو» أيضاً.

وقصته المعروفة أنه يقول (إِتْكَلِهِي إِسّنْسَهِي[١] حتى انقطع الصوت!! واقتُفِيَ غداً ولم يروا من أثره إلا الدم، وقبل هذين اللذين افترسهما الأسد منا، كان قد أكل عبداً اسمُه: (سَدُو) لقوم من موريتانيا، نازلين عند حَدَحِّيلْ[٢] يشترون غنماً، ووردَ ماء «أسُورانْ» فافترسه الأسد عند ذلك الماء، فأرسل حدَحِّيلْ فرسانَه لتدبير ما بقي من الجنازة، فلما رآهم أرادهم بتكشير وجرجرة عجيبة!! ففروا هاربين، وكفاهم رجوعهم بأنفسهم ومراكبهم سالمين هم والجميعُ غنيمةً.

وبسم الله بعد الغد قضى الإله لجدّنا سِيدِي بركوبه مع خيالته المتدربة رجالاً وخيلاً، حتى الرماح لجدنا شراءً ومِلكاً، كل رجل أركبه على فرسه مِلكاً مع الرمح، وهم أي الرجال:

١. مَمُّ[٣] ابن عمه حمّدعالِي، هو في مقدمة خيالته يدربهم.

---

(١) معنى الكلمتين: (أخذني وضعني) والمراد أن الطفل لما اختطفه الأسد ليلا تبع الناسُ الأسد والطفل في فمه يصيح، فجعل الأسد يضع الطفل كلما تراخي عنه الناس، فيقول الطفل «وضعني» ثم إذا خاف أن يلحقه الناس أخذه وجرى به فيقول الطفل: «أخذني» وهكذا إلى أن انقطع صوت الطفل.

(٢) حَدَحِّيلْ: اسمه محمد الخير بن محمد المختار(حمَتَّا) بن محمد الأمين(حلَّايْ).

(٣) هو الفارس البطل المغوار محمد المصطفى بن محمد علي بن محمد الأمين(أَبِّيِنْ). وكان خبيرًا بالتدريب على الخيل.

٢. وابنه حمَتاهِي[١]، على فرسه المسمَّى (صاحب الحمار[٢]).

ورمحه[٣] أخذه سِيدِي من ابن عمه[٤] محمد بن محمد الهادي أخي

(١) أي ابن سِيدِي، وهو الفارس المقدام والبطل الْهُمام محمد الطاهر بن سِيدِي محمد بن محمد بن عثمان بن محمد الأمينْ (أبِّينْ)، و(حمتاهي) اختصار له، وبه عُرف، وهو والد المتحدث القاضي (امَّلُو).

(٢) هذا الفرس من أعظم جياد الأمير سِيدِي، وكان يُضرب به المثل في القوة وتمام الْخَلْق وجمال الصورة، وكان لا يُسبق من شدة جريه وسرعته، قال لي الشيخ محمد(همَّا) بن حمتاهي، قد انتبه الفرنسيون لهذا الجواد في أثناء حروبهم مع الأنصار، فلما وقع الصلح بينهم اشتروه من الأمير سيدِي بمجموعة من البقر وأشياء أُخر، قال فأخذوه وصوروه وأرسلوه في سفينة إلى فرنسا. قال وسبب تسميته (بصاحب الحمار) أن الشيخ سِيدي اشتراه من صاحب له من عرب الصحراء، وهو مهر صغير هزيل ضعيف جدًا، وكان سِيدي رحمه الله خبيرًا بالخيل، تربَّى على تربيتها وركوبها، ويعرف هجينها من مقرفها، وعتقائها من براذينها، ويعرف عاداتها وأخلاقها... فلما رآه توسم فيه النجابة والعتاقة، فطلبه من مالكه، فقال له مالكه: ما تريد من هذا المهر الهزيل الضعيف؟ وربما يموت قريبا، وإن عاش فليس بشيء ينفع، خذ من عتاق الخيل التي تراها، ودعه! فقال له الشيخ سِيدِي: لا أريد إلا هذا. فأعطاه فيه قيمة ثمينة، فأبى أن يأخذ منه إلا ثمنا بخسًا!! فأخذه الشيخ سِيدِي وربّاه وأحسن تدبيره، فكان يربطه مع الحمير ويجعله في حظيرتها، لضعفه وهوانه، فسموه (صاحب الحمار) وجعل يسقيه من الحليب العتيق ويطعمه فاخر الطعام، إلى أن صار شَيْظَمًا شازِبًا عظيما، نهد الجزارة، فكانوا يسابقون به خيول القبائل فلا يُلحق.

(٣) يعني الشيخ بالرمح هنا الحربة العريضة النصل، وكانوا يتخذونها من حديد صلب شديد ثقيل، يحملها أقوياء الرجال، وبها يقتلون الوحش.

(٤) يريد ابن عم حمتاهي، ويعني أن الشيخ سِيدِي اشترى لابنه حمتاهي حربة من محمد بن محمد الهادي بن محمد بن عثمان بن أبِّينْ، فمحمد الهادي أخو سِيدِي، وابنه محمد ابن عم حمتاهي. ومحمد بن محمد الهادي هذا هو أبو السيد الفاضل المعروف محمد الصالح =

سيدي، وأعطاه مكان رمحه عنْزَةً سوداء بولدها (ومحمد هذا أبو إنْتَسَّا).

٣. والثالث: الحاج بن إمَلَّنْ من أبناء عمر[١].

٤. والرابع: محمد علي بن إيَّادي من أبناء (بدا)[٢].

٥. والخامس: إِينْ سَبَّا خال جدي[٣].

ومعهم تبع على الخيل وعلى الأرجل لكن هؤلاء الذين سميتهم هم جماعة سيدي، على خيله ورماحه وهم ستة به. واقتفى بهم رحمة الله عليهم أثر ذلك الأسد الذي أكل العبدَ أمسِ، وهرب عنه الناسُ والفرسان. ما بعُدوا إذ برز لهم بغابة معروفة إلى الآن تُسمى في العربية[٤] (الْخُصُّ) وبالحسانية[٥]

= الملقب (إينْ تَسَّا) ـ رحمه الله ـ، وهو من أعيان هذه القبيلة وفضلائها المعدودين.

(١) هو: الشيخ عمر بن الشيخ عبد الله المعروف بالحاج بلَّهْ بن قطب بن محمد بن محمد المختار الأنصاري الأزوادي، فالشيخ عمر هذا شقيق أَبِّينْ، وأبناؤه فرع من إمارة الأمير سِيدِي. رحمه الله.

(٢) «بَدَا» بباء ودال مفتوحتين لقب الشيخ محمد علي بن الشيخ عبد الله المعروف بألحاج بلَّهْ بن قطب بن محمد بن محمد المختار الأنصاري الأزوادي، فهو أيضا أحد أشقاء أَبِّينْ، وأبناؤه أيضا فرع من فروع إمارة الأمير سِيدِي رحمه الله.

(٣) «إينْ سَبَّا» لقب محمد الأمين بن محمدإِكْنَنْ المعروف بـ(حمِّيكَّا) المقشريِّ اللمتوني وكان أمير قومه في زمنه، وأخته فاطمة بنت حميكا هي أم الأمير سِيدِي بن محمد الأنصاري، الذي هو جد المتحدث الشيخ القاضي امَّلو. فإينْ سبَّا خال سِيدِي.

(٤) يعني العربية الفصحى. والْخُصّ هو البيت الذي يُتخذ من أعواد الأشجار ونحوها، كأعواد القصب وجريد النخل ونحو ذلك. وإنما سموا تلك الغابة خصًّا لأنها لكثافتها وتأثيث شجرها تشبه الخص المبني.

(٥) الحْسَّانية هي اللهجة العربية العامية التي يتحدث بها أهل أزواد.

(أَزْقَلّمْ) والعجمية[١] (آكُوفْ) تُصنع منه الفرش والحِبال والبيوت[٢].

وحين برز لهم - الأسد - عزل سيدي عن الناس خيّالتَه الستةَ به إليه متدججين، فأراهم عينيْن[٣] كشهاب النار تحت حواجبه، فبينما هم كذلك إذ سطا بكَرّتِه إلى فتى يراه مُتخَتِّلاً يمشي وليس براكب، اسمه ماجدُ بن حَبَّلَّا[٤]،

---

(١) يريد اللغة الطارقية التي يتحدث بها أهل أزَواد.

(٢) هذا نوع من الشجر معروف هناك وهو أشبه شيء بالنخل، له جريد عريض، وسَعفٌ كسعف النخل، وساق مثله وفروع مثله غير أنه لا يثمر تمرًا.

(٣) أي أراهم الأسد عينيه وهما كالشهاب حمرة وجحاظة وتقطيبا.

(٤) حَبَّلَّا . وهذا لقبه . بن محمد المعروف بـ(انَّقَّا) بن محمد المعروف بـ(ايَّحَّا) بن عثمان بن الجاج بلَّهْ (عبد الله) الأنصاري. وابنه ماجد هو الذي عدا عليه الأسد وعضه حتى استنقذه الناس منه، كما في الخبر، وهو خبر مستفيض مشهور، ومما يُذكر هنا أن ماجدًا لما عضه الأسد وغرز أنيابه في ظهره ساخت فيه شعيرات وجه الأسد وهو شعر غليظ كالشوك إذا غاص في الجسم عسر إخراجه، وكانت عندهم طريقة طريفة عجيبة في استخراجه، وهي أن يعرضوا للإنسان ما يسبب له اقشعرار جلده بشدة حتى تقوم بشرته وتنتفض نفسيته فينسل الشعر من جلده، ومن أهم ما يتخذ لذلك أن يُعرِّضوا الإنسان لمواقف الفرح والطرب، كأن يُسمِعوه صوتا جميلا يقشعر جلده من سماعه إعجابا به، فيخرج منه شعر الأسد فيتعافى، قال لي الشيخ محمد هَمَّا بن حمتَاهي رحمه الله قال له ماجد بن حَبَّلَّا المذكور: لقد أكثروا عليّ الأناشيد والأصوات الجميلة ولكن لم يخرج مني إلا قليل من شعر الأسد، حتى أتَوْا برجل جميل الصوت حسن مزمار الحنجرة، فجعل ينشد علي ألفية ابن مالك في النحو بصوته الجميل! يقول: فأطربني جدًا واقشعر جلدي من سماعه وتفتحت أساريري وارتفعت نفسيتي فخرج مني جميع شعر الأسد، لأن شعري كله قام بسبب انتفاض جسمي مستجيباً لأحاسيسي من سماع ذلك الإنشاد الجميل!!.

فحمل عليه حتى تناولت أنيابُه ظهرَهُ فاتقى بوجهه على الأرض منبطحاً، والله لقد عرفنا بعد البُرْءِ أثر أنيابه على ظهره، فأطلق أبي حِمتاهِي فرسه بمِهمازيْهِ حتى انتهى إليه بقُرْبٍ فطعنه في كُليتِهِ اليمنى، حتى نفذت من جهته اليُسرى، وهي تشخب دماً من منفذها ومن فيهِ، فتواثب متوجهاً نحو الخيالة ـ وسلم ماجد ـ حتى اتقى دونهم بجفونه وجِرانه[١] ومناكبه. ولما رأوه صريعاً مُجندلاً رماه ثانياً الحاجْ بن إملَّنْ برمح، فتنافس الناس إليه[٢]. وقال لهم سِيدِي: الهلاك قد تم بعد هلاك الأسد الذي أهلك الناس، والفخر لا ينفع إلا بذكر المناقب التي تنفع[٣].

وأما اللبوتان ذواتا الأشبال فإحداهما مَجّت ساعد مسَّالح[٤]، وقصتها

(١) في الأصل: بجرائده، جمع جريدة، وهي جماعة من الخيالة ليس معهم راجل، وقد فضلت كتابته: بجِرانه، أي بعُنُقِه ومقدمة صدره، وهو في الأصل للبعير ويستعار لغيره من باب التشبيه.

(٢) أي تنافسوا على الأسد يرمونه بعدما رأوه صريعا من ضربة حمتاهي له، لأن كل واحد يريد أن ينال فخر قتل الأسد، ولكنهم لم يجرؤوا على ضربه قبل صرعه.

(٣) أي: وبعد إقبال الخيالة يرمون الأسد الصريع لمحاولة نيل الفخر بقتله قال لهم قائدهم الأمير سِيدِي رحمه الله: لا داعي لهذا ولا حاجة إليه، فقد هلك الأسد، وضربه ليس فخرًا، إنما الفخر أن يفعل الإنسان شيئًا يُستفاد منه. وقال لي الشيخ محمد هَمَّا بن حمتاهي ـ رحمه الله ـ: وبعد قتل الأسد احتزّ الشيخ سِيدِي أذْنيه بالحربة وأخذهما معه، وكانوا يفعلون ذلك خشية أن يزعم أحد أنه هو الذي قتل ذلك الأسد فيفتخر بذلك.

(٤) مَسَّالِح: لقب محمد الصالح بن محمد المختار (حَمَتَّا) بن محمد الأمين(حلّايْ) بن عثمان بن الحاج بلَّهْ الأنصاري.

ما كتبتها ولكنها معروفة ورامحها برمح سِيدِي مَمُّ[١] على فرس سِيدِي ورمحه أيضاً، وما بقي من الأسود هرب ولم يرجع إلى الآن. منها ما عام البحر نحو (أَرَبَنْدا)[٢] ومنها ما ذهب مغرباً نحو تنبكتو وكلها اصطادتها قوم وقتلتها. لكن لا نطيل بذكر قصتها.

---

(١) يريد أن الذي قتل اللبوة التي مجت ساعد مسَّالح هو الفارس محمد المصطفى مَمُّو، حين أخرجها سيدِي من أجَمَتِها برميها لتخرج فعدا بالفرس أمامها فاكتنفها حمتاهي ومَمُّو والتزماها فرماها مَمُّو بالحربة فخرت صريعة. كذا ذكر لي الشيخ محمد هَمَّا بن حمتاهي. (ذكرت معنى كلامه باختصار) وهو موافق لما أشار إليه أخوه امَّلو هاهنا. واللبوة الأخرى بعد أنْ رماها حمتاهي بالحربةِ وقف مَمُّو وزجر الخيالة اللاحقين بهم وقال لهم من رماها بعد الآن فسوف أرميه بهذه الحربة!! وإنما فعل ذلك لأنهم كانوا قد قتلوا أسدًا آخر كان الرامي له أيضا حمتاهي، ثم زعموا أن غيره هو الذي أصابه، فاغتاظ لذلك الشيخ مَمُّو، وقال لهم: انظروا من تنسبون إليه قتل الأسد اليوم؟!

وذكر لي الشيخ محمد هَمَّا رحمه الله أن جده سِيدِي أخذ زمنا يدرب رجاله على الرمي والإصابة، وأنه ذهب إلى بعض رجال الطوارق من قبيلة (إيموشاغ) ممن عُرف منهم بقتل الأسود، يسألهم كيف يقتلون الأسد؟ فأخبروه بما يفعلون، وقالوا له: خذ كِلَّةً قطنية كبيرة جدًا أثيثة النسج وحَنْبلاً ـ وهو اللحاف الكبير ـ المسمى بالبرنس، وضمهما معًا واطوهما طيا محكما، ثم صبَّ عليهما الماء حتى يصعب نفاذ شيء من خلالهما، ثم اجعلهما شاخصاً، ثم دع الفارس يمر من مسافة رمي الغَرَضِ بفرسه مسرعاً جدًا ولْيَرْمِ بالحربَة ذلك الشاخص القطني، فإن نفذت حربته الشاخص من جانب إلى آخر، فذلك هو الفارس الذي تقتل ضربته الأسد، وما سواه فلا. فجل الأمير سِيدِي رحمه الله يدرب مجموعة من رجاله على ذلك، فما صفا له من تلك المجموعة ممن ينطبق عليه الوصف السابق إلا الخمسة الذين ذكرهم الشيخ امَّلو أعلاه.

(٢) آرَبَنْدَا، ويسمى: أَرِيبَنْدَا و(جُرْما)، الناحية الجنوبية من النهر الذي يجري هناك.

قلت إيواء الناس عام الجفاف وإغاثتهم من جوع ونوائب غير ذلك، وافتداء الأموال من إِوَلَّمَّدَنْ بالعجمية وإِلَمَّدَنْ بالحسانية، ودَنبَلُوشِ أميرُ إِهقّارَنْ بجاهه وبِطِرْفِه الأحسن بسرجه وعِنانه وإعطاء أمير الأنصار (إِنْقُونَّا) مع وفده بعيرَهُ مع رَحْلِه الجديد، وبُرده، ولقِحتين من البقر صغيرتين مع ولديهما، عند أرض زَرْهو.

وقتل الأسود التي هلكت الناس والماشية في جزيرة زرهو، مع خاله بايًّا وليس له معين في البلد مثلُه، وهو ـ أي بايًّا ـ أعمى لا مال له إلا الشياخة والتدبير، وابنه سِيدي قائم مُجِدٌ ونهّاض بأمره ودونه[1] وحفره البئر لقومه . . . . مقول القول.

هل هذا الرجل الذي باشر هذه الأفعال كلها وفعل وأصلحها وأبرمها - بإعانة من ربه وشجاعة - رئيسُ القوم أم لا[2].

وبقي أثره إلى الآن ولا فخر. يُروى أن النبي ﷺ قال: «إن الله يستحيي أن ينزع بركة من موضع جعلها فيه»[3] والحمد لله.

---

(١) يريد أن سِيدِي رحمه الله قائم بشؤون الناس بأمر خاله الأمير بايًّا وبدون أمره.

(٢) هذا تعريض بالمردود عليه.

(٣) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ، وفي معناه الحديث الصحيح: «إن الله لا ينزع العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلماء حتى إذا لم يترك عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» لفظ حديث أبي العباس رواه مسلم في الصحيح عن أبي كريب عن أبي أسامة وأخرجه البخاري ومسلم من أوجه أخر عن هشام. ووجه الاستشهاد به أن العلم من أعظم البركات والخيرات وقد أخبر الرسول ﷺ أن الله لا ينزعه =

إنما قيدت لكما يا عبد الله وعد الرحمن(١) لتطمئنا بذلك ولعلمي أن كل ما أرسلته إليكما تستأنسان به وتتحفان به أنفسكما على غير معارضة أي أحد ومن قال فيه غير هذا فهو في حِلٍ منه لا أريد منه جزاءً ولا شكوراً إلا محض الحق عما رأيته وسمعته من شهود القطع والسماع قديما وحديثاً.

ولما كتبت هذا منبهاً بترجمة أبيات ستأتي ملحونة منقودة جدا(٢) لتعلما يا ابنيَّ المخاطبين أنني أدلكما على هذا المنوال لتتشرفا به ترغيماً للحساد وتطريباً لمن هو مثلكما.

نص الأبيات(٣):

= نزعاً حيث وضعه. وقال العلامة يوسف بن موسى الحنفي في كتابه معتصر المختصر (٢/ ٢٣١) «إن الله لا ينزع من عباده فضلا إلا لحادثة يحدثونها كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية ١٦٠]. وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنفال الآية ٥٣]. وفي معناه قول زهير بن أبي سلمى:

مُحَسَّدونَ على ما كان مِنْ نِعَمٍ لا يَنْزِعُ الله منهم ماله حُسِدُوا.

وقد استشهد به عمر بن الخطاب ﷺ على الأمر نفسه لما أنشده إياه ابن عباس ﷺ (انظر تاريخ الطبري ٢/ ٥٧٨).

(١) يخاطبني أنا وأخي عبد الرحمن، وكان ذلك عام ١٤١٦هـ.

(٢) يقول: هذا تواضعا، وهو يعترف أنه ليس بشاعر، ولكنه ينشد على البديهة بحسب ما يحضره من غير التزام بشيء مما يلتزم به الشعراء.

(٣) ولما وصلتني هذه الأبيات ووجدتها من البحر الكامل من بحور الشعر، وهو من ثلاث تفعيلات في كل شطر، وقد زاد الشيخ في كثير من أبياتها تفعيلة رابعة في كل شطر، وذلك =

شَهِدَ الرِّجالُ لِجَدِّنا بِمناقِبٍ ... تَعْلُو سُمُوًّا فَوْقَ كُلِّ مَناقِبِ
آوَى المساكينَ الجِياعَ إغاثةً ... عامَ الجفافِ وحينَ عضِّ نوائبِ
فَرِحُوا بِهِ إذْ جاءَهُمْ لِيُغيثَهمْ ... بعَزيمَةٍ فرْدًا بغيرِ مُصاحبِ
فَشَكَوْا لهُ مَغْصُوبةً أَمْوالُهُمْ ... بِإلَمَّدَنْ وَبِدَنْبَلُوشِ الغاصبِ
ثمَّ اسْتَرَدَّ بِجَاهِهِ وبِطَرْفِهِ ... أَمْوالَ كُلِّ مُجَاوِرٍ أَوْ غَائِبِ
هَدَأَتْ نُفُوسٌ أَصْبَحَتْ مَذْعُورَةً ... بِإِعَانَةٍ مِنْ حُسْنِ ظَنِّ الوَاهِبِ
فَهُوَ الْذِي قَتَلَ الأُسُودَ جهارَةً ... بِإرادَةٍ تَقْضِي بِغَيْرِ كَتَائِبِ
تِلْكَ الأُسُودُ أَتَتْ لِزَرْهُو لَيْلَةً ... خَطَفَتْ خِلالَ مَراقِدٍ وَعَصَائِبِ
رَجُلَيْنِ مِنْ أَبْنَائِنا وَخِيارِنَا ... فَتَصَايَحُوا كُلّاً لشَرِّ مَصَائِبِ
مِنْ بَعْدِ عَبْدٍ وارِدٍ بِشواطِئٍ ... لِلْمَاءِ بَيْنَ أَباعِدٍ وَأَقَارِبِ
فَعَدا عليه مُباغِتًا فَأَصابَه ... بجراءَةٍ فغَدا كأمسِ الذاهبِ
فَتَنَافَسَتْ فُرْسانُهُمْ لِخَلاصِه ... فأَرادَهُمْ بِتَكَشُّرٍ وَعَجَائِبِ
فَرُّوا وَهَمُّهُمُ السلامةُ واكْتفَوْا ... أَنْ يَرْجِعُوا بِنُفُوسِهمْ ومَراكِبِ
بَعْدَ الغَداةِ قَضَى الإلهُ لِجَدِّنا ... بِرُكُوبِهِ فِي إِثْرِهِ بنجائبِ
فتقدَّمَ الشيخُ الأميرُ رِجالَهُ ... نحو الغَضَنْفَرِ ذي الزَّئِيرِ الصاخِبِ
ولَجُوا على الأسدِ الهِزَبْرِ عَرِينَهُ ... فَبَدا لَهُمْ كالنَّارِ تَحْتَ حَواجِبِ
مُتَدَجِّجِينَ على جِيادٍ ضُمَّرٍ ... قَدْ دُرِّبَتْ بتَفاقُمٍ وَتَواثُبِ

= معيب، رددت كل شطر إلى ثلاث تفعيلات كما هو قانون هذا البحر، مع الالتزام بمعاني الشيخ وألفاظه، وزدت بعض الألفاظ القليلة لأجل ذلك في بعض الأبيات.

فَسَطا بهم وانقَضَّ مُفترِسًا فَتًى مُتَخَتِّلاً يَمْشِي وَلَيْسَ بِرَاكِبِ
فَتَنَاوَلَتْ أَنْيابُهُ ظهرَ الفتى فأَجاءَه أبْتي بطعنٍ صائبِ[١]
وبحرْبةٍ نفذت بطعنتها الكُلَى سُلْكَى وجائفةً كَبَرْقٍ ثاقبِ[٢]
فَتَوَاثَبَتْ أَرْسَاغُه مُتَجَرْجِراً حَتَّى اتَّقَى بِجُفُونِهِ وَمَنَاكِب
وَتَسَابَقَتْ خَيَّالَةٌ وتنافستْ ما بيْن مفتخِرٍ يجيءُ وراغِبِ
إِذْ عَايَنُوهُ مُجَدَّلاً ومُمَزَّقًا ويقول جدِّي الفخرُ فعلُ مناقبِ
حَفَرَ العُيُونَ لِقَوْمِهِ مِنْ بِئْرِهِ لمَّا تَبَرَّأَ صَاحِبٌ مِنْ صاحِبِ
فَلْتَسْألوا (إِنْقُنَّ) عنهُ أَمِيرَكُمْ يُخْبِرْكُمُ بسُمُوِّه ومناصِبِ
لَمَّا رعى سِيدِي حقوقَ وفودِهِ وأعانَه بسياسةٍ ومواهِبِ

والحاصل أن جَدَّنا هو الحباب بن المنذر الأنصاري زمانه بعده في الكلمة والرأي مع الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال في بيعة العامة لأبي بكر «أنا الجُذَيْل المْحَكَّكُ والْعُذَيْقُ الْمُرَجَّبُ»[٣]. وأما قرى الأضياف

---

(١) أجاءه : فاجأه بسرعة.

(٢) سُلْكَى : أي طعنة مستقيمة. وجائفة : نافذة إلى الجوف.

(٣) أراد قول الْحُباب بن المنذر رضي الله عنه يوم السقيفة لما اجتمعوا وكادوا يختلفون فيمن يتولى الأمر بعد رسول الله ﷺ: «أنا جُذَيلُها الْمُحَكَّكُ وعُذَيْقُها الْمُرَجَّبُ، منا أميرٌ ومنكم أميرٌ». وهو الذي أشار على الرسول ﷺ يوم بدر أن يتحولوا من مكانهم الذي كانوا فيه قبل نزولهم مياه بدر، أن ينزلوا مياه بدر فيمنعوا منه المشركين، فقبل الرسول ﷺ رأيه وعمل به، وهذا الذي أراده الشيخ في كلمته أعلاه. قال: أبو الربيع سليمان بن بنين في اتفاق المباني وافتراق المعاني: «قول: الأنصاري يوم السقيفة أنا جذيلها المحكك وعذيقها =

فلم يُر مثله فيه.

أخوكم: (امَّلُو) حمتاهِ. والسلام.

وأخباره كثيرة مشهورة، لأنه كان من الرجال النوادر في قومه، ولم يأتِ بعده مثلُه منهم فيما نعلمه. وقد أُصِيبَ في آخر حياته بمرض السُّل، فجعل يعاني منه حتى انقضى أجله فمات به، نسأل الله أن يجعل ذلك شهادةً له، وأن يتقبل منه تلك الأعمال، ـ رحمه الله ـ وغفر ذنبه.

ولما تُوفي الأمير سيدي كان قد ترك خمسة من الأبناء هم:

١. محمد الطاهر (حمتاهِي) ٢. محمد المصطفى (إِتَّهـا) ٣. محمد المهدي (المهدي). ٤. محمد. ٥. عبد الله.

وثمانِيَ بنات، وهن على الترتيب الآتي:

* فاطمة المعروفة بـ(تِيبِيْدَجْتْ) أي البيضاء، وهي أم أبناء سيدي محمد

= المرجب أي أنا أعلم الناس بها فالمراد من هذا التصغير التعظيم لا التحقير والجذيل تصغير الجِذْل وهو الجزع وأصل الشجرة والمحكك الذي يحتك به أراد أنا يستشفى برأيي كما تشتفي الإبل أولات الجرب باحتكاكها بالجزع والعُذَيْق تصغير العذق وهو الكباسة والشمراخ العظيم والمرجب الذي يعمد لعظمه». وقال: الميداني في مجمع الأمثال (٢/ ١٧٠): «قال: حمزة إن أكثر العرب تقوله بغير ألف ولام والعذيق النخلة يكثر حملها فيجعل تحتها دعامة وتسمى الرجبة ويقولون رجبت النخلة ونخلة مرجبة وعذق مرجب. . .» وقال: ابن الأثير في النهاية (١/ ٢٥١) «أنا جُذَيلُها المحكك» هو تصغير جِذْل وهو العود الذي ينصب للإبل الجربى لتحتك به وهو تصغير تعظيم أي أنا ممن يستشفى برأيه كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك بهذا العود».

(إينَّنَّيْ) بن محمد عالي بن أَبِّينْ. وهي أكبر أبناء سِيدِي، توفيت في نهاية سنة ١٣٧٩هـ.

* عائشة، المعروفة بـ(هاتًّا) وكانت امرأة زاهدة متبتلة منقطعة للعبادة، حتى إنها رغبت عن الزواج، خشية التفريط في عبادتها، وتحرُّجًا من حقوق الزوج. ولما أراد المبتدعة من غلاة الصوفية والتيجانية إشاعة مذهبهم وطريقتهم السلوكية في المنطقة، وأخذوا يحرفون القرآن ويحرفون سيرة الرسول ﷺ، ووصلوا إلى أحياء الأنصار لبَثِّ دعوتهم، وزعموا فيما يزعمون أنهم يرون الله تبارك وتعالى، ويحضر معهم الرسول ﷺ في مجالس ذكرهم، وجعلوا مشايخهم وأقطابهم في منزلة فوق منزلة الرسل، إلى غير ذلك من ضلالاتهم، كان من جملة من رد عليهم وعارضهم هذه الشيخة الصالحة: عائشة (هاتًّا) بنت سِيدِي، فأنشأت قصيدة في مدح النبي ﷺ، وذكرت فيها ما يجب لله من التوحيد وما للأنبياء والصحابة من الفضائل والمقامات، وما خص الله به الملائكة والمرسلين، وذكرت فيها جميع أولي العزم من الرسل وما خصهم الله به من المعجزات، وما أعده الله للمؤمنين بهم الموحدين الصالحين من النعيم، وما أعده للمكذبين والمبتدعة وأهل الضلال من العذاب الموعود، وما يجب أن يكون عليه الاقتداء بالرسول ﷺ، ونحو ذلك. وقد خلطتْ فيها اللغةَ العربية

بالطارقية، لكون تلك اللهجة هي اللهجة الشائعة في المجتمع الأنصاري، وترجمتُها أنا إلى العربية الفُصحى، وهذا مطلعها:

فبحمد ربيَ أستهل وأبتدي في نظم مدحيَ للحبيبِ محمدِ
سبقت مراتبه كآدم جده فسما بمرتبة المقام الأمجدِ
رفع الإله مقامه واختاره ثم اصطفى للخلقِ دينَ محمدِ
سبحان من خضع العباد لعزه الأوّل الباقي البقاء السرمدي
وهْو العليُّ وليس شيءٌ فوقه عَنَت الوجوه له بغير تردُّدِ
أنَّى تراه عيونُ فانٍ بائدٍ أو تدركُ الأبصارُ ذاتَ الأوْحَدِ
لا نِدَّ للرحمن جلَّ جلالهُ سبحانه عن قول عبد مُلْحدِ
مثَل الخليقة طائر من خلقه قد ذلَّ تحت العرشِ ذلَّ السُّجَّدِ
متفصِّدًا عَرقًا لخشية ربهِ لولا المخافة منه لم يتفصَّدِ
قطرَتْ ثلاثُ منه ثم تحولَتْ منهنّ واحدة لصبْغٍ أوْرَدِي
صِبْغِ الزخارف شائقٍ كلَّ الورى وتحولت أخرى لأمثل أجودي
مما يُرادُ من الطعامِ مفضلاً كمميز الأرز الخيار الأنضدِ
والله قد جعل البريةَ ثالثَ الْـ قطراتِ ثم اختارَ منها المهتدي
ولكل شيء رأسه متقدمًا فقضى بأن الرأسَ شخصُ محمدِ
صلى عليه الله ما انجاب الدجى بضياء صبح للبرية مُرشدِ
جعل الحسينَ السِّبطَ قرةَ عَيْنِه وشقيقَه الحسنَ الحبيبَ الأحمدي
فالصدر جبريل الأمين وقلبه إيمانه متلألئًا كزُمُرُّدِ
والظهر والأذنانِ والريش الذي للطير أمتك التي بك تقتدي
منهم صحابته الكرام ومنهمُ خلفاؤه الأخيارُ أهلُ السؤدَدِ

والأنبياء جميعهم قد جاءنا　　عِلْمٌ بما أعطاهُمُ من مَحْمَدِ
فلفضلِ آدم عنده وكرامةٍ　　قد قال للملَك الكريم له اسجُدِ
لما براه بجنّة فأضله　　إبليس قبل غروب شمس يَعْتدي
فأفاق من نسيانه متذكّراً　　متأوّباً بإنابة المتعبّد
فعفا له الرحمن ذلك قائلاً　　اهْبِطْ إلي الأرض القرارةِ واعبُدِ
منها خُلقتَ وسوف تُبعث آخِراً　　وبذاك قد سَبَقَ الكتابُ المبتدي
ثم اجتباهُ بصَفْوةٍ ونبوةٍ　　وقَضَى بلَعْنِ حسوده ابْليس الرَّدِي

ثم شرعَتْ في ذكر فضائل الأنبياء ومناقبهم بادئة بآدم عليه السلام، وجعلَتْ ذلك كلَّه مقدمة لمدح النبي ﷺ، حيث فصلَتْ في فضائله ومعجزاته وخصائصه تفصيلا وافياً، ردًا على أولئك المبتدعة الذين جعلوا لأنفسهم ومشايخهم مثل ما للأنبياء من المعجزات والخصائص، وتدليلا على أن هؤلاء المبتدعة لم يأتوا بشيء جديد إلا ما ابتدعوه، فالدين كامل من قبل، ونحن عندنا علم كامل بدين نبينا وسيرته وسيرة صحابته، فلن يستطيع أحد أن يخدعنا بادعاء طريقة مخالفة لنهجه على أنها من شرع الله (هذا تلخيص ما تضمنته القصيدة).

* عائشة، المعروفة بـ(عِيشَةُ)[1] وهي أم أبناء محمد علي الملقب

---

(١) يُفرق في التسمية بينها وبين أختها المتقدمة (هاتًّا) بأن تلك يقال لها «عائشهْ» وهذه يقال لها (عَيْشَتُو) فهم يتوهمون أن الاسمين مختلفان، وهما في الحقيقة شيء واحد هو (عائشة) ولكنهم لكثرة استعمال هذا الاسم والتسمية به يتفننون في الاشتقاق منه، وقد بينت ذلك في الفصل الخاص بالتلقيب في المجتمع الأزوادي.

(امَّعاني) بن أحمد بن أمَّانَّا بن أحمد(آحَّا) بن أبِّينْ.

* خديجة وقيل فاطمتْ عائشة المعروفة بـ(سَنَّاتَة) وهي أم أبناء محمد الملقب (كلَّا) بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن أبِّينْ، فهو ابن عمها الأدنى.

* حَيَّة، المعروفة بـ(حايَّا) أم أبناء محمد الطاهر(حتّاهِلْ) بن محمد(حَوَّدْ) بن (بُوحَيْدَهْ) بن محمد المختار الملقب (بَقُّولِي) بن أبي بكر بن الشيخ عبد الله الملقب (الحاج بلّه).

* صفية، أم مريم بنت حبيب الله.

* فاطمة الزهراء - هكذا مركبا - المعروفة بـ(مازَّا) أم أبناء محمد المختار الملقب (حَدَيْ) بن محمد الهادي بن محمد بن عثمان بن أَبِّينْ. فهو ابن عمها الأدنى.

* أم كلثوم المعروفة بـ(مَكَلْتُو) وهي أم أبناء محمد الملقب (حمَّدونِي) بن محمد الأمين(تلَّا) بن إبراهيم بن محمد بن أحمد(آحَّا) بن أبِّينْ.

وأمهم جميعاً الشيخة الصالحة العالمة التقية البتول بنت الشيخ محمد علي (أَلَالِي) بن الشيخ محمد الملقب (إنْبَصَصُو) بن محمد أحمد بن أَبِّينْ رحمهم الله جميعاً.

ولم يتزوج الأمير سِيدي سواها. وكان لهذه المرأة الصالحة أثر كبير في تربية أبنائها وتميُّزِهم بصفات جليلة أهَّلتهم لمكانة مرموقة في مجتمعهم، إضافة إلى ما ورثوه وتربوا عليه قبلُ من أبيهم وأجدادهم، فكانوا جميعاً حُفاظاً للقرآن، وعرفوا جميعاً بالتقوى والصلاح والعدالة والأمانة والصدق

وحب الخير لإخوانهم والسعي في مصالح قبيلتهم وغير ذلك.

ومن أخبار سيرتهم العطرة ونعوتهم الطيبة ماحدثتنيه ابنة عمنا حُسْنَى بنت الشيخ محمد(هَمَّا) بن محمد الطاهر (حمتاهي) بن سيدي محمد، قالت: إن أبناء سِيدي لهم سيرة خاصة، وعادات في العبادة يلتزمون بها، فمن ذلك أنهم كانوا لا يجالسون من عُرف عنه إحدى ثلاث خصال:

الأولى: مخالطة من لا تحل له مخالطته، كالرجل أو المرأة يجالس أحدهما من ليس له بمَحْرَم.

الثانية: من لا يعفّ عن أكل الحرام، أو يتهاون في التوقي من الحرام.

الثالثة: مَنْ عُرِف عنه الطرب والغناء، أو اشتهر باللهو.

وأضافت أنهم كانوا يحرصون على أربعة أشياء ويهتمون بها اهتماما زائدًا لا تفوتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وهي:

١. حضور الجنازة وتجهيزها، والصلاة عليها ودفنها والاجتهاد في الدعاء لصاحبها.

٢. الاستسقاء عند تأخر الأمطار وجدب البلاد.

٣. الأذان للصلاة، وإجابة المؤذن.

٤. الاستخارة إذا أراد أحدهم فعل شيء.

وكانوا ـ رجالا ونساءً ـ لا يفوتهم قيام آخر الليل، قالت: وكانت عماتها ـ بنات سيدي ـ لا يمكن أن تأكل إحداهن شيئًا بعد قيامها لصلاة الليل، إلا بعد صلاة الضحى، إلا أن تكون إحداهن صائمة فتتسحر، وكن يقلن في

تعليل ذلك: إن الأكل يؤدي إلى الكسل والنوم، وهذا وقت الاجتهاد في العبادة والذكر والدعاء. ولا يجرؤ أحد على النوم في بيت إحداهن في وقت الصلاة، ولا بعد صلاة الفجر إلى أن ترتفع الشمس، ولا يُتكلم في مجالسهم ـ نساء ورجالا ـ بالنميمة والغيبة[1].

ولما تُوفي سيدي ـ رحمه الله ـ كان ابنه الأكبر محمد الطاهر (حمتاهي) هو الذي يشار إليه بالبنان، وكان يتمتع بصفات تؤهله بالقيام بأعباء الإمارة التي توفي عنها أبوه فكان ـ رحمه الله ـ ذا سمت وشمائل محمودة، وكان كريماً مضيافاً متكلفاً قضاء حوائج المحتاجين، وساعياً في مصالح قبيلته، وكان مبسوط الجسم كامل نعوت الرجولة، ذا جمال وشارة حسنة، موصوفاً بشجاعة متناهية، وهو من الفرسان المعدودين، والأبطال المعروفين، وقد تقدمت قصة قتله للأسود، فقد كان رجلا مِقدامًا، مِسْعرًا رابط الجأش، صادقَ اللقاء، مانعًا لحوزته، موثوقًا بنجدته، حِلْس خيْل، ومقيمُ ميل، تتحاشاه الأبطال، وتتوقاه الأقيال، وكان رجلا أميرًا بطبعه، له همة كهمة والده، فكان رجال القبيلة يحترمونه ويكنون له المهابة والإجلال، ومن ثَمَّ آلتْ إليه الأمور تلقائياً بعد والده سِيدِي، فصار مرجع قومه، وكفيل شأنهم،

---

(١) حدثتني هذا الحديث في يوم الجمعة الثاني من ربيع الأول عام ١٤٢٤هـ في أثناء نزولها عندنا في مدينة الرياض وقد قدمت زائرة بعد أدائها لفريضة الحج، وكانت جالسة عند والدتي، وهي توافقها وتتذاكر معها مجالس أعمامها أبناء سيدي وأنا أستمع إليهما وأسجل ذلك. وسألت أبناءهم عن هذه الأمور فتواطؤوا على صحتها، ووافقوها في جميع ما ذكرته عنهم.

لا ينازعه في ذلك أحد، غير أنه سرعان ما اخترمته المنية ـ رحمه الله ـ، مع بداية الطاعون الذي فشا في المنطقة بعد تفجير فرنسا للقنبلة الذرية في صحراء إفريقيا، عقب الحرب العالمية الثانية.

وبعد وفاته أصبح أمر القبيلة دائراً بين إخوانه الأربعة دون تمييز، إلى أن رأى هؤلاء مع كبار أبناء عمومتهم من أعيان القبيلة وهم محمد المعروف بـ(كلَّا) بن إبراهيم وأخواه عبد العزيز والمنذر ضرورة أن يتولى أحد أبناء سيدي إمارة القبيلة بعد الأمير سيدي، **فاجتمع رأيهم جميعاً على تعيين محمد المصطفى المعروف بـ(إِتَّهَا) أميراً على بني أَبِّيِنْ ومن والاهم من أحياء الأنصار وغيرهم.**

وكان إِتَّهَا رجلاً عصامياً أميراً منذ خلقه الله، له نفس أبيةٌ جداً، واستعداد فطري بتولي المسؤولية والاضطلاع بكبار المهام، كما أن له جرأةً تدفعه إلى الدخول على الولاة ومحاورتهم من غير هيبة ولا تردد، فقد كان يقتحم على الملوك مكاتبهم ولا يبالي، ولا يهاب اللوم من أحد، فكان أهم ما يتميز به:

علو الهمة، وبروز الشخصية، والجرأة، وكان من أمهر الناس في ركوب الخيل، وهو رجل يحسن تدبير الأمور وسياسة الناس، وكان أخوه عبد الله بجانبه كالوزير المساعد له، وهو رجل نبيه غيور، وفارس بطل صبور، ولكن لم تطل به الحياة، فقد توفي في أوائل إمارة أخيه إتَّها، وكان الأمير محمد المصطفى إتَّها جامعًا لصفات عديدة تؤهله للقيادة، منها ما

تقدم، ومنها حبه للخير، وحرصه على نفع إخوانه، وعدم تفريقه بينهم، وقوة شخصيته، إضافة إلى كونه من العبَّاد الصالحين، وصاحب وَرعٍ وتقوى، ولا ينفك يقرأ القرآن، يُتبع الختمة الختمة، ولم يزل كذلك حتى خرجت روحه وهو يقرأ القرآن، حدثني بذلك الشيخ موسى بن المنذر بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن أبِّينْ، الذي كان حاضرًا عنده لما مات ـ رحمه الله ـ، وكان مرافقا له معنيا بأموره في آخر حياته وغربته في بلاد الحجاز.

ولما سلَّمَ الغزاةُ من نصارى فرنسا بلاد أزواد وضموها لدولة مالي الحديثة، هاجر الأمير إتَّهَا إلى الحجاز، وصحب معه من أطاعه من أبناء قبيلته، ولما قدم الحجاز ألفى الملك سعود بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ ملكاً على المملكة العربية السعودية فتقدم إليه وأعلمه بمكانته فأكرمه وحفظ له منزلته، وكان محترماً لدى أمراء آل سعود ولكنه لم يلبث أن توفي ـ رحمه الله ـ، بعد خروجه من السجن بسبب حادثة استغلها الفرنسيون لمتابعته والقبض عليه هو والأمير محمد علي بن الطاهر الأنصاري، فخرج مريضًا، واستمر به المرض حتى توفي ودفن بالمدينة المنورة ـ رحمه الله ـ.

وأما الشيخان المهدي ومحمد ابنا الأمير سيدِي محمد فكانا من أهل العلم والزهد، والدعوة والإصلاح، وكانا يتعمدان البعد عن أسباب الشهرة ومظاهر الإمارة، على ما كانا عليه من مكانة مرموقة في المجتمع، فقد كان يُنظَر إليهما على أنهما أولياء أمور هذه القبيلة في زمنهما، وهما مع الشيخين محمد بن إبراهيم وأخيه عبد العزيز بن إبراهيم شيوخ القبيلة، ومصادر التوجيه

والإفتاء والإصلاح فيها، وكان الشيخ محمد المصطفى (إتَّها) والشيخ محمد المولود (امَّلو) لا يصدران إلا عن توجيهاتهم وآرائهم.

نبذة مختصرة عن الشيخ المهدي بن الأمير سيدي المذكور:

واسمه محمد المهدي ـ هكذا مركباً ـ وهي تسمية مشهورة في بلاد أزواد، وقد قدمت في هذا الكتاب أن من طرائق هذه الأسرة من الأنصار عند التسمية تركيب الأسماء، وأن أكثر الأسماء عندهم اسم «محمد»، ومن ثَمَّ كثر التركيب معه، لأجل التمييز، ولعل أول من تسمى بهذا الاسم من المشاهير الخليفة العباسي محمد المهدي بن أبي جعفر المنصور المتوفى سنة ٦٩هـ، وهو ثالث الخلفاء العباسيين.

واشتهر الشيخ محمد المهدي بن سيدِي بالمهدي، حتى أصبح ذلك عَلَمًا عليه، و تنوسي مركبه(محمد) كما حدث ذلك مع أبيه سيدي محمد، الذي لم يَعد يُعرف إلا بـ(سِيدِي).

كان الشيخ المهدي رجلاً تام الخِلقة خَليقا شخيصا، عبل العضدين، وافي الذراعين، عظيم الزَّنْدين، وثيق الأركان، عظيم الكراديس، ربعة من الرجال، غير أنه إلى الطول أقرب، مهيب المنظر، إذا كلمكَ أقبل عليك وجحظ عينيه وحرك حاجبيه ورمى ببصره إليك، وكان صيِّتاً جوهري الصوت، حسن النغمة، وكان سِكِّيتاً حيِّاً، ملازماً لسوح داره، قليل الاختلاط بالناس، لا يدخل فيما لا يعنيه، بل كان مقبلاً على شأنه وخاصة أمره.

طلبَ العلمَ منذ صغره فحفظ القرآن وتعلم مبادئ علم الفقه مع إخوته

على أمهم البتول بنت محمدعلي المعروف بـ(أَلَالِي) وخالهم أحمد بن ألالي، ثم استمر في طلب العلم بعد بلوغه الرشد على مشايخ بلده، وكان أبوه سيدي يسافر معه كثيراً لأنه رأى فيه قلة الاهتمام بالخدمة المنزلية ومعالجة أمور السَّرْح ونحوها، وكانت همته في العلم ومجالس أهله أكثر.

وكان رجلاً صالحاً تقياً صبوراً كثير الذكر وقراءة القرآن، كان يختم القرآن كل ليلة في أحايين كثيرة، وكان موصوفا بالأمانة والنزاهة والصدق، تعلم على كثير من مشايخ عصره في بلده وغيرهم، وكان أبرز مشايخه في بلده ابن عمه الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن أَبِّيَنْ، فقد لزمه كثيراً وخدمه كثيراً، وأخذ عنه علم الفرائض خاصة ودرس عليه بعض الكتب الفقهية واللغوية، وتتلمذ هو والشيخ حمّاتّا بن حمَتّالْ على الشيخ محمد الأمين الشنقيطي من أعيان علماء موريتانيا، وعنه أخذ رسم المصحف وكان فيه مُبِرِّزاً.

وبرز في ثلاثة فنون خاصة بروزًا واضحًا، وهي:

١. علم رسم المصحف العثماني، وكان يحفظ فيه متن «محتوى الجامع»، وهو منظومة شاملة في رسم المصحف، للشيخ عبد الله بن الشيخ محمد الأمين بن فال بن سيدي الوافي الشنقيطي، وقد حفظت مجموعة من أبيات هذا النظم في صغري من كثرة ما سمعت والدي يرددها ويتغنى بها، وقد كان ـ رحمه الله ـ يحفظها عن والده المهدي. وكان يكتب القرآن للطلبة غيباً، وكان من المهرة في الخط، وقد كتب مصحفا كاملاً، آخر العهد بذلك المصحف ـ فيما

حدثنيه الشيخ محمدهَمَّا بن حمتاهي - أنه موجود لدى أبناء قينه محمد الطيب، وشاطر مصحفا آخر مع الشيخ الخطاط عبد الرحمن ابن الزبير بن محمد الفقِّي الأنصاري.

٢. علم الفرائض، وهي المواريث، كان يتقنه، ولا يُشق له فيه غبار.

٣. علم الفلك، وكان فيه آية! كان يعرف منازل القمر وأسماء الأنواء والمطالع والبروج ويميز ساعات الليل والنهار باللحظات، ويذكر من أحوال الفصول الأربعة والشهور العربية والافرنجية كل جليل ودقيق.

وكان والدي - رحمه الله - يحفظ عنه من ذلك الكثير، وكان يسمي لنا كل نجم نشير إليه في السماء، ويذكر لنا زمن طلوعه وغيابه ونحو ذلك. ومما شهدته ليلة من ليالي عام ١٩٩٦هـ في مدينة كانو بنيجيريا - في أثناء نزولنا فيها عند هجرتنا - محاورة كانت بين والدي - رحمه الله - والشيخ محمد الملقب (إنتحمَّدِينْ) بن المنذر بن إبراهيم في علم النجوم، بعد انتهائنا من صلاة العشاء جلسا معًا في ليلة بادٍ نجومُها، فأخذ الشيخ إنتحمدينْ يشير إلى كل نجم أومجموعات من النجوم المتلازمة لوالدي، ووالدي يسميها له ويذكر زمن طلوعها وغيابها، والشيخ إنتحمدين يتعجب!

حجَّ الشيخ المهدي - رحمه الله - عام ١٣٧٩هـ وذكر لي إبراهيم بن محمد الأمين (بَرْكَنْجَيْ) بن سِيدِي حَمَّا - وكان مصاحبا له في الحج - أن رجلا من سفهاء الأنصار وقف على المهدي في المشاعر، فجعل يكلمه بسوء

ويبدّعه، قال: فأردت أن أفتك به! كيف يتعرض لعمي بسوء القول؟!! قال: فنهرني الشيخ المهدي وقال لي: «لا جدالَ في الحج»! وجعل يكرر الآية، مُعْرِضا عن ذلك السفيه، ولما عاد من الحج اصطحب معه مجموعة من الكتب التي فيها تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة، وكان الشيخ محمد المختار بن حوّد العلامة المشهور يجله ويقدره ويثني عليه (كذا حدَّثني الشيخ هَمَّا بن حمتاهي).

ومن أعماله التي ينبغي ذكرها في هذا المختصر:

١. المشاركة في قمع الحركة الكفرية التي زج بها الصوفيون التيجانيون في بلاد أزواد وأضلوا بها كثيراً من الناس - نسأل الله العافية - وقد قام العلامة السلفي الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ(محمد) بمحاربة تلك الحركة وإبطال مذهبها، وكان من أهمّ ما ساعده في ذلك بعض الكتب التي أتاه بها الشيخ المهدي بن سيدي من تنبتكو ومنها: كتاب الصارم المنكي. وكتاب الاعتصام للشاطبي. وهما كتابان في الرد على أهل البدع والخرافيين من الصوفية وأضرابهم.

٢. كان مصدراً من مصادر الفتيا في جماعته وأهل بيته، وهم أهل بادية والعلم فيهم قليل، والجهل فيهم كثير، ولديَّ بعض فتاواه ولكن لا يسعني ذكرها في هذا المختصر.

٣. كان إماماً لكل حي يسكنه ملازماً للمسجد، ولا سيما في صلاة التروايح في رمضان، وأهّله لذلك إضافة إلى ما لديه من علم حفظُه

المتقَن ومهارته في القرآن، وصوته الجهوري الجميل، والقوم كانوا في بادية ليس فيها مكبرات للصوت، وكان كذلك يؤم الناس في العيدين، وأما صلاة الاستسقاء فله فيها عادة خاصة، وهي أنه كان يخرج إلى الخلاء بمفرده ويصليها وحده ويجتهد في الدعاء وطلب السقيا.

٤. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الحدود على قدر الاستطاعة، وقد جلد بعض الزواني، وكان إذا أراد إقامة الحد على أحد جمع الناس حتى يشهدوا كما أمر الله بذلك في سورة النور، وكان لا يسمع بمنكر في حيه يستطيع إزالته إلا أزاله، وكان مع كثرة سكوته وابتعاده عن مواطن القيل والقال، مَرِحَ النفس، لطيفَ الحديث، أنيسَ الجليس ليِّناً سهلاً متواضعاً، كنت آخذ بيده إلى الحظيرة وأنا طفل صغير ليحلب لي شاةً فيفعل، وهو آنذاك شيخ كبير لا يقوم إلا على عصا، وربما ذهب معي أحياناً ليقف على رأسي يحرسني لحلب بعض الشياه، وكنت إذا منعني والدي شيئاً ذهبت إليه فشكوت له، فيذهب معي فينصفني منه، وكنت آنذاك في سن الخامسة من عمري، ونحو ذلك من قصص كثيرة تدل على تواضعه وحسن خليقته.

ولما حضرته الوفاة نهى بنيه عن البكاء عليه والنياحة، وقد لاحظ وهو يغرغر ابنه عبد الرحمن وقد نجش من البكاء فزجره، وأوصى ابنه محمداً

ـ وهو والدي ـ وهو كبير أبنائه بأن يدفنه بجانب أبويه وجديه لأبيه ولأمه في المقبرة الكبرى بـ(أُوفِيبَتْ) حتى إنه حدد له البقعة التي أمره أن يقبره فيها، بين أخيه حمتاهي وأبيه سِيدِي وجده لأمه وأمه وخاله.

وترك كتباً ومصحفاً ومن الكتب التي تركها كتاب «الفتح الودودي في شرح المكودي» على ألفية ابن مالك في النحو والتصريف، وعلى حاشيته شرح ابن حمدون، وهذه النسخة عندي أتاني بها عمي إبراهيم بن المهدي ـ رحمه الله ـ، وأريتُها الشيخ محمد إنْتَحمَّدينْ بن المنذر فقال لي: «نعم هذه نسخة جدك المهدي أعرفها، وهذه هي النسخة التي كان يدرسنا منها، وعليها التجليد القديم نفسه».

وأما طلبته فلم أجد من يذكرهم لي تفصيلا، ولم أكن سألت عن ذلك الشيخ محمد هَمَّا وأخاه محمد المولود(امَّلو) ولا غيرهما ممن لا أشك في أنهم أخذوا عنه ولو في بعض المجالس العلمية التي كانوا يعقدونها معه، غير أن المعروف لدينا أنه لم يكن ممن اشتهر بالتدريس، والاهتمام بالمدارس العلمية وشؤون الطلبة. وما عُرف لدينا له من ذلك قليل، ومن طلابه الذين أخذوا عنه القرآن كاملا:

* محمد الملقب (حَمَّا) بن محمود بن آلّدُو، وهُو لِدَةُ والدِي، وشريكه في الاسم واللقب.

* محمد بن إينْ تَمُّونيلْ بن أَمُّوتَّا بن أَمَّقّالْ بن بَدَا بن الحاج بلَّهْ.

* محمد المولود(امَّلُو) بن محمد الطاهر(حمتاهي) بن سِيدِي، قال

لي: «علمني الكتابة والقرآن».

وأما أخوه الشيخ محمد بن سِيدِي ـ رحمه الله ـ، فكان نحوًا من أخيه المهدي، ويشبهه في كثير من السمت والاهتمامات، وأنا أعرفهما معًا، وقد كان الشيخ محمدٌ من كبار شخصيات بني أَبِّينْ، ومن أعيانهم المرموقين، وكان رجلا مشهورًا بالصلاح والورع والتقوى، تَلّاءً للقرآن، ملازمًا لكتابه ودرسه، مقبلا على شأنه، كثير الاستغفار، آمرًا بالمعروف ناهياً عن المنكر، وكان متواضعًا، سمحًا حليمًا حبيباً محبوباً.

من شيوخه الذين أخذ عنهم: الشيخ المنذر بن محمد الأبَلَحي، من بني إِيدَمي بن أمّامّا(محمد) بن أحمد بن قطب الأنصاري. والشيخ عبد القادر بن سِيدَاحمَد من بني عثمان بن الحاج بلّه الأنصاري.

ومن طلابه الذين أخذوا عنه: لقمان ـ أبو كعب ـ من بني محمد علي الملقب بَدَا بن الحاج بلّهْ. ومحمد هَمَّا بن حمتاهي. وإنتحمدين بن المنذر. وعبدالله بن محمد عالي (امَّعاني). ومحمد الملقب (قُوَّا) بن محمد الفقِّي بن محمد البشير (حبُّوبًا). وعبد الله الآقْدَالِي، من قبيلة آقْدَالَنْ. حدثني بهذا ابنه الحسن.

وحدثتني والدتي رحمها الله، كما أخبرتني أيضاً ابنة عمنا الشيخة حسنى بنت محمد همَّا بن حمتاهي أن الشيخ محمد بن سيدي رحمه الله لما نزل بهم الطاعون كتب دعاء للناس وجعل يُلقّنه الأطفال يردّدونه، يقول فيه: «تحصَّنْتُ بذي العزّة والجبروت، واعتصمت بربّ الملَكوت، وتوكَّلْتُ على الحيّ الذي لا يموت، اللهم اصرف عنّا هذا الوبا، وقِنا شرَّ الرَّدَى، ونجِّنا من الطّعْنِ

والطاعون والبلاء، بلطفك يا لطيفُ يا خبير، إنك على كل شيء قدير».

وقالت لي الشيخة حسنى أيضاً: إن الشيخ محمداً كان يقول:

يا ربّ يا ربّ اهدِنا وارزقنا عِلْماً ولِاستعماله وفّقْنا
والحفظَ للقرآن والتأدُّبا به والفهمَ فيه والتهذّبا
واشرح صدورنا لكلّ بِرّ واملأْ قلوبنا لكل خيْر
وتُبْ علينا واغفر الذنوبا واستر لنا بحولك العيوبا
يا ربّ واحفظنا من الآفاتِ وفتنةِ المَحْياءِ والمَماتِ
وكلِّ ما في الدينِ والدنيا وفي موتٍ وقبرٍ وأمور الموقَفِ
وأصلح الأقوالَ والأعمالا وبَلِّغ المقصودَ والآمالا
وسَهِّلِ الأرزاقَ والإرْفاقا وسَدِّدِ الإمساكَ والإنفاقا
وهَبْ لنا منك حلالاً سَيِّغَا واجعلْهُ زاداً للتُّقى مُبَلِّغا
رَبِّ وأَوْزِعْنا على الإنعامِ شكراً يُوافِيهِ على الدوام
وأسْدِلِ السِّتْرَ علينا واكْفِنا كلَّ بلاءٍ ومن الضُّرِّ اشْفِنَا
ونَجِّنِي من فتنةِ الأَسْواءِ جميعِها وفِتْنَةِ الأهْواءِ
وأصْلِحِ الأزواجَ والبَنِينا وكلَّ ما لَنا وما يَلِينَا

أُصِيب في آخر حياته بمرض العطش (الجفاف) إثر سفرةٍ عاد فيها من بلاد كِيدالْ (إيكَدَزْ) واستمر معه المرض فترة غير طويلة، فأُخِذ إلى مدينة (بَنْبَا) لأجل العلاج وهو كاره، ويقول: «دَعوني فإني أكره أنْ أُعالَج بهذه العقاقير التي يصنعها غير المسلمين» فمكث قليلا ثم توفي ـ رحمه الله ـ.

ولما هاجر الشيخ محمد المصطفى (إتَّها) إلى الحجاز اجتمع أبناء سيدي مع الأعيان من إخوانهم أبناء إبراهيم وتشاوروا فيمن يتولى الأمر بعده، فخَلُص رأيهم واجتمع على الشيخ محمد المولود بن محمد الطاهر (حمتاهي) بعد أن تنازل أعمامه المهدي ومحمد وأخوه الأكبر محمد همَّا وابن عمه محمد همّايْ بن إتَّها عن الإمارة فقام بها محمد المولود المذكور، عام ١٣٨٠هـ إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٤٢٤هـ وفيما يلي نبذة مختصرة عنه:

الشيخ الأمير القاضي محمد المولود المعروف بـ(امَّلُو):

هو محمد المولود الملقب «(امَّلُو)»[١] بن محمد الطاهر (حمتاهي) بن سِيدِي بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين المعروف بـ(أَبِّينْ) بن الحاج بلَّهْ. وأمه: لَالَّهْ بنت محمد الملقب حَوَّدْ بن محمد الملقب (بُوحَيْدَهْ) بن محمد المختار الملقب (بَقُّولِي) بن أبي بكر بن الشيخ عبد الله الملقب (الحاج بلّه). نشأ الشيخ امَّلُو في كنف أبيه وأعمامه وخاله العلامة القاضي محمد المختار بن حَوَّدْ، وأمثالهم من علية القوم من العلماء والأمراء وأهل الثراء والجاه،

---

(١) كلمة (امَّلُو) منحوتة من حروف «محمد المولود» اختصارًا، والسبب طول الاسم المركب، فاضطر الناس إلى اختصاره بأخذ بعض حروفه، فأخذوا الميم المشددة من (محمد) واللام الممدودة من (المولود) وأضافوا همزة وصل لتعذر الابتداء بالحرف المشدد، لأنه عبارة عن حرفين أولهما ساكن. وهو ما يسمى في اللغة العربية بالنحت من الأسماء، ولهذه الأسرة منهج معروف مشهور في النحت لأن أكثر الأسماء مركبة من (محمد) وكلمة أخرى، ومحمد المولود أحيانا يختصر هكذا، وأحيانا ينحتون منه ألقابا أخرى، نحو: اللُّودَا ـ حمّلو ـ حوالَنْ ـ حوَّلُو ـ حمَّلْ. . . . . وغير ذلك.

فأثر ذلك في شخصيته، فنشأ عالي الهمة، بعيد الشأو، مُنَعَّمًا مُرَفَّهًا، بهيجا بهيًّا، فلما أيفع حُبب إليه طلب العلم، فأخذ منه قسطا وافرًا عند خاله العلامة الفقيه محمد المختار بن حوَّد، وعميه المهدي ومحمد، والشيخ الحسن بن محمد المصطفى ثم اغترب بعد أنْ شَبَّ، فأخذ سنين يتتبع علماء أَزَوادْ يأخذ عنهم، ثم عاد وقد علتْ رتبته، وإذا به وجيها نبيها، قد رُمي بالأبصار، وارتفعت به الأقدار، يُرمَق من بعد، في مراتب سنية، ودرجات علية، فجعل يصعد في فروع عزٍّ لا يُضام، وقُدْرة لا تُرام.

وكان ممن أعْطي نصيبا وافرًا من الذكاء، ودرجة عالية من الفطنة والدهاء، فأهَّله ذلك لأمرين حالفاه كما حالفهما، ويمماه فاستقبلهما، وهما العلم والجاه، اللذان فاق بهما من سواه، حتى أتاه الحِمام ووافاه.

جلستُ معه مجلسًا أسأله عن سيرته وسيرة قومه، وإمارة آبائه وأيامهم، فذكر لي دقائق الأخبار، وعجائب الأسرار، التي استدللت بها على دقة فهمه، ورفعة شأنه، وتوقُّد ذهنه، وحِدَّة نباهته، وعجيب حفظه، ووجدته شيخًا عاقلا عبقريا، وافق فيه الْخُبر الْخَبر، وسألته آنذاك عن سيرته في طلب العلم، فقال لي:

«حفظت القرآن عند عمي المهدي، والشيخ الحسن بن محمد المطصفى رحمهما الله، وكان عمي المهدي هو الذي علّمني الكتابة، ثم شرعت في تعلم العلوم العربية عند خالي الشيخ محمد المختار بن حوَّدْ، وأخذْتُ الفقه وألفية المعاني للسيوطي في البلاغة وعلم المنطق عن الشيخ أحمد بن محمد

الكُنْدَري، وسافرت إلى تمبتكو فلازمتُ الشيخ بَلْخَير بن الحلَّه الحسَّاني ـ وهو مولى، أمّه أَمَةٌ مملوكة اسمها زينب ـ فراجعتُ عليه القرآن والتفسير وبعضًا من ألفية المعاني ومقامات الحريري في الأدب، ولم أفارقه هو والشيخ الكنْدري حتى تُوفِّيا رحمهما الله، وكنت أُراجع جميع ما أدرسه على الشيخ محمد الطاهر المعروف بـ(حمَّاتَّا) بن حمتَّالْ ـ رحمه الله ـ، وأحيانًا أذهب إلى الشيخ محمد بن الحسن بن حمَتَّا والشيخ الحسن بن محمد المصطفى فأراجع عليهما وأسمع منهما».

ثم ذكر لي أنه سافر مع شيخه محمد المختار بن حَوَّدْ إلى كِيدَالْ شرقي أزواد، وإلى مدينة النّعْمة في موريتانيا، وإلى مدينة قاوا في مالي، وكان يلازمه في مجالسه وسفراته ومناظراته للعلماء، فأخذ عنه كثيرًا، واستفاد منه مالم يستفده من أحد.

وبعد موت شيخه المذكور العلامة القاضي محمد المختار بن حوَّدْ سنة ١٤٠٢هـ قام مقامه في القضاء والفتيا، قال لي: «لما بُلِيتُ بالقضاء احتجت إلى تدوين مسائل القضاء، وكتابة الأحكام وأدلتها، فدونت من ذلك كثيرًا».

وقد كان الشيخ امّلُو ـ رحمه الله ـ رجلاً حصيفًا لبيبا، فطنًا أريبا، ممعِنًا يقِظًا أديبا، فلما هاجر عمه الأمير محمد المصطفى المعروف بـ(إتَّها) عام ١٣٧٩هـ إلى الحجاز وترك بلاد أزَوادْ، واصطحب من أطاعه من الإخوان والأولاد، واختار الانضمام إلى الدولة السعودية العَلِية، ورأى في آلِ سعودٍ عِوَضًا وانسجاما مع نفسه الأبيّة، اجتمع أهل الحل والعقد من الأسرة على

اختيار من يخلفه، فاتفقوا على أن ما أمَّلُوا، موجود في امَّلُو، فجعلوا الأمر إليه بعد عمه إتَّها، لأنهم رأوا أنه أكفأُ وأغنى في هذا الأمر من غيره، ويُجزِئ مَجْزَأَ عمه في سيره، فتولَّى إمارة بني أَبِّينْ ومن انضم إليهم من الأنصار، وهو أمير للأنصار كلهم في كل موقف يستدعي ذلك، كما هو مشهود ومشهور.

فلما وُكل إليه أمرُ الإمارة نهض به نهوضا، واضطلع به اضطلاعًا، وعلا له عُلُوًّا، وسمت به الإمارة سُمُوًّا، واستتمت به نُمُوًّا، فانكفأ من تَربَّص بها عدُوًّا، وكان مما أعانه على ذلك ما كان يتميز به من شارة حسنة، ومنظر أخَّاذ بهيّ، وجوابٍ لا يُقطع، وشأوٍ لا يُلحق، وبديهة لا تُعارَض، وذكاء مفرط، ورد سريع مقنع، وحسٍّ صادق مرهف، وعزيمة ماضية، وتدبير صائب، ومعرفة ثاقبة متتامة بالناس وطبقاتهم ولغاتهم وعاداتهم، وهو مع ذلك مطبوع على محاذرة اللئام، ومؤازرة الكرام، فإذا استُنهِض في مُلمَّة وجدته أحذر من غراب، وأومض من شهاب، وأبلغ من سحبان وائل، وأنطق من قُس ساعدة، وأمضى من النصل، ووجدت مناوِئَه أذل من نعل، وأعطش من رمْل، وأعيا من باقل، وأُغْمي عليه الأمر واستعجم، وسقطتْ حجته وفسدتْ خطته واسترحم.

فإذا جلس مع الكبار من الجِلّة، وولاة الأمر والعِليَةِ، وجدتَه عالي الرتبة، رفيع المنزلة، عظيم الخطر، قد رُمي بالأبصار، ورُمِقَ بالألحاظ، وتسامي بالقول، وأنصت له القوم، وتسنم من بينهم صدر المجلس، وتُرِكَ له الكلام، وقُصِد بالسلام.

وإن تعجب فاعجب أن هذا الأمير مع هذا كله كان سَلِسَ القياد، طَوْع

الْجَناب، سهْلَ الخليقة، سمْحَ السجيّة، محْضَ الضريبة، مقَوَّم الشيم والأخلاق، لطيف الدَّيْدَن، كريم المعدَنْ، وهو مع ذلك تعروه في بعض أحايينه حِدَّة، ويُعبر لسانه عن شدَّة، حتى إنه قد يبالغ أحيانا فيتكلم بما يُعاب، ويخرج من فلَتاتِ لسانه العُجاب، فيسيء به الظن من لا يعرفه، وهو مع ذلك كله خالص النفس، سليم الصدر، مَحْضٌ سرُّه، لا يحمل حقدًا على أحد، ولا يفرق بين رجل وولد، ولا بين امرأة ورجل، صديقٌ للجميع، متواضع للكل.

وأخباره كثيرة، وأيامه وفيرة، ما رآه أحد إلا أحبَّه، ولا زاره إلا أكرمه، ولا رآه إلا قدَّره، ولا سمع به إلا أعجبه.

جاء إلى الحجاز معتمرًا في رمضان سنة ١٤١٦هـ فاستقبلته في مكة المكرمة، وانتظرته حتى أدى المعمرة، ثم ذهبت معه إلى منزل أخيه الكبير الشيخ محمد الملقب (هَمَّا) إذْ كان نازلا آنَذاك في مكة المكرمة، فتسامرنا معا، وسكنْت إلى حديثه، وألقيت إليه عُجَري وبُجَري، واسترسلت معه في الحديث، وأخذ يحكي لنا كثيرًا من قصص الحروب والحماسة والأيام في الجاهلية والإسلام، وينشد قصائد على ذلك، ويروي أخبارًا في الأدب والتاريخ قديما وحديثا، وأنشدنا من أشعاره وأشعار شيوخه في مناسبات ذكرها لنا، وبعد مضي نصف الليل استأذنته للسفر إذْ كنت قادمًا من نجد، ولم يكن لي بد من القفول لكثرة علائقي وأشغالي، فأبدى حُزْنا على سفري، وعلاني شجوٌ عظيم على فراقه، فمددت له كفي أُوَدِّعه ومد إلي كفه، ولا يكاد أحدنا يطيق ذلك، وكأنما الريق قد نشف في الفم، وكلانا قد طأطأ ووجم،

فانصرفت من عنده، واستقللت راحلتي منطلقا ليلتي، مثقلا بألم الفراق، وكأنما كنت في وثاق، فما اكتحلتْ عيناي بنوم، وكاد يفوتني فلاح سحور الصوم. فلما استقبلت البيداء، وقد أضاء قمر ليلة قمراء، وبدت لي النجوم كالمصابيح في الدجى، منها الثريا والسُّهى، شرعت أنشد القصيدة التالية:

أَأَرِقْتَ لَيْلَكَ لِلْبَرِيقِ الأَلْمَعِ ... لَمَّا بَدا لكَ في الدُّجى بالْبَلْقَعِ
فظَلَلْتَ ترقُبُه كأنك مُولَعٌ ... والنفسُ تُولَعُ عادَةً إنْ تُمنَعِ
وكأنما بالنجمِ أنتَ مُوَكَّلٌ ... والنجمُ ويْحَكَ لا يُحَوَّلُ فارْبَعِ
ويقول جفنُك منذُ جدّ السيرُ مِنْ ... يومَيْنِ بالإغماض لم أستَمْتِعِ
وسُراك في ليلٍ كأنَّ نجومَه ... كأبي قُبَيْس في الثبات ولَعْلَعِ[(١)]
ولئنْ شُجيتَ بما أثارك من نوًى ... فالْحُمْقُ حقًّا بَثُّه لِلْمَطْلَعِ
بَرِحَ الْخَفاءُ وليس ذاك ببارحٍ ... أنَّى مع الرُّحَضاءِ فاكتُمْ أوْدَعِ[(٢)]
كم ذقْتُ من مُرِّ الحياةِ فلم أَذُقْ ... كأمَرَّ فيه من الفراقِ وأوجَعِ
ولَّى الأحبةُ آيِبِينَ وودَّعُوا ... فابْيضَّ من بَثِّي وحُزْنِيَ مَدْمَعي
حَدَثٌ يَهُزُّ قناةَ مَتْنِيَ كيفما ... داريْتُه يَهجُمْ علَيَّ ويَلْذَعِ
وعلى مفارقةِ الحبيبِ وأُنسِهِ ... تتجاذَبُ الأشجانُ قلبَ الْخَوْتَعِ[(٣)]
لم آسَ مثلَ أسايَ حينَ يَمُدُّ لي ... كَفَّ المحبَّةِ منْهُ وهْوَ مُوَدِّعِي[(٤)]

---

(١) لَعْلَع: جبل بنجد، رأيته بنفسي، وذكر لي من هناك أن اسمه «لَعْلَع».

(٢) برح الخفاء: بمعنى زال ما كان خافيا. والرحضاء هي العرق.

(٣) المراد بالخوتع هنا الدليل الحاذق في السفر.

(٤) الأسى: الحزن.

أَعْـظَـمْ عـلَـيَّ فـراقَـه ووداعَـه		والله أعلَمُ هل لنا من مَجْمَعِ
فـادْفَـعْ هـمـومَ الـنفسِ عنك وسَلِّها		بِسُرًى على أرْخى بناتِ الأربعِ
نَـهَّـاضَـةٍ هـدَّارَةٍ بِـزَفـيـفِـهـا		تَطْوِي المفاوزَ طَيَّ حرْفِ البَرْذَعِ[1]
درَّارَةٍ دَأَبًا مـتـى مـا اسـتُعـجِلَـتْ		سَبَحَتْ وسالتْ في الفضاءِ الأوسَعِ
تَـمْـشي الْـهُـوَيْنَى مـا أشـاءُ وإنْ أشَـأْ		ما فوقَ ذاكَ هَمزْتُها بالإصبعِ
فـدَفـعْـتُ فـي كَـبِـدِ الـفـلاةِ بـهـا ولَـمْ		أَعْبَأْ بليلٍ قد سَجَا في مَهْيَعِ
ولـقـد عَـوى ذِئـبُ الـفـلاةِ حُـوَيْـلَـنَـا		فضحِكْتُ أسخَرُ من عُواءِ الهِجْرَعِ[2]
ورَفـعْـتُ فـي نـظـمِ الـقـريضِ عَـقِـيـرَتي		ونَهْجْتُ نَهْجًا في الطِّرَازِ الأبْدَعِ
وشُغِلْتُ عنْ غَمْضِ الْجُفونِ بنَظْمِهِ		فَمَضَيْتُ لَيْلِيَ كلَّهُ لم أَهْجَعِ
فـبَـلَـغْـتُ شَـأْوِيَ مِـنْ سُـرايَ وراعَـنِـي		في الأُفْقِ معْتَرِضًا بُزُوغُ الْمَطْلَعِ
فَـلَـعَـمْـرُ رَبِّـكَ مـا بُـلِـيـتُ بِـمِـثْـلِ مـا		أَرِقَتْ له عَيْنَا الأدِيبِ الألْمَعِي

(انتهت سحر ليلة الأربعاء الثامن عشر من رمضان سنة ١٤١٦هـ على ظهر سيارتي منطلقا من مكة المكرمة ميمما ديار نجدٍ على إثْرِ ما تقدم في المقدمة).

ثم أرسلت له هذه القصيدة، فلما بلغته، أرسل إلينا رسالة يعبر فيها عن بالغ أسفه لفراقنا، وضمنها أبياتًا يثني عليَّ فيها منها مايلي:

---

(١) المعنى أن هذه السيارة تطوي المسافات الطويلة العريضة بسرعة فائقة بدون مشقة كما يطوي الإنسان طرف برذعته، والبرذعة هي ما يجعله الراكب على ظهر الدابة تحت الرحل ليقي به ظهر الدابة من الحفاء.

(٢) الهِجْرَع: من أسماء الذئب.

جادَ الزمان على سُموِّ المطلَع　　بأتَم كلِّ محبَّةٍ لِمُودِّعِ
من شاعر ثرثار قول حائكٍ　　نسج القريض بحوكهِ من ينبع
نبهٍ أبيٍّ عالم ومرتِّلٍ　　قرآنه بتدبُّر وتخشع
مازال يطلب ربه مترقيا　　فرع العلى وبآيه لم يهجع
حتى اطمأن على نجاح إحاطة　　مَرْضِيَّةٍ في علمه وتفرع
وقضى الإلَهُ تطَوُّرًا لحياته　　في ذاتِه ونهوضه بِمُشَرَّعِ
لله دَرُّكَ يا ابنَ جدّي والذي　　يتلو الكتابَ مُجَوَّدًا بتضَرُّعِ(١)
يتلوه حَقَّ تلاوَةٍ بِرسُومِهِ　　بحذاقَةٍ وبلاغةٍ لم تُمْنَعِ(٢)
خرَج النباتُ بغرْسِه من طيبٍ　　فبِذاكَ نِلْتَ عدالَةَ المتَطَوِّعِ
هذا الذي هو ثابت لجدودنا　　حفظ الكتاب وسنةٍ لِمُشَفَّعِ(٣)
آتاك ربُّكَ واسِعًا من فضلهِ　　فَدَعِ الحسودَ مُرَغَّمًا بتَجَدُّعِ(٤)
والله يشهد أن علمك نافع　　بعناية ووراثةٍ من مَهْيَعٍ(٥)

---

(١) يريد بقوله (جدي): جده سِيدِي رحمه الله لأنه جدي أيضاً أنا أيها المخاطب، والذي يتلو الكتاب: أراد به عمه جدي المهدي ابن سِيدِي رحمه الله. وقد أسقطت بعض الألفاظ من البيت لأجل الوزن.

(٢) يشير إلى علم عمه الشيخ المهدي رحمه الله برسم المصحف العثماني، فقد قدمت أنه مما كان يتقنه.

(٣) يريد سنة المشَفَّع ﷺ.

(٤) مرغماً بتجدع، أي مجَدَّع الأنف، وهو دعاء عليه لحسده.

(٥) من مهيع: أي من طريق واسع سهل.

قل للأُلَى حسدوه توبوا إنه ... ماانفكَّ يحضُر نافع المتجمّع [(١)]

لِيُزيلَ كل جهالَةٍ عن طالبٍ ... طلبَ استواءً في مناط المرجعِ

بمراجعٍ من كل فَنٍّ غامضٍ ... يجلوه فوق ثمامه في الْمَنْزَعِ

بنصوصه من محكَمٍ ومُبَيَّنٍ ... أو مُجْملٍ عند اللقاءِ إذا دُعِي

يافرحة الندوات عندحضوره ... فازتْ به لِيحُلَّها بتَوسُّعِ

ولأنتَ أصلحُ أنْ تكون إمامهم ... لكمال شرط إمامةٍ وتَورُّعِ

ولأنت أصلح داعيًا وبدعوةٍ ... منشورة بين الجهات الأربَع

ولأنت أصلح إذْ تكون مواصلا ... لعمومة وخؤولةٍ فاحمَدْ وعِ

عهدي به بعد العشاء دخوله ... رجّافة في لونها المتنوِّعِ

ثم شرع في وصف السيارة والطريق ومراحل السير، مثنيا وواصفا بنحو هذا الأسلوب، وهو في هذا كله يقرّ أنه ليس بشاعر ولكنه يحب أن يجيبنا ويسايرنا في حديثنا معه، ويقول في الرسالة معبرًا عن تواضعه ومعتذرًا عن ضعف شاعريته: إنما أكتب لكم هذا الشعر الملحون لتستأنسوا وتضحكوا، وكما قال الشاعر:

ولكنَّ البلاد إذا اقشعرَّتْ ... وصَوَّح نبْتُها رُعيَ الهشيمُ

و«كل إناء بما فيه ينضح» واستشهد بقول الله تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ ولأن من رمى بما في يده لم يذل، وأن ما لا يدرك كله لا يترك جُلُّه . . . . وإذا فُهم المعنى فلا مناقشة في الألفاظ . . .إلى آخر ما ذكره لنا في رسالته.

(١) واسع المتجمع: يريد التجمعات النافعة، وهي المجالس العلمية.

وعاد إلى بلاده «أزَوادْ» وكان في تلك الأيام قد بدا عليه الضعف لكبر سِنِّه، وكثرة أمراضه، وتفرق شمله، وتألمه لما آلت إليه أحوال الأنصار في الأزمنة المتأخرة، ولكنه لم يزل قوي النفس ماضي العزيمة، متضلعا بأمور العلم والإمارة، معنيا بشؤون الأسرة، ويؤمه أهل المنطقة كلها، الأنصار، والطوارق، والبرابيش، والسودان، فمكث سِنين يقضي ويفتي وينتفع الناس به، وعاش حتى لم يبق من أهل طبقته إلا قلة نادرة، وأما من جهة علمه وجاهه ومكانته فلا أعلم أحدًا يساميه في آخر أيامه في تلك البلاد، والله يؤتي فضله من يشاء.

وفاته:

وفي سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وألف أُصيبَ الناس بطاعون «حمَّى الوادي المتصدِّع» فاخترمه، وقد ناهز التسعين، مساء الجمعة الخامس من شعبان من تلك السنة، فرثيته بالقصيدة التالية:

١. لقد بات بالأحزانِ من كان يأملُ   عَشِيَّةَ أَوْدَى شَيْخُنَا الْفَرْدُ أَمَّلُ
٢. فقد راعَ تِمْبَتْكُو عِشاءً مقالُهُم   مُحَمَّدٌ الْمَوْلُودُ بِالنَّعْشِ مِن عَلُ
٣. فَضَجَّتْ عويلاً بالنَّحيب وهيَّجت   بِمَبْكَى الثَّكَالَى العَالَمِينَ فَحَوْقَلُوا
٤. وقامت جُمُوعُ الناسِ في عَرَصاتِها   تُعَزِّي بَنِي الأَنْصَارِ وَالدَّمْعُ مُرْسَلُ
٥. أحقًّا عبادَ اللهِ ماتَ أَمِيرُهُم   وَذَلِكَ قَاضِيهِمْ إِلَى اللَّحْدِ يُحْمَلُ
٦. تداعتْ لهُ الصَّحْرَاءُ مِن كلِ وجهَةٍ   وَبَاتَتْ عَلَى حُزْنٍ شَدِيدٍ تَمَلْمَلُ
٧. فَوَيْلٌ لِأَزْوادٍ بما قد أصابها   فَقَدْ عَمَّهَا خَطْبٌ وَنَقْصٌ مُعَجَّلُ
٨. فمن ذا يؤُمُّ النَّاسُ عِندَ نِزَاعِهِم   وَمَنْ لِلْفَتَاوَى وَالرَّوَاحِلُ تُرْحَلُ

٩. وهل مِن فَتىً يَبْدُو قريعاً مُناضِلاً عَلَيْكُمْ بَنِي إِنْفَا وَقَد غَابَ أَمَّلُ
١٠. إذا ما أُصِيبَ الناسُ في عُلَمَائِهِمْ وَفِيْمَنْ يَلِيْهِمْ فَالْمُصِيْبَة أَهْوَلُ
١١. نَعَاهُ إِلَيْنَا كُلُّ قَاصٍ ومن دَنَا فَقَدْ كَانَ مَرْمُوقاً وَشَيْخاً يُبَجَّلُ
١٢. كَفَى الْمَرْءَ إِيْمَاءٌ بقُطرٍ إلى اسْمِهِ فَيَعْرِفُهُ كُلٌّ بِمَا هُوَ أَمْثَلُ
١٣. وَمَن تُلْفِهِ منهم جَحُوداً وَمُنكِراً لَهُ فَهْوَ ذُو حِقْدٍ خَبِيثٌ وَأَرْذَلُ
١٤. وَإن قَالَ مَن هَذا انْتقاصاً فَقُلْ لهُ مَتَى كَانَتِ الأَقْمَارُ تَخْفَى وَتُجْهَلُ
١٥. أَدِيبٌ فَقِيهٌ لِلْكِتابِ مُفَسِّرٌ لَهُ فِي فُنُونِ الْعِلْمِ وِرْدٌ وَمَنْهَلُ
١٦. أَمِيْرٌ لَهُ بَيْنَ الْمُلُوكِ أَمَارَةٌ عَلَى الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ لا تَتَحَوَّلُ
١٧. تَعَالَتْ سَنَاءً واسْتَقَامَتْ فُرُوعُهَا تَلَا كُلَّ ذِيْ فَرْعٍ نَمَاءٌ مُسَلْسَلُ
١٨. سُمُوٌّ بَنَاهُ اللهُ فَوقَ سَمائِنا وَمَا قَدْ بَنَاهُ اللهُ فَهْوَ الْمُؤَثَّلُ
١٩. لَهُ في مَقَامَاتِ الرجَالِ إذا انتَدَوْا صدارَةُ أعيانِ الملوكِ تُؤَوَّلُ
٢٠. لَهُ صَوْلَةٌ عِنْدَ الْمُلِمَّاتِ نَالَها بِمَوْرُوثِ آبَاءٍ وَمَا كَانَ يَعْمَلُ
٢١. وَلَمْ يَرَهُ يَوْماً مِنَ النَّاسِ عَالِمٌ وَلَا مَلِكٌ إِلَّا انْثَنَى وَهْوَ أَعْدَلُ
٢٢. سَلُوا عَنْهُ تَمْبَتْكُو وَكُلَّ مَدِينَةٍ إذَا جَدَّ جِدٌّ مَنْ يُؤَمُّ وَيُسْأَلُ
٢٣. وَمَن يبْتغِ الْحقَّ الْمُبين يَجِدْ لَهُ شَهَادَةَ صِدْقٍ وَهْيَ أَوْلَى وَأَوَّلُ
٢٤. وَمَنْ يَكُ غِمْراً أَحْرَقَتْهُ ضَغِينَةٌ تَأَجَّجُ فِي الأَحْشَاءِ وَهْوَ مُضَلَّلُ
٢٥. وَمَنْ كَانَ ذَا غِلٍّ وَيُبْدِيْ شَمَاتَةً فَتَعْساً لَه تَعْساً بِمَا هُوَ يَفْعَلُ
٢٦. فَصَبْراً بَنِيْ الأَنْصَارِ صَبْراً لِفَقْدِهِ عَسَى رَبُّنا يَأْتِي بِخَيْرٍ وَيَقْبَلُ
٢٧. وَيَرْحَمُهُ مَنّاً وَيَعْفُو تَكَرُّماً فَفَضْلُ إِلَهِ الْعَرْشِ أَوْفَى وَأَشْمَلُ

٢٨. وَإِن تَجْزَعُوا فَالْمَوْتُ حَقٌّ وَشِرْعَةٌ   سَنُورِدُهَا حَتْمًا وَلَلصَبْرُ أَجْمَلُ
٢٩ . أَلا كُـلُّ حَـيٍّ لَا مـحَـالَـةَ رَاجِـعٌ   إِلَى اللهِ يَوْماً لَيْسَ يُدْرَى الْمُعَجَّلُ

انتهت المرثية في ٦/ ٨/ ١٤٢٣هـ.

وخلف من البنين محمدًا، والعباس، وحامدًا، ولكل واحد منهم ذرية، ومن البنات: عائشة أم أبناء عبد الله بن أحمد بن محمد الصطفى (مَمُّو)، وخديجة أم أبناء محمد الطاهر بن محمد بن محمد المصطفى (مَمُّو)، ومريم أم أبناء عبد الرحمن بن المنير ما عدا سعد الدين منهم. وأم أبنائه جميعًا هي سِيمَتْ بنت محمد عالي بن محمد الأمين بن محمد بن محمد علي بن حمدإمَلَّنْ بن قطب.

وصيته:

وكان قد كتب وصية لبني جده سِيدي محمد خاصة بالمحافظة على إمارة أبيهم، والاهتمام بشؤون الأنصار، يقول فيها: «**بسم الله وكفى، وصلى الله على المصطفى، هذا وصيتي عند عجزي وضعفي في مجتمع أبناء سِيدِي خاصة ليكون أمرنا وسدادنا متصلاً مسلسلاً معقباً طلباً للبركة بعدم محو الأثر، إذ المناقب لا تحصى ولا تُتْرك، وكل رجل أو امرأة يعني جنساً شخصياً لا يخلع قميصاً قمصه الله به، إذ هذا عار وتلبد بعدم الشعور والإحساس، لأجل ذلك إن كنت عمكم وشيخكم وكبيركم، فلا بد من أن تأخذوا وتتمكنوا من عدم محو الأثر. . . .لثبوت إمارة جدنا قبلُ في العرب والعجم، وتحمُّل مكلوف الإخوان . . . .**»انتهى المراد منه.

بـــاب
في بيان الوضع الثقافي للقبيلة

الفصل الأول
عوامل التميز الثقافي

تتمتع قبيلة الأنصار التنبتكيين بوضع ثقافي متميز، جاء هذا الوضع متأثرًا بعوامل عدة، أملتها ظروف تاريخية واجتماعية وسياسية ومكانية.

فمن الناحية التاريخية تعد هذه القبيلة امتدادًا لأصلها التاريخي، وفرعًا من فروع جذرها الأول، لأنهم نسل الأوس والخزرج، وهم قبيلة الأنصار الكبرى الذين نصروا الرسول ﷺ وعاش بينهم ونزل عليهم القرآن وعايشوا أحداث التشريع الإسلامي، فتفقهوا في الدين، وصارت الأحكام الشرعية جزءا من حياتهم الاجتماعية، ومات الرسول ﷺ، وقد مرنوا على الاقتداء به، وأخذوا منه الأحكام الشرعية من عبادات ومعاملات، وسلوك وأخلاق، قولا وعملا، فصارت تلك الأحكام والأوصاف والسلوك منتشرة مشهورة متعارفا عليها بين الكبار والصغار، ويعرفها العامة كما يعرفها الخاصة.

واستمر الوضع على هذه الحال في هذه القبيلة التي نتحدث عنها ولم ينقطع، ولم يتأثر إلا قليلا مع كثرة التنقل من بلد إلى بلد عبر عشرة قرون، بل تماسك تماسكا ما، إلى حد منحه التميز والخصوصية والاستمرار الجزئي بين ثقافات كثير من الأمم والجماعات التي عاشت هذه القبيلة من بينها.

ومن أهم أسباب هذا التماسك واستمرار ذلك الإرث النبوي، أن أجداد هذا البيت من الأنصار كانوا في غالب أحوالهم وأحيانهم من أهل العلم والمعنيين به، فقد كانت أعلام عمود هذا النسب من جملة العلماء والعباد، وكان أولهم خروجاً من المدينة المنورة إنما خرج اعتزالا للفتن وفراراً بدينه، عازماً على الانقطاع للعبادة، مستعينا على ذلك بالسياحة في الأرض، واجتناب مظان الشهرة ودواعي الميل إلى الجاه والسلطان، مجتنبا إيثار الانتصار للذات، وتَرَكَ الوصيةَ بذلك لأبنائه من بعده، آمرا لهم بالسياحة والتبتل، وعدم الخوض في الفتن التي تهيج بين المسلمين، وناصحا بالالتزام بالعلم وأهله، والاتصاف بالديانة وحسن السمت والسلوك، محافظة على الإرث النبوي، وهدي أجدادهم من الصحابة، فلما كان الأمر كذلك غلب على ظن كل واحد منهم أنه سيحل بلادَ غربةٍ ويموت فيها، فيغترب أبناؤه من بعده، وقد يكون اغترابهم سببا في نسيانهم لتلك السيرة وتفريطهم في تلك الوصية، وضياع أصلهم عليهم، فتعزب عنهم معرفة أصل نسبهم وحسبهم المتصل بأجدادهم، ويضيع عنهم موروث آبائهم الثقافي والسلوكي، فينقطع الخيط المتصل، وينفرط العِقد المسلسل، ويضعف أمر الوصية السابقة، ويذوبون في الأمم، ويكون عمل أولهم وَبَالاً على آخرهم.

فلما كان الأمر كذلك اشتد حرصُهم على تاريخهم، وحملهم ذلك على التشدد في التمسك بوصية أولهم، فصار كل واحد يكتب نسبه ووصيته تلك الموروثة لأبنائه من بعده، حذَرًا عليهم مما سبق، وهكذا حتى وصلت هذه

الوصية إلينا الآن، مع سلسلة نسب الآباء الذين تناسلت منهم هذه القبيلة من لدن جدهم صاحب رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، فكان ذلك مدعاة للاتصال الثقافي والمحافظة على الموروث الديني والسلوكي والعلمي، تبعا لإرث النسب والتاريخ.

ومن مظاهر هذه المحافظة والشياع الثقافي والفقهي والسلوكي ما شاع في هذه القبيلة واشتهر وصار من عوائدهم التي طُبعوا عليها مما يلي:

١. أنه قد غلب على عامتهم معرفةُ أصول العقيدة الإسلامية التي هي أركان الإسلام، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولاء والبراء، وأركان الإيمان الستة، وما يجب لله من توحيد واجتناب الشرك ووسائله، كالبناء على القبور، وتعظيم المخلوقين. ومعرفة ما يجب لرسول الله ﷺ من طاعة ومحبة واتباع هديه وترك هدي غيره، والتزام بسنته في شؤون الحياة كلها.

٢. معرفةُ الأحكام الفقهية الضرورية لدى العوام والخواص، كأحكام الصلاة والطهارة والصوم والزكاة، ومن مثل أحكام الميراث في الإسلام، وأحكام الجنائز، وأحكام البيع والشراء العامة، وأحكام النكاح من عقد وطلاق وخلع، ونحوها، ومعرفة المحرمات من النساء، والمحارم، وأحوال الرضاع والنفقة . . . .إلخ. وأحكام الذكاة والذبائح، ومعرفة مايحل من المشارب والمآكل . . . .إلخ.

٣. الاهتمام بالتعليم، ولا سيما حفظ القرآن وتعلم علوم العربية والفقه،

والحرص على الأدب العربي الفصيح الصحيح، ولم يثنهم عن ذلك مخالطة الأعاجم والسكنى معهم، كما لم يثنهم عنه سكنى البادية وقلة الكتب وندرتها، ولا الانعزال عن مواطن التجمعات الثقافية في العالم.

٤. التمسك بسيرة الرسول ﷺ، وقصصه وأيامه ووصاياه للأنصار وللمسلمين عامة، وسيرة السلف الصالح وقصصهم ومنهجهم في الحياة والتعليم والدعوة للإسلام والصبر على ذلك.

٥. شيوع الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونشر الإسلام، في مجتمعهم، وكذلك تفقيه الناس وتعليمهم، واعتبار ذلك ديانة وتقربا إلى الله، وأداء للأمانة.

٦. إقامة شريعة الله والانتصار لها بالحجة والمجادلة بالتي هي أحسن، ثم بالقوة عند اللزوم، والدفاع عن الحق بالحجج الشرعية والعقلية والبراهين العلمية النقلية والعقلية، وبالسنان والكفاح، بما أمكن من مال وسلاح، مهما كلف ذلك من نفس ونفيس، وترغيب وترهيب، أوتعزير وتأديب.

٧. أن هذه القبيلة لم تخل يوما من الأيام، ولا في عصر من العصور من قضاة يقضون بالحق، ويفصلون في الخصومات، ويفضون المنازعات، ويستقبلون المرافعات، ويؤمهم من بأقطارهم من المسلمين للاستقضاء والاستفتاء، كما يؤمونهم عند الخوف من

الأعداء للإيواء والاحتماء، ولا سيما في تلك الصحراء، والقرى والأحياء، التي كثر فيها الجهل والظلم، وقل فيها العدل والعلم.

ومما كنت قد أنشدته في ذكر هذه الميزة في الأنصار التنبتكيين، القصيدة التالية:

لنا في كل نازلة قُضاةٌ بحمدِ الله تَفْصِلُ في القَضايا
إذا ما استشْكَلَ العلماءُ أمراً وعزَّ بيانُه نَصُّوا المطايا
إلى الأنصار في كُلِّ النواحي لِتَقْضِيَ في الذي أَعْيا البرايا
قضاءً بالذي أوحاه ربي من الوحيينِ لَيْسَ مِنَ الزوايا
فَتَلْقَى العالمين له خضوعا رِضًا بالحق دَرْءًا للرزايا
وكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ ثارَتْ فَلَوْلا قضاةُ الحقِّ ساقتْ للمنايا
لنا في قُطْرِنا القَدَحُ الْمُعَلَّى بقول الحقِّ باتَ من السجايا
فَسَلْ مَنْ شئتَ في أزوادَ عنا تجدْ أنْ لَيْسَ ذاك من الخفايا[1]
إذا ما كان حُكْمُ القاضِ عَدْلاً تَطِيبُ له من الناس النوايا
وشَرْعُ اللهِ لا يُعْلَى عليهِ كذلك مَا لِرَبِّكَ مِنْ وَصايا

(١) أزواد: بإسكان الزاي أو بفتحها، والفتح أكثر، مصطلح يطلقه أصحابه على الصحراء الكبرى بشمال أفريقيا
وأهلها كلهم إما عرب وإما طوارق، وكلهم مسلمون، وكثير منهم بدْوٌ رُحَّل، وبعضهم أصحاب مدن وقرى ومزارع، ولاسيما من على ضفاف النهر، الذي يجري هناك، ويمر بمدينة تمبكتو في الصحراء.

وخَيْرُ العِلْمِ فِقْهُ الدِّينِ حَقًّا وفي الأنصارِ تِلْكَ من المزايا

* * *

بيان وإيضاح: والرد على المعترضين:

قد يقول القائل: كيف تذكر عن هذه القبيلة ما تقدم من محامد ونعوت طيبة ضافية ووافية، وشاملة صافية، في مجال العلم والصلاح، وأسباب توافر الخير والفلاح؟ مع ما قد يقوله عنها غيرك من كل ما يضاد ذلك ويرده، ويحاده ويسده، ولا يُثْبِت له دليلا يمده، ولا شاهدًا يؤيده، أو سندًا يوطده، بل يجد عليه ما يدِّعي أنه يفنده، وما يرى أنه يفتته ويبدده؟!

فالجواب عن هذا الاعتراض وذلك الادعاء والافتراض، ما يلي:

* أننا إنما نخبر عن شيء شاهدناه، وعاينّاه وعايشناه، وأيدَنا فيه أهلُه وشاهدوه وصدقونا، وكذا جميع المنصفين ممن خبر هذه الأسرة وعلم تاريخها وسيرتها وشؤون حياتها، وهو خبر مستفيض، ونبأ عريض، لا يرده إلا مريض، وإلا حاقد غريض، لأنه مجمع عليه عند أهله وعارفيهم من أهل الإنصاف والحق، متأكد عندهم كما هو متأكد عندنا نحن.

ونقول كما قال بعض السلف، يرد على أمثال هؤلاء من الخلف: «**ليس يجب علينا ترك ما قد تيَقَّنَّاه وعرفناه حقيقةً، وصح في العقول لشك من شك، بغير دليل ولا برهان، لأن الشكوك لا تدفع الحقائق**»[(١)]. وكل ما ذكرناه في

---

(١) الزجاجي في الإيضاح في علل النحو (ص٤٣).

هؤلاء القوم موجود فيهم حقيقة، ومشهود عليهم بما يكفي من قول ووثيقة.

ولكن ذلك يصدق على القوم بعامة، ويُحكم به على الغالب والحال التامة، ولا نعني به من شذّ من الأفراد، ولا من عصى فخرج عن الجماعة، ولا من نأتْ به الحال فضاع في المآل، ولانعني به من رغب منهم عن العلم وأهله، ولا مَنْ ترك سيرة سلفه لجهله، ولا من غرته الدنيا فطغى واستغنى، ولا من تأثر بغير قومه ولم يكن بما عُنوا به اعتنى، ولا من صدر عن غير هذا المنهل، أو ورد إلى ما شاء من مجهل، فليس الحكم للشاذ والناد، ولا للضائع والحاد، ولكن للعامة والهامة، والجماعة وأولي الهيئة التامة، وهؤلاء ـ ولله الحمد ـ هم السواد الأعظم، والنماء الأقوم، والحكم عليهم يقوم، والنعت عليهم يحوم، والأمر إليهم يؤول.

* أن هذا الشك والاعتراض، والشغب و الاغتماض، إنما يصدر من قوم أصابهم ما أصابهم من الشنآن، وغاظهم ما رأوه عبر الأزمان، من كون هذه الأسرة سدًا منيعا أمام جماح ظلمهم وعدوانهم، وغُصة غاصة في حلوقهم وبلدانهم، لوقوفهم عاجزين عن صدهم وردهم، وهم صنفان:

الصنف الأول: قوم لهم القوة مع العلم، فظنوا أنهم يقدرون على استعباد العباد في المنطقة، بقُوَّتهم وعلمهم، ولم يرقبوا في مؤمن إلّاً ولا ذمة، فلما أبى لهم الأنصار ذلك، ولم يطاوعوهم على استبدادهم وظلمهم، ناصبوهم العداوة، وحسبوهم غنيمة في البَداوة، فراموا استئصال هذه الجماعة الأنصارية الخزرجية، فقاتلوهم بكل وسيلة حسية ومعنوية، فقاومهم

الأنصار، وهتكوا عليهم الأستار، ولم يلينوا لهم، حتى نصرهم الله عليهم، وثَبّت أقدام الأنصار في تلك الصحراء، فصاروا فيها ملجأ لكل ضعيف ومطرود ممن كان تحت وطأة أولئك القوم المستبدين الناقمين على الأنصار، فرفع الله شأن الأنصار، وأظهرهم في مجال العلم والقول، كما أظهرهم في مجال القراع بالسلاح والخيل.

الصنف الثاني: قوم من أهل المنطقة ممن ليس لهم قوة ولا سلاح، ولا دفاع ولا كفاح، بل هم من الضعفاء المستضعفين، ومن جملة الجبناء المغلوبين، غير أن لديهم ثمالةَ علم، ونوعًا من البَصَر فيه وفهم، وبقية أثر فيه، وهم مع ذلك أهل لسان وقلم، فأرادوا بسط سيطرتهم على قبائل المنطقة بسبب كون عامة من فيها ـ من الطوارق والبرابيش والفُلَّانْ والبَمْبَارَا وغيرهم ـ من العوام الذين ليس لهم فقه في الدين ولا علم بالكتاب، ولا لهم اتصال بأهل العلم، ولا ارتباط بالثقافات وأهلها، وهم مع ذلك من خُلَّص المسلمين الذين يحبون الدين ويقدِّرون أهل التقوى، ويبجلون العلماء، ويطيعون الآمر والناهي من أهل الحق والصلاح.

فلما رأى أولئك المتسلطون الظلمة المعتدون ذلك جعلوهم طعمة لهم، يأكلون بهم، ويتمعشون فيهم، فسيطروا عليهم، وعلى أموالهم، عن طريق ادعاء كونهم قضاة ودعاة إلى الله، وعلماء تجب طاعتهم واتباع كلامهم، ومن عصاهم فإن الله سيعاقبه ويرديه ويذهب ماله وجاهه. . . فصدقهم العوام السُّذَّج على ذلك، فمنحوهم أموالهم يتصرفون فيها كما يشاؤون، فلما أبى

لهم الأنصار ذلك، ورأوا أن جانبهم منيع، وأنهم ليسوا لأحد بتبيع، والسيطرة عليهم غير ممكنة، لا بالعلم، ولا بالقلم، ولا بالكتاب، ولا بالحساب، ولا بالقضاء والفتوى والولائم، ولا بالرقى والتعاويذ والتمائم، ونحو ذلك من أساليبهم، ومن صنوف مكايدهم وأساطيرهم، . . . .ناصبوهم العداء، وألَّبوا عليهم الأعداء، واعتبروا الأنصار عدوًّا لهم، وأخذوا يشككون في نسب هذه الأسرة ويحرفون ما وقع في أيديهم من كتبهم، شَغَباً عليهم ومُغالَبة، بأنواع من اللغو والمطاعنة، وجعلوا ينشرون بين عوام أهل المنطقة أن هؤلاء ليسوا من الأنصار، وليس لهم تاريخ، وطفقوا يبثون البغضاء للأنصار في مجتمعاتهم، بأنواع من التهويش والتشويش، ورأيناهم في عصرنا هذا يحاولون استغلال الإعلام العربي والعالمي للغرض نفسه، ورأينا لهم مؤلفاتٍ مشحونةً ببغض وحقد شديد لهذه الأسرة، وكراهية متناهية لهم ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

الفصل الثاني

نماذج من العلماء والمتعلِّمين

لم تكن الصفة السابقة للقوم مأخوذة من فراغ، ولا مؤلَّفةً عمن زاغ، ولا كانت مجلوبة بلا مساغ، بل كان وراءها وأمامها رجال عدول، وأعيان فحول، من خيار الفروع والأصول، ممن حمل أمانة العلم، وكان به معنيا في الحرب والسِّلْم.

وهذه تتمة مهمة للموضوع السابق، وتوشيح لما تقدم من النعت الشائق، لما كان عليه وضع القوم الثقافي، أردنا بها الاستدلال على المنهل الصافي، الذي ثبَّت الأسس المتقدمة بالعدد الوافي، من العلماء وطلبة العلم، وهم قادة الفكْر في كل مجتمع، وفي كل حضارة هم خير منتفَع، والرحى بإذن الله بهم تدور، والأمور بعد الله إليهم تصير، سواء منهم الأحياء ومن حَوَتْ القبور، ممن ترك سيرة حسنة، أو ذكرًا وقدوة متبعة، أو علما ينتفع به مكتوبا ومرسوما، أو شائعًا مسموعًا ومعلوما، أو منقولا عنهم ومرويا، فكانت آثاره كما كانت أيامه هُدًى مرضياً، ولأجل هذا تجد كل أمةٍ بأمثالهم معنيَّة، وبإرث بصائرهم مهدية.

وفي هذه الأسرة جمع لا يكادون يُحصوْن من العلماء، ومن طلبة العلم النبهاء، ومن أهل البصائر والحكماء، ومن الأعيان الهداة والشرفاء، ممن مضى وانقضى من القدماء، وممن أتى بعدهم من الأحياء والخلفاء، يقودون

هذه الأسرة في كل عصر، وفي كل جيل من أجيالها بلا حصر، ويحملونها على المحافظة بما لها من تراث وتاريخ، ويحملون راية العلم على الشماريخ، حتى بلغوا بها باذخ المجد، وسبيل غاية الْجَدّ، من قَرَأَة القرآن ومُقرئيهِ، ورواة العلم ومدرسيه، والفقهاء والقضاة، والنبلاء والدعاة.

سأذكر منهم نماذج مختارة، أجعلها على مَنْ سواهم إشارة، استدلالا وتمثيلا، بما لا يقبل تأويلا، ولا يمكن له ردٌّ ولا تبديل، ولا جحد ولا تحويل، إذ هم معروفون بأعيانهم وأخبارهم، وبأبنائهم وآثارهم، مُورِدًا من كل جيل وطبقةٍ أمثلة، كافية لمن له عنهم أسئلة، من غير تفريق بين بني فلان وعلان، ولا بين بني هَيّان وبيّان، فإن المقصود هو إبراز ما لبني إنْفا، من تاريخ ردًّا على مَنْ لهم نَفَا، وليس المقصود الأفراد والأعيان، في كل حين من الأحيان، كما أني أردت التنبيه على توافر الأصداف والغنائم، في هذا البحر الزاخر بالعظائم، ولم أردْ بلوغ قعر اليمّ المتلاطم، مستعينا بالله خير معين، معتصما به من شر خلقه أجمعين:

أولاً: تَقدَّم أنْ ذكرت مرارًا أن سلسلة آباء هذا البيت من الأنصار كلهم علماء، من لدن محمد المختار (إنفا) الأنصاري ـ رحمه الله ـ وأبنائه إلى جدهم من الصحابة. هكذا بلَغَنا، وهكذا وجدناه مدَوَّنا فيما وقفنا عليه من المخطوطات القديمة والحديثة، وهذا ما يتناقله آباؤهم وأجدادهم، قديما وحديثا، ويحفظونه متواترًا حديثا، ولا يزال السير عليه حثيثاً.

ثانياً: بعض مشاهير العلماء وطلبة العلم المعدودين في الأجيال التالية

للشيخ إِنْفا ـ رحمه الله ـ، ابتداءً من القرن الحادي عشر الهجري:

* العلامة الأمير الشيخ محمد بن إنْفا، جد هذه القبيلة، ومؤسس الإمارة الأنصارية بأزَوَاد في الصحراء الكبرى في بلاد المغرب، صاحب أكبر مدرسة في تلك الديار، وبه تخرج كثير من العلماء الأخيار، وكان أبوه محمد المختار (إنْفا) الأنصاري ـ رحمه الله ـ من أعيان العلم والمعرفة، قرين العلَّامة أحمد بن آدَّا العلويّ وطبقته من سكان أَرَوَان القديمة، ومن ذريتهما وطلبتهما تكوَّن أول مجتمع علمي مشهور في تلك المنطقة.

* ابنه محمد المعروف بقطب. وأخوه أحمد، الذي عُرفت ذريته بالأَبَلَحِيين، وكلاهما عالم مشهور، وعلَمٌ مغمور، وإمام معروف، بالتقوى والصلاح موصوف.

* عبد الله المعروف بالحاج بَلَّه بن قطب، وأخوه محمد إيمَلَّنْ المعروف بـ(أبانين). وكانا من كبار علماء المنطقة، انتهت إليهما الفتوى في زمانهما، ورحل إليهما الطلبة، وقُصدت مجالسهما للدرس، والاستقضاء.

قال صاحب كتاب تفتيش الوثائق ـ في معرِض حديثه عمن خرج من صلب الشيخ محمد بن إِنْفا الأنصاري من مشاهير العلماء ـ: «ومنهم العالم المفتي الذي انتهت إليه رئاسة الإفتاء في جميع الأقطار الحاج بلَّهْ بن قطب بن محمد بن إنْفا»[1].

(١) تفتيش الوثائق عن تاريخ التوارق للشيخ أبي بكر الشكاغي (٢/ ١٢٥).(مخطوط).

وقال صاحب كتاب فتح الشكور ـ في ترجمة القاضي محمد المصطفى الشهير وانْدايَّ بن عثمان الكلادي ـ: «أخذ عن الشيخ العالم الولي الصالح التقي السني محمد الطاهر[١] بن القطب الكبير سيدي علي بن النجيب، وعن فريد دهره محمد إيمَلَّنْ بن سيدِي قطب»[٢].

* محمد حمَّادَا المشهور بـ(حمَّادَا) بن محمد إملن بن قطب. وأبناؤه: محمد أحمد، وحَوَالَنْ. والأمير محمد الأمين (دُوَّادُوَّا). وكان الشيخ محمدحمَّادا بمنزلة أبيه(أبَّانِينْ) وعمه الجاج بلَّه، في علمه ومعرفته وشهرته وجاهه، وهو الذي انتهت إليه رئاسة القبيلة بعد أبيه، تخرج على يد شيخه الشيخ سنْبِير بن سِيدي الوافي بن طالبَنَّ الأرَواني المتوفى سنة ١١٨٠هـ[٣]. وله منظومة في التصوف تقع في سبع وعشرين ورقة. مخطوطة في مركز أحمد

---

(١) الشيخ محمد الطاهر هذا أمه فاطمة الزهراء بنت الشيخ أحمد بن قطب الأنصاري الذي قدمنا ذكره، وأبوه (سيدي علي بن النجيب) معاصر لقطب وأحمد ابني الشيخ محمد بن إنْفا الأنصاري، ولذلك تزوج علي بن النجيب ابنة الشيخ أحمد، وهو الذي روى سلسلة نسب الأنصار من بني إنْفا عن محمد بن إنْفا وابنه قطب، كما تقدم. وقد قدمتُ مرارًا أن من عادات أهل هذه المنطقة تصدير أسماء العلماء والأعيان بكلمة (سِيدِي) تعبيرًا عن مكانة الشخص واحترامًا وتقديرًا. ثم لَمَّا كثر ذلك مع بعض الأعيان صار عَلَمًا عليهم بجانب الاسم الأصلي.

(٢) فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، للشيخ محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتيّ الأنصاري (ص١٤٥). بتحقيق محمد الكتاني ومحمد حجي، طبعة دار الغرب الإسلامي.لبنان.

(٣) انظر كتاب تفتيش الوثائق (٢/ ١٢٦). وفتح الشكور (ص١٠٢).

بابا التنبتكي برقم ١١٥٩.

* عمر بن الحاج بلَّه بن قطب. وأخوه عثمان بن الحاج بله بن قطب.

* محمد أحمد بن محمد إملن بن قطب.

* محمد الأمين الملقب حلَّايْ بن عثمان بن الحاج بلَّهْ. وكان الشيخ حلّاي هذا من كبار العلماء المشهورين في المنطقة، وهو تلميذ عمه العلامة الشيخ حمَّادَا بن محمد إِمَلَّنْ، وله مؤلفات وفتاوى متناثرة ومتنوعة، منها كتاب في التصوف والتوحيد سماه «**تحفة المريد بحقيقة التوحيد**» وكان موصوفا بحسن الخط، قال لي محمد بن حذيفة بن محمدعمر بن الطيب بن حلَّايْ إنه رأى نسخة كاملة من كتاب «الشفا» للقاضي عياض بخط جده الشيخ حلّاي. توفي ـ رحمه الله ـ سنة ١٢٣٠هـ تقريباً، ودُفِن في مقبرة «إينُوشفْ»[١].

* محمد أحمد بن أبِّينْ بن الحاج بلَّهْ، ومحمد بن محمد المعروف بـ(إيَّحَّا) بن عثمان بن الحاج بله.

* ومن أبناء اللَّكي (أبو بكر) بن الحاج بله بن قطب: محمد الملقب انَّحَّا بن أبي بكر بن الحاج بله. وابنه محمد المختار (حمّتَتِي).

* محمد الأمين (أمَنَّوال)، وابنه محمد المختار، والطاهر بن محمد أحمد بن محمد إيملن. كلهم من ذرية الشيخ محمد إيمَلَّنْ. وكلهم من كبار العلماء والأعيان المعدودين.

* ومنهم محمد الصالح بن محمد المصطفى (حمُّوتَّفا). وله رسالة في

(١) كذا وجدنا في مخطوط كتبه بعض الصحراويين.

الشهادة على شراء الأمة.

* محمد الصالح الملقب (الزَّعَايَا) بن محمد المشهور بـ(إبَرُوبَرُو) بن عمر بن أبِّينْ. العلامة الفقيه المقرئ المشهور، معبِّر الرؤى، ومما يُروى في تعبيره للرؤيا القصة التالية:

حدثني غيرُ واحد من رواة الأخبار من الأنصار، كالشيخ محمد هَمَّا بن محمد الطاهر حمتاهي، والشيخ محمد إنْتحمَّدِينْ بن المنذر بن إبراهيم، وابْنَةِ عمهم الشيخة لَالَّهْ (أم أحمد) المعروفة بـ(تَايَّاتْ) بنت محمد (إنْتَغَرْيَسْتْ/ كلّا) بن إبراهيم، وهي أم أبناء محمد بن الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم - حدّثتْنِي بحضور والدتي بعد صلاة عصر يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ١٤١٨هـ في منزلي الكائن في مدينة الرياض - عن أبيها محمد بن إبراهيم، قالوا جميعا: كان الأنصار الشرقيون[1] إذا جاء زمن الحصاد ذهبوا إلى إخوانهم الغربيين فجاءوا بالطعام من مزارع الأنصار في الغرب، لأن لهم هناك مزارعَ كثيرةً يقوم بها الخدم ويشرف عليها زعماء الأنصار هناك.

والأصل في تلك المزارع أنها مشتركة بين الأنصار كلهم، كما أن الأصل في الأنصار أن كل من احتاج إلى شيء يذهب إلى من يجده عنده من إخوانه في الغرب أو الشرق ولا فرق، فقد يذهب بعض الغربيين أيضا فيأتون في بعض المواسم إلى إخوانهم الشرقيين لبعض الحوائج المهمة التي لا توجد إلا لديهم من متعلقات منافع الحيوان وغيرها.

---

(١) تقدم ذكر هذا التقسيم ومناسبته، وتفصيل ما أوجزته هاهنا.

قالوا: وفي سنة من السنوات أراد الشيخ إبراهيم بن حلَّاي (بايًّا) أن يسير بقافلة إلى الأنصار في الغرب، وكان ذلك بعد زمن الأمطار، وهو أوان حصاد المزارع، قالوا: وكان من عادة الأنصار الاجتماع في كل صلاة في المسجد ثم يتحدثون بعد الصلاة في بعض شؤون حياتهم المهمة.

وكان إمامُ حيِّهم ومفتيهم هو الشيخ الأمير إبراهيم بن حلَّايْ، وفي ذات يوم من تلك السنة أصبح الشيخ إبراهيم وقد رأي رؤيا، وكان قد أتم التجهيز للمسير بالقافلة المذكورة، ومن بين رجالاتها محمد بن إبراهيم الذي يقص هذه القصة، فلما صلى الشيخ إبراهيم (بايًّا) الفجر بالناس قال لهم: إني رأيت رؤيا أرجو أن تؤولوها لي، قالوا وماذا رأيت؟. قال: رأيت كأني أمشي على قمة سور أو سدّ مرتفع ولا أجد الطريق من حوالَيه لِأتحوَّلَ عنه.

فقالوا أعلم الناس بتأويل الأحلام الشيخ (الزعايا) محمد الصالح بن محمد (إبَرُوبَرُو). فأرسل إليه، فجاء فقص عليه رؤياه، فتأمّل الشيخ الزعايا قليلاً، ثم قال: «عرضتُ رؤياك على كل المعاني فلم أجد إلا أنك تمشي في مياه المطر، ولا تجد الطريق إلى الأرض» فضحك الشيخ بايًّا! وقال ساخراً: أهذا الذي تزعمون أنه يعبّر الرؤيا؟! هذا ليس بزمن الأمطار، بل رؤياي هذه يبدو أنها من أضغاث الأحلام. فلم يرد عليه الشيخ الزَّعَايَا بشيء.

قالت الشيخة لالَّه: قال لها والدها: ثم أتممنا التجهيز للسفر، فانطلقنا في غدِ يومنا ذاك، فلم نبرح أطراف الحي حتى هطل مطر عظيم استمر ثلاثة أيام!! حتى صرنا لا نستطيع التحوُّل من كثرة المياه من حوالَيْنا.. وفسد جميع

ما معنا من المتاع، ومات ما معنا من الحيوان، وأصبح الشيخ إبراهيم كلما التفت إلى جهة وجد المياه تحده فيقول: «**صدق ابن إبَرُوبَرُو، صدق ابن إبَرُوبَرُو، تالله لقد صدق مَن قال إنك عالم بتأويل الأحلام**».

قال: الشيخ محمد (هَمَّا) وللشيخ الزَّعايا قصيدة رائية يذكر فيها الحج والعمرة وزيارة المدينة المنورة يمدح بها الشيخ محمد المصطفى (حَمّوتَّفَا) في حجه، وسألت عنها الشيخة لَالَّه المذكورة فقالت لي إنها كانت تحفظ تلك القصيدة ولكنها نسيتها، قال والبيت الأول منها قافيته: مِرارًا . . . . . . عمارًا. وآخرها: «قد انتهت وسيلة تجارًا».

* محمد (إينْ بَصَصُو)[1] بن محمد أحمد بن أبِّينْ، وابنه محمد علي الملقب أَلَالِي.

ومن طريف ما يُروى مما يستدل به على علم الشيخ محمد(إينْ بَصَصُو) أنه قد اجتمع مع إخوانه وأبناء أعمامه يوما، فتوزَّعوا الأعمال، فذكر كل واحد منهم المهنة التي يتولاها لهم فيقوم بها عنهم، ولم يتكلم الشيخ محمد، فقالوا له: ألا تذكر لنا ما العمل الذي تليه فتكفينا إياه؟ فقال لهم: أنا أكفيكم كل ما يتعلق بالعلم والمعرفة. فضحكوا منه، كأنهم سخروا من جوابه! استصغارًا واحتقارًا لما ذكره!! فقام ابن عمه الشيخ الفقيه محمد بن حَلَّايْ ـ الآتي ذكره ـ فقال لأبنائه: ألا ترون إلى ضحك الناس من أخي محمد الذي

(١) (بصَصُو) هو التمر الهندي، وقد كان هذا الشيخ يصاب بعطش لا يسكنه إلا شراب من هذا الثمر، فكان يديم استعماله لهذه العلة، فقيل له (إينْ بَصَصو) أي صاحب بَصَصُو كذا ذكر لي الشيخ محمد همَّا رحمه الله.

لا يعلم منزلته وقدره إلا الله؟! فلا ألفِينَّكم بعد اليوم إلا في مِهنكم ورعي سارحتكم، حتى لا يسخر بكم الناس، فإن هذا زمن لا يقدر أهلُه العلماءَ، ولا يعرفون للعلم وأهلِه منزلةً(أو نحو هذا الكلام).

قلت: ولو تأمَّل أولئك القوم ـ وأشباههم كثير ـ لعلموا أن السخرية إنما تليق بمن لا هَمَّ له إلا الدنيا وأعمالها، وأن الفخر كل الفخر لمن رفعه الله بالعلم وحباه به.

* ومن أبناء الشيخ محمد الأمين حلَّايْ بن عثمان بن الحاج بله: الشيخ الفقيه، والحبر النبيه محمد، المشهور بـ(الفقّي بن حلَّايْ) ـ وهو من كبار أعلام وأعيان هذه القبيلة علمياً وسياسياً ـ وفتاواه يتداولها الناس وينتفعون بها في كل زمن، وأخباره مشهورة في علَن، وما هو إلا قمر ليلة البدر، في العلم وجلالة القدر.

* وإخوانه: القاسم، والصادق، ومحمد المختار المعروف بـ(حمتَّا) والمنذر، والولي، كلهم من العلماء والأعيان والصالحين، رحمهم الله.

* والشيخ الأمير، الشجاع الخبير، إبراهيم المشهور بـ(بايَّا بن حلَّايْ)[(١)]

---

(١) قال: لي الشيخ محمد الملقب (إنتحمدين) بن المنذر بن إبراهيم، إن الشيخ إبراهيم بايّا بن حلاي، كان صغير الجسم، قصير القامة، ولكنه إذا صرخ في الكتيبة فكأنما صرخ فيها الأسد الضاري، جمع بين الشجاعة والملك والعلم والتقوى والورع ـ رحمه الله ـ وقالت لي والدتي قالت لها والدتها ـ وهي ابنة بنت الشيخ بايّا وقد أدركتْه ـ: «لو رأيتِ الشيخ بايّا في مقدمة جيش الأنصار لرأيت الْمُلك والعزّ الذي يَسُرُّ». ويصدق عليه قول ليلى الأخيلية:

ومُخَرَّقٍ عنه الثيابُ تخالُه ... بين البيوتِ من الحياء سقيمَا

ـ وهو من الأمراء المعدودين ـ وأخباره العلمية والسياسية والاجتماعية كثيرة، وقد مر كثير منها في ثنايا هذا الكتاب، وهو من صغار إخوانه وعاش حتى لم يكن في زمنه من بني الحاج بلَّهْ مثله في المرتبة، كما حصل ذلك لجده عثمان ـ رحمه الله ـ، وكان مع ذلك من أهل العلم والفتوى، فآلت إليه أمور القبيلة كلها، وفي آخر عمره ـ رحمه الله ـ كُفّ بصره، وضعف أمره جدًا، ومع ذلك كان رأيه هو النافذ في القبيلة، حتى توفي ـ رحمه الله ـ، وليس بعده أمير عامة لبني الحاج بلَّهْ على الوضع التقليدي للقبيلة، فقد استولى الفرنسيون على بلادهم، واضطر الأنصار للصلح معهم في أواخر حياته، وكان كبار القوم وأعيان القبيلة من العلماء وغيرهم، يأنَفون من التفاوض مع الفرنسيين ومراجعتهم، ومن ثَمَّ أشار الأمير سِيدِي محمد بن محمد بن عثمان على شيخه وخال أبيه إبراهيم(بايَّا) هذا على أن يجعل محمد المختار الملقب (حَمَتَّالْ) سفيرًا بينه وبينهم، فرضي الشيخ إبراهيم بذلك بعد أن أَلَحَّ عليه سِيدِي، لأنه كان يريد أن يجعل ذلك إلى رجل آخر من أبناء إخوانه غير حمتَّالْ، فكان هذا هو سبب اعتماد الشيخ حمتَّالْ في سجلات الفرنسيين ممثلاً لبني الحاج بلَّهْ ومن معهم في شرق البلاد من الأنصار[١] بعد وفاة الشيخ بايَّا ـ رحمه الله ـ.

حـتـى إذا رُفـع الـلـواء رأيـتـه تحت اللواءِ على الخميس زعيمَا

(١) يسكن في شرق تمبتكو بنو الحاج بله ماعدا بني حاكِدُو، وبنو امْدايَّا، وبنوأحمد الأبَلَحِيون، وبعض بني حمَّادَا بن أبَّانِينْ وهم أبناء محمد علي بن أبانين و بعض أبناء حَنْداحَنْدَا، وبعض بني دُوَّادُوَّا. وأشهر من معهم من الحلفاء: أبناء أُمَغيان والمقشريون والغزافيون وأهل إينقوزمي.

(انتهي باختصار رواية عن الشيخ همَّا بن حمتاهي ـ رحمه الله ـ).

* أبناء الفقيه محمد بن حلَّايْ، كلهم علماء وهم: الزروق وسيد أحمد وحمادة وعبدالله (حمَّدْدَلَّهْ) والزبير. هكذا روى لي محمد بن حذيفة بن محمد عمر بن الطيب عن أبيه، قال: ماعدا أحمد(آحْماذْ) جد محمد الملقب(إينْ تَغَرْيسْتْ) بن أيوب، فليس مثل إخوانه في العلم.

* أبناء الشيخ الصادق بن حَلَّايْ: ألِّيَالِّي بن الصادق بن حلَّايْ وحمتال(محمد المختار) بن الصادق وابنه محمد الطاهر الملقب (حمَّاتَّا) العلامة العَلم، صاحب الكتاب والقلم، والدرس والرسم، والشاعر العجيب، والأديب الأريب. وله ترجمة وافية ستأتي في هذا الكتاب إن شاء الله.

* حَوَّدَتِّي وهو محمد الطاهر بن محمد بن إيَّحَّا بن عثمان، وابنه الشيخ الأديب الظريف، والفقيه العريف، الجامع في الدرس بين اللغة والشرع، وفي العمل بين الزرع والضَّرْع: عبد الله بن حَوَّدَتِّي ـ رحمه الله ـ، وابناه: الشافعي ومحمد إبراهيم ابنا عبد الله بن حوّدَتّي كلاهما من طلبة العلم المعدودين، والأخيار المثقفين.

* أحمد بن أَلَالِي بن محمد(إينْ بَصَصُو) بن محمد أحمد بن أبين. الشيخ الفقيه معبر الرؤى، والخطاط الحاذق، ناسخ المصاحف والوثائق.

* محمد الأمين الملقب أدَدِي بن محمد بن محمد المختار بن أبي بكر بن الحاج بله. صاحب أشهر مدرسة لدى الأنصار الشرقيين.

* ابنه محمد الملقب أكحتي، أستاذ الشيخين محمد المختار بن حَوَّدْ

وحمَّاتَّا بن حمتَّالْ. وطبقتهما من علماء بلاد تجانْتْ، وهو من أشهر العلماء في الفتوى والتدريس بعد أبيه محمد الأمين (أددِي) المتقدم ذكره.

* أبناء العلامة الأمير محمد الطاهر المشهور بـ(الطاهر ذي الْخُفَّيْن) بن محمد أحمد بن أبَّانِينْ، وهم محمد الأمين(أَلَالَوِينْ)، ومحمدُنْ[1]، ومحمد المعروف بهَمَّا بن الطاهر ذي الخُفَّيْن الأغبوبي، الشيخ العلامة الكبير، والشاعر الفحل الهدير، المدرس الداعية والبطل المجاهد المغوار، صاحب أكبر مدرسة لدى الأنصار الغربيين. وستأتي له ترجمة وافية منفردة بعدُ إن شاء الله.

وأما الشيخ محمد الأمين (أَلَالَوِينْ) **فهو بازُ الأجواء، وقرينُ الجوْزاء، وقاهرُ الأعداء، ورافع اللواء، وأخو الْهَيْجاء**، الشجاع النادر النظير، المشهور بالبأس وشدة النكاية في الأعداء، وهو الذي وعدَ ابنة عمه تَالَّاتْ بنت الشيخ الصادق بن حلَّايْ، أن يأخذ لها الثأر من قاتلي أبيها، وقد غُدِرَ بأبيها فَذُبحَ بين يديها، فاغتمت لذلك حتى جعلت لا تكلم أحدًا، فوعدها أن يثأر لها، فلما قامت المعركة للرد على المعتدين صرخ **أَلَالَوِينْ** في الجيش

---

(١) وهو القائل في رثاء الشيخ العلامة محمد الهادي المعروف بـ(حمَّلْهادي) بن محمد بن أبَّانِينْ:

نعى الناعون حبْرًا من سَراةِ ... بني قطبٍ نجيبًا من قضاةِ
تقيًّا صالحًا لا عيب فيه ... سوى بغض المصرّ على العصاةِ
يلين ولينه للمؤمنين ... كثيرًا ما يشد على البغاةِ
تراه أعز والجحجاح فينا ... كبحر للبنين مع البناتِ
دفنتم خيركم دينا وعلما ... دفنتم منكم أهدى الهداةِ

مُعلنا للجهاد والاستبسال، فتوغَّل في العدوّ يَزْأَرُ زئيرَ السَبُع الضاري، وجعل يقاتل والكتائب تنهزم أمامه، والأبطال يفرون منه ويسقطون، والرؤوس تطير عن يمينه وشماله، يفتك فتكا، ويشق الصفوف شَقًّا، حتى لصق سيفه بكفه من الدماء، ولم يُنزع منه بعد المعركة إلا بالمعالجة والدواء!!

ومن وَلَد ألالَوينْ هذا: الشيخ القاضي محمد، والشيخ الشاعر الفقيه إبراهيم، ومن ذرية إبراهيم الشاعر الحاذق محمد بن إبراهيم الذي حدثت نقائض بينه وبين الشيخ الشاعر العلامة العَلَم النبيه محمد المختار بن حوَّدْ، في أيام شبابهما وصَبوتهما، وكانا قرينين في الطلب.

* الشيخ العلامة محمد الطاهر المشهور بـ(حمَّاتَّا) بن الشيخ محمد الهادي المعروف بـ(حمَّلْهادي) بن محمد بن أبَّانِينْ، وهو من العلماء الراسخين، والفقهاء المعدودين، والأتقياء الصالحين، وكان ممن جلس للتعليم والدرس والإفتاء، ويبدو أنه أول مَنْ اختُصِر اسمه إلى (حَمَّاتَّا) ممن يسمى بـ(محمد الطاهر)، لأن جميع من وُلد بعده ممن سمي بهذا الاسم إنما سُمي عليه، ثم كان كل من مات من العلماء والأعيان ممن يسمى بهذا الاسم سُمي عليه مَن وُلِد بعده من المواليد، وهذه طريقة معتادة في هذه الأسرة، كما بينت في بعض فصول هذا الكتاب، وعلى هذا الشيخ سُمي حمَّاتَّا بن حمتالْ وابن الشنفرى وغيرهما ممن في طبقتهما.

* عثمان بن محمد الملقب بـ(إِنْغَلَالَنْ) بن حَوَالَنْ، العالم العلامة، صاحب الآداب والفنون والمؤلفات المتعددة، وهو من كبار أعيان هذه القبيلة

المرموقين، ومن المشاركين في جميع المجالات، جمع بين العلم والسيف والقلم، والشجاعة المتناهية، والقوة الجسمية، والفصاحة اللسانية، وقصائده في الدفاع عن الأنصار، كسنانه وسيفه البتار. توفي **١٣٧٢**هـ تقريباً. وستأتي له ترجمة وافية قريبا إن شاء الله .

* محمد المختار بن محمد حوّد. العلامة صاحب الفنون، الأديب الأريب العجيب، الشاعر المبدع، والداعية القامع للبدع. القاضي المشهور، والعلَم المنظور، والبارع الفارع، والبحر العميق، في العلم الوثيق، والضوء البريق، في ظلمات الجهل السحيق، أجازه علماء عصره، وأثنى عليه أعلام أهل قُطره، وأُعجب به كل من رآه أو علم بأمره، كان نعمة لأهل الحق، ونقمة أسْرَعَتْ على الباطل بالمحق، يَحذَرُه كل جاهل وفاسق طالح، ويحبه كل عالم ومنصف صالح، جمع بين السيف والسِّنان، والمحبرة والمَثَان، وحسن الْخُبْر والْخَبَر، واللحوق بمن غبَر، أينما توجه وعَبَر، فارتقى إلى المعالي، وتمنته الأماني.

فأما الشعر فلا يُشق له فيه غُبار، ولا يُدرَكُ له فيه مُثار، فهو مع فحوله الأوائل، وقرين بدوره الزواهر، فلا تبحث عنه إلا في أعماق البحور الزواخر، ولن تلتقط له إلا خيار الأصداف والجواهر، والحسان من جميع النوادر، من يعارضه فيه فهو مسحوق، ومن يسابقه فهو مسبوق، وأما ما سواه فقد بلغ مالا تنبئ عنه المسائل، ولا تكفي في نعته الرسائل، من كل متاح مكَّنَتْ منه الوسائل، ولنا في ترجمته سِفْر كامل، بأخباره حافل، إذا اطلعت

فيه احتقرت ما قلته هاهنا فيه، وتَبَيَّن لك أن الرجل نسيج وحده، وفريد عصره، بين أهل قطره، فاستكفينا بذلك عن الكلام فيه هاهنا.

* عبد العزيز بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن أبِّين. أحد العلماء الأجلاء، والفضلاء الأدلّاء، اغترب سنين في طلب العلم، حتى خيف عليه الهلاك، ثم جاء وقد جمع الدرر، وصار كضوء القمر، فجلس للتدريس والإفتاء، والقضاء والإقراء، وتخرج على يديه فئام من الطلاب، من الكهول والشُّبَّان، ونشر العلم فيما حوله من الرحاب والشعاب. ذكر لي ذلك ابنه محمد، وجَمْعٌ من طلابه هو وابن حَوَّدْ.

* الحسن بن محمد المصطفى بن أبي بكر بن محمد المولود بن أَبِّين. الفقيه النقيب، والشاعر الأديب. وهو من تلامذة الشيخ عبد العزيز المتقدم ذكره، وكان الشيخ الفقيه الحسن من كبار العلماء في زمنه، ومن جملة الدعاة والمفتين والمدرسين، يؤمه الطلبة فيأخذون عنه، وكان من طبقة الشيخين: محمد المختار بن حوَّدْ وحمَّاتَّا بن حمتالْ، وقد أخذ عنهما، ومن شيوخه البارزين الشيخ عبد القادر بن سِيدَاحْمد بن الشيخ محمد الفقيه بن حلَّايْ، وكان رجلا أديبا ظريفًا، ومن خبره أنه نزل على رجل وهو مسافر، فجفاه ذلك الرجل ولم يكرمه، فقال الشيخ الحسن في ذلك:

لقد نزلنا لدى حيٍّ فننتظرُ لِمَن يقوم بنا ومَنْ به خَبَرُ
فقام مُنْزِلُنا إليَّ مرتعِدًا فقادنا لِرَمادِ العبدِ يعتذرُ
وحَوْلَنا خَبَثٌ والفرْثُ إثر دمٍ والدِّفْءُ من وَضَمٍ بإثرِ ما جزَرُوا

والريحُ قَرُّ الليالي قارسٌ تَرِبٌ والجوُّ صحوٌ علينا ناله قمَرُ
هيهاتَ مُنْزِلُنا يبني له كَرَمًا فَرْوًا ليمنعَنا بَرْدًا فيفْتَخِرُ
والبردُ آب لنا بردًا فليس لنا دون السماء ستورُ الغيمِ نستترُ
وقد تخورُ على أولادها وَهنًا عجائزٌ لزَريبِ النسلِ تبتدِرُ
شَيْنُ النساء أتاحَ اللهُ نقمَتَها فإنني لأَقُولُ إنها سَقَرُ
أَبَتْ لنا أَنْ نُصلِّي عند خيمتها فكيف أنْ يتَأَتَّى عندها ظَفَرُ
فَمِي أُمَضْمِضُ بالقرآنِ في عُمُري وبالتلاوةِ لَمَّا أنْ بَدَا سَحَرُ

شرح لبعض مفردات القصيدة:

قوله: «**وحولنا خَبَثٌ والفَرْثُ** . . .» الخَبَث هو الأوساخ والنجاسات وما ينفيه الحديد عند إحمائه، ومنه ما جاء في الحديث أن الحمَّى تنفي الذنوب كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد. و«**الفَرْثُ**»: هو ما في الكرش من بقايا الطعام. وهو الذي ذكره الله تعالى: في سورة النحل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ﴾ .

و«**الدِّفْءُ من وَضمٍ**» أي ما جعلوه من الوَضَم دِفْئًا يتقون به البرد، **والوضم** هو ما تُوضع عليه الذبيحة من خشب أو ثمام أو نحوه، يريد أنَّ مُنْزِلَهم ساقهم إلى مكان خبيث عليه آثار دماءٍ ما يذبحونه، بجانب مدافئهم التي يجمعونها من بقايا الأوساخ، والرماد الذي لا يأوي إليه إلا العبد المهان.

قوله: «**والريح قَرُّ الليالي**» بمعنى شديدة البرودة، أي ريح ليالي القَرِّ، وهي الباردة جدًا. والبَرْد القارس هو الشديد. و«**تَرِبٌ**» بمعنى مصحوب بالتراب، يريد أنها ريح مع تراب باردة شديدة البرودة، فهم يتأذَّوْن من

البرد والتراب معًا .

وقوله : «**والجو صحو علينا ناله قمر**» بمعنى أن القمر بارز ، والسماء صحو ، فلا توجد غيوم تحجب الريح ، أو تحجب ضوء القمر ، وذلك أشد للبرد ، فإن أشد الليالي بردًا هي التي تكون فيها السماء صحوًا بلا غيم ، مع حركة الهواء وبروز القمر ، هذا هو البرد القارس.

قوله : «**والبَرْد آبٍ لنا بَرْدًا**» أي : البرد مانع لنا نومًا. فالبرْد الأولى ـ بفتح الباء ـ بمعنى البرد المعتاد المعروف ، وهو ضد الحر ، والبرد الثانية بمعنى النوم .وآبٍ اسم فاعل من أبَى ، بمعنى منع وامتنع ، فيكون معناه : مانعا لنا. ويجوز أن يكون آراد : (والبُرْدُ آبَ لنا بَرْدًا) أي اللباس الذي نلبسه عاد لنا بَرْدًا ، أي تحوَّل إلى بَرْد لشدة البَرْد. فيكون (البُرْد) الأولى بضم الباء ، بمعنى الثوب المعروف ، وهو الذي فوق الإزار ، مما يُلتَحف به أو غيره. والثانية بفتح الباء ، البَرْد المعروف. ويكون (آبَ) على هذا الوجه فعلا ماضيًا من **الأَوْبِ**، بمعنى عاد ورجع ، تقول : آبَ يؤوبُ أوْبًا وإيابًا ، مثل : آضَ أيْضًا ، في الماضي والمصدر.

وقوله :

وقد تخورُ على أولادها وَهنًا　　عجائزٌ[١] لزَريبِ النسلِ تبتدِرُ

أراد أنْ يسوق دليلا آخر على ثراء هؤلاء القوم البخلاء ، فقد قدم أنهم أصحاب ذبائح ولحم ، والآن يذكر أنهم أصحاب لبَن وحلائب ، فهم أثرياء

(١) نوَّن لفظة (عجائز) مع أنها ممنوعة من الصرف لأجل ضرورة الوزن.

أغنياء ولكنهم بخلوا وجَفَوْا، فلا عذر لهم إلا ذلك. فيذكر أنهم شهدوا حلائبهم تأتي حُفَّلاً من اللبن تخور ـ بمعنى تُصوِّتُ بالخُوار وهو صوت البقر والغنم ـ يسوقها الحنان رائمةً على أولادها المحبوسة في الحظيرة، وهي زريب النسل.

ثم جعل يعرِّض بزوجة ذلك الرجل، ويذكر من بخلها وسوء خلقها أنها منعتهم من الصلاة في خيمتها، فقد قدر الله عليهم أن يتعرضوا لسوء معاملتها ونقمتها، فما أقبحها من زَوْج سوء لدى بعل سوء!!

توفي الشيخ الحسن ـ رحمه الله ـ عام ١٣٩١هـ وابنه عبد الله اليوم معدود من أعيان هذه القبيلة وأهل الفضل والعلم، نفع الله به وسدد أمره.

* أبناء سيد أحمد بن الفقيه محمد بن حلَّايْ، وهم:

العلامة العلَم المشهور الشيخ عبد القادر[1]، وعبد الصمد وعبد الملك

---

(١) تُروى في شأن الشيخ عبد القادر قصص كثيرة تدل على علمه، وشخصيته، وأنه من كبار الأعيان والوجهاء في هذه القبيلة، ومن طريف ذلك أن أحد طلبة العلم من أبناء عمومته المعاصرين له كان يقول: «إن عبد القادر أشغله بطنُ (فَعَل) عن فعل أيّ شيء آخر»! يريد بذلك كثرة اهتمام الشيخ عبد القادر بعلم التصريف. (حدثني بذلك الشيخ محمد هَمَّا بن حمتاهي، وذكر لي أن صاحب المقالة هو الشيخ عبد الله بن حوَّدتي رحمه الله).
ومن ذلك أن الأنصار لما كثرت عليهم الضغوط والمخاوف من بعض القبائل المناوئة لهم في المنطقة ووافق ذلك حلول أحد عيدي الفطر والأضحى، انتهز الشيخ عبد القادر ذلك فجمع الأنصار للعب في العيد بما يخيف العدو ويلقي في نفوسهم الرعب، وذلك بجمع الأبطال والفرسان وإجراء المسابقات بالخيل العتاق والجمال، والرمي والجري، على =

وعبد السلام وعبد الباقي.

* المهدي بن سِيدِي بن محمد بن عثمان بن أبين، وأخوه محمد بن سيدي. ولهما ترجمة تقدمت في الفصل المخصص لأمراء بني أبينْ.

* عبد الرحمن بن الزبير بن الفقيه محمد بن حلَّايْ.

* محمد الصالح (ماسّا) بن الزروق بن محمد الفقيه بن حلَّايْ.

* أحمد بن محمود بن امَّتَّاهل من ذرية محمد (آخْوَا) بن الشيخ عبد الله بن قطب.

* محمد بن مَعَلي من ذرية آخوا أيضاً.

* محمد بن حسان بن هَمَنْ من ذرية آخوا أيضاً.

* أبناء المنذر بن حلَّايْ: الطاهر ومحمد (أُوفِينْ) وموسى.

* محمود بن الحسين بن حمتّا، وابنه المعروف بـ(عَيْشُو).

* الصِّدِّيق ومحمدُنْ ابنا الحسن بن حمتّا.

* محمد المختار بن حتَّلَّس، من ذرية الشيخ محمد (أبّانِينْ).

* ومن ذرية الشيخ أبّانِينْ أيضا من العلماء وطلبة العلم المعدودين: إينْ تُوَّلُو، وإبراهيم بن محمد الأمين، وعالي بن محمد، وابن امَّلُو بن أكحتي بن سيدِي علي بن محمد (سِيدَاقِينَا) بن محمد الأمين (دُوَّادُوّا)، وعبد الله بن

= تلٍّ مشرف عريض في متسع من الأرض، ونحو ذلك، فلما رأي الأعداء ذلك علموا ما في الأنصار من القوة والعُدة والعدد، فأُرعبوا فارتعدوا فابتعدوا!!. وعُرف ذلك العيد بعيد الشيخ عبد القادر ـ رحمه الله ـ.

عالي وأخوه محمد بن عالي، وبايًّا بن سَمَتَا بن أَقَدِيدْ بن محمد الطاهر (حتَّاهِلْ) بن حمَّادا.

* ومنهم محمد المعروف بـ(هُكَّهُكَّا) قال: فيه الشيخ محمد المولود بن محمد الطاهر الأنصاري في مؤلفه الذي ألفه في تاريخ الأنصار الغَرْبيين: «أحد القضاة، وقد تولى القضاء بعد ابن عمه محمد بن إبراهيم، وقد كان عالما صابرًا حليماً متورعًا، زاهدًا سخيا، وقد رجح علمه في الفقه، ولم يكن شاعرًا أصلاً، ولكن قد ينشد بيتًا أو بيتين، وقد سلم القضاء لابن عمه عبد الله بن عالي بعد مدة قضائه، وتوفي سنة ١٣٧٠هـ - رحمه الله -»[١].

* ومن أبناء محمد أحمد (امْدايًا): محمد بن ألّابًّا. ومحمد بن امَّهادي (محمد الهادي).

* ومحمد بن محمد إكنن.

* ومن أبناء أحمد أبي الزهراء بن محمد بن إنفا وهم الأبَلَحيون: القاضي المشهور العلامة الشيخ محمد بن محمد علي، وابنه الشيخ المنذر بن محمد بن محمد علي بن محمد المصطفى (مُتَّفَا) بن محمد (إيدَمي) بن محمد (امَّامَّا) بن أحمد أبي الزهراء. ومحمد بله المعروف بأَنَمَّغْرُو بن محمد الأمين بن محمد إكنن بن محمد الطاهر بن محمد بلَّه بن أحمد بن محمد بن إنفا.

* والشيخ محمد (أكحتي) بن محمد أحمد الذي يعرفه الناس

(١) انظر كتاب محمد المولود بن محمد الطاهر الأنصاري في تاريخ الأنصار الغربيين، وهو مخطوط.

بـ(إيكَذْنِيكَذْ) وهو لقب أطلقه على محمد أحمد بعضُ أصدقائه مزاحًا، ثم عُرِف به، وكان ابنه الشيخ أكحتي ـ رحمه الله ـ لا يرضى أن ينادى به أبوه، وقد توفي الشيخ أكحتي سنة ١٤٠٥هـ وخلف خمسة بنين بعضهم من طلبة العلم، وهم: العباس وعبد القادر ومحمد ومحمد المولود وإبراهيم. وحدثتْني ابنته عائشة بنت أكحتي أن أباها له كتب من تأليفه، ونسخ كثيرًا من الكتب بيده، إذ كان الناس في بيئتهم يعتمدون على النسخ اليدوي، قالت وأكثرها في اللغة. وهو من تلاميذ الشيخ أكحتى بن محمد الأمين(أدَدِي) بن محمد بن محمد المختار بن أبي بكر بن الحاج بله. صاحب أشهر مدرسة لدى الأنصار الشرقيين.

* ومن علمائهم ـ أعني الأبلحيين ـ أيضاً: أبناء العلامة المنذر وهم: الكرامة، وجَدُّو ومحمد(انْدُوَّا).

* ومنهم أيضاً إبراهيم بن علي بن محمد (مَمَّا) من بني محمد الأمين بن أحمد أبي الزهراء بن محمد بن إنْفَا.

* ومن أبناء محمد علي الملقب (بدا) بن الحاج بله: محمد (أكحتي) بن محمد بن محمد المنير وأخوه نوح. وأخوهما يحي بن محمد.

*ومن أبناء حبيب الله: أحمد بن حبيب الله. ومحمد بن محمد عالي بن حبيب الله ومحمد هذا هو الملقب إينِيدَّامْ.

* الشيخ محمد الملقب (دَوِّي) بن محمد الأمين المعروف بـ(ابّللْ). من ذرية عثمان بن الحاج بلّه. تقدمت به السنّ حتى ناهز مائة سنة، ولم يفارق

القراءة والدرس، وقد شاهدته في أواخر حياته ومعه كتاب تفسير القرآن يقرؤه، وسألته عن أشياء فأخبرني عنها، وسألته عن جدي سيدِي محمد، وقلت له: هل أدركته؟ فقال: نعم، أدركته، وأعرفه تمام المعرفة، فجعل يصفه لي ويخبرني عنه. وكان الشيخ محمد (دَوِّي) من أكثر العلماء الذين رأيتهم تواضعًا وحسن خلق، ومن عجيب تواضعه أنك إذا جالسته تخيل إليك أن هذا الرجل من العوام الفقراء، ومن الدهماء البسطاء، وهو في الحقيقة نور وضياء، وخُلقٌ حسن وحياء، ونباهةٌ وسناء، ـ رحمه الله ـ وعفا عنه.

* محمد هَمَّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) بن سِيدي بن محمد من ذرية الجاج بلَّهْ. المتوفى سنة ١٤٣٠هـ. وستأتي له ترجمة في الفصل التالي إن شاء الله.

* وأخوه محمد المولود(امَّلو). المتوفى سنة ١٤٢٤هـ. وله ترجمة وافية في فصل «أمراء بني أَبِّينْ».

* مجد الدين بن المهدي بن محمد أكحتي بن محمد الأمين (أددي)، واجتمعت به عام ١٤١٠هـ في رمضان، وقد جاء حاجًا وزائرًا لبيت الله، فأخذت عنه ما عنده من أخبار شيخه محمد المختار بن حوَّدْ، وبعض الأمور المتعلقة بشؤون هذه القبيلة. وهو من كبار طلبة الشيخ محمد المختار بن حوَّدْ، وأخبرني أن له كتابين في تقرير عقيدة أهل السنة والجماعة، وله قصيدة في رثاء شيخه (وهي عندي).

* محمد المختار (حمَّيَّا) بن محمد عالي (حولَّايْ) بن محمد الأمين بن محمد بن محمد علي بن محمد إملَّنْ المعروف بـ(أبانين) بن قطب. وأخواه:

(أكحتي) وأحمد.

والشيخ (أكْحَتِي) هذا من رواة الأخبار، وقد أخذت عنه كثيرًا من تاريخ الأنصار، وأفادني فيه إفادات جليلة، جزاه الله خيرًا، ونفع بعلمه.

* أبناء عبد القادر بن سيدأحمد بن الفقيه محمد بن حلاي بن عثمان بن الحاج بله بن قطب: وهم: الشيخ العلَّامة، والعلَم الفهّامةُ، طَوّاف الآفاق، ونقيب الأعماق، عمر، مؤسس مدرسة الغدير (إِيبَنْقْ) وإخوانه الزبير وأبو بكر وعثمان (تَوَّا) ومحمد (ايَّدْ) كلهم من العلماء المعدودين، وأهل الفضل المرموقين، وهم مُفْتُو بني عثمان.

* إنتحمدِينْ (محمد) بن المنذر بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن أَبِّينْ بن الحاج بله، وسترد له ترجمة بعدُ إن شاء الله.

* إِنْتَحَمَّدِينْ (محمد) بن أحمد بن عبد الله بن أَمِيدِينِينْ[1] بن محمد بن محمد أحمد بن أَبِّينْ.

* عبد الله بن محمد عالي (امَّعَاني) وابنه عبد القادر من طلبة العلم الفضلاء، نسأل الله أن يبارك فيه وأن يجعله خير خلَف لأبيه.

---

(١) هذا لقبه وأحسب أني سمعت من ذكر أن اسمه محمد المولود. ولكن فاتني تدوين قائل ذلك. وهو أخو العلامة الشيخ محمد علي المعروف بـ(أَلَالِي) بن محمد بن محمدأحمد. و(أَمِيدِنِينْ) لقب أُطلِق عليه من قِبَلِ أُمِّه رحمها الله، فقد كانت تحبه وكان يلازمها حتى كثر قولها له (أَمِيدِنينْ) بمعنى صاحبي ونديمي بلغة الطوارق، وقد قدمت مرارًا أن اللهجة الطارقية صارت أشهر لهجة لدى الأنصار الأزواديين، وكثير منهم لا يتكلم سواها، منذ مطلع القرن الثالث عشر الهجري. والله أعلم.

* محمد إبراهيم (هكذا مركبا) وأخوه الشافعي ابنا عبد الله بن محمد الطاهر الملقب (حوّدتي) بن محمد الملقب (ايَّحَّا).

* عبد الله المعروف بـ(عَبْدُهْ) بن محمد بن الهاشم، من ذرية عمر بن الحاج بله.

* عبد الحميد (ادّويّاحِيمْ) بن عبد الرحمن. وأخواه عبد الرحيم والرشيد.

* عثمان بن محمد الصالح (ماسّا). وهو من رواة الأدب ومحبيه، اجتمعت به مرارًا فأخبرني عن شيخه حمَّاتَّا بن حمتَّالْ. وكان يحب الشعر جدًا ـ وتلك عادة الأنصار عمومًا ـ ولم يكن شاعرًا، فلما اضطُرَّ إلى مهاجاة الشاعر الشيخ عبد ربه بن أكحتي بن أدَدِي لتنافر حدث بينهما وكانا قرينين، أخذ فترة في ذلك حتى أصلح الناس بينهما. (حدثني بذلك الشيخ هَمَّا بن حمتاهي).

* محمد بن المهدي بن حكُّويَّا. وهو من العلماء الذين غُدِرَ بهم فقتلوا ظلمًا في نكبة مدينة لِيرَا عام ١٤١١هـ.

* محمد بن إبراهيم (أَدِيبِّهِمْ) بن الطاهر بن أحمد بن محمد بن حلَّايْ، وهو المعروف بـ(تكنُّو).

* الصالح بن محمد الأمين (أددي) بن العباس بن محمد الصالح (مسسّا).

هذه أمثلة ونماذج يُستدَل بها على ما سواها، فأهل العلم من هذه الأسرة كثير ولله الحمد، وغرضنا في هذه الرسالة منصبٌّ على التعريف بالقوم، وضرب الأمثلة الدالة على الوضع العام لهم في جميع النواحي، وقد أتبعت

بعض المذكورين بلطائف وإضاءات في سيرهم وأخبارهم، وكان ذلك بمنزلة تراجم مختصرة وتعريفات موجزة لهم، وإنما أوردتها للفائدة وقطع ملل القارئ بسرد الأسماء مجردة عن أي إفادات. ولم تتوافر لديّ تلك المعلومات وأشباهها لمن سواهم، فاكتفيت بإيراد ما علمته وما صلني عنهم، وذكرت سائرهم ذكرًا عابرًا، لأن ذلك هو الغرض من هذا الفصل.

وأما الذين تمكنت من جمع تراجم وافية مفصلة لهم من المتقدم ذكرهم فقد خصصت لهم الفصل الذي يلي هذا.

كلمة عامة عن الوضع الثقافي:

إنه ينبغي أن أذكر هنا أن هذه القبيلة كانت في قديم دهرها في منطقة **أَزَوادْ** تعمرها المدارس والمساجد، والمحاضر العلمية، والدعاة المصلحون، والعلماء العاملون، وكان بين شبابها منافسات في التعلم، ورواية الأدب وأيام العرب، وإنشاد الشعر، وكل ما كانت العرب تهتم به من ثقافة وفروسية وفعال المروءة والنجدة والكرم . . .إلخ. فلما كثرت الفتن في العصور المتأخرة، وكثرت الملهيات العصرية، والمغريات الدنيوية، واحتكُّوا بالأمم غير العربية، والثقافات الأجنبية، قلَّ فيهم ذلك، فقل طلبة العلم من الطراز الأول، وقلت الشيوخ، وتفرق الناس طلبا لتلك الأغراض، ودهمتهم فِتَنٌ حالت بينهم وبين موروث آبائهم، فأصبح همُّ جل الناس الفرارَ من الفقر، والتطلّع والسفَر، ومحاولة جمع المال، والبحث عن مكان الدعة والقرار.

إنّ هذا الحيّ من الأنصار قد عُرِفوا منذ قديم بالتمسك بالحق،

وبالتحابّ فيما بينهم، وكانوا يدًا واحدةً على من سواهم، وكانوا يدفنون الفتن، ويطفئون لها أي شرارة ظهرتْ، بالحِلْم والتسامح، والتعاون والتناصح، والتحابب والتراحم، والإيثار والإحسان، والتحمل والتجلُّد، والتوادد والتعاطف، لا يعرفون فرقا بين بني فلان وبني علان، ولا بين ابن العم القريب والبعيد، هكذا كانوا وبانوا.

حتى إذا خَلَف من بعدهم خَلْفٌ عَركتهم الفتن فطاشتْ سهامهم فيها، واغتلمت بحورهم بها، وغلت مراجلهم لها، فجعلوا يموجون فيها بالعجائب، ويقعون فيها كالجنادب، حتى ظن بعض أحداثهم أن الكياسة في القيام لها وتأجيجها، وأن الشجاعة في إيرائها وتفويجها، ومن انزوى عنها وتحاشاها فهو ضعيف مهان، ومن أبى خوض غمارها مع أغمارها فهو جبان!!

فطفقت طائفة منهم يفرقون بين الأحباء، ويبنون أُمَما متناحرة فيما بينها من الأشقاء، وشككوا في تاريخ أجدادهم، وأنكروا تراث آبائهم، ومزقوا أواصر أرحامهم، وقطعوا الأوائل عن الأواخر، وزعموا أن هذا هو التجديد والتجويد، والتحضر والتمدّن، والتطور والتصور، ولم يُكلِّفوا أنفسهم البحث والتحقيق، ولا التثبت والتوثيق، لأن الأيدي لهم تصفق، والدهماء لهذا تطبّق!!

هكذا نشأت هذه الناشئة، وخرجت بمنهجها هذه الصابئة، مبتورة عن أصولها الصالحة، عاصية لدعاة خيارها الناصحة، مشككة في جذورها الرابحة.

خلا طوائف من العقلاء والصالحين التزمت التمسك بالمنهج الرباني، واهتمت بدلا من ذلك بأخيار الأفعال والمعاني، وسلكت طرق كسب المعالي، بالعلم والتقوى، والدعوة إلى الخير، ومنافسة أهل العصر في العلوم القديمة والعصرية، فهؤلاء هم قادة هذه الأمة الأنصارية وأئمتها، دون مَن سواهم ممن لا يربطه بهم إلا النسب والتاريخ.

ومما أنشدته في وصف هذه الفتن التي أدت بالأمة الإسلامية عمومًا إلى ما حلّ بها من ضعف في دينها ودنياها، القصيدة التالية:

الفِتَنُ الداهِمَةُ

كَمْ فِتْنَةٍ باتَتْ لَنا داهِمَهْ ظَلّتْ بِها أحلامُنا واهِمَهْ

وقائلٍ قَدْ أنَّ مِنْ وقْعِها مَقولُهُ خوفا من الآثِمَهْ:

هل من صباحٍ بَعْدها يُرْتَجى أو مَخْرَجٍ من ظُلْمةٍ قَاتِمَهْ

عَمْياءُ عمَّتْ ما لها مُنْتَهَى ما إنْ تُرَى في لَحْظة نائمهْ

إذا انْقَضَى لَيْلٌ طغَتْ ظُلْمَةٌ يُوحِي دُجاها أنها ثالِمَهْ[1]

تَموجُ بالناسِ ولا تَنْجَلِي فيَالَها من وَصْمَةٍ واصمَهْ[2]

تُلْحِقُ أُخراهمْ بأُولاهمُ ما أمَّةٌ من بأسِها سالِمَهْ

هيهاتَ هيهاتَ البَلاَ يُتَّقَى ما دامتْ الناسُ لها قائمَهْ

(١) ثالمة: خارقة وممزِّقة.

(٢) الوصمة: الصَّدْعة التي تصيب بالعيب والعار.

كَمْ فِتْنَةٍ مِن قبلها أُخْمِدَتْ كانت لنا ببأسِها راجِمَهْ
زالَتْ وما إنْ أدْبَرَتْ وارْتَخَتْ حتى دهَتْ داهيةٌ لاطِمَهْ(١)
قدْ بَرَكَتْ بكَلْكَلٍ داكنٍ كالطَّوْدِ لَمَّا أنْ هَوتْ جاثِمَهْ(٢)
مَنْ قام فيها مُسْتَجِيبًا لِمَنْ دعا لها كانَتْ لَهُ قاصِمَهْ(٣)
يا أُمَّةَ الإسلام لا تُضْرِمي نارا إذا ما أُوقِدَتْ لاحِمَهْ
لا تَتْبَعِي الْجُهّالَ يُورُونها أَتَتْبَعِين الثُّلَّةَ الغاشِمَهْ
قُولِي عِياذاً بالإلَهِ الذي يَقِي العبادَ المِحْنَةَ الناجِمَهْ
سبحانَكَ اللَّهُمَّ يا ربَّنا قِنا فُتوناً بالرَّدَى واشِمَه(٤)
فلم تَخُضْها أُمَّةٌ قبلكُمْ يوما فآبَتْ بالهدى غانِمَهْ
ولم يَلُحْ لِعاقِلٍ شأنُها إلا اتَّقاها عاذِلاً ظالِمَه
فَلَمْ تُثِرْ إلا الرَّعاعَ الأُلَى قلوبُهمْ مُرْتاعَةٌ عائِمَهْ
مفتونَةٌ تَنْتابُها خِفَّةٌ هَجْهاجَةٌ بَجْباجَةٌ هائِمَهْ(٥)

---

(١) دهت داهية: نزلت مصيبة. لاطمة: ضاربة باللطم وهو الضرب على الوجه.

(٢) كلْكَل: صَدْر. داكن: ركب بعضها فوق بعض حتى تغير لونها وصار شديدًا مركبا. هَوَتْ: سقطت. جاثمة: باركة على ركبها.

(٣) قاضمة: قاطعة وماضغة.

(٤) بالردى واشمة: تأتي بالرسوم والوسوم الهالكة.

(٥) هجهاجة: كثيرة التصويت والجزع .وبجباجة: كثيرة الاضطراب والخوف والترقب من شدة الحمق والجهل .هائمة: غير مستقرة، والمراد بهذه الأوصاف قلوب الرّعاع.

قَلْبٌ هَواءٌ طائِرٌ راعِشٌ لَمْ يَدْرِ إنْ جا فعْلةً ما لِمَه[١]
أولئك الْمُسْعِرونَ الفُتُونَ لم تجدْ عُقْبَى لهم ناعِمَهْ
بَلْ إننا نُؤذَى بِمَشْواهُمُ لا خيرَ مِن ذي خُلَّةٍ صارِمَه
يا حَبَّذَا باني النَّدَى مِنْ فتًى وبئسما ذو الفعلةِ الهادمهْ
إنَّ خِيارَ الناسِ مَن دينُه وعقلُه قد أصبحا حاكِمَهْ
وشَرُّهمْ مَنْ لا يَعِي أَمْرَه ولا يكونُ دينُه حازِمَهْ
هل يَسْتَوِي مَنْ يَنْتَشِي جاهِلاً في شأنه ومَنْ غدَا عالِمَه؟
أم كيف ينجو ذو هَوًى طائعٌ أمْرَ الهوى و نفسَهُ اللائمَه؟
لم يَخْلُقِ اللهُ امْرَءًا لِلْهَوَى بل للتُّقَى وطاعةٍ دائِمَهْ
فاعْصِ الهَوَى واحذَرْهُ لاتَنْخَدِعْ والحقَّ فاتْبَعْ ولْتَكنْ فاهِمَه
إنَّ الرَّدَى كلَّ الرَّدَى بالفَتى أنْ يعصيَ اللهَ ولا عاصِمَه
ويبنيَ الدنيا ويَنْسَى الذي يلقاه في أيّامِهِ القادِمَه

* * *

(١) قلب هواءٌ : فارغ لا يعقل شيئًا من شدة الخوف . والراعش هو المرتجف . لم يدر إن جا فعلة ما لمه؟ أي لا يدري ما سبب فعله لشيء إن فعله ، لأنه يتصرف بلا شعور.

الفصل الثالث

تراجم بعض العلماء

١- ترجمة الشيخ محمد (هَمَّا) الأنصاريّ الأَغْبوبِيّ:

هو الشيخ العلامة القاضي محمد المشهور بـ(هَمَّا) بن الشيخ الأمير الطاهر بن محمد أحمد بن محمد إِمَلَّنْ (أَبَّانِينْ) بن قطب بن محمد بن محمد المختار (إِنْفَا) الأنصاريّ. تَلَقى العلم على يد والده وعلماء بلده، ومن أشهرهم ابن عمه الشيخ محمد المختار بن محمد الأمين بن محمد أحمد بن أَبَّانِينْ.

وقد تدرج الشيخ محمد هَمَّا في طلب العلم، ونيل عليا مراتب الرجال، في المجالات كافة، حتى صار أحد أعلام الأنصار الكبار، والأعيان النوادر، واجتمعت فيه صفات قَلَّ اجتماعُها في رجل، فقد كان من الدهاة الأذكياء، والعلماء الأجلاء، والعبَّاد الأتقياء، والصالحين الأوفياء، والرجال النقباء النجباء، كما كان فارسا ماهرا، وشجاعًا باهرا، وقائدًا رائدًا، وشاعرًا فحلاً ثُنْيانًا، لا يُشَقُّ له غُبار، ولا يُقَعْقع له بالشِّنان، ولا يومَأ إليه بالسِّنان، وهو القائل في أيام رَفَلانِه في ثوب الصبا، رافعًا علَم العزِّ والإبا:

مازالَ طَعْنُ الكُماةِ السادةِ الصِّيدِ ... دَأْبِي ورَشْفُ رُضَابِ الْخُرَّدِ الغِيدِ
إِذْ لا أَزالُ أُلاعِبُ الأسِنَّةَ مِنْ ... عَهْدِ الصِّبَا وغَوانِيَ الأَماليدِ
طَوْرًا نغازِل غِزلانًا مُنَعَّمَةً ... بِيضًا يَفُحْنَ بِريِّ الرَّنْدِ والعودِ
بلى، وطَورًا نُجالِدُ البُغاةَ وقدْ ... أَسْطو وأَحْصُدُ هاماتِ الصَّناديدِ

وقدْ غَدَوْتُ أمامَ الْجَيشِ مصطحبًا فِتْيانَ صِدْقٍ على دُهْم جَلامِيدِ
مازِلْتُ أقدُمُهمْ وهُمْ يسُوقُهُمُ فتًى تَربَّتْهُ أهْلُ العِزِّ والْجُودِ
شُمُّ العَرانِينِ أبطالٌ غَطارِفةٌ في عارضٍ من سيوف الهندِ منضودِ
لا يُصْعرون بتطنِينِ الرَّصاص ولو خَطَّطْن بالقاع أمثالَ الأخادِيدِ

في قصيد حماسية له أنشد ها عقب إحدى المعارك.

وشعره يتقطّر كله شجاعة وحماسا، وتَبْرق ألفاظه فصاحةً وإجراسا، مطبوع سهل ممنوع، غزيرُ المعنى مرفوع، بديعُ اللفظ مسموع.

له مدرسة معروفة معمورة، هو قَيِّمُها ومؤسسها، انضم إليها مَن بنواحيها من طلبة العلم ينهلون من معينها، ويحتمون بعرينها، ولم يكن في البلاد مثلها في حينها، تخرج فيها كثير من العلماء، وأخيار النبهاء، والقضاة والدعاة، وكانت منارًا في تلك البلاد، وملاذًا للرجال والأولاد، من الجهل وبِدَعِ العباد.

وقد كان الشيخ ـ رحمه الله ـ على ما بلَغَنا ـ شديدَ التمسك بالسنة، متابعاً لهدي النبي ﷺ وأصحابه أهل الجنة، قامعًا للبدع، مُذِلّاً لأهلها، غُصة في حلوقهم، ونقمةً على سلوكهم، ومِنْ ثَمَ تكلم فيه قالياً كلُّ خَبٍّ ضَبٍّ، وتافهٍ نافِه، وضالٍّ مالّ، ومَهينٍ وهِين، وهُمزةٍ لُمَزةٍ، وتلك عادة أهل الضلال والكلال، في كل زمن وشجَن، يحاولون النيل والصَّوْل، على أهل العدل والخير، ويريدون أن يطفئوا نور الله بالشغَب واللغَب، والخلْط والملْط، واللغو واللحو، يُؤذون ويَبْغون، ويَلْغُون لعلهم يَغْلبون، قاتلهم الله أنى يؤفكون.

وكان ـ رحمه الله ـ يتولى تدريس الطلبة وإقراءهم بنفسه، يُعلمهم علوم الشرع، وفنون العربية، وما يتبع ذلك من فروع المعارف، ويتولى بنفسه تربيتهم وتهذيبهم وإرشادهم، وكان ذا مالٍ وجاه، فكان يُنْفق على أولئك الطلبة من ماله، وكان كريما مضيافا، سَموحًا بماله مِتلافا.

وبَنَى بجانب مدرسته مسجدًا، عامرًا بالعُبّاد والطلاب، يرتاده العلماء من كل الرحاب، والضيوف والجيران، فكان مسجده منارًا على منار، ورَوْضا على رَوْض، يشع منه النور والخير، بجانب ما ينبعث من مدرسته من الأضواء، التي اقتبسها المقتبسون، وتوزعها الناشئون، وتسابق إليها المتسابقون، وتنافسوا في نيل شرفها، وبلوغ ذروتها، فأنار بذلك تلك الناحية، وعمر به تلك الضاحية، وكان مشكاةً لكل ظُلْمة ثَمَّ ماحية.

وقد ورث الشيخُ محمد هَمَّا ـ رحمه الله ـ ذلك كلَّه من والده الشيخ الأمير الطاهر، الذي كان أحدَ أبرز أعلام هذه الأسرة الأنصارية الإنفية التنبتكية، فهو أمير مطاع، وقائد شجاع، وعالم عابد، راكع لله ساجد، وكريم مضياف، مُشرِفٌ أيّما إشراف، وشاعر فحل، ومن شعره في ردوده على بني كنتة قصيدة طويلة منها البيت التالي:

ويومَ بُزْرِبَ لا تَنْسَوْهُ وادَّكِرُوا دعاءَكم فيه يا ويلي ويا غارا

ومن ردوده عليهم، وقد نسبه شاعرهم إلى الطوارق زاعماً أن الأنصار من بني جالوت: فقال الشيخ الطاهر:

ونحنُ بنو الولدانِ لمتونُ جَدُّنَا تَواتَرَ عَنَّا الأَنْصَريَّةُ مِنْ قَبْلُ

وليس عدوُّ اللهِ جالوتُ جَدَّنَا ولكنْ أبو بكرٍ لنا الجدُّ والأَصْلُ

* * *

وليس للشيخ محمد (هَمَّا) ذرية، ولم يتزوج سوى امرأة واحدة، هي تافة بنت المنير بن محمد بن محمد الأمين الملقب (دُوّادُوّا) وهي امرأة عقيم، ولما مات لم يرثه سواها وسوى ابن أخيه، واسمه علي بن محمد بن الطاهر بن محمد أحمد، وعليٌّ هذا من أهل العلم المعدودين أيضا.

وللشيخ هَمَّا إخوة، كلهم من أهل العلم، ومن كبار أعيان القبيلة المرموقين، ومن الفرسان والشجعان، وهم:

أ) محمد الأمين المعروف بـ(أَلَالِوينْ) وأمه ابنة محمد أحمد بن صاحْبِي بن محمد المعروف بـ(آخْوَا) بن الحاج بلَّهْ بن قطب. ومن ولد ألالَوينْ: الشيخ القاضي محمد، والشيخ الشاعر الفقيه إبراهيم، ومن إبراهيم هذا الشاعر محمد الذي حدثت نقائض بينه وبين الشيخ الشاعر محمد المختار بن حوَّدْ، في أيام شبابهما وصَبوتهما، وكانا قرينين في في طلب العلم.

والشيخ محمد الأمين أَلَالِوينْ هذا شجاع نادر النظير، معروف بالبأس وشدة النكاية في الأعداء، وهو الذي وعدَ ابنة عمه تَالَّاتْ بنت الشيخ الصادق بن حلَّايْ، أن يأخذ لها الثأر من قاتلي أبيها، وقد غُدِرَ بأبيها فَذُبحَ بين يديها، فاغتمت لذلك حتى جعلت لا تكلم أحدًا، فوعدها أن يثأر لها، فلما قامت المعركة للرد على المعتدين صرخ أَلَالِوينْ في الجيش مُعلنا للجهاد والاستبسال، فتوغَّل في العدوّ يزأر زئير الأسد، وجعل يقاتل والكتائب تنهزم

أمامه، والأبطال يفرون منه ويسقطون، والرؤوس تطير عن يمينه وشماله، يفتك فتكًا، ويشق الصفوف شقًّا، حتى لصق سيفه بكفه من الدماء.

ب) محمدُنْ. جـ) عمر. د) المهدي.

وكلهم من أهل العلم والمعرفة والأدب، ومن الفرسان والشجعان.

وللشيخ هَمَّا قصائد كثيرة رائعة في ردوده على الكنتيين وحربه معهم، منها قصيدته الدالية التي تقدم مطلعها، وفيما يلي مقاطع من بعضها:

١ـ الأولى:

لاحتْ لِرَيَّا بسفح الطود أطلال ... كأنها من برود الوشي أسمال
دارٌ تكنَّفها من كل ناحيةٍ ... مع العناية أمواهٌ وأجبالُ
جادت بها من هوام المزْنِ غاديةٌ ... وكل جَوْنٍ غزيرِ الوبل هطالُ
فأنبَتَتْ باللِّوَى شطْأً فآزَرَهُ ... رماحُ خَطٍّ وأمجادٌ وأبطالُ
تنتاب ريَّا بها دارًا مُمَنَّعَةً ... ما إنْ يُخافُ بها ضيمٌ وإذْلالُ
لها منازلُ تُرضِي مَنْ أَلَمَّ بها ... من كل لَيِّنَةِ الجرعاءِ مِحْلالُ

ثم تخلص إلى غرضه، ثم ختمها بقوله:

إنا كذلك لم نزلْ نجاهدُ مَنْ ... لِهَدم دين إله العرشِ يحتالُ
سُمُّ الغواةِ وتنوير الهداة بنا ... وكل مكرمةٍ للقوم سِرْبالُ
سجيةٌ تلك فينا قد توارثها ... منَّا بنون عَنَ آباءٍ ولم يالوا
هذا زئيرُ هِزَبْرٍ لا تُنَهْنِهُهُ ... من الكناتةِ أقوال وأفعالُ
ما قلتُ ذلك تمزيقا لعرضهمُ ... بل اندفاعًا وردًا للذي قالوا

بسيطُ شعريَ لا تنْفكُّ تبسطه	على لساني أبحرٌ وأسيالُ

* * *

٢ـ الثانية قصيدته التي مطلعها :

ولْيُلْقِ سمعاً إلى ما كنت أَرْوِيهِ	عن القريحةِ مَن بالقول أَعنيه
إنْ كانَ يفهَمُ تعريضًا يُرادُ بهِ	أوْ كان يفهمُ معنًى مِنْ معانِيهِ
وإنْ تَغافَلَ لا يُصغِي إلَيَّ فقدْ	نادى المنادِي إليه وسْطَ ناديهِ
هذي مقالَةُ مَنْ لو كنتَ تُنصِفُه	في ذي المقالةِ لَمْ تقُل له إيهِ
ما إنْ تَفارَغَ للمنثورِ يَنْسجه	لكنها كَلِمٌ تُلْقى على فيهِ

* * *

٣ـ الثالثة التي صَدَّرَها بقوله :

إني أقول لِمَنْ أضحَتْ معاقِلُهُ	غَيْضاتِ جِنٍّ ويَنْتَاب بها أَيْكا
يا أيُّها الأعْوَرُ الدجَّالُ مالَكَ تَخْـ	ـتَفي تَراوغُ سَوَّى اللهُ عَيْنَيْكا
لَئِنْ دَعوتَ إلى البِرازِ نادِيَنَا	تُجَبْ لَعَمري إذَنْ مِنَّا بِلَبَّيْكا
أَليَّةٌ من بَني الأنصارِ كلِّهمُ	ومَنْ بِخطِّيَّةٍ قد خَطَّ خُصْرَيْكَا

* * *

٤ - الرابعة التي استهلها بقوله :

اخْسَأْ أَيَا كلبُ مِن مَيِّ القُوَيْنِ ومَنْ	يُنْسَبْ لِقَيْنٍ فبئس المرء إذْ خَسِرا
أَبِالقُيُونِ تُباهينَا وأصلُهمُ	أسْرى اليهودِ لَدَى مَنْ يعرفُ السِّيَرا

أمْ باسْتِلادِ بناتِ الزّنْجِ يُنْجِبُ مَنْ يُنْمى لقَيْنٍ ويعلو الناسَ مفْتخِرا
كلَّا بلِ الشكْلُ تَهدِيهِ طبيعتُهُ إلى المُشاكِل تصديقًا لِمَا اشتُهِرَا
عَنِدتم الحقَّ كِبْرًا من سفاهتكم أنْ أهلَكَ الله لِصًّا غاويا أَشِرَا
دياركم ومَعاهد الشباب خلَتْ فلا أنيسَ بها منكمْ ولا أثَرَا
ما دونَ أسْلَغَ لم نَترُكْ بساحتِهِ إلى وَلاتَةَ لا ذِئْبًا ولا نَمِرا
إنّا لَعُصبةُ خيرِ الْخَلْقِ كلِّهمُ والدامغون له الأحياءَ من مُضَرَا

* * *

والعادة المعروفة لدى مثقفي هذه الأسرة أنهم يُعْنَون بالشعر عناية خاصة، ومِن ثَمّ ندر منهم من لم يكن شاعرًا، ولكن ذلك لا يتجاوز مرحلة الشباب، في أثناء الطلب، فإذا تجاوز أحدهم تلك المرحلة، أتم تعليمه وصار من العلماء، وترك الشعر، واقتصر على الإقراء والتدريس والتأليف والإفتاء، ولم يهتم بمجالس الأدباء، ولا برواية شعره وشعر غيره.

وشعره مبثوث في قبيلة الأنصار التنبتكيين، وليس مُدوَّنا وهذه القصائد موجودة لدينا أخذناها من الحفاظ مشافهة، وأما فتاواه، وأخبار مجالسه العلمية، فتستحق أن يؤلف فيها كتابٌ مستقل، لأنها كثيرة، وتحتاج إلى جمع من طلابه و أهل منطقته، ومعاهده.

وتوفي ـ رحمه الله ـ في حوالي سنة ١٣٢٧هـ.

٢ـ ترجمة الشيخ حـمَّاتَّا بن حـمتّالْ الأنصاريّ:

أملى عليّ ترجمته جَمْعٌ من طلابه، وحدثني بها الشيخ محمد هَمَّا بن محمد الطاهر حمتاهي، كما حدثني بها مشافهة وكتابة الشيخ محمد(إينْ تَحَمَّدِينْ بن المنذر) وهما من كبار طلبته، و عنهما دوَّنتُ أكثر فقرات هذه الترجمة، وأخذت سائرها عن غيرهما.

اسمه: محمد الطاهر بن محمد المختار بن الصادق بن محمد الأمين الملقب حلايّ بن عثمان بن عبد الله الملقب الحاج بلّهْ بن قطب بن محمد بن محمد المختار (إنفا) الأنصاري.

وأمه: حليمة بنت النّقّا بن محمد (إيّحّا) بن عثمان بن عبد الله الحاج بلّهْ ابن قطب.

ميلاده: غير معروف بالتحديد، لكن من المؤكد أنه ولد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري.

نشأته وطلبه للعلم ومشايخه: نشأ في بيت إمارة حيث كان أبوه من أمراء الأنصار، وتولى أبوه تربيته على خير ما ينشأ عليه أبناء بيئته، من جهة البناء العقلي والجسمي والروحي، فقد كان قويّ الذاكرة شديد الحفظ، سريع البديهة، طليق اللسان، وقد تربى على ركوب الخيل والرماية بالبارود، فكان مجيداً لركوب الخيل، سديد الرماية حاذقا لها، لا يخطئ الهدف.

و جعله أبوه عند عمه حمادَ بن محمد الفقيه بن محمد الأمين (حلايّ) وكان من أهل العلم فَحَفَّظَهُ القرآن الكريم، ومتن الآجرومية في النحو، وألفية

ابن مالك في النحو والتصريف، غير أنه لم يجد فهم هذين الكتابين رغم حفظه لهما ـ وكان حافظاً وقاد الذهن، قوي الملكة ـ ثم انتقل بعد ذلك إلى الشيخ أكحتي[١] بن أددي[٢] بن بوحيدة بن محمد بن محمد المختار بن أبي بكر بن الحاج بلَّهْ[٣] فدرس عليه علوم اللغة العربية كافة، حتى برع فيها، ودرس عليه كتاب (مختصر خليل) في الفقه إلى النصف. ثم أكمله على الشيخ محمد الأمين القبلاوي من الشناقطة، وعليه درس رسم المصحف هو والمهدي بن سِيدِي.

ثم بدأ عنده في تفسير القرآن الكريم حتى بلغ الآية (٨٧) من سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾. وهي نهاية الحزب العاشر من أحزاب القرآن الكريم. والأول من الجزء الخامس. وأخذ علم الفرائض والتوحيد وتفسير القرآن عن الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين (أبّين)، وتردد على هذين الشيخين وبعض مشيخة بلاده من الأنصار في دراسته للعلوم الشرعية واللغة العربية، مع كثرة الاطلاع والمذاكرة مع طلبة العلم في المنتديات العلمية، والمجالس التي كانوا يعقدونها باستمرار في مدارسة العلم ومذاكرته. وممن أفاد منهم في علوم اللغة ابن عمه الشيخ: عبدالقادر بن سيد أحمد بن محمد الفقيه بن محمد الأمين (حلايّ).

---

(١) أكحتي اسمه محمد.

(٢) أَدَدِي لقب، واسمه محمد الأمين.

(٣) هذا لقبه واسمه عبد الله.

وذكر لي أحد طلبته[(١)] أنه أخذ بعض التفسير من الشيخ أحمد الكندري، من قبيلة الكندريين، من حلفاء الأنصار.

طلبته: لم يكن الشيخ حماتّا من العلماء الذين يهتمون بالتدريس، وليس له مدرسة مستمرة، أو دروس منتظمة، ويذكر معاصروه أنه لا يرضى بأن يلازمه أحد من الطلبة ملازمة كاملة ليأخذ عنه العلم، وعللوا ذلك بأنه كان شديد الغيرة، ولا يكاد يطيق أن يرى رجلاً في بيته، خوفاً من أن يرى أهله، ومع ذلك فقد قصده بعض طلبة قبيلته الأنصار، فأخذوا عنه في بعض المجالس والمقامات العلمية من غير ملازمة، ولا سيما في أسفاره، لأنه كثير التجوال، وكلما جاء إلى مدرسة أوحيّ فيه طلبة جلس لهم ودرّسهم ما يدرسون من العلوم، وكذلك من يأتيه ويطلب منه أن يدرسه أو يشرح له أو يناقشه في شيء من العلوم، فإنه يخرج إليه ويجلس له حتى يقضي أربه، وأشهر من تخرجوا عليه وأكثروا في الدرس عليه من تلاميذه هم:

١- ابنه عبد الرحمن.

٢- أخوه المهدي بن حمتَّالْ.

٣- الشيخ عثمان بن محمد الصالح (ماسّا). من أبناء عثمان.

٤- المصطفى بن محمد الصالح(ماسًّا).

٥- الشيخ الحسن بن محمد المصطفى. من أبناء أبِّينْ.

٦- محمد (إنِيدَّامْ) بن محمد علي بن حبيب الله.

---

(١) هو محمد (إنتحمد) بن المنذر بن إبراهيم.

٧- محمد(أكحتي) بن محمد بن محمد المنير. من أبناء بَدَا.

٨- نوح بن محمد بن محمد المنير. من أبناء بَدَا.

٩- محمد يحي بن محمد بن محمد المنير. من أبناء بَدَا .

١٠- محمد (أيّدْ) بن عبد القادر بن محمد الفقيه ، بن حَلَّايْ.

١١- أبو بكر بن عبد القادر بن محمد الفقيه .

١٢- محمد بن المنذر بن إبراهيم. من أبناء أبِّينْ.

١٣- محمد همَّ بن محمد الطاهر(حمتاهي) بن سيدي. من أبناء أبِّينْ.

١٤- محمد المولود (امَّلُو) محمد الطاهر(حمتاهي) بن سيدي. من أبناء أبِّينْ.

١٥- محمدُنْ بن الحسن.

١٦- محمد الحسن بن محمد المصطفى.

الفنون التي درَّسها:

أكثر ما درسه : القرآن الكريم ورسم المصحف ، والفقه وأصوله ، والحديث. والسيرة ، وعلوم اللغة العربية.

فقد كان يدرس مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي ، ونشر البنود على مراقي السعود في أصول الفقه ، ومراقي السعود نظم شامل في أصول الفقه ، للشيخ عبد الله بن إبراهيم الشنقيطي ، وشرحه هو نفسه بشرح سماه (نشر البنود على مراقي السعود). وكتاب (الورقات) لإمام الحرمين ، في أصول الفقه أيضاً ، وشرح صحيح البخاري للقسطلاني ، وصحيح مسلم

بشرح النووي، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض. وكان يحفظ الكتب الثلاثة.

وأما علوم اللغة العربية فكان يدرسها بعامة، النحو والتصريف والعروض والأدب والبلاغة، وأكثر الكتب التي كان الطلبة يقرؤونها عليه في النحو متن الأجرومية وشروحه، وألفية ابن مالك وشروحها، وإعرابها المسمى (تمرين الطلاب في صناعة الإعراب). وملحة الإعراب للحريري، ولامية الأفعال في التصريف، وشرحها: مبلغ الآمال. وفي البلاغة الجوهر المكنون في شرح علمي المعاني والبيان للسيوطي، وفي الأدب مقامات الحريري، والمعلقات السبع. وجميع شروح هذه الكتب وإعراب شواهدها، هذا أشهر ما كان الطلبة يقرؤونه عليه ويشرحه لهم، وما سوى ذلك كثير، في عامة الفنون الشرعية والعربية، والفلك والمنطق، والحساب، والتاريخ...

صفاته وأخلاق:

كان الشيخ حمَّاتًا ـ رحمه الله ـ تقياً حيّاً ورعاً زاهداً متواضعًا، يبدو عليه سيما أهل العلم والفضل، كثير ركوب الخيل، فارسا شجاعًا، قليل الكلام، لا يغضب على أحد، مجتنباً للرئاسة والشهرة، ولا يكترث بجمع المال، ولا يملك عادة سوى جواده وبقرات أربع أو خمس وجمل يركبه، وكان وَصَّالاً للرحم، قالت لي والدتي رحمها الله: «إنه كثير التجوال بين أقاربه وقبيلته، يمسيهم ويصبحهم، ويسأل عنهم، ويتودد لهم، ويسألهم الدعاء له، شديد الشفقة أن يلحقه تقصير في حق الرحم».

وفيه لين جانب وتواضع خاصة للعلماء، قال لي محمد (همَّا) بن محمد الطاهر بن سيدي: «إن الشيخ حماتا كان يوما عند الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ فأخذ الشيخ محمد المختار يتحدث في مسألة علمية، فجلس الشيخ حماتا بين يديه منصتا مصغيا مطأطئا رأسه، وقد خلع عمامته وطرحها أرضاً تواضعاً للشيخ محمد المختار».

وكان الشيخ محمد المختار قريناً للشيخ حمَّاتَّا منذ كانا طالبين، فكان كل واحد منهما يجل صاحبه يعرف له قدره، ويحترمه ويوقره غاية التوقير، ولا يعقب أحدهما على حديث الآخر، ولا يتعرض لشيء تكلم فيه.

وقال لي تلميذه الشيخ محمد هَمّا بن حمتاهي أيضا: كان الشيخ حماتا خفيفا سريع الحركة تنتابه عجلة في أموره حتى إنه لا يخلع نعلين في كثير من الأحيان، وكان صاحبه محمد المختار على خلافه في ذلك، فإنه كان ذا أناة وبطء في أموره، وكان الشيخ حماتا كريماً مضيافاً، وسمحاً سهلاً يشكر على القليل، وربما مدح بقصيدة من أسدى إليه قليلاً من المعروف، ولذلك أمثلة من شعره.

وكان لا يقر لنفسه بالبراعة في شيء من العلم سوى حفظ القرآن الكريم وعلم رسمه، مع ما كان عليه من علم وسعة الاطلاع وكثرة المذاكرة.

آثاره:

كانت قبيلة الأنصار في بلاد أزواد من قاطني الصحراء. وكانوا أهل ماشية يتبعون بسائمتهم مواقع القطر ومنابت الشجر، وليس لهم اتصال مؤثر

بالمدن، وندر اتصالهم بالحركات العلمية والثقافية في العالم العربي، فأدت تلك الظروف المجتمعة إلى قلة تدوين العلوم، بل عدمه، فكان اعتمادهم على الحفظ والرواية الشفوية، تجد العلماء يتحدثون ويؤلفون وتجد الشعراء ينشدون باستمرار، وتجد المناظرات العلمية، والفتاوى وكثيراً من القضايا العلمية، لكن لا يهتم أحد بتسجيل شيء من ذلك، ولا بتدوينه، وإن كتبت نسخة واحدة في شيء من ذلك تداولها الناس إلى أن تضيع أو تتلف أو تباع فتفقد، فلم يكن لهم أي إنتاج يذكر سوى بعض ما نجده محفوظاً في صدور قليل منهم، وغالباً ما يكون ذلك شعراً. وإلا شيئًا قليلا مما حفظته لنا دور المخطوطات في تمبتكو وغيرها من المدن التي يردون إليها في المنطقة، أو قليلا مما يحتفظ به بعض أهل العلم منهم مما نسخه أو تمكن من حفظه في أوراق، ونحو ذلك.

فمما عثر عليه مما ألفه وكتبه من مؤلفاته مايلي:

١. كتاب في علل الشريعة سماه: (مسائل العلل) وأجاد فيه كل الإجادة.

٢. شرح القصيدة الخزرجية في علم العروض.

٣. أرجوزة في علم الفلك والمطالع والمنازل.

٤. ديوان شعره.

٥. حواشي وتعليقات على متن مراقي السعود في الأصول. (وهو عندي مخطوط).

٦. شرح قصيدة همزية في الوعظ والحكم. (مخطوط عندي).

شرحها سنة ١٣٥١هـ.

٧. المجموع. وهو عبارة عن سجل سماه هكذا «المجموع» جمع فيه أشعاره وفتاواه، وكثيرًا من مؤلفاته. ولكن بعد وفاته أخذ ابنه عبد الرحمن هذا المجموع وفرقه بين الناس وباع أكثره.

شعره:

كان الشيخ حماتا شاعراً فحلاً مطبوعاً سيّال القريحة، ينشد القصيدة واقفاً من غير تردد، ووصل إلينا بعض أشعاره عن طريق الحفاظ، وكان مرّ على رجل من الشرفاء اسمه (هداني) فقيه عالم، فمدحه حمَّاتا بقصيدة مطلعها:

هداني الله ربي إذ هداني ... للقيا ذروة الشُّرَفَا هداني

وكان كاتباً سريع الكتابة جيد الخطّ، ومما وصلنا من شعره:

١ - قصيدة له يرد فيها على كنتة، وهي:

يا أمَّ حبدي أكثرى العويلَ فقد ... أضحى بنيُّك أكلاً للسراحِينِ

غدًا إلى اوْدَيكَ شبعانًا فظنَّ بنا ... ما بالسويق من اللذاذِ واللينِ

فردَّه الشبَعُ الْمُردِي لصاحبيه ... عطشانَ جوْعانَ مخْلوفَ الأظانينِ

قد حاول الأمر بالبغيِ الذي وجبَتْ ... قتلُ البغاة به من أصل ذا الدينِ

لقد سمعنا الذي قالتْ طَغَامُكُمُ ... حول الطعام من الإنبات ذا الحِينِ[1]

إنا بعُدتنَا الأولى التي فَنِيَتْ ... بها أوائلكم قبل السلاطينِ

---

(١) الطَّغام: لئام الناس.

فأُتوا بنبتكمُ فعندنا شُهُبٌ للنبْتِ محرقة وللمعادِنِ

* * *

٢ـ وكان قد اجتمع بالشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ وجمع من العلماء والأعيان عند ابن عمهم الأمير محمد علي بن الطاهر، فاستنشدهم الأمير شعرًا، وكانوا قد آلة الشاي الأخضر أمامهم يصنعونه بطريقتهم التقليدية العجيبة، وطلب منهم الأمير أن يكون مجال القول هو الشاي الذي اجتمعوا عليه في الساعة نفسها، فأنشد عبد الله بن عالي شطر بيت من الرجز، فأسكته الشيخ محمد المختار، ثم ألح محمد المختار على الشيخ حمَّاتًّا ـ لأنه يعرف أنه سريع البديهة ـ فقال له لا بد أن تنشدنا هذه الساعة ما يعجب المجلس، فأنشأ الشيخ حمَّاتًّا يقول[1]:

أيا لهفَ نفسي من مَبيتيَ ليلةً على القرِّ والمفتولُ ناءٍ وشاسعُ[2]
مبيتٌ يضاهي ليلَ مسكٍ تدعّه وساوس تجري بالظلامِ المدافعُ[3]

فقال له الشيخ محمدالمختار قل: تُدافعُ. ثم تابع قائلاً:

فبينا أُمَنّي النفسَ وافيتُ فتيةً ومغْراجُهم وقتَ العُتَيْمَةِ طالعُ[4]

---

(١) هذه القصة طويلة، وستجدها مفصلة في كتابي في سيرة الشيخ محمد المختار بن حوَّدْ.
(٢) المفتول هو أجود أنواع الشاي الأخضر.)
(٣) ورواه بعضهم: مبيت يضاهي ليل صَبٍّ... ومعنى يضاهي: يشابه. وتَدُعّه: تدفعه.)
(٤) ويُروى: وقت الغُدَيَّةِ... و(العتيمة) أولى لمناسبة قوله: مبيت... ولمناسبة المقام الذي قيلت فيه القصيدة وهو عشاء، والعشاء هي العتمة، والمِغراج هو الإبريق الكبير =

وكاساتهم صَفٌّ على الطبل واحدٌ وبَرّادُهم بين الأحبة لامعُ
كما يلمَعُ البدْرُ التمامُ وحولَه نجومُ الدراري حيثُ تصحو المطالعُ
رمَوْا فيه كيلَ الكأس مما تضمنتْ بَوابِرُ بحرٍ سَقيُها الشايَ شائعُ[(١)]
ولا غروَ أن الماءَ يُسمع صوته حليلا وفي مِلْءِ السقا هو هاجعُ

فقال الشيخ محمد المختار لمحمد بن عالي: قم فاشرح هذه الأبيات أمام قائلها، فإن قلت غير ما أراده صوّب لك، فقام محمد عالي فشرح الأبيات السبعة، فقال حمّاتّا: هكذا أردت.

ثم أخذ عليها الشيخ محمد المختار مجيزًا فقال على المنوال نفسه:

وتَبْسُم في ذاك الكؤوسُ كأنها ثغورُ العذارى حين تُنضى البراقعُ
فلما رشفت الكأس منها تفتَّقتْ ينابيعُ شعرٍ من طويلٍ هوامعُ
وجُرِّدَ ذو دِرْعَيْنِ بيضا نقيَّةٍ وخضراءَ ذاك الوصف للحسن جامعُ[(٢)]
فقالوا أعنا بالدليل فإننا تظلِّلُنا منه السيوفُ القواطعُ
كذلك إنكار المسائل صادرٌ عن الجهل و الْجُهَّالُ قِدْمًا تُنازعُ
فقلت لهم يكفي لكم: كلُّ مسكرٍ حرامٌ فمفهومٌ له لك شافعُ[(٣)]

= الذي يُغلى فيه الماء.

(١) البَوابِر البحرية جمع بابور، وهو الزورق، وهي كلمة لاتينية أكثر ما تطلق على الدراجات النارية. ويروى المصراع الثاني: بوابر بحر سبقُها الشاةَ. . . .(وهي رواية الشيخ هَمّا).

(٢) يريد بذي دِرعَين: قالَب السكر، والمراد بدرعيه غلافه، فإنه مغلَّف في غلافين من ورق: أبيض وأخضر.

(٣) يشير إلى ما وقع من الخلاف في جواز شرب الشاي لما جيء به إليهم، وكانوا من قبل لا =

٢- وأبيات أنشدها في نصيحة طالب العلم بعد ما سمع أحد طلبته يتمنى أنْ لو كان شاعراً، ذلك أنه اجتمع مع جماعة من طلبته في ليلة من الليالي فقرؤا قصيدة من قصائد الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ - رحمه الله -، فنالت إعجابهم - والأنصار يطربون للشعر - فقام أحد طلاب الشيخ وهو عثمان بن محمد الصالح(ماسًّا) فقال ليتني شاعر، فأمر الشيخ حمَّاتًّا بإيقاد النار للكتابة، لأنهم كانوا في ليلة غير مقمرة، وكانوا يتناشدون الأشعار من حفظهم، فأوقدوا نارًا في ثمام، لأنه أسرع في الاشتعال، فجعل الشيخ حمَّاتًّا ينشد ويملي عليهم وهم يكتبون تحت ضوء تلك النار:

طالع كتابك كل يوم تعرفن ... ما كنت تجهله من الأشعار
وتقول قولاً ليِّنًا متوازنًا ... متناسبًا متناسق الأقطارِ
ويقول أهل الشعر إنك شاعر ... ثُنْيانُ يسكلك مَهْيَعَ الأوعار[1]
دَعْ عنْكَ عضَّ أنامِلٍ عن مُفْلِقٍ ... سلَك النجودَ وسائر الأغوارِ
يأتي إذا رام القريضَ بصخرة ... فيذيبُ شدتها بماء جارِ
تتسابق الكلمات في إتيانه ... وتكون طوعَ لسانه الثرثار

= يعرفونه، وإنما يعرفون القهوة، فلما جيء به اختلف فيه أهل العلم بين مجَوِّز وقائل بالتحريم أو الكراهة، فذكر الشيخ هنا أن ما جاء في الحديث من أن الرسول ﷺ قال: «كل مسكر حرام» يكفي دليلا على أن الشاي ليس بحرام، لأن مفهومه أن ما ليس مسكرًا فليس بحرام، بل هو باقٍ على أصله وهو الإباحة.

(١) الثُّنيان هو الذي يلي السيد، يصفه برفعة المقام.

أعـنِـي بـذلـكَ نـجـلَ حـوَّدْ إنَّـه هـو كُفْؤُ هاتِي البِكْرِ من أحرَارِ

٣- وأبيات مدح بها رجلاً كان له عليه يد اسمه سيدي علي من قبيلة أولاد غنّام من البرابيش. ومطلعها:

لسيدي علي الغنام صيت ذائع صيت المشايخ من بني بطن الجمل (١)
شهم الفؤاد مرحِّبٌ ببشاشة قاضي المآربِ سائس أمر الخوَلْ (٢)
قل للألى حسدوه توبوا إنه لولاه ما نِلْتم نظامًا معتدِلْ
قد كنتمُ فيما مضى معْ جيرَةٍ متهارشين ذوي العصي وذوي الأشَلْ
حتى علا بالرغم أعلى همامكم أصبحتمُ في الخِصْبِ والأمنِ المظِلّ
من غير ما هَرجٍ ولا أسبابه بل بالنُّهى وبإثمِدٍ يُحْيِي الْمُقَلْ
فإذا مضى لسبيله فلْتسلكوا من بعده منهاجَه ودَعُوا الفشَلْ
وأتَتْ بكمْ عَمْيا فهاكم ضدَّها بيضاءَ تهديكمْ مُناكمْ قد كَمُلْ
ولْتشكروا فالشكرُ بَذْرُ زيادةٍ والكفْرُ داءٌ قُرْحُه لا يَنْدَمِلْ

* * *

٨. قصيدة غزلية رائعة جدًا تُعد من غرر القصائد العربية ودررها النادرة أنشدها أيام شبابه وصبوته متنافسا مع قرينه محمد المختار بن حَوَّدْ في مدح ابنة عمهما فاطمة(فَاتَنُو) بنت البخاري بن محمد بن محمد أحمد الملقب (حَنْداحَنْدَا) الأنصارية، ورمز لها بـ(الفاء) أول حرف في اسمها، ومنها

(١) «بطْنُ الجمَل» قبيلة من البرابيش من أولاد غنام.

(٢) الخَوَل: الأتباع والخدم.

الأبيات التالية:

سما لك شوقُ الفاء يا ذا التماسكِ بأصل قديمٍ ذي قُوًى والتشابكِ
عشيةَ قال الناس آبتْ ركابها إلى ذات عَيْشَا فابْيضاض البراتكِ
فشبكتُ عشري فوق رأسيَ سادماً وأتبعتها طرفي على كل نابكِ
أيا فاءُ هل عصرُ الزيارةِ آيبٌ فَنَهْنَا، وهل لي من قويٍّ هنالكِ؟
زكاةُ مليٍّ فرضُ عينٍ فأخْرِجي لنا ربعَ عشْرٍ من نصابِ جمالِكِ
فقالتْ ثرائي لا أُطيقُ أعُدُّهُ أعِنِّي بحسَّابٍ يَعِي فقْهَ مالِكِ
فجِئتُ بزيدٍ راجيًا ما يَنُوبنُي فأخرَجَ لي بعد العَنا ألْفَ تامِكِ[1]

وهكذا إلى أنْ ختمها بقوله:

فلَولا بنُو عَمِّي أُراعي حقوقهمْ لَحَيَّرَ صُنْعي فِيكِ مَنْ في بلادِكِ
ولكِنْ همُ فخْري إذا الناسُ ضيَّعوا حقوقهمُ أنْ يُوطَؤُوا بالسنابكِ

* * *

وأما قرينه ومنافسه في مدحها محمد المختار بن حَوَّدْ فسمَّاها «أمامة» مكنيا عنها وأنشد في حقها قصيدة سينية رائعة يقول فيها:

خليليَّ إنْ شطَّتْ أمامةُ ما عسى أقولُ وعاينْتُ الطلولَ الدوارسا
فهل تكتم العينانِ للقلبِ سرَّه أمِ الدمْع يُفشي سرَّه والوساوسا
لئنْ شطَّتْ الحسْنا أمامة غدوةً فإني هجرت الغانيات الأوانسا

---

(١) التامك: الناقة السمينة.

لَعمْري لقد كلفتِني فوق طاقتي وكلَّفْتِني ردِّي الهمومَ الهواجسا
وأنْضيتِ جسمي بالهوى بعد صحة ونبهْتِ قلبًا يا أمامة ناعسا
فتاة كأن الله أسبلَ فوقها ملابس من بدْرٍ أعزّ ملابسَا
لها واردٌ كالليل غابت نجومه جفالٌ على المتنَيْنِ يحكي طيالِسا
ومِنْ عجبٍ لم أقْضِهِ أنْ لَها سُمًا له معنيان في العلوِّ تجانَسا
فإنْ كسروا همزًا به فإمامةٌ وإن قلبوا كانت هُماما قَدامِسا

وهي تبلغ ستا وعشرين بيتا.

* * *

٩ ـ قصيدة في مدح الأمير الطاهر بن المهدي بن محمد بن حَبْدَا بن حمَّادَا الأنصاري: مطلعها:

لمن طللٌ يبدو بذات البطائح كداحٍ يُرى في القصرِ بين المذابحِ
أناختْه من مغناه خرقاء خرجَفٌ خَجوجٌ تزَجِّي كل دلحِ دوالحِ[(١)]

سقط هنا مقدار بيتين.

إلى بيضه يعدو حثيثا وكلما توحْوَحَ زاد الجدَّ ليس بسانحِ

إلى أنْ قال:

فبالطاهر بن المهدِ نرجو خلافةً وبابْنيهِ نرجو العونَ من كل كالحِ

(١) يقول: أنزلته من مكانه ريح شديدة الهبوب والتصويت والتحريك، وهي الخرقاء الخرجف الخجوج. تسوق السحب الممتلئة بالماء.

وأحياء نجل المهدِ من كل قارئٍ أصولاً ومن قاري الضيوف وسالحِ
فلما أراد الله إظلالَ خلقهِ أباتَكَ في هَنْتَا[1] أمير الصحاصحِ

وهي طويلة. ختمها بقوله:

قريضيَ قد أتممته بطويله كيئبًا على سأوٍ بذاتِ البطائحِ

وشعره مبثوث بين أبناء القبيلة يحتاج إلى من يجمعه منهم وهم متفرقون في البلدان، فعسى الله أن يهيئ لذلك من يقوم به.

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى: بالطاعون سنة **١٣٧٣**هـ وليس له عقب سوى ابنه عبد الرحمن، ومات عبد الرحمن وترك ابنتين هما الآن متزوجتان.

وقد أخذه المرض فمكث أياما ثم فاضت روحه رحمه الله تعالى، وأول ما أخذه الوجع بيده اليمنى ثم أخذ الوجع يشتد عليه تدريجياً، ولم يتوقف عن الدرس مع ذلك، بل استمر يقرئ ويدرس مع الوجع، وقد توفي في أثناء شرحه لمختصر خليل في اليوم نفسه! وكان قد قال لطلابه منذ أمس قبله: «إني لا أدري لعل هذا آخر عمل أعمله، فإني أحس بجسمي كأنما يتكسر»!! وكان الذي يقرأ عليه هو الشيخ محمد إنتَحَمَّدِينْ بن المنذر بن إبراهيم. ـ وهو الذي حدثني بهذا ـ وغسله طلبته وأبناء أعمامه، شرق (زرهو) بينه وبين إينوشف شمالاً، ثم حمل إلى المقبرة الكبرى في إينوشف فدفن بها.

---

(١) هَنْتَا: اسم لناحية من البلاد، وهي التي كان فيها الممدوح.

وحدثني تلميذه الشيخ محمدالمولود(امّلُو) بن محمد الطاهر(حمتاهي) قال لما توفي الشيخ حمَّاتًّا رثاه قرينه العلامة الشاعر المفلق القاضي محمد المختار بن حَوَّدْ ـ رحمه الله ـ بقصيدة تائية رائعة جدًا بلغت مائة بيتٍ، مطلعها:

عفتْ دار التلامذ من رواةٍ ومن حركاتِ ألسنِ ذي لغاتِ

ولم يتذكر منها الشيخ امَّلُو إلا مطلعها، وقال: إنها ضائعة.

٣- ترجمة الشيخ عثمان بن محمد (إنْغَلالَنْ) الأنصاري:

اسمه: هو الشيخ العلامة الشهير عثمان بن محمد الملقب بـ(إينْغَلالَنْ)[(١)] بن محمد المولود المعروف بـ(حَوَالَنْ) بن القاضي الشهير حمَّادَا بن محمد إملَّنْ المعروف بـ(أبانين) بن قطب بن محمد بن محمد المختار (إنْفَا) الأنصاري. وأمه طارقية من قبيلة (إيموشاغ).

تعلمه وشيوخه: تعلم في بلاد أزواد على جمع من العلماء الذين تتلمذ عليهم في بلده وتمبتكو وأرَوان وولاتة وغيرها، من أشهرهم شيخه وعمه محمد المعروف بـ(هَمَّا) بن الطاهر بن محمد أحمد بن محمدإيمَلَّنْ الأنصاري، والشيخ سيدي أحمد بن الصَيْد، و الشيخ سيدي علي الولاتي، وعلماء قبيلته الأنصار، وأهمهم أبوه وأعمامه، وهو عالم مشهور في زمانه في

(١) تكتب هذه الكلمة (إنْ) على ما تنطق به غالبا، أو (إينْ) بإشباع الهمزة على ما هو أصلها، ويجوز رسمها مفصولة وهو الأصل لأنها كلمة مستقلة، كما يجوز رسمها موصولة بما بعدها للتلازم وكثرة الدوران حتى صارت كأنها جزء منه. وراجع لمعناها وتفاصيلها الفصل المخصص لمصطلحاتهم المتقدم ذكره في هذا الكتاب.

بلاد صحراء تنبتكو وأروان، وقد أكثر من التجوال في طلب العلم، متنقلا بين البلدان، ومتتبعا للعلماء يأخذ عنهم ويروي، حتى أمضى أربعين عاما في رحلة طلب العلم، ولم يَعد إلا بعد أن صار علَما من الأعلام في شتى الفنون والشؤون، وأجازه مشايخه، وأرسل إلى الأقطار البعيدة مثل الحجاز ومصر في طلب الإجازة.

وبرع في الفقه والأصول والتفسير والتاريخ، وعلوم اللغة العربية كافة، وله مشاركة فيما سوى ذلك من الفنون الأخرى كعلم الحساب والفلك والمنطق وغيرها.

وقد كانت بداية تعليمه بحفظ القرآن ورسمه، ثم جمعٍ من المتون والشروح في هذه العلوم، من أهمها:

في التفسير: تفسير ابن كثير، تفسير الجلالين، تفسير الخازن، تفسير القرطبي.

وفي الحديث: الصحيحان، وشروحهما. وموطأ مالك، وشروحه.

وفي أصول الفقه: شرح البنود على مراقي السعود. وجمع الجوامع. والموافقات للشاطبي.

وفي الفقه والتوحيد: رسالة ابن أبي زيد القيرواني، والاعتصام للشاطبي. مختصر خليل في الفقه وشروحه. المدونة الكبرى لسحنون، وشروحها. بداية المجتهد في المذاهب الفقهية لابن رشد.

وفي علوم اللغة العربية:

ألفية ابن مالك وشروحها، وملحة الإعراب للحريري، ومبلغ الآمال في التصريف. وعقود الجمان في البلاغة للسيوطي. وشرح التلخيص للقزويني في البلاغة. ومقامات الحريري في الأدب، وشروحها، والمعلقات السبع وشروحها.

وهذه أمثلة من الكتب التي ذكرها لنا الشيخ هَمَّا بن حمتاهي -رحمه الله-، وهي كثيرة، وذكر لنا أَنَّ ما نسيه أكثر مما تذَكَّره منها.

نعوته وأخلاقه: كان الشيخ عثمان بن إينْ غَلَالَنْ، من كبار العلماء والشخصيات في علمه وهيبته، فقد كان مهيبا تبدو عليه الجلالة، وبهاء الطلعة، مرموقا مقصودًا، يملأ عين ناظره، وإذا تكلم فله منطق حسن فصيح ظاهر، وقد أعطاه الله مع ذلك بسطة في الجسم، فقد كان من عظماء الرجال طولا وعرضا وعظمًا، وكان مع ذلك فارسَ بُهمةٍ، وليث عرينةٍ، ومِرْدَى حروب، غير هياب ولا هَروب، صاحبَ غمَرات، وقائد غزوات، وبَطلا أشوس، وكميا أشرس، مغامراً مقداماً، وسيدًا هماماً، جريئاً ثابتَ الْجَنان، لا يزال ممسكًا بأطراف السنان، معلقًا على كتفه سيفه البتار، لا يفارقه الليل والنهار، تتدفق منه الشجاعة تدفق السيل الجرار، وهو مع ذلك ذؤابة قومه، وشيخهم وزعيمهم، وبدرهم الطالع، وسهمهم النافذ، وقد جمع ذلك كله إلى الذكاء المفرط، والعقل الراجح، والرأي السديد.

وكان ذا حدة وقوة في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يداهن أحدًا ولا يحابيه، شديد الإنكار للباطل، سريع الانتقام من أهله، قوي

العارضة، واضح الحجة، لا يثبت معارضُه، ولا يقوى مفاوضه، وكان شديدًا على أصحاب البدع، غيورًا على الكتاب والسنة، شديد التمسك بنهج السلف الصالح، مظهرا للنكير على المخالف.

وكان محبا للعلم وأهله، موقرًا للعلماء والطلبة، معتنيا بهم، حاميا لهم، كثير الدرس والاطلاع، غزير الفهم والاتساع، لا يفارق الكتاب والقلم، وكل مجالسه مجالس درس ووعظ ونصح وتعليم. وقد عاش نيفا وثمانين سنة ـ رحمه الله ـ وأسكنه الجنة.

وحدثني الشيخ محمد (همَّا) بن محمد الطاهر (حمتاهي) الأنصاري، فقال: «كان عثمان رجلاً عالماً ذكياً ذا شجاعة متناهية، يفر منه الشجعان ويهابونه وكان إلى ذلك قوياً طويلاً ذا شارة حسنة رفيع القامة ضخماً، عبل العضدين تام الخِلقة، لا يني ولا يمل، تعلم في بلاد أروان وما حولها وأخذ عن علماء كثرين، وكان ذا حدة، حافظاً واثقاً في علمه، شديداً غليظاً على معارضيه، وله سيف طويل كبير لا يفارقه يعلقه بعاتقه أينما ذهب، وكان شديداً على أهل البدع والمذاهب والخرافيين لا يدانيهم، أخذ الإجازة من كثير من علماء المغرب وشنقيط وأروان وتمبكتو ومصر وغيرها، ولما ألف مؤلفه في مخرج الضاد أرسله إلى كبار العلماء حتى أجازوه، ولقد أرسله إلى الحجاز ووافق الرسول وجود الشيخين العالمين أبي السمح والطيب، على رأس العلماء في الحرم المكي فكتبا له الإجازة عليه.

قال: وكان شديد الدفاع عن الأنصار بسيفه ولسانه، وكان أسمر اللون،

وتوقيعه هكذا: (عثمان بن إنْغلالن)، أو (عثمان بن حوالن)، ويسقط اسم أبيه، قائلاً إن (محمداً) لا يتعرف به الإنسان لكثرة من اسمه محمد، ولذلك يكتب لقب أبيه وهو (إنغلالن) أو لقب جده وهو (حوالن)».

دعوته:

كان الشيخ عثمان ـ رحمه الله ـ كما تقدم في نعوته ـ شديد النكر للمنكر، وكان حربا على أهل البدع، كثير الإزالة للمنكر بلسانه ويده، وقد حارب التجانيين، وطردهم من بلده، وضيق عليهم السبل، وألف ضدهم، ومن طريف ما يروى له في ذلك أن تلميذه الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ ـ رحمه الله ـ جاءه زائرًا فأضافه الشيخ، وأنزله بعيدًا عن بيته وأرسل له طعام الضيافة، ثم عمد إلى الطعام بعد أكل الضيف منه فأعطى ما بقي منه للكلاب، وقال لضيفه محمد المختار إن سؤرك نجس! فقال له: لماذا؟ ألستُ مسلما؟! قال لأنه قد بلغني أنك دخلت في الطريقة التيجانية واقتنعت بها. فأعلن له تلميذه التوبة والبراءة منها، واعتذر له. ذكر لي ذلك الشيخ محمد هَمَّا بن محمد الطاهر (حمتاهي) ـ رحمه الله ـ، وهو تلميذ الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ، وابن أخته.

تلاميذه:

كثير من علماء الأنصار والقبائل المجاورة لهم في تلك البلاد من تلاميذه، وقد تخرج عليه عدد كبير من طلبة العلم، ورووا عنه، وممن ذكر لنا من أعيانهم ومشاهيرهم:

١- ابنه محمد أحمد.

٢- ابنه محمود.

٣- العلامة الشيخ: محمد المختار بن حَوَّدْ الأنصاري.

٤- الشيخ محمد الطاهر المعروف بـ(التّايْ) الأنصاري

٥- الشيخ محمد بن إبراهيم بن أَلَالَوِينْ الأنصاري

٦- الشيخ حتَّايْ بن إبراهيم من قبيلة سيدي عالي (من الأشراف).

٧- : إينْ تُوَّلُو بن المصطفى الأنصاري الأغَبوبي.

٨- وجمع كثير من علماء الأنصار من الأغبوبيين، وأهل بنكور مثل: إبراهيم بن محمد الأمين، وعالي بن محمد، ومحمد بن إبراهيم بن أَلَالَوِينْ بن الطاهر، ومحمد المعروف بـ(هُكَّهُكَّا)، و عبد الله بن عالي وأخوه محمد بن عالي.

٩- العلامة محمد محمود بن الشيخ سيد أحمد بن آدَّا الأرواني قاضي تنبتكو.

١٠- وعدد كثير من علماء السودان، وسائر الطوائف الأزوادية.

مؤلفاته:

لم يكن علماء أزواد ممن يهتم بالتأليف ويكثر فيه، وليست لهم عناية بذلك، لظروف حياتهم التي تغلب عليها البداوة، ولقلة الورق، وما سوى ذلك من مقومات التأليف، وللشيخ عثمان رسائل عديدة متنوعة في شتى الفنون مما دوَّنه أو دوَّنه تلاميذه من فتاويه، والردود على المعارضين،

وتدوين القضايا، ونظم العلوم، ومن يطلع في خزائن الكتب في مكتبة تمبتكو وأروان يجد كثيرا من المخطوطات التي باسمه، هذا سوى ما ضاع ومالم يحفظ، فقد كان غزير المعرفة، وكثير التدوين لبعض المسائل المختصرة، مكث في ذلك دهرا يزيد عن خمسين سنة. في أصول الفقه والشعر وبقية العلوم الإسلامية وقد أرسل بعض ما ألفه إلى الشيخ أبي السمح في بلاد الحجاز فأجازه.

ومما وقفنا عليه من مؤلفاته:

١. رسالة في مخرج الضاد(وهي عندي مخطوطة).

٢. منظومة في الرد على أهل الزيغ والضلال. مخطوط في مركز أحمد بابا التنبتكي برقم ١٣٠٥، وتقع في ستة أوراق.

٣. كشف الغطاء والنقاب عن سبيل الهدى والصواب. رسالة تقع في ستة وعشرين ورقة. مخطوط في مركز أحمد بابا التنبتكي برقم ١٣٠١.

وهي أكثر من هذا بكثير، وقد ذكر لي بعض الباحثين أنه قد وقف له على جمع كبير من الكتب المخطوطة المحفوظة في مكتبة مركز أحمد بابا في تمبتكو وأنها تشتمل على فنون متعددة، ومنها مراسلات بينه وبين علماء المغرب وشنقيط ورسائل في علوم السياسة والاجتماع والتربية والأدب سوى العلوم الشرعية.

وفاته:

توفي - رحمه الله - حوالي سنة ١٣٧٢ هـ وقد عاش ما يزيد على ثمانين

سنةً، قضى أكثرها في طلب العلم وتدريسه.

أبناؤه:

١- محمد أحمد بن عثمان الأنصاري.وهو من العلماء المعدودين، ومن كثيري الاهتمام بالتعليم.

٢- محمود بن عثمان الأنصاري وهو مثل أخيه السابق في طلب العلم والعناية به.

شعره:

كان الشيخ عثمان سيال القريحة، سريع البديهة، يجري الشعر على لسانه، وغالب شعره حماسي، والنماذج التي وقفنا عليها من شعره تغلب عليها الركاكة من جهة الصناعة الشعرية، والسبك النظمي، ومن حيث تناسب المعاني وترابط العبارات، وكذلك من جهة الإيقاع الموسيقي، أما ألفاظه فجزلة، وأما معانية فغزيرة شريفة، ذات نوادر نفيسة، وهو طويل النفَس، مدرار العبارة، مع ركاكة فيها، وعفوية يرسلها، كثير الغريب، متنوع الأسلوب، ينهج نهج العصر الجاهلي وصدر الإسلام، كما هو دأب سائر شعراء أزَواد. من شعره قصيدة يعاتب فيها رجلا خرج من حِلف الأنصار ودخل في حلف أمير الطوارق شَبُّونْ:

خليلي هل هَيْنٌ ففاهٌ فدَيْبرُ تروق لعيني رامقٍ يتدبرُ

لغزة أطلال بها قبل أقفرتْ ثلاثة أحوالٍ تُراح وتُمطَرُ

يثير الهوى أن لا تريم وغنها ... لدارٌ لإخواني دهورًا ومنظرُ
وعزَّيتُ قلبي بعد أن يستفزه ... توالي الهوى من بعدما يتذكرُ
عَدَتْني صروف الدهر عنها بريبة ... وقد يلتوي دون السمير فيقهرُ
يذكرني من عز في الظبْيِ عينُه ... وجيدٌ له بالحلي ريان عبهرُ

وهكذا مضى في هذه المقدمة الغزلية ـ على ماهو عادتهم ـ ثم خلص إلى غرضه فقال:

فعدّ عليها كل شبل مسبّرٌ ... بحمل مشاق الدهر لا يتنصرُ
بشَبُّنْ ولا أعلاجِ رومٍ وبربرٍ ... يهاجر عزًّا لا يعالى فيغْمَرُ
وإنا لحيٌّ من كرامٍ أعزةٍ ... ولاقى أبو العباس منا ومنذرُ
فوارس صدق في الحروب كماتنا ... إذ الصبر في القتلى من القوم أكدرُ
لنا من مكارم الكرام مكارمٌ ... يقر بها سمحٌ وحظٌّ موفرُ
ونحن بنو الأنصار من آل تُبعٍ ... ولاقى أبو أيوب منا وحميَرُ
وقائدنا في كل يوم مدافعٌ ... ويطفئ نارًا طالما تتسعرُ
سياسته عمت قبائل من بغى ... عليه له حظٌ لذاك ومفخرُ
له صيت عزٍّ من تراث مسلسل ... إلى منتهى الآن فخرًا يشهرُ
له الحومة العظمى التي لا يرومها ... عزيز ولا مولى ونصر مؤزرُ
بقاض وتلميذ وسمح مطاوع ... وهل مثل هؤلاء في الناس يُهجَرُ
فكيف لشَبُّنْ من سبيل إلى العلا ... يقارب منهم وكيف يخيرُ
وأنى لشبُّنْ من خزاعة منصبٌ ... وكيف إلى تلك القبائل يذكرُ

وأعطانَا ربّ العرش عزًّا بعنوة   على رغم أنف من له يتكبرُ
وكل عزيز فائق متكبر   إذا ما التقينا خلفنا يتقهقرُ
لنا من بحور العلم بحر غطمطم   ويُبنى له فوق المنابر منبرُ
فراركم منا لشَبٌّنْ خيانةٌ   وتصويبه عنا أعزّ وأكبرُ
فأبدت لنا الأيام ما كان خافيا   من الناس قبل فالزمان يسبّرُ

وهي طويلة تبلغ ثمانية وستين بيتا، اخترت منها ما ذكرته للاستشهاد فقط، وهو الغرض.

ومن شعره ـ وهو كثير ـ قصيدة يرد فيها على أفراد من بعض القبائل ممن يطعن في الأنصار:

يا مَنْ يُنَدِّدُ بالأنصار من أُمَمِ   خُذْ ما أُبَيِّنُ من حُكْمٍ ومن حِكَمِ
تقدمتكم رجال في عداوتنا   فلم ينالوا سوى كدٍ مع الندمِ
لحنتم نخبة الأنصار من حسدٍ   بلا دليل من الأصلين منصدمِ
سلالة الأوس والنجار نسبتهم   حازوا العلوم وحازوا السبق في القدم
حازوا المعارف مع دين ومع سنن   مع التزين بالأخلاق والشيمِ
أصل الشريعة بدْءًا من عنايتهم   وبيعة المصطفى في السر والذمم
وجاهدوا الكافرين بالسيوف إلى   أن استكانوا لخير الخلق كلهمِ
بل ذاك حرفتنا بدءا بلا ملل   فكيف ينكرنا بُوهٌ من العَجَمِ
ظننتمُ أننا فنَتْ مشايخنا   لم يبق منهم سوى حفالة الرمم
هَيْهاتَ قد بَقِيتْ منا بقيةُ مَنْ   أردى به الله كُفْرَ العُرْبِ والعجمِ

وهي طويلة، وما أوردته مختارات منها.

توفي - رحمه الله - سنة ١٣٧٢هـ.

٤ - الشيخ محمد المعروف بـ(هَمَّا) بن حمتاهي الأنصاريّ:

نسبه: هو محمد الملقب بـ(هَمَّا) بن محمد الطاهر المعروف بـ(حمتاهي) بن سِيدِي محمد المشهور بـ(سِيدِي) بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين الملقب (ابِّينْ) بن الشيخ عبد الله المعروف بـ(الحاج بلَّهْ) بن الشيخ محمد قطب المشهور بـ(قطب) بن الإمام العلامة محمد بن الشيخ محمد المختار المشهور بـ(إنْفا) الأنصاريّ الأزَوادِي التنبتكي، ولد - رحمه الله - حوالي سنة ١٣٢٧هـ في بلاد تنبتكو بأزوادْ في الصحراء الكبرى بإفريقيا، وهو أكبر إخوته، وأمه لَالَّهْ بنت محمد الملقب حَوَّدْ بن محمد الملقب (بُوحَيْدَهْ) بن محمد المختار الملقب (بَقُّولِي) بن أبي بكر بن الشيخ عبد الله الملقب (الحاج بلّه).

نشأته:

نشأ الشيخ هَمَّا - رحمه الله - في كنف أبيه حمتاهي الذي كان من علية هذه القبيلة، وأدرك جزءًا من حياة جده الأمير سِيدِي - رحمه الله -، قال لي: «كنت آتي إلى جدي سيدِي وهو ضعيف قد نخره مرض السُّلّ، فأقول له أبي أبي، فيقول لي: إن لك والله أبًا لو أدركته قبل هذا الضعف» وتوفي جده سِيدِي وهو لا يزال طفلا قبل العاشرة من عمره، ولم يكن في أيامه لدى أعمامه ابن ينافسه، فكان ذلك مدعاة لاستئثاره بعنايتهم جميعًا، وحظوته

بخصوص المحبة والإحسان، وكان أعمامه من أهل الوجاهة والمنزلة والثراء، وكان أخواله أبناء حَوَّدْ بن بوحَيْدَهْ كذلك، فقد كانوا من أعيان الأسرة المتميزين في شتى المجالات السياسية والثقافية والاجتماعية.

لقد تأثر الشيخ هَمًّا بجميع هذه الظروف التي نشأ فيها، فنشأ عزيزًا مكَرَّمًا، مثقفا ثقافة عالية، وقد أدرك ثلة كثيرة من أعيان هذه القبيلة فكان يجالسهم ويسمع منهم، وتأثر بمواقفهم وسيرتهم، في زمن لم يكن فيه الأنصار منقسمين، ولم تكن بينهم فوارق، ولا يفرقون بين بني فلان وعلان، وقد انعكس ذلك على شخصيته وميوله وولائه لبني إنْفا جميعا بلا تفريق.

طلبه للعلم وشيوخه:

تعلَّم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن على أعمامه وشيخه محمد المختار بن حَوَّدْ، والشيخ الحسن بن محمد المصطفى، ثم شرع في دراسة علوم اللسان والعلوم الشرعية، لدى جلَّة من علماء عصره من الأنصار، أبرزهم شيخه وخاله محمد المختار بن حَوَّدْ ـ رحمه الله ـ، وهو الذي لازمه ملازمة فائقة، حتى أخذ عنه كل جليل ودقيق، وكان كاتبه وراويته ومعينه في كل شأن من شؤونه، وصاحبه في كل رحلاته ومقاماته ومناظراته للعلماء، ومواقفه، وتأثر به في قوة الشخصية، وسعة المعلومات، والاهتمام بالعلم والمعرفة، ومحبة مجالس العلم وطلبته، فكان لا يعجبه شيء مثل مجالس العلم وأهله.

وتعلَّم على عمَّيْه المهدي ومحمد ابنَيْ سِيدِي محمد، والشيخ حمَّاتًّا بن حمتَّالْ، والشيخ محمد بن الحسن بن حمَتَّا، والشيخ الحسن بن محمد

المصطفى، وحضر كثيرًا من الدروس العلمية لدى غير هؤلاء، ولكن هؤلاء هم أبرز أساتذته.

العلوم التي دَرَسَها:

وأبرز العلوم التي درسها عليهم في بداية الطلب هي ما كان الطلبة يبدؤون به بعد القرآن، فيما جرت به العادة عندهم، وهي المقدمة الأجرومية في النحو، ثم ألفية ابن مالك، ودرس تعليق ابن بونة الشنقيطي المعروفة بـ(الاحمرار) عليها، وألفية المعاني في البيان والمعاني، ومبلغ الآمال في التصريف، ومختصر الأخضري في الفقه والسلوك، ومختصر خليل في الفقه المالكي، وصحيحَيْ البخاري ومسلم، والتفسير، ونظم مراقي السعود وشرحه للعلامة عبد الله العلوي الشنقيطي في أصول الفقه، والورقات لإمام الحرمين في الأصول أيضاً، والسُّلَّم المنَوْرِق في المنطق، ومقامات الحريري في الأدب، والمعلقات السبع، وشرح ديوان ذي الرمة، وما تيسر من سائر أشعار فحول شعراء الجاهلية وصدر الإسلام، والسيرة النبوية وكتب أيام العرب، وتاريخ الإسلام، وأخبار الأمم.

درس الشيخ جميع هذه الكتب وغيرها على أساتذته المذكورين وغيرهم، وكان شيخه الذي أخذ عنه كل شيء هو خاله العلامة محمد المختار بن حَوَّدْ، وتأثر به في سلوكه واهتمامه، وبروز شخصيته، وأسلوبه في الحديث والتعليم، وغير ذلك.

وهو مع ذلك كثير الاطلاع متنوع الثقافة، له مشاركة في فنون شتى، وقد

رأيته يهتم كثيرًا بالأدب خاصة ثم علوم القرآن، ثم الفقه والتاريخ، ويُعنى عناية فريدة بسيرة النبي ﷺ، والقصص عمومًا.

لم يكن الشيخ محمد هَمَّا بن حمتاهي ممن يهتم بجمع المال، ولم يكن ممن يحرص على الجاه والرئاسات، ولم يكن همه إلا العلم ومجالسه، وآثر الناس عنده أهل العلم، وكان لا يعجبه شيء مثل ما يعجبه العلماء وطلبة العلم.

وكان رجلا حماسيا، يحب قصص الأبطال والحروب والحماس، ويحفظها ويرويها، ويروي الأخبار ويوليها اهتمامه، ولأجل ذلك كان يؤثر الشعر الحماسي، ويُعجب بكل رجل شجاع، ويثني على أهل المروءة والنجدة، وقد أخذت عنه أكثر أخبار الأمة الأنصارية في أزواد، ولم يكن أحد مثله في روايتها وتفصيل أحداثها ومعرفة رجالها ومناسباتها.

أخلاقه وأخباره:

روى الأخبار وقصص أيام الأنصار وتاريخهم عن أبيه عن جده، وعن خاليه محمد المختار وحتَّاهِلْ ابنَيْ حَوَّدْ، وعن عمه محمد الهادي بن محمد، وعن الطاهر بن طيفورْ، والعلامة الشيخ عثمان بن إنْغلالَنْ ـ المتقدم ترجمته ـ وإِينَدِّرْفِي بن حمَّدَا، وخَلْقٍ كثيرٍ غيرِهِمْ من شيوخ عصره ورواة الأخبار من الأنصار وغيرهم.

وكان الشيخ هَمَّا ـ رحمه الله ـ شيخًا نزيهًا ثقةً عدْلا، لا يروي إلا ما يعرفه، ولا يقول إلا ما يعتقده، ولا يسند خبرًا ولا رواية إلا إلى من سمعها منه، وكان متواضعًا سهلا سمحًا، قنوعًا وَديعًا، وَصُولاً للرحم، محبا

لإخوانه، داعياً إلى الحقِّ، منكرًا للمنكر، بعيدًا عن الريب، مُجِلا لأهل العلم، موقِّرًا للكبار، غاية في الأدب، مهذب النفس، كريم الطباع، يرضى بالقليل، ويمدح عليه، ويعطي الجزيل، ويقلّ له مثيل.

شِعْرُه:

كان ـ رحمه الله ـ يحب الشعر ويرويه ويحفظه، ولا يمل من قراءته وسماعه، ويؤثره على كل شيء سوى كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، ولم يكن شاعرًا، وإن كان قد يقول شعرًا كما هو عادة عامة العرب، وذكر لي أن شيخه محمد المختار بن حَوَّدْ كان يشجعه على الإنشاد في أيام شبابه، قال: فلم أكن أهتم بذلك كثيرًا، قال فلما زرت إخواننا القاطنين غربي البلاد أحببت بعد رجوعي من عندهم أن أبعث لهم شيئًا من الثناء في أبيات من الشعر، لأن الأنصار عامة لا يعجبهم شيء كالشعر، قال فأنشدت فيهم القصيدة التالية:

بلِّغْ سلامي إلى أبناء أبْرارِ جَنْبَيْ تَرِيرَا إلى أهلِ بَجَقَّارِ(١)
فَقَنْشِبَنْقُو إلى وادي فَتَلْكُوبِي فتاشَرِينَ ومَنْ يأْوِي بأقطارِ(٢)
أخُصُّ مَن خصّه الحالُ بمكْرُمةٍ بدفْع ضُرٍّ ودفْع البؤس والعارِ
فصادِقٌ وابنُ اتُّو مِنْ خيارهمُ ومنهمُ حمَّلُو مِن نسل أخيارِ(٣)

(١) تَرِيرَا: جبل معروف هناك. وبَجَقَّار: سهل واسع يكتنفه جبل تريرَا على شاطئ النهر الجاري هناك.

(٢) قَنْشِبَنْقُو: مَصَبُّ ماءٍ يجري في سهل واسع، إذا نشف السهل سكن الماء. و(فتلْكوبِي) ماء بجانب مسيل قنشبنقو، وهو أضاة مليئة بالماء دائما.

(٣) ابن اتُّو: هو محمد بن اتُّو الغزَّافي، والغزّافيون من حلفاء الأنصار وأتباعهم، وينتسبون =

فـمَـوْلُـدٌ وابـنُ مـولـودٍ سـمـاحـتـهـمْ تعـمّ أرضًا ومَـنْ يأتي بأسـحـارِ
شُـمُّ الـعَـرَانـيـنِ أبـطـال ذَوُو كـرمٍ غـيوثُ جدْبٍ وهـم بـدورُ أقـمـارِ
ولا يـزالـون مـأْوًى لـلأرامِـل والأ يتام والضيفِ والمسكينِ والجارِ
فـقـل لـهـمْ إنـني لَـمْ أنـسَـكـم أبـدًا ما دمتُ حيًّا وما دمتم لأحرارِ
ثم الصلاة على خير الورى وعلى الأ زواج والصحْب معْ جميع الاصْهارِ
والـتـابـعـيـن وتـابـعـيـهـمُ أبـدًا والسالكين ومَنْ كنجل أبرار

* * *

قال: فلما أرسلت هذه الأبيات إليهم أعجبهم ذلك، قال: فأرسلتْ إليّ امرأة منهم جَزْلَةٌ اسمها مريم بنت اتُّوتَسَا رسالة تعبر فيها عن الغيرة، وتقول لي فيها: إنك مدحت الرجال وتركتنا نحن النساء، فأنشدت القصيدة التالية فأرسلتها لهنّ:

خـلِـيـلـيَّ مـا بـالـقـلـبِ مـن ألَـمِ الـوُدِّ يُداوَى بِلَحْظٍ من تَمَرْيا ومِنْ تَنْدِي(١)
سـلام وإرسـالُ الـسـلام مـن الـبـعْـدِ دليل على صدق المحبة والعهدِ
سـلام عـلـى أطـلالِ لـيـلـى ومِـنْ فـطِّـي سلام على حَيَّيْ مَعَاسًّا ومِنْ سدِّي(٢)
سـلام عـلـى ربـوعِـهـنَّ ومَـعْـهَـدٍ سلام على الحيِّ الجميعِ إلى الْجَدِّ

= إلى العلويين. و«حمَّلُو»: هو ابن عم الصادق المذكور.

(١) تَمَرْيا: من طرق ترخيم مريم.

(٢) فَطِّي: من طرق ترخيم فاطمة. وقد ذهب لقبا عليها. و(معاسًّا) منحوت من فاطمة عائشة، مركبا. وقد يُطلق على مَن اسمها «عائشة» فقط.

أأنسى ديارًا لا أرى من أنيسها ... سوى قَرْنِ سُتْرًا أو تَرِيرًا إلى جِنْدِي(١)
أُكَفْكِفُ دمْعَ العَيْنِ مما أصابَنِي ... فلمْ أرَ حُزْنًا كاشتياقي إلى تَنْدِي
لعمري لقد كلفتني فوق همتي ... وكلفتِني رِدِّي الهواجِسَ من وُجْدِ
وبعدُ فإني قدْ رجعتُ مولِّيًا ... لِغِيدِ إِنُوشفْ آنساتِ ذوي عهْدِ
أوانِس لا ينْظرْنَ إلا بِشَزْرها ... رجالاً ولا يَهْوِينَ غيرَ ذَوي المجْدِ
فمنهنَّ زَيْنَا حُلَيْمَا ورحْمَةٌ ... أوَانس صِرْنَ في القبورِ وفي اللحْدِ
جزاهُنَّ ربُّ العرْشِ خيرَ جزائهِ ... بِهَدْيِ إمامِ المرسلين محمدِ

* * *

وحج بمعية شيخه محمد المختار بن حَوَّدْ عام ١٣٦٥هـ، قال لي أخوه القاضي محمد المولود، لما بلغني أنه قد نوى الحج أحسست بالحزن لفراقه، وكان طريق الحج آنذاك في غاية المشقة، فأرسلت له قائلاً:

ألا يا عمدتي يا ذا المعالي ... أصِدْقًا ما سمعت من الرجالِ
بأنك قد عزمتَ تريد حجًّا ... لبيت الله ذي السقف المعالي
وتتركني وراءك ذا بلاء ... أعدّ لك المنازل والليالي؟!

قال: فأجابني بقوله:

نعم يا صاحبي قُلْ ذا مقالي ... فحجي بان في همي وبالي
وقد أنويه في عزمي وجِدّي ... وفي سيري ولو بقليل مالِ

---

(١) سُتْرًا و تَرِيرًا و جِنْدِي: أسماء أماكن معروفة هناك.

وروى لنا تفصيل حجهم وأخبارهم وما حصل لهم في الطريق وفي مكة والمدينة، كل ذلك ستجده في كتابي المخصص لترجمة الشيخ محمد المختار بن حَوَّدْ، فقد فصلت فيه تلك الأحداث جميعها.

هجرته ووفاته:

هاجر إلى بلاد الحجاز عام ١٤٠٦هـ فاستقر فيها بضع عشرة سنة ثم رجع إلى بلاد أزَوادْ، ومرض حتى شُلت حركته كلها، وذهبت قوته، وقيل لنا لم يبق فيه إلا لسانه وعقله، فلم يمسسهما سوء! وهذا من عظيم فضل الله على المؤمن أن يبقى له لسانه وعقله، ومكث على ذلك بضع سنين ثم توفي -رحمه الله- وقد أربى على مائة سنة، وكانت وفاته في يوم الأحد الخامس من رجب عام ١٤٣٠هـ -رحمه الله- وغفر ذنبه.

ورثيته بالقصيدة التالية في اليوم نفسه:

١. أحَقًّا ما فشا فينا وذاعا … فصار بكل ناحيةٍ مُشاعا
٢. بأقصى الأرض من نَبَإٍ تَناهَى … إليَّ فما استطعتُ له سماعا
٣. بأنّ الشيخ هَمَّ أبا المعالي … مضى للَّحْدِ وانقطع انقطاعا
٤. وشَدَّ رحالَه عنّا وولَّى … وقال لهذه الدنيا وداعا
٥. فيا لِلَّه ما أقسى مصابي … لدى توديعنا العَلَمَ اليفاعا[1]
٦. أُجِنَّ أبو أبي بكر فآستْ … معاهده الورى تَلّاً وقاعا[2]

(١) العلم اليفاع هو الرجل الشريف الطويل، يشبه بالجبل في قوته وطوله وشموخه.

(٢) أُجِنَّ: دُفِن وغُطِيَ. آست: أحزنت. والتل ضد القاع، أي المرتفع منها والمنخفض.

٧. بـلاقـع مـن رسـوم خـالـيـات يـحـاذر مـن أتـاهـا أن يُـراعـا
٨. عـهـدنـاهـا نـواديَ عـامـراتٍ فحالَ الأمر وانتُقِع انتقاعا[1]
٩. كـذا الـدنيـا تَـقـلـبُـهـا عـجـيـبٌ تُـمَـنِّـيـنـا وتـخـدعـنـا خـداعـا
١٠. تَـلَـوَّن كـالأفـاعـيَ والـسـعـالـى قد امتنع البقاء بها امتناعا[2]
١١. ألـم تـروا الـخـطـوب لـهـا سـبـاق مـع الأيـام تـتـسـع اتـسـاعـا
١٢. خَـلَـت دارُ الأحـبـة مـن أنـيـسٍ متـى تـرَهـا تَـضِـقْ ذَرْعـا وبـاعـا
١٣. غَـدتْ طَـلَـلا تَـعـاهـدُه الـمـنـايـا صباحَ مساءَ تجتمعُ اجتماعا
١٤. تـنـوح الـرامـسـاتُ مـع الـثـكـالـى فتنخلع القلوب لها انخلاعا[3]
١٥. وحـل بـهـا مـكـان الأُنـسِ حـزْنٌ وآلَـفَـتِ الـغـوائـلَ والـسـبـاعـا[4]
١٦. وقـفـتُ بـهـا فـألـقـيـتُ الـتـحـايـا ونـاشـدت الـنـوادي والـرِّبـاعـا
١٧. أُمَـنِّـي ضَـلَّـةً نـفـسـي جـوابـا وكيف يُجيبُ ماانصدعَ انصداعا
١٨. فـلا والـلـه مـا أسـمـعـتُ حـيًّـا ومَنْ ذا يُسمِعُ الصُّمَّ التِّلاعا[5]
١٩. ولـكـنَّ الـنـفـوس عـلـى الـتـمـنّـي مُطَبَّعَةٌ ومَنْ يَعصي الطباعا؟
٢٠. فـلـمـا أنْ مَـلَـكْـتُ جِـمـاحَ نـفـسـي عـطَـفْـتُ مُـغـادِرا تـلـك الـبـقـاعـا

---

(١) أي تغير أمرها وصارت إلى لون آخر، من شدة الحزن والأسى.

(٢) تَلَوَّن بمعنى تتلون، والسعالى جمع سعلاة وهي الغول.

(٣) الرامسات: الرياح.

(٤) الغوائل جمع غائلة، وهي الدواهي التي تغتال.

(٥) التلاع جمع تَلْعة وهي المرتفع الذي يسيل منه المياه إلى السهول والوديان.

٢١. ونـاديـتُ الأحـبـةَ : واصـبـاحـا هـلـمّـوا، كـاشـفـا لـهـم الـقـنـاعـا
٢٢. ألا قـد جـاءنـا خَـطْـبٌ جـلـيـل فـقـولـوا حـسـبـنـا الله اتـبـاعـا
٢٣. رُزِئْـنـا عـالـمـا سَـمْـحـا رفـيـقـا وراوِيَـةً ودَاعـيَـةً شـجـاعـا
٢٤. نـصـيـحـا آمِرًا بـالـعُـرْفِ جـهـرا نَـكـيـرًا لـلـمـنـاكـر مـا اسـتـطـاعـا
٢٥. رفـيـق الـدرس لا يـثـنـيـه شـيءٌ عـن الأسـفـارِ يَـطَّـلِـعُ اطِّـلاعـا
٢٦. مـحـبـا لـلـعـلـوم وطـالـبـيـهـا ومـحـمـود الـشـمـائـل لا نـزاعـا
٢٧. كـريـمـا هـمُّـه كـسـبُ الـمـعـالـي بـمـحـمـود الـفـعـال سـمـا ارتـفـاعـا
٢٨. إذا مـا جـئـتَ سـاحـتـه بـيـومٍ رأيـت الـعـلـم مـنـبـعـثـا شـعـاعـا
٢٩. عـلـى ابـن الـعَـمِّ لا يـخـفـي لِـغِـلٍّ ولـيـس كـمَـنْ يُـداهـنُـه اصـطـنـاعـا
٣٠. ولـكـن دأبـه صـبـر ولِـيـنٌ وقـولُ الـحـقِّ لا يـخـشى صـراعـا
٣١. ولـم يـكُ هـمـه قِـيـلاً وقـالاً ومـا قـد هـمَّ أقـوامـا رَعـاعـا
٣٢. يـذود عـن الـقـبـيـلـة مَـنْ جـفـاهـا يـدافـع عـن عـقـيـدتـه دفـاعـا
٣٣. بـكـتـه مـجـالـس الـعـلـمـاء شـرقـا وغـرْبـا وانـتَـعَـوْا حُـزْنـا سـراعـا[1]
٣٤. دواويـنُ الـعـلـوم بـكـتْـه شَـجـوًا وهـاجَ بـكـاءُ مِـحْـبَـرَةٍ يَـراعـا[2]
٣٥. تـقـدمـه إلـى حـوض الـمـنـايـا مـن الـعـلـمـاء جـمـعٌ قـد تَـداعـى
٣٦. فـلا لـوم عـلـى الـتـلـمـيـذ يـومـا إذا مـا بـات بـعـدهـم مـضـاعـا
٣٧. ألـم تـر أنَّ عـارض مـا تـمَـنَّـى قـد انـقـشـعـتْ غـمـامـتـه انـقـشـاعـا

(١) انتعوا: تنادوا بالنعي. ونعى بعضهم بعضاً.

(٢) الشجو: الهم والحزن، والمِحبرة: الدواة، واليراع: القلم.

٣٨. إذا جاء القضا يُزجي المنايا فلا يُجدي الدواءُ ولا رقاعا(١)

٣٩. فصبرا يا أبا بكر وصَبْرًا أبا حفصٍ بَلِ اتَّدِعا اتداعا(٢)

٤٠. فلا جزع يفيد المرءَ شيئاً على قَدَرٍ إذا اندفع اندفاعا (٣)

٤١. فإن أباكما قد عاش قرنا يسبح للإله فلن يُضاعا

٤٢. جزاه الله عنا كل خيرٍ ومتَّعَهُ بجنته متاعا

٤٣. ونَعّمه بأعلى الخلدِ فَضْلاً وصَيَّرَ قبرَه رَوْضا شِراعا(٤)

٤٤. إلهي فارْضَ عنه وكنْ حليما عليه كما وعدتَ لمن أطاعا

* * *

ورثاه أخونا الأديب اللَّوْذَعِيّ النبيه الشاعر عبد الواحد بن محمد بن محمد الصالح بن محمد المصطفى (مَمُّو) بن محمد عالي بن محمد الأمين (ابِّينْ) بالقصيدة التالية:

أمسيتَ يا طيب الأثواب مجدولا مغيّباً في تراب اللحد معزولا

فما الضحى بعدما غادرت مبتهجاً وما المساءُ على لقياكَ مسدولا

---

(١) كلمة (لا رقاعا) لا النافية للجنس مع اسمها، وليست كلمة (الرقاع) معطوفة على ما قبلها، والمعنى: ولا رقاع تجدي، فهو من عطف الجمل. وهذا أحد الأوجه القوية الواردة في مثل هذا التركيب، وقرئ به في القرآن قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ من سورة البقرة. ومعنى (يُزجي): يسوق.

(٢) أبو بكر وأبو حفص ابنا الشيخ هَمَّا ـ رحمه الله ـ، و(اتَّدِعا) أمر من اتَّدَعَ إذا سكن وهدأ واطمأنَّ.

(٣) أي إذا جاء مندفعا فلا يرده شيء.

(٤) الروض الشراع هو المورود لكثرة مائه وكَلَئِهِ وخيراته. ومنه الشريعة.

نكّستَ راية مجد كنت رافعَها قرناً بكفك فازدادت بهاطولا
فكلَّ رمحٍ تركتَ اليومَ منكسراً وكلَّ سيفٍ تركتَ اليوم مفلولا
وكلُّ بيت من الأنصارِ بات له دمٌ على الدهرِ يبقى الدهرَمطلولا
أبكيتَ بعدك يُتماً كل آنسةٍ جادت عليكَ بطرفٍ سال مكجولا
حتى العصافير من أعشاشها فزعتْ لما رأتك على الأكتاف محمولا
أبكيك للعلم يا من لست كاتمَه وللمآثر أبكي نفسَك الطولى
يا من صمدتَ لقول الحق فاندحرتْ كتائبُ الزور حتى ارتدّ مخذولا
خطّتْ يمينك خطاً فاستقام به ميلُ الرواةِ فما ينفكّ معدولا
لئن رحلتَ فقد خلّفتَ منصلتاً يبقى على هامة البهتانِ مسلولا
فما الحروف التي سطرتها عبثاً وما الكتاب إذا ما مِتَ مقتولا
ولم يزل طيبك المبثوثُ منتشراً كأنما انداحَ في الأنسام محفولا
لو كان للموت أن يرتدّ عن أحدٍ بعد النفاذ لعادتْ روحُك الأولى
إلا النبي وإخواناً له سبقوا بالصالحاتِ وما خلّوكَ مجهولا
فما رأيناك بالأحقاد مضطغناً ولا بغير الرضا والبشر مشمولا
أتعبتَ بعدك أقواماً إذا نطقوا لم يعرف الناسُ قولاً كان مفعولا
وعاب صدقَك فيهم أنهم كذبوا وجئتَ بالصدق عند الله مقبولا
فارحل فما أنت إلا صوب غاديةٍ سقى السباخَ وظل القفرُ ممحولا
وارحل فرضوان ربي خير مرتفَقٍ للراحلين وإن ظنوه مرذول

٥/ ٨/ ١٤٣٠هـ

خلَّف الشيخ محمد همَّا ابنين هما : أبو بكر ، وهو كبير أبنائه وبه يُكنى ، وعُمر ، وكلاهما من طلبة العلم ، ومن خيار رجال هذه القبيلة ، ولهما ذرية ، وترك أربع بنات لكل واحدة منهن ذرية في الأنصار.

* * *

٥- محمد الملقب (إِنْتَحمَّدِينْ) بن المنذر بن إبراهيم:

نسبه:

هو شيخنا الفقيه محمد المعروف بـ(إِينْ تَحمَّدِينْ) بن المنذر بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين(ابِّينْ) بن عبد الله (الحاج بلَّهْ) بن قطب بن محمد بن محمد المختار(إِنْفا) الأنصاري النتبتكي الأزوادي. وأمه بنت عم أبيه : تِيمَمَّا ـ بتاء مكسورة وميمين مفتوحتين ثانيتهما مشددة ـ بنت محمد الهادي بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين(ابِّينْ).

نشأته وشيوخه الذين درس عليهم:

نشأ في كنف أبيه وأعمامه تنشئة أمثاله ، وتعلم مبادئ العلوم مبكرًا على أعمامه ، بعد حفظ القرآن الكريم ، ثم شرع في دراسة العلوم الشرعية واللغة العربية ، حتى نال فيها حظا وافرًا ، وأحب مجالس العلم ، وشُغف بالمطالعة ، فلم يكن همه إلا كتابه ودرسه ، وتنقل بين علماء عصره فأخذ عنهم ما أمكنه ، وأبرز من أخذ عنهم :

عمه العلامة عبد العزيز بن إبراهيم ، والشيخ حمَّاتَّا بن حمتَّالْ ، والعلامة

الفهامة العلَم محمد المختار بن حَوَّدْ، والشيخ محمد بن سِيدي، والشيخ المهدي بن سِيدِي، ذكر لي أنه درس عليه رسم المصحف، وشرْح المكودي على ألفية ابن مالك. والشيخ الحسن بن محمد المصطفى، والشيخ محمد (دَوِّي) بن محمد الأمين(ابّلَلْ) وهو ابن عمته.

نعوته وأخلاقه وشيء من سيرته:

وكان ـ رحمه الله ـ يحفظ القرآن ويتقنه، وله وِرد فيه يقيم به ليله، وله مشاركة جيدة في سائر العلوم الشرعية واللغة العربية، ويتميز بكثرة الاطلاع والكتابة، وخطه غاية في الحسن والبراعة، ولا يمل من القراءة والكتابة، يحب العلم ومجالسه، وقد نسخ جمعًا كثيرا من الكتب والرسائل العلمية والإخوانيات والأشعاروالمنظومات، ويحفظ منها الكثير، وحياته كلها حياة علمية.

لم يكن الشيخ إنتحمدين ـ رحمه الله ـ ممن يحرص على جمع المال، ولا ممن يبحث عن الجاه والسمعة، بل كان صاحب قناعة وعفاف، و رضًا وكفاف، إذا جاءه شيء من المال أنفقه على نفسه وأهله من غير أن يدخر منه شيئًا، وليس ممن يكترث بالمظاهر والشارات، بل كان رجل علم حقًا في تواضعه ووقاره، كان رث الهيئة خفيف الجسم، يظهر عليه مظهر الفقراء والمساكين، وليس في بيته شيء يلفت نظر الداخل فيه إلا كتبه، وكان مستغنياً بما يأتيه من هدايا وهِباتٍ من معارفه وإخوانه وجيرانه وطلابه ومحبيه، فقد كان محترَماً ومحبوباً لدى الناس لتواضعه وعلمه ووقاره وحسن

سمته، وقناعته وسماحته.

حج عام ١٣٧٩هـ ثم عاد بعد ذلك إلى بلاد المغرب، ثم هاجر إلى السعودية مع طوائف من القبيلة، فوصل إلى السعودية سنة ١٣٩٩هـ واستمر على النمط السابق نفسه في حياته، وزاد نشاطه في الكتابة والقراءة والتأليف، وقد مكث بضع سنين يؤم مسجدًا جامعًا في قرية من قرى نجد يقال لها «الفُرَيدَة» غربي منطقة حلبان، ثم انتقل في آخر حياته إلى المدينة المنورة فقطنها.

آثاره:

كان الشيخ إنتحمدين ـ رحمه الله ـ من أنشط الناس في الكتابة، وأكثرهم نسخًا للكتب والمقالات، ولكنه قليل التأليف، ومن عادته أنه إذا كتب شيئًا تركه للناس يأخذونه، وقل أن يحتفظ منه بنسخة، وقد سألتُ أبناءَه عن بعض الكتب التي أعلم أنه ألَّفها، فذكروا لي أنهم لم يظفروا بشيء منها، أما أهم ما أعلمه مما ألفه فهو ما يلي:

١. كشف الستار في استخراج خبْء الباطنية والمتصوفة الحلولية المدفون في كتاب «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» للحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، المشتهر بنظام النيسابوري. مهد له بالكلام على تحريم تأويل القرآن، والكلام على الحلول والاتحاد، وما ورد من كلام الأئمة في التنبيه على خطر هؤلاء المتصوفة والحلولية، وما يجب من تنزيه القرآن عن أباطيلهم «ثم شرع في الجزء الأول قائلاً: «هذا وإني أبدأ بعون الله في كشف

الستار عن دفن المتصوفة الباطينية والحلولية الاتحادية وترهاتهم وخزعبلاتهم المدسوسة في كتاب (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، طلبا للأجر وغيرة لكتاب الله، ودفاعًا حسب استطاعتي، أن يبدل أو يغير أو يحرف أو يزاد فيه ما ليس منه» وعندي صورة من الجزء الأول منه، وتقع في ست وثمانين صفحة بخط يده، وهو كاتب بارع ـ كما قدمت ـ ولاأدري هل أتمه؟ وكم جزءًا أوصله؟

٢. كتاب في علوم القرآن وطرق تحزيبه وتعشيره وتسمية سوره وآياته وأجزائه . . .

٣. منظومة في تاريخ الأنصار.

٤. منظومة في علوم القرآن. وهو نظم لكتابه المتقدم ذكره في علوم القرآن.

٥. سلاسل الأنصار التنبتكيين بني محمد المختارإِنْفَا.

٦. «التقوى» في القرآن.

٧. رسالة في الصدقات. وعندي أوراق منها، وهي من أقدم ما كتبه.

٨. وحدثني ابنه عبد الله أنه كتب مصحفا بيده وأعطاه أحد بني عمه. ولا غرو فقد كان الشيخ محمد(إنتحمدين) ذا خط جميل، له في الخط ذوق خاص، وتأنيق فريد، ولا يمل من الكتابة، فلا تكاد تجده إلا وهو يكتب ويخطط. ـ رحمه الله ـ.

وفاته:

لم يبرح الشيخ إنْتحمَّدِينْ المدينة المنورة بعد انتقاله إليها إلى أن توفي بها عن عمر يناهز التسعين، يوم الخميس الرابع من رمضان لعام ألف وأربعمائة وتسعة وعشرين من الهجرة النبوية، وصُلِّي عليه بعد صلاة الفجر من يوم الجمعة في المسجد النبويّ بالمدينة المنورة، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وقد زرته قبل وفاته بسبعة أيام فألفيته عظمًا بلا لحم، لا يستطيع أن يتكلم بكلمة، ومعه شيء من الوعي، أتيته بعد صلاة العصر، وهو مسجى على فراشه، فشخص إليّ بصره ومدَّ إليّ يدَه، فأخذ بيدي بعد أن وضعتُ كفي في كفه فجعل كأنه يحاول هزَّها، وحاول أن يتكلم فلم يقدر، فقلت له: أتعرفني؟ فحرك رأسه كأنه يقول نعم، ومعه في تلك الساعة ابنه سليمان، وهو أصغر أبنائه، وهو الذي يلازمه ويتولى أمره، وهو من طلبة العلم الأخيار، فوصيته بمكتبة الشيخ وما فيها من كتب ومخطوطات، حين رأيت أن الشيخ قد انتهى، واليأس من حياته أقرب من رجائها، فوعدني سليمان أن يهتم بذلك، وهو من خيرة شبابنا المرجو فيهم الخير، أسأل الله أن يبارك فيه وفي إخوانه، وأن يتغمد الشيخ برحمته ورضوانه، وأن يلحقه بالصالحين من أمة محمد ﷺ.

وخلف أبناءً هم: محمد، وعبد القادر، وعبد الله، وأبوبكر، وسليمان. وثلاث بنات. ولكل واحد منهم ذرية ماعدا أبا بكر.

الفصل الربع

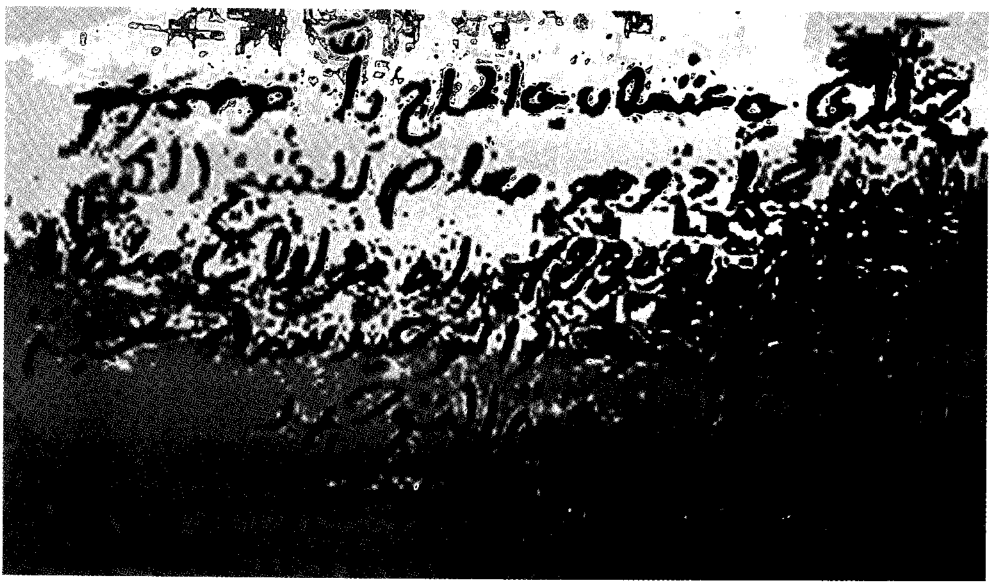
نماذج من المخطوطات


إلى الأمين ابن أحمد بن محمد بن أحمد المجتمع
وتاريخ خط محمد المختار المذكور بعام سبعة وستين وثلاثمائة وألف
وأما تاريخ خط محمد بن محمد بن محمد قطب بعام ثمانية وخمسين ومائة
وألف من الهجرة وأما تاريخ خط علي ابن النجيب بعام ألف ومائة
واثنين وعشرين من الهجرة
وهذا ما وجدناه مكتوبا بنقل خلف عن سلف

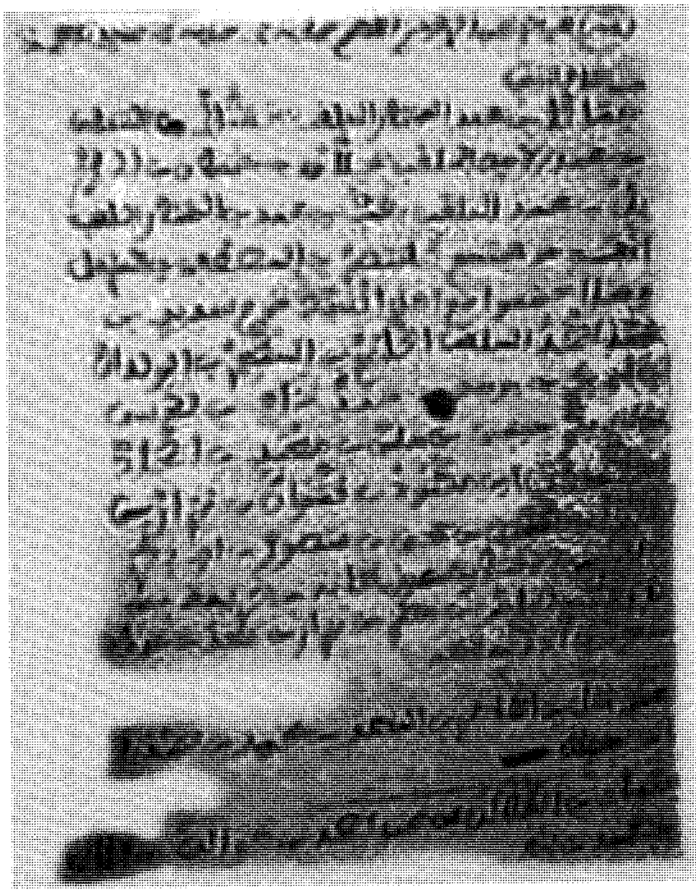
فصل في خروج الأنصار من المدينة

وأما خروج الأنصار من المدينة وافتراقهم منها وتفرقهم في ديارهم
وغيرها فكان ذلك بعد رجوعهم مع أميرهم عمرو بن العاص بعد
فتح مصر وهروب المقوقس إلى الإسكندرية وبعد رجوعهم
مع الأمير عبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد صلح النوبة في بلاد
النيل وبعد صلح عبد الله بن الحجاج مع البجة فلما رجعت الجيوش
بعد فتح ما في بحر من المغرب وهربت منهم البرابر من الشام
إلى الجيوش فلما وقعت الفتن بينهم في المدينة إلى أن سكنت
الفتنة في أيام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما
وهكذا إلى وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فعادت
الفتن ونشأت الزلازل في أيام البلاء على المسلمين يزيد بن
معاوية وهكذا إلى وفاة يزيد [illegible] وعاش
من بعدهما ولاية الوليد بن عبد الملك [illegible] مروان بن الحكم
منهم كان سبب خروج الأنصار من ديارهم وأموالهم إذ
حكموا السيف في من بقي منهم بعد وقعة الحرة ثلاثة أيام

يظهر في الوسط بداية الصفحة الأولى من كتاب «الرحلة» المتضمن لسلسلة الأنصار الأزواديين ومراحل انتقالهم من المدينة المنورة إلى أن استقر آخرهم في صحراء أزواد بالمغرب، بعد أن عاش بعض أجيالهم في مصر ثم ليبيا ثم الأندلس ثم فاس بالمغرب، ويظهر من أعلى الورقة فوق العنوان نهاية السلسلة وتوثيقها من مصادرها الأصلية، وهذه النسخة من أقدم نسخ هذا المخطوط.



مخطوط فيه ترجمة موجزة للشيخ محمد الأمين الملقب «حلَّاي» الأنصاري المتوفى ١٢٣٠هـ.



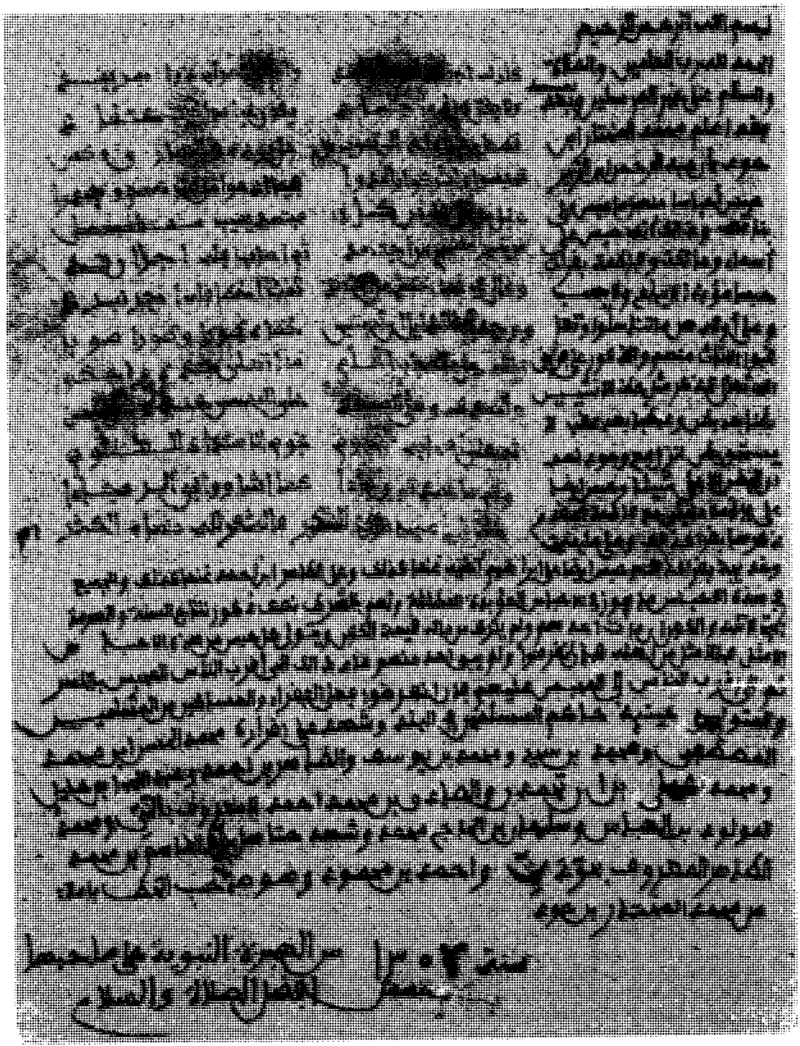
مخطوط يتضمن ما يلي :

١ـ سلسلة آباء الشيخ محمد الطاهر الملقب حمَّاتًّا بن محمد المختار الملقب حمتَّال بن الصادق بن محمد الأمين الملقب حلَّاي . . . . إلى نهاية سلسلة آباء الأنصار الأزواديين.

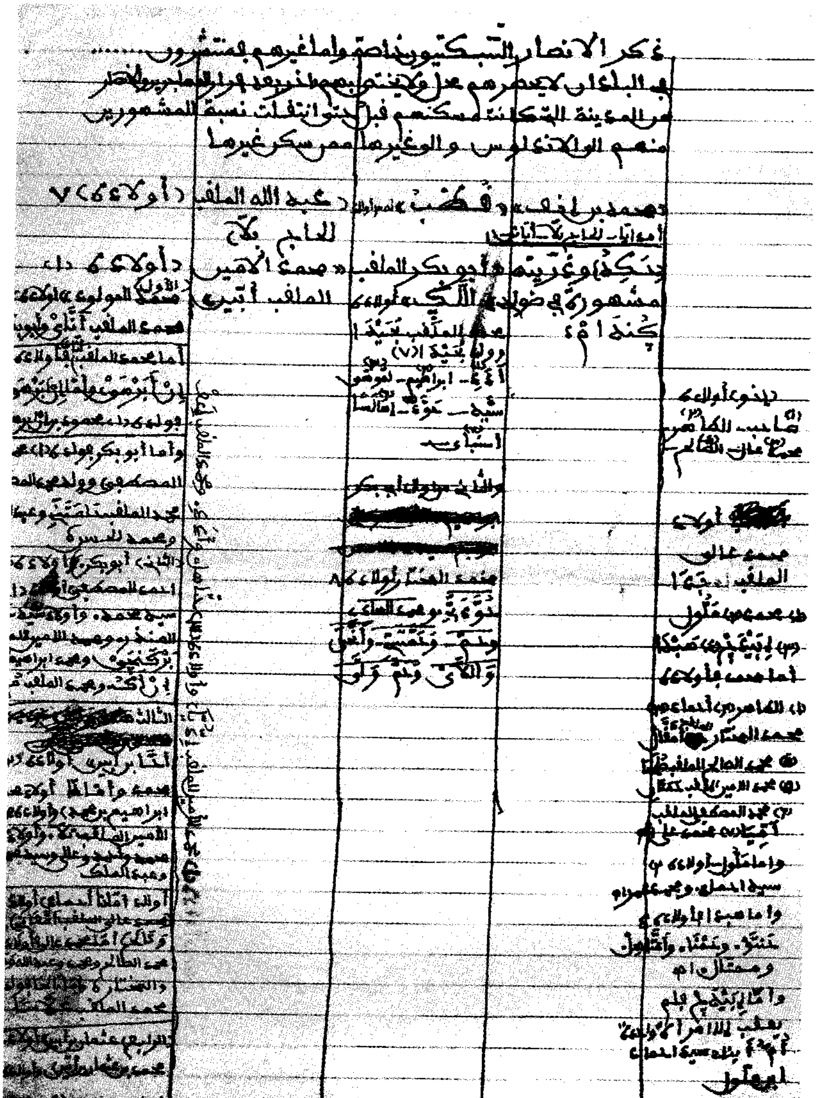
٢ـ سلسلة آباء محمد علي بن الطاهر بن المهدي بن محمد بن حبْدًا بن حمّادًا .

٣ـ سلسلة آباء الشيخ عثمان بن إنْغَلالَنْ بن محمد أحمد بن حَوالَنْ .إلخ.

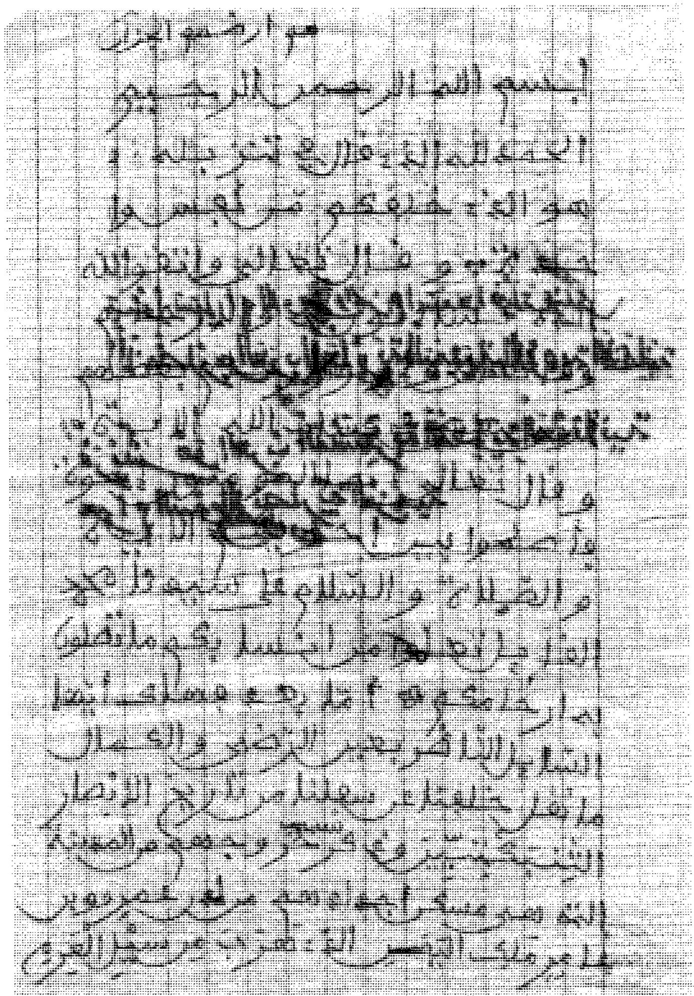
وهذا المخطوط متضمن للخطإ الذي نبهنا من قبل أنه موجود في بعض النسخ الشاذة عن سائر نسخ تاريخ هذه الأسرة، وواضح بكل جلاء أن كاتب هذه السلسلة غير أنصاري، ومن أوضح الأدلة على ذلك وصله لسلسلة الأنصار بسلسلة بني كنانة بن خزيمة . . . . . .إلى معد بن عدنان! وكذلك الخط ليس بالخط الذي يكتب به الأنصار الأزواديون، فهذا الخط مشرقي وليس مغربياً، وليس كوفيا، والأنصار الأزواديون يكتبون بالخط المغربي الكوفي المشهور. والدليل الثالث: أنه قال: محمد الملقب قطب بن المختار الملقب إنفا ـ وهو مجتمع كلنتصر بن المصطفى بن المزمل . . . . .إلى آخر السلسلة. وهذه العبارات ليست من عبارات الأنصار، فإن الأنصار لا يكتبون (المختار) لجدهم محمد المختار إنفًا، ولا يكتبون في سلاسلهم «كلنتصر» - وهو المصطلح الذي يعنى «الأنصار» بلغة الطوارق، بل يكتبون «الأنصار» في جميع ما وجدناه من كتاباتهم إلا ماندر مما ليس من سلاسل النسب. فهذا يدل دلالة واضحة على أن صاحب الكتاب غير أنصاري، ولا علم له بحقيقة هذه السلسلة، أو أنه من زمرة أصحاب محاولات تحريف نسب هذه الأسرة والتشويش عليه. والدليل الرابع أن هذا النوع من نسخ مخطوط نسب الأنصار الأزواديين وُجد مؤخرًا في أواسط القرن الرابع عشر الهجري، وكل نسخ المخطوط التي قبل ذلك خالية من هذا الخطأ، وكلها تنتهي بـ(يحيى بن منصور بن أبي بكر الأنصاري وفي بعضها: العربي الأنصاري . .انظر ص ٨٧ فيما تقدم.



فتوى فقهية تتضمن شهادة الشيخ محمد المختار بن حوَّدْ ـ رحمه الله ـ وفتواه في أحباس حبسها عبد الرحمن بن الزبير على جمع من أقاربه، ثم أشهد الشيخ محمد المختار بن حوّد على ذلك جمعا من الأنصار المكتوبة أسماؤهم في الكتاب، مع صاحب الخط وهو أحمد بن محمود وكان ذلك في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة وألف من الهجرة.



جزء من مخطوط تاريخ الأنصار التنبتكيين (الأزواديين) وسلسلة آبائهم بخط الشيخ محمد (إنتحمدين) بن المنذر بن إبراهيم بن محمد بن عثمان بن محمد الأمين بن عبد الله بن محمد قطب بن محمد بن محمد المختار (إنفَا) الأنصاري ـ رحمه الله ـ.



جزء من مقدمة مخطوط تاريخ الأنصار التنبتكيين (الأزواديين) بخط الشيخ محمد(قُوَّا) بن الفقِّي بن محمد عالي بن محمد الأمين بن عبد الله بن محمد قطب بن محمد بن محمد المختار (إنْفا) الأنصاري ـ رحمه الله ـ كتبها سنة **١٣٨٣**هـ كما نص على ذلك في آخرها، ويظهر من خلفه أثر القلم الأحمر الذي كتب به بقية هذه المقدمة خلف هذه الورقة، وهي تكملتها كما في الصورة التالية :

صح

عنى) سد مأرب وكانت على صفته

في أي سبإ وسكن المدينة

وأسمها حبيبة بنت حتى

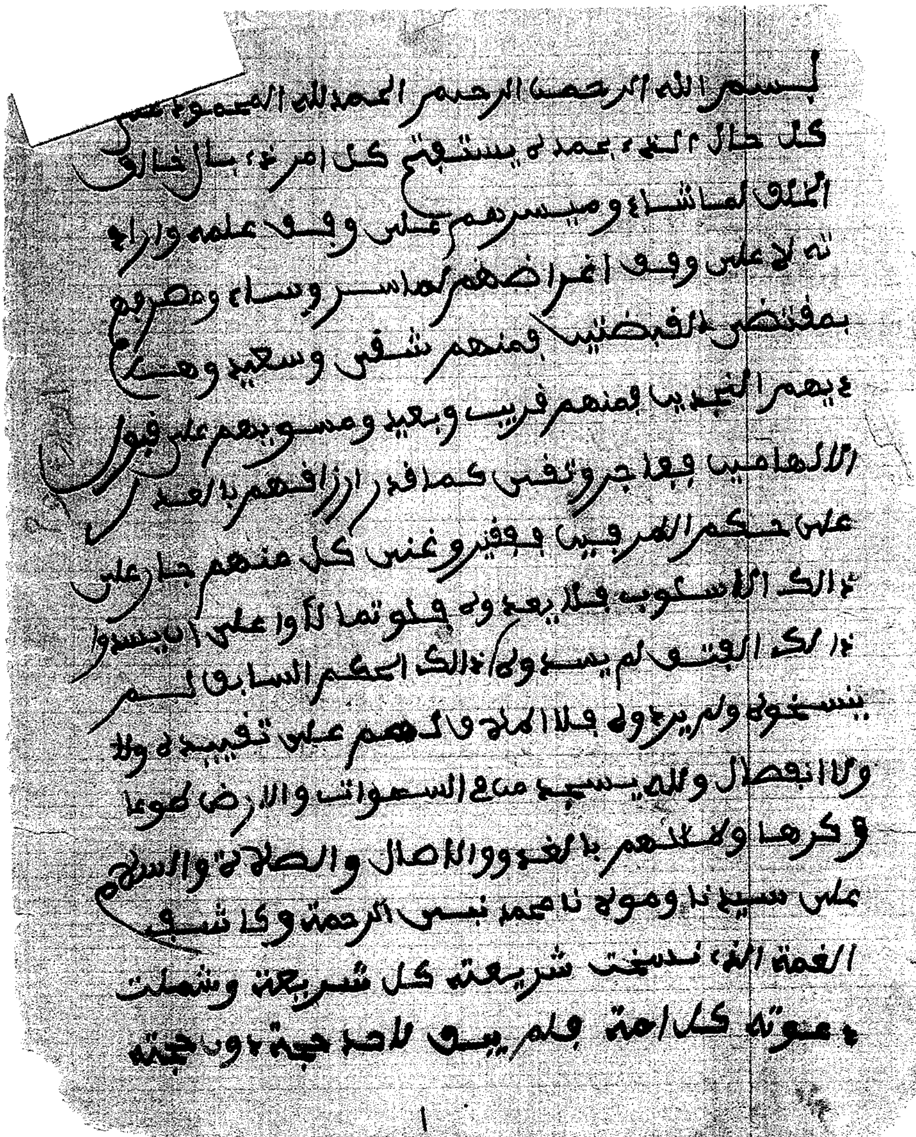
فتناسل منه الأوس والخزرج اهـ

فنسبوا قبيلتي الأوس والخزرج اسمعا قبلة بقبائل

الأنصار من العرب العاربة اليمنية الأزدية القحطانية

قريش من العرب المستعربة العدنانية لغة ثانية

من أم النبي [illegible] نصارية الخزرجية


بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المحمود على
كل حال الذي بحمده يستفتح كل امر ذي بال خالق
الخلق لما شاء وميسرهم على وفق علمه وإراد
ته لا على وفق اغراضهم لما سر وساء ومصرفهم
بمقتضى القبضتين فمنهم شقي وسعيد وهاد
يهم النجدين فمنهم قريب وبعيد ومسويهم على قبول
الالهامين بعد جري قضى كما قدر ارزاقهم بالعدل
على حكم الغريبين ففقير وغني كل منهم جار على
ذلك الاسلوب فلا يعدونه فلو تمالؤا على ان يسدوا
ذلك الفتق لم يستطيعوا ذلك الحكم السابق لسر
بينهم ولم يريدوه فلا مبدل لحكمه على تقييده ولا
ولا انفصال ولله يسجد من في السموات والارض طوعا
وكرها وظلالهم بالغدو والآصال والصلاة والسلام
على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة وكاشف
الغمة الذي نسخت شريعته كل شريعة وشملت
دعوته كل امة فلم يبق لاحد حجة ولا حجة
١

هذه الورقة والأربع التالية لها مقدمة أحد كتب العلامة الشيخ محمد المختار بن حوّد الأنصاري، مفتي قبيلة بني إتفا الأنصار في إحدى مناظراته لغلاة الصوفية القائلين بجواز رؤية الله تعالى في الدنيا، حتى زعموا أن خواصهم يرونه ـ سبحانه وتعالى عما يقولون ـ وله في مناظرتهم والرد عليهم ثلاثة كتب ، وهذه مقدمة واحد من الثلاثة:

٢٧٤ والاستفهام لعاقل لمريد سوى لا حب محبته
وجمعت تحت حكمتها كل معنى فلا تلك فلا
يسمع بعد وضعها خلاف مخالف ولا فضول محتال
بالسالك سبيلها معدود في الفرقة الناجية والنا
كب عنها مصدود الى الفراق المقصورة او
الفرق الغالية صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
الذين اهتدوا بشمسه المنيرة واقتبسوا اشارته
الايمة وانواره الواضحة وضوح الظهيرة وفرقوا
بصوارم ارايهم والسنتهم بين كل نفس فاجرة
ومبرورة وبين كل حجة بالغة وحجة مبيرة وعلى
التابعين لهم على ذلك السبيل وسائر المنتمين الى ذ
لك القبيل وسلم تسليما كثيرا

اما بعد فإنى لابد لى من مقدمة يعلم منها ان الثمرة
انما تقع بالحق لا بالباطل

مقدمة

فنقول لما انبنى الدليل على مقدمتين احديهما
تحقيق المناط والاخرى تحكم عليه الا المقدمة
الحاكمة فلابد ان تكون مسلمة ويتبين منه ان الخصمين
اما ان يتفقا على اصل يرجعان اليه ام لا فان لم يتفقا

على

٢٧٥

على شيء لم يقع بهذا لم تكن له فائدة فلما
كانت الدعوى لابد لها من دليل وكان الدليل عند
الخصم منازعا فيه فليس عنده بدليل وصار الإتيان
به عبثا لا يفيد فائدة ولا يحصل مقصودا ومقصود
المناظرة رد الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه
فإن رده بغير ما يعرفه من باب تكليف ما لا يطاق
فلابد من رجوعهما إلى دليل يعرفه الخصم السائل
معرفة الخصم المستدل وعلى ذلك دل قوله تعالى
فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول الآية
لأن الكتاب والسنة لا خلاف فيهما عند أهل الإسلام
وهما الدليل والأصل المرجوع إليه في مسائل النزاع
ونحو ذلك وقع الاحتجاج على الكفار قال الله تعالى
قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون إلى قوله قل
فأنى تسحرون إنه كذلك يحتجون على الحق بعد ما قررتم به
فما حجتكم مع الله إلها غيره وقال تعالى قال إبراهيم
فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب
فقال له فالكذب هذا ما قرر له قوله رب الله ربي فيه وبحيثهم

٣

١٢٦

فوجد الخصم مدفعا فما تنقل الى ما لا يمكنه فيه
المدفع بالمجاز ولا بما يحقيقه وهو من اوضح الادلة
فيما نحن فيه وقال [illegible] (ان مثل عيسى عند الله
كمثل آدم الاية) فاراهم البرهان بما لم [illegible]
فيه وهو آدم   وعلى هذا النحو تجد
احتجاجات القرآن فلا يؤتى فيه الا بما [illegible]
يقر الخصم بصحته شاء او ابى ام
والقول وبالله المستعين وهو نعم المولى ونعم
المعين رؤية الله جائز واقعة في الاخرة لا محالة
لقوله تعالى وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة
وقوله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة
المفسرون هي النظر الى وجهه الكريم يوم القيامة
وقوله تعالى كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون
والمفهوم ان المؤمنين غير محجوبين وهي ثابتة
عن النبي صلى الله عليه وسلم بالخبر المتواتر
من غير تحديد ولا تكييف ولا تحيز فكما هو معلوم
لا كالمعلومات كذلك هو مرئي لا كالمرئيات

سبحانه

٢٧٧

سبحانه هذه حجة اهل السنة

وفي كتاب الاعتصام رؤية الله في الآخرة جائزة اذ لا دليل في العقل يدل على انه لا رؤية الا على الوجه المعتاد عندنا اذ يمكن ان تصح الرؤية على اوجه صحيحة ليس فيها اتصال اشعة ولا مقابلة ولا تصور جهة ولا فضل جسم شفاف ولا غير ذلك والعقل لا يجزم بامتناع ذلك بديهة وهو الى القصور في النظر اميل والشرع قد جاء باثباته فلا معدل عن التصديق اهـ

واعلم ان من اكبر الجهل قياس عالم الشهادة على عالم الغيب كما يزعمه اولئك المفتونون بنظرياتهم الفكرية لما اعوزهم الاستدلال بالنصوص القطعية على رؤية الذات العلية في الدنيا تعالى الله عما ذلك علوا كبيرا نعوذ بالله من قصور الفهم وما تسليط الوهم اهـ

اما رؤية الذات العلية في الدنيا فممتنع عند اهل السنة من طريق السمع اذ قد اخبر تعالى وعلى لسان انبيائه انه لا يرى سبحانه في هذه الدنيا قال الله تعالى

الخاتمة

الحمد لله ذي الفضل والإنعام، ـ ﷻ والجلال والإكرام، الواهب الخير للأنام، الذي شرَّفَنا بالإسلام، وأكمل لنا الدين بالتمام، وشرع لنا الإحسان، ورفع بالتقوى أهل الإيمان، وصلى الله وسلم على النبي الخاتم، محمد الماحي للباطل، الآتي بأحسن الرسائل، المتحلي بأفضل الشمائل، الناسخ لما قبله من الملل والنِّحَل، وعلى آله وصحبه البررة النبل.

أما بعد: فقد أنهيت ما أردت تأليفه وجمعه في هذه الكراسة الموجزة، والرسالة الْمُنْجَزة، التي سميتها بـ(**الأَوْفَى المختار في تاريخ بني إنْفَا الأنصار**) على أن يكون هذا الجزء منها أول قسميها، وسوف يليه إن شاء الله القسم الثاني بعد حين، إن يكن في العمر بقية، واستمرت الصحة نقية.

وقد كان ما أجملته وأوجزته في هذا القسم عبارة عن مَعْلَمَيْن اثنين:

الْمَعْلَمُ الأول: تمهيد خصصته لإيضاح معالم ومبادئ يُحتاج إليها في كتابة التاريخ والأنساب وروايتهما، وصاحَبَ ذلك تنبيهات وتعقيبات على أمور طرأت في هذا الزمن عن هذا الشأن، وأردفت ذلك بحديث عام عن مبادئ وإضاءات تخص قبيلة الأنصار من الأوس والخزرج قديما وحديثا، مشفوعًا بإيضاحات وفك إشكالات قد تواجه القارئ فيما يخص تاريخ هذه القبيلة، من جهة أصولها وسلالاتها وفضائلها ومناقبها، وما يلحق آخرها مما ثبت لأولها، وأماكن انتشارها في بقاع الأرض، مع ملحوظات واستدراكات وتنبيهات تخللت هذه الفصول.

والْمَعْلَمُ الثاني: من مَعْلَمَيْ هذا الجزء تناولتُ فيه الحديث عن الأنصار من بني إنْفا الأزَواديين التنْبتكيين، ووزعت فيه الحديث بين تأصيل نسبهم، مؤكِّدًا صلتهم بأصلهم، وتفصيل الحديث عن سيرة رجالهم ومراحل وجودهم في الشرق والغرب، ثم خصصت الحديث بعد ذلك في مرحلة استقرارهم في بلاد المغرب العربي، بالشمال الإفريقي، وقد كانت هذه المرحلة أهمَّ نقطة تحوّل في تاريخ هذه الأسرة، ففيها تكوَّن كيانها الكبير القوي، وتأسست إمارتها مرتبطةً بأصل السلطة والحكم في دولة المغرب، وقد كان هذا الربط هو العمدة التي استمدت منها هذه الإمارة الأنصارية الإنفية شَرْعيتَها، وتم عليها بناء مقوماتها، ثم كانت أهمُّ مثَبِّتاتِها التي منحتها القوة والتماسك والحماية منطلقةً من منطلَقَيْنِ اثنينِ كان عليهما البناء والتأسيس:

الْمُنْطَلَق الأول: ذلك الحِلْف القبَليّ، والإلْفُ الأخَويّ، الذي كان بين الأنصار وإخوانهم من بيوتات بني هاشم في صحراء أزواد، ومن انضم وآوى إليهم من سائر قبائل المنطقة.

الْمُنْطَلَق الثاني: رفع شعار الإسلام، وإقامة الأحكام الشرعية، وعمارة البلاد بالعلم ووسائل الحياة الضرورية.

ثم ختمت هذا الجزء ببيان ما آلت إليه الأحوال بعد مجيء الاحتلال الفرنسي لبلادهم، فتوزيع البلاد بين دول السودان الإفريقية، وهو الأمر الذي حمل طوائف من هذه الأسرة الأنصارية على اختيار الهجرة من تلك البلاد، والعودة إلى الأصل القديم، مستقر أجدادهم التليد، الجزيرة العربية،

وجنحت طائفة منهم إلى البقاء في بلاد إمارة آبائهم في الشمال الإفريقي، مختارين ذلك عن الشتات والاغتراب، محاولين التمسك بآثارهم وآبارهم وديارهم، صابرين على ما آلت إليه الأمور، وقد كان ذلك كله بعد أنْ تيقن جميع من بقي ومَنْ هاجر أنهم قد أُحِيلُوا على «لاشيء» وصاروا بين جذبٍ ولَيّ! فالله المستعان وعليه التكلان.

وقد جاء هذا الحديث في هذه الرسالة استجابة لعاملين مُلِحَّين:

العامل الأول: كثرة السؤال والاختلافات التي نجمت في العصور المتأخرة عن بقايا السلالات الأنصارية المنتمية حقيقة للأوس والخزرج، وحقيقة وجودها في الأرض مع ما ورد من النصوص الْمُنْبِئة عن قلة هذا النسل البشري في الأرض، وقد كان من مظاهر هذه القلة ندرة من يَتَسمى باللقب الأنصاري ولو كان من ذريات الأنصار!! حتى صار الْمُعلِن لهذه النسبة مُعلنا لشيء غريب لا يكاد يعرفه إلا خاصة الخاصة، أما أكثر الناس فقد رأيناهم يعزُّ على المرء منهم سماع هذا اللقب ممن يتصل به إلى أنصار النبي ﷺ، ويتعجب منه ويرفضه أشد الرفض، وكأنّ الآتي به أتى بمنكر من القول في رأيه وفكره. ولو تأمل أحدهم لأدرك يقينا أن إنكاره وتعجبه هو الْمُنْكَرُ الظاهر، وهو الجدير بالرفض والرد.

العامل الثاني: الرد على مَنْ يقض مضجعَه ويكدر نفسيتَه، ويقلق حياتَه ويزعج حفيظته انتماءُ هذه الأسرة إلى الأنصار، وامتداد الأوس والخزرج بها، ومنهم مَنْ حمله على ذلك الجهلُ وقلةُ العلم والإدراك، وآخرون أُوتُوا

مِنْ قِبَل الأمراض النفسية البشرية الخبيثة، كالحسد والغِلّ والحِقد، فتكلفوا بسبب ذلك ما أرهقهم، وحمَّلوا نفوسهم ما لا طاقة لهم به، وراموا ما رماهم في أحضان غياهب الضلال، وأظهروا ما بالغباء أظهرهم، وبالضغينة وصمهم.

ولقد وشَّحتُ أطراف هذه الرسالة ورصّعتها بذكر بعض الأعلام والأعيان، معرِّجا على سير بعضهم، منبِّها على آثارهم، بنُتَفٍ من الأشعار وطرائف الأخبار، متوخيا في ذلك الإيضاح بإيجاز من البيان، والاستشهاد بما أمكن من صحيح البرهان، مكتفيا بما سمعته ورويته، أو وجدته مكتوبا فنقلته، عازيا الرواية والمقالة إلى أهلها، والنقول إلى مصادرها، محاولا الاستنتاج والتحليل والتفسير على ما يقتضيه العقل والمنطق، وتؤيده الأحوال والمقتضيات، فيما يُقبل فيه ذلك ويحتمل، دون ما لا سبيل فيه إلا بالنقل والرواية.

ولم آلُ جهدًا في التمحيص والتنقيح، والمراجعة والترجيح، والعَرْض على أهل الخبرة والتصحيح.

فجاءت هذه النشرة أساساً مؤصِّلاً لتاريخ هذه الأسرة الأنصارية الإنفية، وردًّا على من يزعم أنها عن أصلها منفية، أو أنها بتاريخها غير معنية.

والله أسألُ القبول والرضوان، وأستغفره مما وقع فيها من خطإ ونسيان، أو وهم كان من الشيطان، وما كان فيها من زلة أو نبْوَة، أو غفْلَة أو كَبْوَة، فلم أتَعمَّد إلا الصواب، ولم أرِدْ إلا الثواب، ولا أدَّعي الكمال، ولا الإحاطة بالأحوال، ولا دار لي ذلك بخيال. وحسبنا الله ونعم الوكيل، هو نعم المولى ونعم النصير، والحمد لله في الأولى والآخرة.

فهرس الموضوعات

دار الكتاب والسنة للنشر الدولي

Dar al-Kitab wa al-Sunna International Publishing House

Website: www.Darkitab.Com E-mail: info@darkitab.com darkitab@yahoo.com darkitab@hotmail.com

* من إصداراتنا باللغة العربية *

عنوان الكتاب	تجليد	مؤلف/محقق/مترجم	السعر
عقيدتنا... عقيدة القرآن والسنة	(مجلد)	د. محمد خليل هراس	٢٤
خصائص الإسلام	(مجلد)	محمد الدرويش	١٦
رمضان شهر الانتصارات	(غلاف)	عبدالكريم الدرويش	٥
موقف ولاة الأمور وعلماء المملكة عن الإرهاب	(مجلد كرتوني)	رضوان الله الرياضي	٤٠
لماذا ندافع عن السعودية؟	(غلاف)	عبد القادر السندي	٦
رسالة الحجاب في ضوء الكتاب والسنة	(غلاف)	عبد القادر السندي	٨
رفع الجنة أمام جلباب المرأة المسلمة في ضوء الكتاب والسنة	(مجلد فني)	عبد القادر السندي	٢٥
فصل الخطاب في رد مزاعم الغراب والدفاع عن ابن تيمية	(مجلد فني)	عبد القادر السندي	٣٠
علماء أهل الحديث في الهند وموقفهم من دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب والدولة السعودية	(غلاف)	أبو المكرم بن عبد الجليل	١٠
الرحيق المختوم (طبعة منقحة مع إضافات جديدة)	(مجلد فني)	صفي الرحمن المباركفوري	٣٠
غاية النفع في شرح حديث تمثيل المؤمن بخامة الزرع	(مجلد كرتوني)	ابن رجب الحنبلي/ صبري سلامة	١٦
غزوة فريدة.. ودروس عديدة	(غلاف)	فتحي الجندي	١٠
رسائل مبكية من كلام الشيخ الحسن البصري	(مجلد كرتوني)	فتحي الجندي	٢٠
رسائل موقظة من كلام الإمام ابن الجوزي	(مجلد كرتوني)	فتحي الجندي	٣٥
سبيل الرشاد إلى نفع العباد لشهاب الدين الدمنهوري	(مجلد كرتوني)	فتحي الجندي	٣٠
تهذيب روضة العقلا ونزهة الفضلاء لابن حبان	(مجلد كرتوني)	فتحي الجندي	٢٠
شذرات نحوية ولطائف معرفية	(مجلد كرتوني)	د. محمد الطواله	٣٠
سلوة الخاطر في خطب المنابر	(مجلد كرتوني)	د. محمد الطواله	٣٠
خطب المنبر: مواعظ وتوجيهات (الجزء الأول)	(غلاف)	د. محمد الطواله	١٦
خطب المنبر: مواعظ وتوجيهات (الجزء الثاني)	(غلاف)	د. محمد الطواله	٢٠
خطب المنبر: مواعظ وتوجيهات (الجزء الثالث)	(غلاف)	د. محمد الطواله	١٤
ما اشتهره وخفي أعربه	(غلاف)	د. محمد الطواله	٥
زهر الأقاحي فيمن شبه بالنبي ﷺ في ناحية من النواحي	(غلاف)	محمد أحمد العثمان	١٦
مقتطفات أفضل الأجور عند العزيز الغفور من كلام أول من يبعث من القبور ﷺ.	(غلاف)	أحمد عبيد الحماد	١
ضحك النبي ﷺ وتبسمه ومزاحه	(مجلد كرتوني)	رضوان الله الرياضي	٢٠
قصص النساء في القرآن الريم والدروس والعبر والأحكام المستفادة منها	(مجلد كرتوني)	د. محمد بن ناصر الحميد	٣٠
الوطاءة مذكرة في تسهيل علم التجويد	(مجلد كرتوني)	د. عبدالله بن محمد المهدي الأنصاري	٢٠
اللؤلؤ والمرجان في معنى ما أنزل على سبعة أحرف من القرآن	(مجلد كرتوني)	علي المطاوع	٢٥
إبطال التنديد باختصار شرح كتاب التوحيد	(مجلد فني)	إسماعيل بن سعد بن عتيق	١٨
موسكو التي شاهدتها	(غلاف)	إسماعيل بن سعد بن عتيق	٤
العذر بالجهل تحت المجهر الشرعي	(مجلد فني)	مدحت حسن الفراج	٢٥
آثار حجج التوحيد في مؤاخذة العبيد	(مجلد كرتوني)	مدحت حسن الفراج	٢٠

الديوبندية (تعريفها. عقائدها)	(مجلد كرتوني)	سيد طالب الرحمن	٢٥
عقائد علماء الديوبند	(غلاف)	سيد طالب الرحمن	٨
المذهب الشافعي نشأته، أطواره، مؤلفاته، خصائصه	(مجلد)	محمد معين البصري	٥٥
الحذر من القول بحياة الخضر	(غلاف)	محمد اللحيدان	٣
القناعة بلقب أهل السنة والجماعة	(غلاف)	محمد اللحيدان	٤
كتاب التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم	(مجلد)	محمد المقدمي/محمد اللحيدان	٢٤
أركان الإسلام والإيمان من الكتاب والسنة الصحيحة	(غلاف)	محمد زينو/بريرة بنت شبير	٦
كيف تربي ولدًا صالحًا؟	(مجلد كرتوني)	المغربي السعيد المغربي	٢٥
ولدك والتلفزيون	(غلاف)	عدنان الطرشه	١٨
جسمك والتلفزيون	(غلاف)	عدنان الطرشه	١٨
دليلك إلى المرأة	(غلاف)	عدنان الطرشه	١٨
التعري الشيطاني	(غلاف)	عدنان الطرشه	١٨
ماذا يحب الله جلّ جلاله وماذا يبغض؟	(مجلد كرتوني)	عدنان الطرشه	٢٥
تذكير الغافل بفضل النوافل	(غلاف)	عبدالله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله	٤
تحذير المسلمين عن السخرية والاستهزاء بالدين	(غلاف)	عبدالله بن جار الله بن إبراهيم الجار الله	٢
الفتاوى الاجتماعية جـ ١-٤	(غلاف)	ابن باز وابن عثيمين/د. خالد الجريسي	١٢
المزاح بين المشروع والممنوع	(غلاف)	عبد العزيز الجطيلي	٢
الشباب ولذة التعبد	(غلاف)	عادل العبد العالي	٢
التعليقات المفيدة على الكتب العديدة	(غلاف)	أبو الأشبال صغير أحمد	٢٠
تعظيم الحرم: دراسة تعتمد على نصوص من التوراة والإنجيل والقرآن	(غلاف)	د. محمد بن عبد الله السحيم	١٠
بستان الواعظين ورياض السامعين لابن الجوزي	(مجلد)	منصور بن حسن العبد الله	٣٠
هدي النبي ﷺ في وقاية الصبي	(غلاف)	أبو عبدالرحمن الرفاعي	٤
نظرية الأنظمة العامة: تطبيقاتها ودلالاتها الإسلامية	(غلاف)	د. حجو عبدالواحد طه حجو	١٠
الأوفى المختار في تاريخ بني أنفا الأنصار	(مجلد فني)	د. عبدالله بن محمد المهدي الأنصاري	٤٥

توزيع مؤسسة الجريسي الرياض هاتف: ٤٠٢٢٥٦٤ - ٠١

الأوفى المختار في تاريخ بني أنفا الأنصار

9 786030 042623

JERAISY Tel - 4022564

مطابع الحميضي هاتف: 2130130 فاكس: 4387817